

الفكر الشيعي القديم

وعبدك التائب التائب الفاضل

الدكتور جمال المرزوقي



اهداءات ٢٠٠٣

الدكتورة/هديي سعد

جامعة عين شمس - القاهرة

الفكر الشيعة القائلون

وبدأت التأمك الفلاسفة

الدكتور جمال المرزوقي

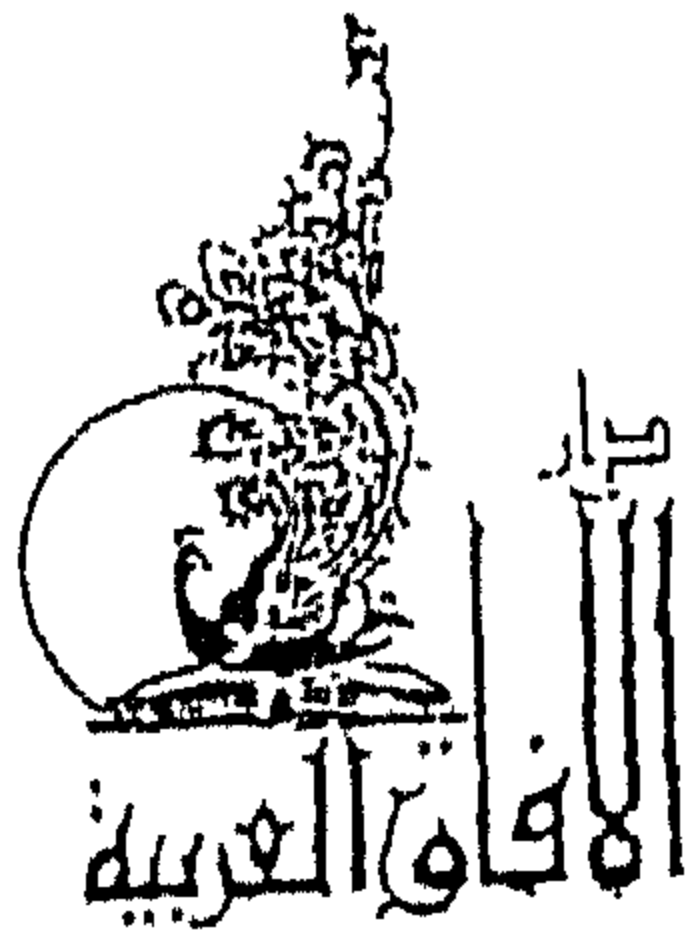


الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

حقوق الطبع محفوظة

رقم الايداع	٢٠٠٠ / ١٠٦٠٣
الترقيم الدولي	977-5727-67-7

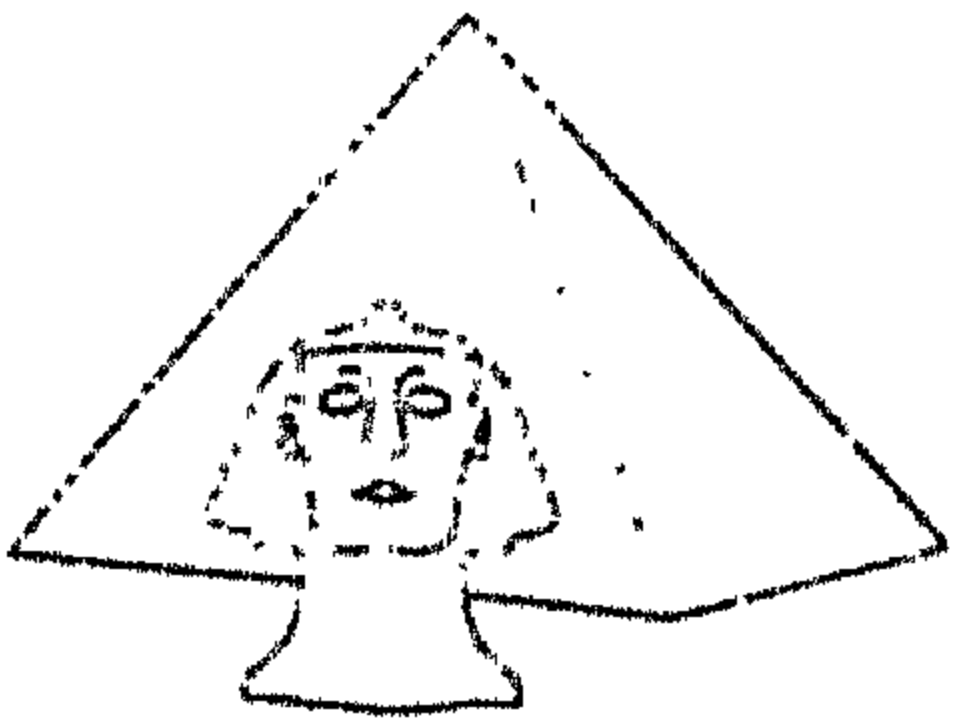


القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران

مدينة نصر - ت: ٢٦١.١٦٤

إهداء

إلى مصر
أم النبلاء والعلم
أم القيم والقمم



جمال المرزوقي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

يُشير كثير من كُتّاب الغرب إلى الحضارة الإغريقية كما لو كانت حدثاً فريداً تنضاء إلى جانبه ما قدمته كل حضارات الشرق القديم، فبينما كانت مدنات الشرق السابقة على مدينة الإغريق - في رأى هذا البعض من الكُتّاب - ذات كفاية بالغة في الأمور العملية فإنها كانت جذباء من الناحية العقلية، لقد مارس ملايين الناس الحياة وخبروها قبل الإغريق فماذا فعلوا بها؟ لا شيء، لقد ماتت خبرة كل جيل بانتهائه.

إن الإغريق هم الذين ابتكروا الأدب وأوصلوه إلى حد الكمال، إن شعر الملاحم والتاريخ والفلسفة بكل فروعها والاقتصاد والرياضيات وكثير من العلوم الطبيعية كلها تبدأ بالإغريق . وقد مال أشياع هذا الرأى تدريجياً باتجاه فكرة "المعجزة اليونانية" و "أصالة الفكر اليونانى" و "الشعاع الخاطف" في بحر من الظلمات، حتى أصبحت النظرية عند بعضهم تعنى القول بأن اليونانيين غير مدنيين في "علومهم" و "فنونهم" و "فلسفتهم"، بل "وأديانهم" لشيء شرقى، وإن كان هناك أثر ما في "الفنون" و "الفلك"، فإن القفزة التي قدمها اليونانيون في هذا المجال تلغى هذا الأثر وتلاشيته، وينتهى أصحاب الصورة المتطرفة لهذا الرأى، إلى جعل علوم وفكر اليونان الطبيعيين نتاج العقل اليونانى الخالص.

وهذا الرأى، على غلوه - أو على خطئه - له أنصار كثير في الغرب، ومن العجب أن يكون له أنصار كثير في الشرق أيضاً.

فهذا (زيلر) يرى أن الفلسفة الإغريقية ابتكار إغريقي لم يشاركهم فيه أحد، وأنا لا نجد عند الأمم التي قبلهم فلسفة بمعناها الصحيح القائم على التفكير المستقل عن الدين، وظهور الفلسفة اليونانية يعود - في رأيه - بالدرجة الأولى لمواهبهم الخاصة مثل القدرة على الفهم والقدرة على التخيل، والقدرات العقلية والانفعالية، وقد اجتمعت كلها بشكل مشرق.

وهذا (برنيت) - أحد أكبر من يدافع عن "الأصالة المطلقة" للعلم والفكر والدين اليونانى - يذهب إلى أن آراء البابليين والمصريين في تفسير خلق العالم من

المادة، آراء أسطورية، وعلومهم لم تصل إلى التنظير أو التجريد العقلي، بل هي عملية بحثية، بينما هي نظرية وعلم بحث منظر ومجرد عند اليونان.

ويقول (برتراندرسل): في كل التاريخ ليس هناك شيء أكثر إثارة للدهشة - بل ما لم يكن في الحساب - كالظهور المفاجئ للحضارة في بلاد اليونان، إن كثير من مقومات الحضارة كان قائما منذ آلاف السنين في مصر وفي بلاد ما بين النهرين، ولكن عناصر ظلت تنقص هذه الحضارات إلى أن زودها بها الإغريق، إن ما ابتكروه في المجال العقلي شيء فريد؛ لقد ابتكروا الرياضيات والعلم والفلسفة، وهم أول من كتب التاريخ، وحتى العصر الحديث مازال هناك من يتحدث عن العبقورية اليونانية كما لو كانت معجزة.

وقارئ مثل هذه الآراء لا يفوته أن يلاحظ أن أصحابها يتحدثون بلغة جد قريبة من فكرة "التفوق القائم على الجنس"، فهم يتحدثون عن تشعب اليوناني بأنه وحده الذي استطاع أن يسير أغوار الطبيعة والمجتمع ونفسه بحياء العلماء، ويرون أن مما ساعد على هذا خواص يمتاز بها العقل اليوناني مثل الإحساس القوي "بالحقيقة" والقدرة الفائقة على "التجريد"، ومكنهم هذا من تأسيس الفلسفة وقضاياها.

ولابد أننا قد ضيقنا ذرعاً بهذه اللغة "التفاخرية" التي تنضج بفكرة "الاستعلاء"، ونتطلع إلى مزيد من الأدلة المفحمة لإزالة هذه الأوهام التي طالما رددتها هذه التفوق، وأصحاب هذه اللغة التي تؤكد تعصبهم العنصري، ونرى أن الحضارة الإغريقية - وقد نشأت متأخرة عن حضارات الشرق جميعاً - قد أفادت منها، بل إن الحضارة الإغريقية طوال تاريخها تستمد من الحضارات المحاورة عناصر تراثها بفضل رحلات كبار مفكرها وبخاصة إلى مصر، فضلاً عن رحلات الأجانب إليهم، يقول هيجل:

إن الأصول الأولى للحضارة الإغريقية كانت مرتبطة بقدم الأجانب إليها، وكان الإغريق يشعرون تجاههم بشيء من الامتنان.⁽¹⁾

⁽¹⁾ Hegel G.W.F: The philosophy of History tran. by J.Sibree, P.228.

وبالتالي فإن الاعتقاد بأن شعباً، كاليونانيين مثلاً، قد استأثر بالبحث العقلي، والتنظير والإبداع، وأن الشعوب الأخرى نقلت عنه وتأثرت به، اعتقاد أثبت المزيد من التحري والتمحيص خطأه وتحيزه.

ويوجد كتاب لباحث أمريكي هو الأستاذ "جورج جيمز" بعنوان (التراث المسلوب: اليونانيون ليسوا واضعي الفلسفة اليونانية، ولكنهم شعب شمال أفريقية وهم المصريون، نشرته المكتبة الفلسفية بنيويورك سنة ١٩٥٤، وأعيد نشره في سان فرانسيسكو سنة ١٩٧٦) وفيه يعرض المؤلف لحياة أشهر فلاسفة اليونان، سقراط وأفلاطون وأرسطو، ويستعرض مذاهبهم، مقررًا أن الإلهيات التي كانت تدرس في منف هي أساس كل المذاهب التي تكون الفلسفة اليونانية.^(١)

ويؤكد (سارتون)، أن من السذاجة القول ببدء العلم في اليونان، ويرى أن إهمال العلم الشرقي والإطار الذي نشأ فيه، سببُ أفسد هذا العلم ومدى قيمته وجدته، ويطلق -سارتون- على تقدم اليونان الرائع في ثلاثة قرون "معجزة" تشير الإعجاب والخيرة، ولو أنه يؤكد مراراً إنه متصل بما قبله، وحتى الفلسفة فيه هي زهرة لسلسلة طويلة من جهود ليست يونانية فحسب، فهي - وكذلك الشعر الهوميرو- نهاية لا بداية.

ويناقش اشتراط التجريد ليكون العلم علماً، ويذهب إلى أنه لا حدود للتجريد، ولا أوصاف معينة محددة له حتى نقول هنا بدءاً، وإنه منذ اخترع أول إنسان أو أناس العدد واللغة كان هناك تجريد، فالإنسان منذ نطق يكون جرداً، فكل كلمة هي تجريد، وكل تجريد هو سلسلة من الممارسات العلمية الطويلة، وسلسلة من العمليات العقلية العليا، كالتحليل والتركيب، وبالتالي يتأكد خطأ ادعاءات ابتداء التنظير والعلوم النظرية مع اليونان.

وعلى العكس، فإن ما قدمه الإنسان قبل اليونان، هو كالحيط بالنسبة لما قدمه اليونان، ومن الغلط الشنيع بعد هذا أن يدعى مُدع أن العلوم بدأت،

(١) George G.M. James: stolen legacy: The Greeks were not the authors of Greek philosophy, but the people of North Africa, Commonly caled the Egyptians, San Francisco. Julian Richardson Associates publishers, 1976.

وكذلك سائر الفنون .. الخ مع اليونان، أو أن ما قدمه هؤلاء معجزة تستعصي على التفسير.

ومن الكتب الهامة والجادة التي قوضت مفهوم "المركزية الأوروبية" وأثبتت دور الحضارات القديمة (المصرية بصفة خاصة) في التأثير على الحضارة اليونانية، ومن ثم على الحضارة الأوروبية المعاصرة، كتاب "أثينا السوداء"، أى أن أثينا ليست بيضاء، بمعنى أن مصدر حضارتها ليس الغرب الآرى، بل أفريقيا السوداء، أو الشرق السامى في آسيا، لذلك وضع مؤلفة - مارتن برنال - عنواناً فرعياً "الجذور الأفريقية الآسيوية للحضارة القديمة"⁽¹⁾، والكتاب كله - في أجزائه الثلاثة - ملحمة في تاريخ مصر، وأنشودة لدورها في التاريخ، وفضلها على الحضارات الشرقية والغربية على السوداء.

والآن يبدو أن على كاهل الذين ينكرون تأثير الشرق في الحضارة اليونانية، أو يخسون قيمته، من العبء، في إقامة الدليل على رأيهم، مثل ما على كاهل خصومهم، فالذين ينكرون إمكان قيام فكر نظرى في الشرق، وتأثر اليونانيين به، يعوذهم التقدير الكافي للحضارات الشرقية القديمة وتعوذهم الخبرة بأحوال الإنسان، وكلا وجهى هذا القصور كان يمكن الإغضاء عنه منذ قرن مضى، أما اليوم فلا عذر لأصحابه.

كما أنه من الجهل تماماً أن يحذف الإنسان دور وأثر أية خدمة يقدمها الإنسان مهما كانت، أو بدت ضئيلة، في مجالات العلوم، واستكشاف الطبيعة، الحرف، والاختراعات، وشتى المجالات الأخرى، كما أنه من المبالغة وعدم الصواب تفخيم هذا الدور أو ذاك، إلى حد نسيان الأدوار التي مهدت له، أو التي تلت، كما فعل أنصار المعجزة اليونانية، كذلك فإنه من الخطر عزل الأمور بعضها عن بعض في مجال التقييم، إن أى اختراع الآلة أو تحسين لها، يتضمن عمل بشرية كاملة، ومن ذلك، كم يظهر مجانباً للعدل والموضوعية قول من تعصب للعبقرية اليونانية، عن الدور العالى الابتكارى المحض لليونان، والدور الضئيل لسائر من سبقهم، إن الخطوة الأولى التي يخطوها الطفل عند أول تعلمه المشى

(1) Martin Bernal: Black Athena, The Afroasiatic roots of classical civilization, Rutgers University press. New Brunswick, New Jersey, U.S.A, Vol.1, 1785 - 1985, 1987, Vol.2, 1991, Vol.3, In print.

ليست أصغر ولا أبطأ ولا أقل أهمية ودلالة على القدرة، من عدوه السريع فيما بعد إلا بمنظار انغزالي جامد ومتعصب.

ونتيجة لما تقدم، نستطيع أن نقول:

إن فلاسفة اليونان ليسوا أول من بدأ الفلسفة والعلم والتجريد أو التنظير، فإنه ليس هناك وقت ولا مكان، يمكن أن يقال إنه فيهما أو معهما بدأ العلم والتفكير والتعميم، فلم يعد مقبولا الرأي القائل بأصالة الفكر اليوناني، وبأن من سبقهم لم يصلوا إلا إلى طور العلم العملي فقط، ويقوى من عدم القبول هذا، ما قدمته حضارات الشرق القديمة من إنجازات في مجال العلم والمجالات الأخرى، قبل اليونان بوقت طويل.

إن البحث الموضوعي الهادئ، يؤدي إلى الاعتراف بوجود "قفزة" أو تبديل كيني في مسار الحضارة البشرية، حصل مع مجيء الحضارة اليونانية، إلا أنه تبديل حدث من تجمع كمى هو حصيلة ما كسبته البشرية من تقدم قبل اليونان.

وهذا الكتاب (الفكر الشرقي وبدايات التأمل الفلسفي) محاولة تؤكد هذا على تلك النتيجة التي انتهينا إليها، وهو -الكتاب- يشمل عشر فصول،

- ناقشنا في الأول منها (الأصالة الشرقية) بين الإنكار والتأييد، وانتهينا فيه إلى أن مدارس الفكر الأوروبي العنصرية التي زعمت تفوق الجنس الآري الأبيض، لا تستند إلى حقيقة من التاريخ، وإنما تقيم دعواها على فلسفة عنصرية عداوية دعائية، فالعقل الشرقي لا يقل عمقا وأصالة عن العقل الغربي، وأن جميع ما يحويه التفكير الإغريقي، يبدو أمامنا على حقيقته، إذا عرض تحت ضوء العلاقات بين الشرق والغرب، ولن تقع في خطر الجهالة إذا ما عمدنا إلى جمع معلومات عن حالة (التفكير النظري) في أهم الحضارات المحيطة بالأفق الإغريقي، وهي حضارات الشرق القديمة.

وتأتى الفصول من الثانى إلى العاشر، تفصيلاً لـ "حالة التفكير النظري" - هذه - في حضارات الشرق القديمة.

- فيعرض الفصل الثانى (للعقيدة المصرية القديمة)، مبيناً أشكالاتها، وكيف أنها مظهر مرئى لقوى مقدسة مجردة، ومتناولاً موضوعين على قدر كبير من

الأهمية، في الكشف عن حالة التفكير النظري عند المصري القديم، وهما (نشأة العالم) و(قدر الإنسان مصيره).

- ويتناول الفصل الثالث (إخناتون) موضحاً كيف أنه يعد أول ثوري في العالم يسعى لصياغة توحيد عالمي، وكيف ثار على التقاليد اللاهوتية، منتصراً لعقيدة التوحيد، وصار بذلك أول مغرد في التاريخ يترع إلى التوحيد.

- ويكشف الفصل الرابع عن أن المصري القديم، صاحب أقدم (تجديد اجتماعي) في العالم، فبين معالم هذا التجديد، متناولاً بعض التجارب الحياتية التي سجلها وتركها لنا حكماء مصر القديمة، والتي تعكس وعياً اجتماعياً وأخلاقياً رائعاً.

- أما الفصل الخامس، فيُحلل بعض معالم (الحس السياسي عند المصري القديم)، وكيف أن الصلة بين الحاكم والمحكوم ينبغي أن يكون أساسها العدل والمساواة بين الجميع، كما يُظهرنا - هذا الفصل - على ما نشأ في مصر القديمة من وعي اجتماعي بعدم السكوت على الظلم، وضرورة أن يعود الحق إلى أصحابه، وعناية المسؤولين بالنظر في مظالم مرؤ سيهم وأنصافهم.

- ويحمل الفصل السادس (الأفكار الفلسفية) في حضارة مصر القديمة، علمياً وفنياً ودينياً وفلسفياً.

- ويؤكد الفصل السابع، أن بدايات فلسفية في الطبيعة والأخلاق، ظهرت في وادي الرافدين، وكان لها دورها المؤثر في تكوين الفكر العالمي.

- ويتناول الفصل الثامن (الفلسفة الهندية) موضحاً سماتها، وبداياتها، كما تبدو في التأملات المسجلة في نصوص (الفيدا) و(الأوبانيشاد) والتي تحفل بالفكر التأملية والتصوري فيما يتعلق بطبيعة النفس والواقع.

- ويُعالج الفصل التاسع منهج (البوذية) في كيفية تجاوز المعاناة وتحقيق الاستنارة، كما يلقي بعض الضوء على (جوتا ماسدهارتا- بوذا) السذي يعتبر من أوائل المفكرين الذين أعلوا من شأن العقل، وأكدوا سلطان الإنسان على أفعاله، وأن بيده وحده توجيه مصيره.

- أما الفصل العاشر، فيحلل (بدايات) الفلسفة الصينية بسين كونفوشيوس ولاوتسو، مبيناً كيف أن الكونفوشية فلسفة إنسان اجتماعية، وكيف أن التاوية قد أكدت على الأسس الميتافيزيقية للطبيعة.

وقد ذيلنا الكتاب بملاحق تضمنت بعض النصوص المصرية القديمة، التي توثق للأصالة المصرية القديمة، وقيمة إسهامها التي قدمتها في تكوين الفكر الإنساني.

وبعد، فأسال الحق تبارك وتعالى، أن يكون الجهد المتواضع الذي بُذل في هذا الكتاب محققاً للفائدة المرجوة منه.

ولله ولي التوفيق.

دكتور جمال المرزوقي.

المعادي في: ١٤ أكتوبر ١٩٩٦م

الفصل الأول

"الأصالة الشرقية" بين "الإنكار والتأييد"

ويشمل:

أولاً : تمهيد

ثانياً: " منكروا" الأصالة الشرقية

١- زيلر

٢- الكسندر

٣- برنيت

ثالثاً: " مؤيدو" الأصالة الشرقية.

١- سارتون

٢- هوبهوز

٣- أورسيل

٤- توملين

٥- كولر

٦- "برنال" وموسوعته "أتينا السوداء" والأصل المصري -الشامي
للحضارة اليونانية.

رابعاً: تعقيب.

أولاً : تمهيد:

أجمع جُلّ الباحثين في تاريخ الفكر الإنساني، أن من أجل ما تركه الإنسان من أثر يتمثل بالإبداع الفكري الفلسفي، فالإنسان أمتار عن غيره بفكره وقوته العاقلة المدركة، حيث لا حظ ظواهر الكون على اختلافها، فتصورها، وكون له فيها رأيا، ثم راح يبحث عن عللها، وعلاقاتها بها، وتأثيرها عليه، فإن فعل الإنسان هذا قلنا عنه أنه يتفلسف، بمعنى أنه فكر فيما يحيط به من ظواهر ومتغيرات، محاولاً الإجابة عنها من خلال التساؤل، عن حقيقة الأشياء وأصلها، وصلتها مع بعضها، وصولاً إلى (موقف) يشيع (الطمأنينة) في (داخل الإنسان)، ويطرد الخوف والتردد والخشية من أسرار هذه الظواهر من داخله، ويزيل شكه.

فيتفلسف هنا، يعني البحث في ماهية الأشياء وأصولها، وعلاقتها بالإنسان، وعلاقة الإنسان بها، وهذا فعل يمارسه كل إنسان راجح العقل، يدرك أن له في حياته وعلاقاته وتأثيراته، بُعداً أخلاقياً واجتماعياً وإنسانياً.

فالإنسان مفطوراً على حب الاستطلاع، هذا الاستطلاع هو الفلسفة، الذي يقوى بقوة العقل وحدته، وسعة آفاقه، ويحمل على طلب معرفة "الحقائق الكبرى" والأساسية في الوجود والحياة.

ولم تنشأ الفلسفة بمعزل عن منجزات الإنسان العقيدية والعلمية والحضارية، ولا يمكننا أن نفهم تلك المنجزات إذا لم نتابع الذخيرة الفلسفية للمجتمعات المختلفة، ألم يكن تاريخ الفلسفة -على رأى هيجل- هو تعبيرٌ عن تاريخ العقل والوجود، ومنطقها هو القانون المثلث الذي يحكم تجليات العقل في عالم الطبيعة، فكانت النظم الاجتماعية والفنون، والأديان، والعلوم؟^(١)

فالفلسفة، إذن ملتصقة بالحضارة، ومن غير الممكن تصور قيام حضارة أصيلة دون فلسفة بمستواها إلى الحد الذي دفع جون ديوي إلى اعتبارها قوة

(١) هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة د/ إمام عبد الفتاح إمام، الجزء الأول، القاهرة

١٩٧٤م، ص ١٥٩، ١٦١، ٢٢٠.

تاريخية حاسمة تقترون بكل تغير يطرأ على الحضارة، واختلاف الحضارات على هذا الاعتبار، متأت من الاختلافات الفلسفية التي تنشأ بموجبها^(١).

وإذا كانت الفلسفة لها هذا التأثير الضخم في حضارات البشرية، فإثمه لا يمكن فصل الفكر الفلسفي عن بيئته الحضارية والتاريخية، والفكر الفلسفي، ماهر إلا حصيلة أفكار البشر خلال التطور التاريخي للإنسانية .

ونشأة الفلسفة- بهذا المعنى- صارت منذ عصور بعيدة مشكلة بين المشكلات التي تدرسها الفلسفة في محاولة للإجابة عن السؤال: أين نشأت؟ أعند اليونان أم في بلاد الشرق القديم؟

وقد انقسم الباحثون حيال هذه المشكلة- أين نشأت الفلسفة- إلى فريقين: الأول : يؤيد النشأة في بلاد اليونان، ويرى أن الفكر الشرقي لم يكن سوى فكر لاهوتي من ألفه إلى يائه!

أما الآخر، فقد رأى أن هناك فلسفة شرقية خاصة ترتبط بالدين أحياناً، وتنفصل عنه أحياناً أخرى^(٢).

ولقد كان أرسطو أول من ردها- الفلسفة- إلى بلاد اليونان، عند ما ذهب إلى أن طاليس هو مؤسس الفلسفة الطبيعية، أي - على حد شرح فريمان^(٣) - ما هي الحقيقة وراء الظواهر؟ أو ما هو المبدأ الأول للأشياء.

وقد اختلف الباحثون كثيراً في قول أرسطو هذا وتخرجه، لذلك نضع النص كاملاً في الكتاب الأول من " ما بعد الطبيعة" يبدأ أرسطو بتوضيح معنى الحكمة أو الفلسفة، وينتهي إلى أنها المعرفة بمبادئ وأسباب معينة^(٤)، ثم يوضح

^(١) الدكتور زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة، طبعة منقحة، القاهرة ١٩٧١م، ص ٢٣٦-٢٣٧.

^(٢) راجع مقدمة الدكتور إمام عبد الفتاح لدرجة كتاب جون كولر "الفكر الشرقي القديم" عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٩٩، ١٩٩٥م، ص ٩.

^(٣) Kathleen Freeman: companion to the pre- Socratic philosophers oxford, 1966. P.52

^(٤) Aristotle: Metaphysics A,I, 981

the Western world No 8 vol., Chicago

1952.

أسباب الأنشياء والظواهر، فيردها إلى أربعة أسباب هي الصورية والمادية والفاعلية- سبب التغير والحركة- وأخيراً الفائية، ويقول إنه وضع ذلك في كتاب "الطبيعة"

وأنه من الخير- يستمر أرسطو- أن نستأنس برأيي الذين تقحموا البحث في الوجود وفلسفوه قبلنا"^(١)

"وبالنسبة للفلاسفة الأولين، فإن معظمهم يعتقد أن المبادئ التي هي من طبيعة المادة هي المبادئ الوحيدة للأشياء، والتي منها تتكون جميع الأشياء، وهي الأول الذي منه جاءت، والأخير الذي تنحل إليه الأشياء، وأن الجوهر باق مع أنه يتغير في أحواله، وهذا ما يقولون إنه العنصر أو المبدأ للأشياء، ومع ذلك فإنهم -واخديث مازال لأرسطو- غير متفقين جميعهم على عدد وطبيعة هذه المبادئ، طاليس مؤسس هذا النوع من الفلسفة يقول إن المبدأ هو الماء (ولهذا السبب أعلن أن الأرض تستقر على الماء) ومن المحتمل أنه استمد الفكرة من رؤيته أن الغذاء لجميع الأشياء هو الرطوبة، وأن الحرارة نفسها تتكون من الرطوبة وتبقى حية بها. (وإن هذا الذي تتكون عنه الأشياء هو مبدأ جميع الأشياء) وقد استمد طاليس هذه الفكرة من هذه الحقيقة ومن حقيقة أن بذور جميع الأشياء ذات طبيعة رطبة، وأن الماء هو أصل الطبيعة الرطبة في الأشياء، ويعتقد البعض أنه حتى القدماء الذين عاشوا قبلنا بمدة طويلة قبل جيلنا الحالي، وكانوا أول من كون تصورات عن الآلهة، توجد عندهم فكرة مشابهة عن الطبيعة، لأنهم جعلوا المحيط أباً للخلق، ووضعوا القسم بالآلهة وكأنه القسم بالماء، لأن ما هو أقدم فهو يُحترم، وإن أكثر الأشياء شرفاً هو ما يقسم به بين الأشياء؛ ولنا متيقنين من احتمال أن يكون هذا الاعتقاد من الطبيعة بدائياً وقديماً، ولكن على كل حال يقال: إن طاليس أوضح نفسه حول السبب الأول للأشياء هكذا"^(٢)

(١) Aristo : Met, Book 103, 983b.

(٢) Aristo , Ibid., 984a.

وقد أورد الدكتور كريم منى نص أرسطو هذا موجزاً في كتابه: الفلسفة اليونانية، بغداد،

١٩٧١ ص ٢٧-٢٨.

هذا النص فهم من قبل بعض الباحثين المحدثين بأنه يقول بصراحة، بأن الفلسفة الطبيعية المقطوعة الصلة بالميثولوجيا، والتي تفسر الظواهر الطبيعية تفسيراً طبيعياً تقوم على ملاحظة الأشياء نفسها، إنما بدأت مع طاليس، وأن الفلسفة لم تكن لها قائمة قبل ذلك^(١).

على أن نص أرسطو السابق يشير إلى أن طاليس بقوله بالماء كمبدأ أول للأشياء ربما يكون متأثراً بالأساطير القديمة القائلة بأن أصل الأشياء هو الماء، كمد أن ذات النص يقترح أن يكون طاليس متأثراً بالأساطير المصرية عن أصل الخليفة^(٢).

ولابد أن نشير هنا إلى أنه إذا كان أرسطو في " ما بعد الطبيعة " لا يبدأ بالشرقيين كأول من تفلسف في الأشياء، بل يذكر فقط رجال الدين المصريين بخصوص الرياضيات، ولو أنه يعترف بأنهم وصلوا إلى البحث النظري المجرد لأصل اللذة، وهو مقياس التفلسف عنده، نقول إذا كان أرسطو لا يذكر الشرقيين، بل يبدأ بطاليس كأول من تفلسف، فإنه في كتابه المسمى "حول الفلسفة" On philosophy، يبدأ بالشرقيين وهو يؤرخ للفلسفة، فيذكر آراءهم باحترام^(٣).

ويلاحظ بيحر نوعاً من التفسير الثنائي في ذهن أرسطو وهو - أي أرسطو يتكلم عن معنى اللاهوت Theology، فيقارن الفلاسفة اليونان قبل سقراط باللاهوتيين أي هومر^(٤) وهزiod^(٥) ويقابل بين كلمة اللاهوتيين، وكلمة فلاسفة

(١) Gomperz: Greek Thinkers. Vol.1 London 1906.

(٢) Freeman, Op.cit. pp. 52-53.

(٣) Werner Jaeger: Aristotle seconded. Oxford 1968, pp.128-129.

(٤) اختلف الباحثون في شخصية هوميرس، فيذهب فريق إلى أنها شخصية وهمية، ويذهب آخر إلى أنها شخصية حقيقية، ولد حوالي القرن التاسع إلى العاشر ق.م، ومهما يكن الخلاف في شخصيته، فإنه لا خلاف بين مؤرخي الأدب في أن معظم ما اشتملت عليه الملحمات (الالياذه، والأوديسة) ألف قبل السادس ق.م.

راجع عن هوميرس : J. Drintwater: The outline of Literure, London ,

Vol.1. p.2off -

- T.A. Sinclair: A History of Greek political Thought , London,

= 1959, p.1off.

أيضاً

طبيعيين أو كسمولوجيين، وبهذا المعنى تبدأ الفلسفة- عند أرسطو - بطاليس، حيث ينتهي اللاهوت بالمفكرين قبله، هذا من جهة ومن جهة ثانية يطلق أرسطو كلمة "لاهوت" بمعنى الفلسفة الأولى، أو ما عرف فيما بعد على يد تلاميذه " ما بعد الطبيعة " أو الميتافيزيقا. ويرى أرسطو أن الفرق بين الفلاسفة الطبيعيين وبين أصحاب " الثيوجينات " (أي أصحاب تفسير أصل الأشياء وتسلسل الآلهة عن طريق أسطوري) هو فرق في الطريقة فقط، كما أنه يتحفظ في إبداء رأيه بالنسبة لمحاولة البعض- وهو يقصد أفلاطون، كما يرى ييجر، - إرجاع قول طاليس بالماء إلى هومر^(٢).

على أن هذا التميز عند أرسطو بين الأثنين، هذا التمييز القائم على الفرق بينهما في طريقة الوصول إلى القول بأن هذا أو ذاك هو أصل الأشياء، بمعنى استبعاد الفلاسفة الطبيعيين للتفسير الخرافي أو التحكمي لأولئك هو الذي دفع باحثي الفلاسفة الطبيعيين للتفسير الخرافي أو التحكمي لأولئك، هو الذي دفع بعض باحثي القرن التاسع عشر تحت تأثير حركة العقلانية إلى إضفاء صفة العلمية المحضة على الفلاسفة الطبيعيين، وقطع أية صلة لهم باللاهوت والميثولوجيا،

والدكتور على عبد الواحد والى: الأدب اليوناني القديم، القاهرة ١٩٦٠، الباب الثالث، ص ٦٥ وما بعدها،

والدكتور أحمد فزاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٤ وما بعدها. ولد في عام ٨٤٦ ق. م وتوفي عام ٧٧٧ ق. م، وينسب المؤرخون له قصيدتين الأولى: أنساب الآلهة "The Throgony"، والثانية "الأعمال والأيام".

راجع: سارتون: تاريخ العلم، القديم في العصر الذهبي لليونان، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣ م ص ٢٩٩ فما بعد،

ديورانت: قصة الفلسفة اليونانية، ج٦، ص ١٨٤،

الدكتور على عبد الواحد والى: "الأدب اليوناني القديم"، ص ٩٣،

الدكتور أحمد فزاد الأهواني: "فجر الفلسفة اليونانية"، ص ٢٦،

والتأكيد على الجانب " الطبيعي " لتفسير أقوالهم، وبالتالي اعتبار أن الفلسفة إنما تبدأ مع طاليس، وكذلك العلم النظري^(١) .

وقد مال أشياخ هذا الرأي تدريجياً باتجاه فكرة " المعجزة اليونانية " و "أصالة الفكر اليوناني" و " الشعاع الخاطف " في بحر من الظلمات، حتى أصبحت النظرية عند بعضهم تعنى القول بأن اليونانيين غير مدنيين في " علومهم " و " فنونهم " و " فلسفتهم " بل " وأديانهم " لشيء شرقي، وإن كان هناك أثر ما في " الفنون " و " الفلك " فإن القفزة التي قدمها اليونانيون في هذا المجال تلتفى هذا الأثر وتلاشيه.

وينتهي أصحاب الصورة المتطرفة لهذا الرأي، إلى جعل علوم وفكر اليونان الطبيعيين نتاج العقل اليوناني الخالص، ولهذا الرأي أنصار كثير نذكر منهم زيلسر، الكسندر، ويرنيت، وسيأتي تفصيل لآرائهم في هذا المجال .

وقد مضى حين من الدهر كان الناس لا يشكون في أن الفلسفة نشأت أول ما نشأت ببلاد اليونان، أو بعبارة أدق بأيونية المستعمرة اليونانية التي أسسها مهاجرو اليونان الأولون بأسيا الصغرى، واستمر هذا الرأي ينمو ويشتد ويستقر في النفوس كحقيقة لأريب فيها، تساعد عوامل مختلفة— منها استعلاء الغربي واعتقاده نفسه خير الناس، واستخذاء الشرقي— أحياناً— وظنه السوء بنفسه، وذلك بأن للقوة أثرها غير المنكور في نفس القوى والضعيف على حد سواء.

وهذا الرأي على غلوه— أو على خطئه— له أنصار كثير في الغرب، ومن العجب أن يكون له أنصار كثير في الشرق أيضاً.

وفي المقابل، يرى بعض المؤرخين القدامى مثل ديوجينيس اللايرتي Diogenes Laertius (القرن الثاني الميلادي) أن أول فلسفة إنما قامت عند الشرقيين والمصريين^(٢) وهذا هو رأى مؤرخين وكتاب آخرين يهود ومسيحيين

(١) الدكتور حسام محي الدين الألوسي: بواكير الفلسفة قبل طاليس، أو من الميتولوجيا إلى الفلسفة عند اليونان، بغداد، العراق، الطبعة الثالثة، ١٤٦ هـ - ١٩٨٦، ص ٧-٨.

(٢) الدكتور عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني، ١٩٥٨م القاهرة ص ١٠، الدكتور كريم متى: الفلسفة اليونانية، بغداد، ١٩٧١م، ص ٧.

مثل فيلون وكلمنت الاسكندري^(١) ويمثل هذا الرأي من المحدثين والمعاصرين كثرة انتصرت لأصالة الفكر الشرقي القديم، نذكر منها سارتون، هوبموز، أورسيل، توملين، كولر، ومارتن برنال.

وهكذا ظهر رأيان متعارضان، إلى حد ما، انعقدت، السيادة للرأي الأول طوال العصور القديمة، والعصور الوسيطة، واستمر حتى نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، من أرسطو في القرن الرابع ق.م حتى برتراند رسل في القرن الحالي، ثم ظهرت بحوث جديدة كشفت عن حضارات مزدهرة، وأفكار جديدة تقترب من ميثافيزيقا الفكر الغربي، مما غير الفكرة القديمة التي غلبت الفكر الديني في حضارات الشرق.

ونعرض الآن بعض التفضيل لهذين الرأيين المتعارضين حول نشأة الفلسفة بين الشرق والغرب.

ثانيا : "منكروا" الأصالة الشرقية.

باحثون كثيرون محدثون تبعوا قول أرسطو، أن الفلسفة ترجع إلى اليونان، وأول فلاسفتهم طاليس، من بينهم، زيلر، الكسندر، وبرنيت.

١- زيلر (١٨١٤-١٩٠٨) :

يرى زيلر أن الفلسفة الإغريقية ابتكاره إغريقي لم يشاركهم فيه أحد، وأنها لا تجد عند الأمم التي قبلهم فلسفة بمعناها الصحيح القائم على التفكير المستقل عن الدين، نعم يوجد شيء يمكن أن يسمى فلسفة تسامحا عن الصينيين والهنود، ولكن اللغة المستخدمة آنذاك لم تكن ملائمة للتعبير الفلسفي، كما أن فلسفة

(١) فيلون: فيلسوف يهودي (٢٥ قزم- ٤٠ م) نشأ في الاسكندرية، وكذلك كلمنت (١٥٥ م- ٢٢٠ م)، وسيردد أقوال فيلون آخرون نشأوا في القرن الثاني الميلادي منهم جوستين وأثينا غوراس، انظر:

- Gilson: History of Cristian philosophy in the Middle Ages. New york, 1955, pp. 29, 555. Also:
- F. copleston: A History of philosophy. (Burns, oates, 1950) vol.
وأيضاً : الدكتور حسام محي الدين الألوسي مقدمة في الفلسفة المسيحية وبواكير الأولى، مجلة جامعة الكويت، عدد (٢) ١٩٧٣ م.

لاتسو Laotes هي صوفية أكثر مما هي فلسفة، ومع ظهور نظم فلسفية هندية فإنها لم تنفصل عن الدين أبداً.

ولكن فقط مع اليونان استبدلت التصورات الخرافية للعالم بنظام عقلي من الأفكار يستند على الفكر المستقل القادر على تفسير الحقيقة بشكل طبيعي^(١) وقارئ زيلر لا يفوته أن يلاحظ أنه يتحدث بلغة جد قريبة من فكرة لا التفوق القائم على الجنس " فهو يتحدث عن الشعب اليوناني بأنه وحده الذي استطاع أن يسبر أغوار الطبيعة والمجتمع ونفسه بحياء العلماء، ويرى إن مما ساعد على هذا خواص يمتاز بها العقل اليوناني مثل الإحساس القوى بالحقيقة " والقدرة الفائقة على التجريد^(٢) ؛ ومكنهم هذا من تأسيس الفلسفة وقضاياها، والفلسفة عند اليونان لا تعني تفسيراً نظرياً عقلياً للعالم، بل كذلك موقفاً عملياً محددًا من الحياة^(٣) على أن زيلر لا يستبعد الأثر الشرقي، فهو واضح من خلال الأورفية^(٤)

(١) Eduard zeller: Out lin of the history of Greet philosophy, London, 1963, p.2

(٢) زيلر، المصدر نفسه، ص ٣ .

(٣) زيلر، المصدر نفسه، ص ٣ - ٤ .

(٤) الأورفية : نحلة واسعة الانتشار والتأثير، تتصل بالإله دينيوس الذي كان في الأصل من آلهة تراقية، وهو إله النبيذ والجمعة أو الحمزة فيما بعد، وأصبح عند الأورفية إله التضحية أى ابن الله السدي مات لينجي البشر، والأورفية نسبة إلى أورفيوس orpheus، الذي يرجع أنه رجل حقيقي، وإن كانت جل معرفتنا عنه تمت إلى الأساطير، وقد جاء من تراقية أيضاً، ولكن المرجح أنه جاء - أو على الأقل حركته - من كريت، ويرجح أيضاً أن أصول هذه الحركة أو النملة تسربت من مصر إلى كريت وعنها إلى الأورفية.

راجع : Burnet : Early Greek philosophy, p.8

- E. Zeller. outlines of the history of Greek philosophy up 32- 33

- والدكتور أحمد فؤاد الأهواني : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، القاهرة، ١٩٤٥م، ص ٢٧.

ديورانت : " قصة الفلسفة اليونانية"، الجزء السادس، ص ٣٣٨، ٣٤٥.

= K. reewan : acompanion to the pre-socratic philosophers, oxford. 1966.

= ويرى برنيت أن معظم الأدب الأورفي يرجع لتاريخ متأخر، وأصله غير معروف وغير موثوق به، وهو مشابه للأديان الهندية القديمة، وإن كان يصعب القول بوجود تأثير هندي على الإغريق في هذا

وهذا سبب ثنائية واضحة في الفكر اليوناني منذ القرن السادس وبعده، ومع أنه يستبعد استمداد الفلسفة الطبيعية من الأورفية والفكر الصوفي، إلا أنه يرى وجود نخط مواز لها يتمثل في بعض الفلاسفة أو بعض أفكارهم.

فعند كلامه عن الديانة الأورفية يقول :

إن اللاهوت الأورفي رغم ما فيه من عناصر صوفية تميل إلى نسوع من الوحدة بين الله والكون pantheism، فإنه لم يصل إلى الخطوة النهائية في هذا الصدد فقد حاول أن يرى العالم وحدة يخضع لقانون ثابت ولكنه لم ينجح في حل مشكلة التضاد بين العقل والمادة، الله والعالم، الروح والجسم.

واللاهوت الأورفي مضاد لوجهة نظر الإغريقي عن الحياة والتي بموجبها ما هو حقيقي هو الإنسان المجرد المادي، بينما الروح أو النفس مجرد نسوع من الظل أو الصورة العديمة القوة؛ أما في الفلسفة الأورفية فعلى الضد من ذلك أن ما هو باق ونمير زائل هو النفس، وأما الجسم فزائل، وحقيق، وعند الإغريق، الحياة على الأرض تحت طلعة الشمس هي الحياة الحقة، وبقية العوالم هي مجرد تقليد ومحاكاة كئيبة لها، بينما عند الأورفية هذه الحياة نوع من الجحيم وسجن وعقاب، وأنه فقط في العالم الآخر بعد خلاص النفس من سجن الجسم يتحقق الوجود الإلهي الحقيقي الذي ينتظرنا.

الجانب (Early Greek philosophy, p.82)، ولكن زيلر (outlines, p.33) يرى أن الأورفية متأثرة بالرومانية والفيذا الهندية.

وتقوم التعاليم الأورفية على فكرة أن في الإنسان ثنائية، والجسم ليس سوى قبر وسجن للنفس، والإنسان مربوط إلى الجسد، ولن ينجينا من الدنيا التي هي شر، ومن جسدنا إلا التطهير. ويرى رسل أن من العناصر الأخيرة عند الأورفيّة تأكيداً على الجانب الصوفي السدي يرمي إلى الحصول على المعرفة بالذوق وليس بالحواس وبالعقل.

والنظرية السائدة عند معظم الباحثين، وما زالت، أن الأورفيين يمثلون خطأ شرقياً غريباً على الفكر اليوناني، وأنهم أثروا في بعض الفلاسفة اليونان مثل الفيثاغورية وهرقليطس وانكسيماندر واكسوفان، بعد ذلك في المثالية اليونانية في الفلسفة بكل صورها، في سقراط وأفلاطون، وحتى أرسطو، وفي كل الشائيات المثالية في الفلسفة إلى الوقت الحاضر.

إن هذه المضادة الكاملة للروح اليونانية الأصلية عن الحياة، وما نتج عنها من تغير في القيم خصوصاً إحتقار الأورفية للجسد، مع ما صاحب هذا من زهد عملي، غريب تماماً عن طبيعة الإغريق، وهو يشير إلى أصل شرقي غير إغريقي، وفي هذا الخط الصوفي وجد البعض ما يشبع بعض الحاجات الملحة في وقت ظهور هذه النحلة، وهكذا وجد الإغريقي ذو المشاعر القوية نفسه يتجه إلى الدين ويجد فيه إشباعاً، ومع ذلك ظلت الثنائية التي تقول بها هذه النحلة الصوفية والتي تقسم طبيعة الإنسان إلى عنصرين متضادين، أثراً غريباً في الدم الإغريقي.

إن الإغريق في القرن السادس ق. م، والذين لم يعودوا مكثفين بدينهم التقليدي، وجدوا أمامهم مجالين : مجال التفكير والاستقصاء العقلي، والذي تبعه الأيونيون الطبيعيون، والمجال الصوفي الديني، الذي وضحت طريقة الأورفية؛ وهذان الخطان لم يكونا منفصلين تمام الانفصال، وإنما متداخلين، لأن الدين والفلسفة لهما هدف واحد عندما يتعاملان مع المشاكل الكبرى.

ويبدو أن كل تطور الفلسفة الإغريقية، ما هو إلا استمرار التضاد والجدلية، وفي وجوه مهمة، محاولة التوفيق بين الأحادية الإغريقية المحلية والثنائية الشرقية، أو بكلمة واحدة، بين " العقلانية " و " الصوفية "، وفي وقت يظهران منفصلين، وفي وقت آخر يتحدان ليكون أفكار جديدة مثمرة، إلى أن استحوالت الفلسفة إلى تصوف في صورة الأفلاطونية المحدثة بعد إجهاد الفكر العقلي.

ويرى زيلر أن أصحاب هذا الاتجاه الأورفي يمثلون فجر الفلسفة والدين، وطلائع الفلسفة الإغريقية، أو الممهدون لها، والذين أسماهم أرسطو بـ (اللاهوتيين) theologies، ويعتبرها زيلر المرحلة البدائية للفلسفة اليونانية^(١)

وهكذا يقول زيلر - نجد توضيحاً لظهور الفلسفة اليونانية، ولكن هذا الظهور يعود بالدرجة الأولى لمواهبهم الخاصة مثل القدرة على التخيل، والقدرات العقلية والانفعالية، وقد اجتمعت كلها بشكل مثمر، وكان إلى جانب عاطفتهم وإخلاصهم شعور بالحقيقة والوضوح والنظام والاعتدال والخضوع للتعاون، سواء في السياسة أو الفن، والأغارقة أنفسهم يربطون هذا كله بمناخهم المشمس رغم عدم غنى أرضهم، كما أن الموقع الجغرافي والتجاري، ساعدهم على الاستفادة من

^(١) زيلر 19 - 15 . pp . Outlines

سواهم، ولكن ما استعاروه، استحال، وطور بما يتفق وطريقتهم الخاصة والفلسفة هي من خلقهم الخاص، حالما ساعدتهم التقدم البشرى قبلهم على عبور مراحل الطفولة والخرافة.

وعلى كل حال فإن الثنائية التي تفصل المادة عن العقل، والجسم عن النفس، والله عن العالم، احتلت بنجاح مكانا لها في الفلسفة اليونانية حتى في هذه الفترة المبكرة، عندما كست الفيثاغورية، الصوفية الأورفية بغطاء العلم، وأصبح لهذه المدرسة، بواسطة فيثاغوراس، ومن خلال تأثيرها في أبناذوقليس وأفلاطون، أكبر الأهمية للفلسفة منذ ذلك الوقت فيما بعد، الأمر الذي يؤكد وجود خطين : ديني صوفي، وآخر علمي طبيعي، عند المفكرين اليونان ابتداء من طاليس وأن الفلسفة اليونانية فيها الشيء الكثير من التفسيرات الميثولوجية واللاهوتية، موضوعه بالفاظ فلسفية، وسياق منظم^(١).

٢- ونجد شيئا بأقوال زيلر عند الكسندر، يقول :

" إذا اعتبرنا أن الفلسفة هي البحث المنظم عن ماهية الأشياء، فإن مكانها الأصلي هو بلاد الإغريق، وبقدر ما نعرف فإن الهنود هم الشعب الوحيد مع الإغريق الذين كان عندهم ما يمكن أن يعتبر فلسفة، ولكن لا يوجد باحث الآن يقترح أن الإغريق أخذوا فلسفتهم عن الهنود، بل العكس صحيح، أن الصوفية في الأوبانيشاد، والبوذية، هندية أصلية، وأما أثرت في الفلسفة، ولكنها نفسها ليست فلسفة بالمعنى الصحيح للكلمة "^(٢) ويرفض الكسندر اقتراح أن يكون الأغارقة متأثرين بالعلم أو الدين الشرقي، فإن علوم المصريين والبابليين عملية

(١) ويكفى أن تضرب أمثلة على ذلك : صبوة المادية وامتلاء العالم بالآلهة عند طاليس، فكرة المكان المخصوص للأشياء أو العناصر عند انكسيماندر، نهوض عن الآلهة عند هيرقليطس، توحيد اكسنوفان، مثاليات فيثاغورس، آلهة أبناذوقليس، ومبدأ المحبة والكراهية، العقل عن انكساجوراس، ولا حاجة بعد ذلك للحديث عن سقراط أو أفلاطون أو أرسطو أو الرواقية أو الفلوطين فأمر ميثافيزيقاهم بل وميثولوجيتهم مركز الدائرة في فلسفتهم الميثافيزيقية.

(راجع تفصيلا لذلك، الدكتور حسام محي الدين الألو، بواكير الفلسفة قبل طاليس، الفصلين

الثالث والرابع.)

(2) A. B. D. Alexander : A short history of philosophy. 3rd Ed. Glasgow, 1934, p. 7-8

غرضاً وطريقة، أما دينهم، فصحيح أنه - وكما يقول هيرودوت - جاءت ديانة ديونيسوس والتناسخ من مصر، إلا أن أثر هذه في الفلسفة قليل، وهو يعزو هذه "الأصالة اليونانية" إلى ميزات خاصة بالشعب الإغريقي نابعة من ظروفهم الجغرافية ومجتمعهم المعقد، وهذه الخصائص هي حبهم للاستطلاع ومقدرتهم على التعميم، وحبهم الواسع والمتلون للحياة، وإحساسهم بالجمال .

مع ذلك فإن الكسندر يرى أن الفلسفة لم تنفصل عن الخرافة والدين من أول مراحلها، بل ظل الفلاسفة يعبرون عن فلسفتهم بأساليب بلاغية شعرية كسابقهم، كما أن أفكار الفلسفة ظلت مرتبطة بالعقيدة الدينية التي منها نبعت، فلم تلغ الفلسفة الآلهة بل فسرت طبيعتهم وأعمالهم.

٣- ونأتي لـ (برنيت) أحد أكبر من يدافع عن "الأصالة المطلقة" للعلم والفكر والدين اليوناني .

يذهب (برنيت) إلى أن آراء البابليين والمصريين في تفسير خلق العالم من المادة، آراء أسطورية، وأن الشيء الذي اعتبر طاليس - والفلاسفة الطبيعيون من بعده - فلاسفة، ليس قوله بأن أصل الأشياء هو الماء، بل إثارته للسؤال نفسه: ما هو أصل الأشياء؟ كيف نرجع الأشياء المتكثرة إلى شيء واحد؟ أي دراسة الظواهر الطبيعية دراسة طبيعية، وعلى أساس عقلي طبيعي^(١) وأنه إذا كان هنالك إقرار بوجود علوم عند البابليين والمصريين^(٢)، حيث يرى وصول البابليين والمصريين إلى معرفة نظرية في الرياضيات (هندسة وحساباً)، إلا أنها لم تصل إلى طور التنظير أو التحديد العقلي، بل هي عملية بحثية، بينما هي نظرية وعلم بحث منظر ومجرد عند اليونان^(٣).

فالذين يعتمدون على وجود هذه العلوم عند الشرقيين، يقعون في هذا الخطأ لأنهم لا يلاحظون هذا الفرق، ثم أنهم لا يميزون بين الفلسفة وهذه العلوم.

(١) J. Burnet : Greek philosophy, New Youk, 1988,p.16

(٢) انظر تفاصيل عن هذا في : Farrington : Science in Intiquity .1936 p.q

- G.E.R. Lioyd Greek science. London, 1970, ch.1.p2

وسارتون: تاريخ العلم: العلم القديم في العصر الذهبي لليونان، الترجمة العربية، لليف من العلماء - دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣ .

(٣)

1963, p.1-10

وهذا هو رأي برتراند رسل في كتابه

وعلى هذا يرفض برنيت أخذ اليونان أي عنصر فلسفي من البابليين أو المصريين أو الهنود، ويعمم ذلك إلى الرياضيات النظرية والفلك، فلا يوجد - في رأيه - كاتب من كتاب الفترة التي ازدهرت فيها الفلسفة اليونانية يعترف أنها أخذت شيئاً من الشرق^(١).

كما أن أوراق البردي المسماة أوراق رايند، في المتحف البريطاني تظهر - في رأى برنيت - أن رياضيات المصريين عملية بحتة، يتعلق الحساب منها بقياسات القمح والفاكهة، وأنها تعالج مشاكل عملية مثل تقسيم عدد من المكاييل على عدد معطى من الأشخاص، أو تقسيم الحاصل على عدد من الفلاحين، أو كم هو الأجر لمجموعة من العاملين لعمل معين، وهذا يتطابق تماماً مع الوصف الذي يعطيه أفلاطون للحساب المصري في كتاب "القوانين" حيث يخبرنا أن الأطفال يعلمون مع تعلمهم للحروف، كيف يحلون مسائل حول تقسيم التفاح على عدد أكبر أو أصغر من الأشخاص، وما إلى ذلك^(٢)، ولكن لا يوجد في حسابهم شيء مما يسميه الإغريق بالدراسة العلمية للأعداد^(٣)؛ والشيء نفسه يقال عن الهندسة، حيث يخبرنا هيرودوت أنها ظهرت عند المصريين من الحاجة لقياس الأراضي الجديدة، وهذا يتفق مع ما تظهره أوراق رايند عن هندستهم، على

^(١) ولكن يمكن أن نقارن قول برنيت هذا بنص عن محادثة فيدروس "أفلاطون، ورغن أن هذا أسطوري فهو شهادة على وجود هذه العلوم، بل والحكمة في مصر، والنص بحسب نقل سارتون له ص ٢٥٢-٢٥٣). كما يلي: "سمعت - والمتكلم هنا سقراط - أنه كان في نواكريتس مسن أرض مصر إله من الآلهة القدماء في تلك البلاد، وهو الذي كان طائرته المقدس يسمى أبيس واسم ذلك الإله نفسه توت، وهو الذي اخترع الأعداد والحساب والهندسة والفلك والرسم واللعب بفصوص الرّد. وأهم من ذلك كله أنه الذي اخترع رموز المنابة" ويذكر سقراط أن الإله توت قال للملك مصر: "إن هذا الاختراع - أي الكتابة - أيها الملك سيؤتي المصريين الحكمة لوق ما هم، وسيجعل ذاكرتهم حراً مما هلى عليه. لأن هذا الذي اخترعه أكسير الذاكرة والحكمة (Plato, phaidros, 74c.

^(٢) Plato, Laws, 891, p4.

^(٣) J.Barnet, Early Greek, p.19.

عكس أرسطو الذي يعزو نشوءها إلى دافع كمال، أي بدافع اللذة أو المتعة التي كانت تحس بها طبيعة رجال الدين المصريين^(١).

ولنا ملاحظات على فهم برنيت لرأى كل من أفلاطون وأرسطو في العلم المصري:

الأولى: أن أفلاطون لا يعتبر أن مستوى علوم الرياضيات المصرية، هو مستوى ما يعلم للأطفال، كما استنتج برنيت بدون حق، بل هو يتحدث عن مستوى الرياضيات التي تعطى للأطفال أول تعلمهم عن طريق اللعب والتسلية، فيقول الغريب الأثيني - أحد المتحاورون في محاوره القوانين -:

" كل المواطنين الأحرار يجب أن يتعلموا الكثير عن هذه الفروع من المعرفة، كما يتعلمها كل طفل في مصر، عندما يتعلم حروف الهجاء، وفي البلد - مصر ابتدعت الألعاب الحسائية التي يستخدمها الأطفال ويتعلمونها كنوع من المتعة والتسلية، فعليهم - والكلام عن الأطفال - أن يقسموا التفاح والزهور مستخدمين نفس العدد مرة مع عدد أكبر من الأفراد، ومرة مع عدد أقل:"

ويستمر الغريب الأثيني متحدثاً عن لعب مسلية أخرى للأطفال، وبهذا يمكن استخدام الحساب للتسلية وللفادة العامة بحيث يمكن أن يتعرفوا على تنظيمات وحركات الجيوش والحاجات الأخرى، ونفس الشيء فيما يخص قياس الأشياء ذات الطول والعرض والعمق؛ " وبهذا يحررونا من الجهل الطبيعي بهذه الأشياء، هذا الجهل الذي هو مشين جداً"^(٢)

والكلام كله هنا على سبيل المدح للمصريين، والدليل على ذلك أن الحوار يستمر فيسأل كلينياس، وهو محاور آخر:

" ما هو نوع الجهل الذي يعنيه؟ فيجيب الغريب: لقد سمعت أنت بدهشة بجهلنا في هذه الأشياء، ونحن كما يظهر أشبه ما نكون بالخنزير منا بالبشر، وأني لجد خجل ليس من نفسي فقط، بل ومن الهلنيين كلهم" ويستمر سؤال كلينياس:

(١) Aristo. Met. A,L .981, p23.

(٢) Plato, Laws, Ibid, 819-819d.

" عن ماذا ؟ ويجب الغريب الأثيني مفصلا مبينا التناقض في أقوال الأثينيين عن نسبة المقاييس لبعضها، وعدم وجود مقياس مطلق، وبالتالي ضرورة قيام الدولة بتدريس هذه الفروع ".⁽¹⁾

وفي هذا، ما يدل صراحة على اشتغال المصريين بالعلوم، لدرجة أنهم يعلمون أطفالهم الحساب والهندسة، مع تعلمهم للألغباء، وهو - أفلاطون - يمتدح هذا، ويوصي بأن يكون جزء من واجب الدولة، ويعيب على الأيونيين جملتهم بهذه الأمور إلى حد أنه ينجل من نفسه ومنهم.

والملاحظة الثانية : أننا إذا رجعنا إلى أرسطو متأملين ما يقوله في هذا الشأن نجده يقدم تقديرا عاليا للعلم المصري أكثر مما تقدمه الكلمات المائعة التي يشير إليها برنيت كملحظ لرأى أرسطو في المصريين ؛ ففي أول الكتاب الأول من كتابه " ما بعد الطبيعة " يتكلم أرسطو عن معنى الحكمة أو الفلسفة، ويرى أن التجربة والخبرة سبب كل فن أو صناعة أو علم، والفن يبدأ عندما تعمم الخبرة الفردية، فإذا ما أفاد دواء مريضا بالتجربة فهذه خبرة، ولكن إذا وصل الإنسان إلى الحكم بأن هذا الدواء نافع لكل إنسان يصاب بهذا المرض فهذا فن، ويرى أن متعلم الصناعة أو الفن الذي يستطيع أن يعلمها للغير هو أرفع ممن بزواها بدون أن يفهمها نظريا أو يستطيع أن يعلمها، كما يرى أنه في بداية كل اختراع أو فن، فإن المخترع هو أحكم من الإنسان العادي، ولذلك يعجب به حتى ولو كان هذا الاختراع لأغراض عملية، ويزوال مزاولة غير واعية، ولكن عندما أصبحت بعض الاختراعات لا ترمي لأغراض الحياة، بل للخلق أو الإبداع، اعتبر الآخرين، أحكم من الأوليين، لأن هدف فروع المعرفة عند أولئك ليست للمنفعة، وهنا عندما توطدت مثل هذه الاختراعات اكتشفت العلوم التي لا تهدف لأغراض الحياة، بل للذة، واكتشفت أولا في الأماكن التي كان فيها الرجال يهدفون إلى المتعة أول الأمر " وهذا هو السبب في وجود فنون الرياضيات في مصر، لأن طبقة رجال الدين كانوا يتعاملون معها من أجل المتعة واللذة " وينتهي أرسطو إلى القول :

⁽¹⁾ Plato, Laws, Ibid, 819-819d.

" كل الناس يعتقدون أن ما يسمى بالحكمة Wisdom هي ما تعالج الأسباب والمبادئ الأولى للأشياء، ولذلك، ووفقا لما سبق قوله، فإنه ينظر إلى أن صاحب الخبرة أحكم من الحاصل على المعرفة الحسية فقط وأيا تكن، وأن الفنان أحكم من رجل الخبرة، وأن رئيس العمل أحكم من العامل الميكانيكي، وأن النوع النظري في المعرفة أقرب إلى طبيعة الحكمة من النوع الإنتاجي (العملي) فمن الواضح إذن أن الحكمة هي المعرفة بمبادئ وأسباب معينة " ⁽¹⁾

ومن الواضح أن أرسطو يقر هنا أن علوم المصريين، هي من النوع النظري - الذي - لا العملي الإنتاجي، ولذلك فبني أقرب إلى طبيعة الفلسفة.

هذه هي النصوص عند أفلاطون وأرسطو، وهذه هي الصورة التي تعكسها عن " علوم " المصريين، فأين هذه الصورة مما يريد برنيت أن يوهنا أن أفلاطون وأرسطو يرسمانها؟!

ونتابع رأى برنيت حول "الأصالة والمعجزة اليونانية " فبالنسبة للفلك، يرى أن اليونانيين ربما أخذوا عناصر الفلك من البابليين، ولكن الفلك البابلي موجه لأغراض تتعلق بالتنجيم مثل قراءة الطالع وما أشبه، وليس الأمر كذلك عند اليونان، ومن جهة أخرى أن أهم تطورات تنسب للفلك القديم هي من إنتاج العبقريّة اليونانية ⁽²⁾

ويلخص برنيت أقواله السابقة بالأسطر التالية :

" الخلاصة أن الإغريق لم يستمدوا فلسفتهم أو علمهم من الشرق، وعلى كل حال هم أخذوا من مصر القواعد في المساحة، والتي بعد أن جردوها وعمموها نشأ علم الهندسة، كما أخذوا من البابليين أن حركة الأجرام السماوية دائرية، وهذه الجزئية العلمية كانت مهمة في قيام العلم لأنها عيّنت للإغريق مشاكل وأسئلة أخرى، لم تدر قط بنجلد بابلي " ⁽³⁾

(1) Arist : Meta , L . 981FF.

- Early Greek philosophy, p.23

⁽²⁾ راجع برنيت

(3) Burnet : Early , p. 24

ولابد أننا قد ضقنا ذرعاً بهذه اللغة " التفاحرية " التي تنضح بفكرة الاستعلاء، وتتطلع إلى مزيد من الأدلة المفحمة لإزالة هذه الأوهام التي طالما ردها دعاة هذا التفوق، وأصحاب هذه اللغة التي تؤكد تعصبهم العنصري.

ومن العجب أن يكون لهذه " اللغة " أنصار كثر في الشرق، فنحن واجدون عن بعض مؤرخينا القدامى اعترافاً بامتياز اليونان عن غيرهم في الفلسفة، بُدِ إشارة لذلك عن ابن صاعد ^(١) ويقول الشهرستاني :

" فنحن نذكر مذاهب الحكماء القدماء من الروم واليونانيين على الترتيب الذي نقل في كتبهم، ونعقب ذلك بذكر سائر الحكماء إن شاء الله تعالى، فإن الأصل في الفلسفة والمبدأ في الحكمة للروم وغيرهم كالعيال عليهم " ^(٢)

ويقدم البيروني مناقشة طويلة تلخص في أن الهنود القدامى فيهم الخاص والعام واليونانيين مثلهم في هذا، ولكن الآخرين امتازوا عن الهنود بالفلاسفة ^(٣) ومعظم مؤرخينا يقولون أن طاليس - وبعضهم فيثاغورس - هو أول من بسدء الفلسفة، يقول ابن النديم :

" قال لي أبو الخير بن الخمار بحضرة أبي القاسم عيس بن علي، وقد سأله عن أول من تكلم في الفلسفة فقال : زعم فورفوروريوس الصوري في كتابه " التاريخ " وهو سرياني أن أول الفلاسفة السبعة ثاليس بن مالس الأمليس، وقد نقل من هذا الكتاب مقالتيين إلى العربي، فقال أبو القاسم كذا هو وما أنكـره، وقال آخرون أن أول من تكلم في الفلسفة فيثاغورس " ^(٤)

(١) طبقات الأمم، نشرلويس شيخو - بيروت ١٩١٢ ص ٢٣ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، القاهرة ١٩٦٨ م، ج ١، ص ١١٨ .

(٣) البيروني : " في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " حيدرآباد ١٩٥٨ م، ص ١٧ - ١٩ ؛ ٢١ - ٢٣ ، ٦٧ ، ١٨٠ - ١٨٣ .

(٤) ابن النديم : الفهرست، تحقيق للرجل، مطبعة الحياطة، بيروت ١٩٦٤ م، المقالة السابقة في أخبار الفلاسفة ص ٢٤٥ .

ومثله عند المقدس نقلا عن فلوطرخس في كتاب الأخير " مايرضاه
الفلاسفة من الآراء الطبيعية " :

" ... وحكى عن فيثاغورس من أهل شاميا وهو أول من سمي الفلاسفة بهذا
الاسم، وطاليس أول من أبتدأ الفلسفة " ^(١)

والغريب في هذه الكتب أنها تعزو للفلاسفة الطبيعيين آراء ناضجة،
وموجدة في اللاهوت، وأقوالا في صفات الله وتترهه عن المادة ... الخ ^(٢) في
نفس الوقت الذى تعزو لهم ما يعزى لهم عادة من آراء طبيعية كتولهم بالماء أو
الهواء أو غير ذلك مما هو معروف، ويمكن أن يفسر هذا على أساس أن الدوائر
المسيحية والأفلوطينية قبل مجيء الإسلام صورتهم هكذا ؛ كما أن الكتب القديمة
تنسب لهم آراء في اللاهوت - كما لاحظ بيجر - أن أوغسطين والمصادر
الأخرى تجعل الفلاسفة الطبيعيين اليونان لا هوتين وطبيعيين في أن واحد ^(٣) .
ثالثا : " مؤيدوا " الأصالة الشرقية .

أرجع ديوجانس اللايرثى نشأة الفلسفة إلى الشرق، في قوله : إن الاجتماع
منعقد على وجود علم وتقدم لدى الشرق قبل اليونان، كما أن الشرقيين سبقوا
اليونان في مجال التفكير النظرى الدينى ^(٤) وقد مال باحثون غربيون كثيرون إلى
رأى ديوجانس هذا، نذكر منهم سارتون، هوبوز، أورسيل، توملين، كولر،
ومارتن برنال.

١- سارتون :

عالم طبيعى ومؤرخ للعلم فى أن واحد، ويمتاز عن برنيت وأمثاله بمسحة
إنسانية، وأفق عالمى يبعده عن التعصب العنصرى، أو ما شابه اللهم إلا التعصب
لما يراه حقا وليس هذا تعصبا، وقد قرنه بالدليل فى غير ما إسراف، كما يمتاز

^(١) المقدسي : البدء والتاريخ، تحقيق كليمنت هوارد، باريس ١٨٩٩، جـ ١، ص ٣٦

^(٢) الشهرستانى فى الملل جـ ١، كلامه عن طاليس ومن بعده، وكذلك ابن صاعد عند كلامه عن أمة
اليونان، ومثله فى سائر الكتب الأخرى مثل القفطى وابن أبى أصيبعة .

(3)

oxford 1988

^(٤) الدكتور توفيق الطويل : أسس الفلسفة، طبعة خامسة، ١٩٦٧ م، القاهرة ص ٣٦ - ٣٨

سارتون شأنه شأن ديورانت بأخذه بنظر الاعتبار آدم ما قدمه الإنسان حتى في عصوره البدائية الأولى، إلى أن وصلت أية حضارة بعد ذلك إلى ما وصلته، كما يمتاز بمراعاته لأهمية الأساطير كبداية وجذور لكثير من أفكارنا وعلومنا، والييك بعض من آرائه حول موضوعنا.

في مقدمة كتابه ^(١) يؤكد أن من السذاجة القول ببدء العلم في اليونان، ويرى أن إهمال العلم الشرقي والإطار الخرافي الذي نشأ فيه العلم القديم سبب أفسد فهم هذا العلم، يقول :

" ... ومما افسد فهم العلم القديم كثيرا من الأحيان، ظاهرتان من الإهمال الذي لا يمكن التسامح فيه، والظاهرة الأولى تتعلق بإهمال العلم الشرقي فمن سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الإغريق ؛ فإن " المعجزة اليونانية " سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر بلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم، والعلم اليوناني كان إحياء أكثر منه اختراعاً، والظاهرة الثانية، إهمال الإطار الخرافي الذي نشأ فيه العلم، لا الشرقي فحسب بل اليوناني ذاته كذلك، وكفانا سوءاً أننا أخفينا الأصول الشرقية التي لم يكن التقدم الهليني مستطاعاً بدونها، ولكن بعض المؤرخين أضافوا إلى هذا السوء سوءاً بما أخفوا مما لا حصر له من خرافات يونانية عاقت هذا التقدم، وكان من الجائز أن تقضى عليه، الواقع أن العلم اليوناني انتصار للمذهب العقلي، وهو انتصار يبدو أكبر.

- لا أصفر - حين ينكشف لنا أنه تم رغم ما اعتقده الإغريق من معتقدات غير عقلية، بل هو انتصار لقوة ضد قوة غير العقل، وإذن فنحن في حاجة إلى بعض المعرفة للخرافات الإغريقية، لا من أجل الفهم الصحيح لذلك الانتصار فحسب، بل لتبرير ما وقع أحيانا من ألوان الإخفاق، ومنها الشاطحات الافلاطونية على سبيل المثال، والخلاصة أنه إذا كتب تاريخ العلم القديم بغير إمداد القارئ بمعرفة كافية بهاتين الطائفتين من الحقائق، أي العلم الشرقي من جهة والخرافة اليونانية من جهة أخرى، جاء هذا التاريخ، لا ناقصاً فحسب، بل مزيفاً مدخولاً كذلك " ^(٢)

^(١) تاريخ العلم : الجزء الأول " العلم القديم في العصر الذهبي لليونان " ترجمة الى العربية لفيف من

المعنيين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣ م.

^(٢) سارتون، ص ٢٠-٢١ .

ويطلق سارتون على تقدم اليونان الرائع في ثلاثة قرون " معجزة " تشير الإعجاب والحيرة، ولو أنه يؤكد مرارا إنه متصل بما قبله، وحتى الفلسفة فيه هي زهرة لسلسلة طويلة من جهود ليست يونانية فحسب، فهي - وكذلك الشعر الهوميري - نهاية لا بداية ^(١)

وينافس (سارتون) اشتراط " التجريد " ليكون العلم علما، ويذهب إلى أنه لا حدود للتجريد، ولا أوصاف معينة محددة له حتى نقول هنا بدأ، وإنه منذ اخترع أول إنسان أو أناس العدد واللغة كان هناك تجريد !

فالعلم بدأ حينما - وحيثما - عمد الناس إلى حل عديد من معضلات الحياة، صحيح إن هذه المحاولات الأولى لم تكن إلا وسائل لتحقيق أغراض وقتية، ولكنها كانت كافية لبدء العلم، وعلى توالي الأيام خضعت هذه الوسائل لعمليات الموازنة والتقييم والتبرير والتبسيط والترابط والتكامل، وهكذا أخذت مادة العلم تنشأ في بطن، وهذه البدايات تافهة مضطربة، غير أن هذا لا يعيبها ^(٢)

وقد يقال إننا لا نستطيع أن نتكلم إطلاقا عن " العلم " ما دمنا لم نصل بعد إلى درجة من التجريد، ولكن الذي سيقبَس تلك الدرجة؟ فعندما أدرك أول رياضي أن هناك شيئا مشتركا بين ثلاث نخلات وثلاث حمير، ماذا كان مستوى فكرته هذه من التجريد؟ ويضرب سارتون أمثلة كثيرة، الصناعات المختلفة، كالسهام والآلات البسيطة، وأمور الطبخ، والزراعة، والنقل، والطب، والرياضيات، وجزئيات ما وصل إليه الإنسان منذ عصوره البدائية، وقبل ظهور الحضارات الكبرى، قبل عصور الكتابة، جزئيات تحصى، وكل منها أدخلت عليه تحسينات مستمرة، وقد تعودنا أن نعتقد - لأننا ولدنا في مرحلة أصبحت فيها هذه الأمور اعتيادية - إن الإنسان منذ كان، يعرف هذه الأمور البسيطة جداً

^(١) نفسه، ص ٣٤٧-٣٤٩ .

^(٢) وشبه هذا قول (لويدي) عن بدء العلم، الذي يؤكد مثل سارتون - وهو لاحق له - على أهمية التكنولوجيا، وتجمع الخبرة تدريجيا (، E. R. Lloyd : Early Greek science . - Lodon, 1970, P. 2 ويعرف (كروثر) العلم بأنه " نظام السلوك الذي بواسطته تنهيا للإنسان السيطرة على بيئته، وبالتالي فلا يوجد مجتمع بشري بدون علم مهما كانت نسبة " انظر : - G.G. crowther : the social Relation of science , London, 1967, P.1.

في نظرنا، مع أن كل آلة من آلات القطع والنحت، السليخ والضغط وغيرها، وكل اسم نبات، ومعرفة لخصائصه في الأكل أو العقاقير، كل هذه الأمور استلزمت - على حد تعبير سارتون - "التعاون الشعوري، واللاشعوري لآلاف من الناس" (١).

ويفسر سارتون كيف وصل البدائي أو أول رياضي في العالم، إلى فكرة العدد: الواحد، الاثنين.. الخ على أساس تجريدي، وفي ذلك رد على دعاة "العلم المجرد" الذي بدأ مع اليونان ! إن ظهور العدد منذ كان الإنسان، أو على الأقل منذ آلاف السنين، قبل ظهور حضارة العراق ومصر والصين الخ، يعني نوعاً من التجريد، هو التجريد كله، لأن الخطوة الأولى هي أهم الخطوات في كل شيء، وجميع البشر، بل جميع أنواع الحيوان الواقع تحت الأنظار ينقسم إلى ذكر وأنثى، والأب والأم وطفليهما الأول يؤلفون ثالوثاً، وللنهر جهتان: مصعده ومنحدرة، ولكن للشخص الواقف في السهل تبدو جهات أكثر، فإذا وقف باسطاً ذراعيه انكشف لقطه أربع جهات متميزة.. لا يلبث أن تعبر هذا بكلمات أربع... وهي أمام ووراء ويمين، وشمال، ويمكن أن يضاف جهة خامسة هي المركز أي المكان الذي يقف فيه، فضلاً عن جهتين أخريين وهما السماء من فوقه والأرض من تحته، ومن هنا تنشأ تصورات الخمسية والستية والسبعية.

وأكتسب التصور الأول من هذه التصورات قوة بوجود الأصابع الخمس، وبذا كان من الطبيعي عند عد الأشياء على يد أو قدم واحدة، أن تقسم تقسيماً خمسياً، وأن توصف بأنها "كذا" و "كذا" من الأيدي، والمجموعات الأكبر من هذه - كالعشرة أو العشرين - جاءت طبيعية كذلك، ولكنها كانت أكثر صعوبة في إدراكها، وأخذ معظم الناس - أو أن شئت فقل كلهم - هذه المجموعات العددية قضية مسلمة، ولم يعيروها تفكيراً، ولكن إذا ظهر بينهم رياضي مطبوع - وهل هناك من سبب ألا يظهر؟ - فلا بد أن يدرك وجود الأعداد، أي الأعداد المجردة المستقلة عن الأشياء المحدودة، أما اللاهوتيين وعلماء الكونيات فلعل عقولهم انبهرت بالواحد الذي تولدت منه جميع الأشياء الأخرى، أو بالاثنتين

(١) سارتون : ص ٤٤-٤٥ .

الذين يعبران عن العندية، ونجد فكرة الثنائية التي تعمقتها الديانة " الزرادشتية " متأصلة في أعمتى قرارة الضمير الإنساني ^(١) .

فالدافع لهذا التقدم في الميادين المختلفة منذ كان الإنسان، هو الممارسة، وقانون الخطأ والصواب، والإقتداء بالطبيعة، وهذه المعارف هي علم بمعنى العلم البحث، إذ لا حدود لمعنى التجريد، وإذا كان المقصود بالعلم البحث، المعرفة لأجل المعرفة، فهذا غير صادق بإطلاق، إذ لكل معرفة محتواها الاجتماعي وجانبها العملي.

وإذا كان فضل العلم البدائي هو كما قدمنا، فإن ما قدمه المصريون وسكان وادي الرافدين مؤكداً، ففي الرياضيات واللغة والفلك والطب والقانون والدين، قدموا الكثير مما يحتاج توضيحه إلى بحوث لا مجرد إشارة .

ويقدم سارتون معلومات عن طب متقدم عن المصريين، ويذكر أنصار الثقافة اليونانية فيقول :

" وينبغي أن يذكر أولئك الذين يقولون بأن هيبوكراتس أبو الطب، أنه يجيء في منتصف المسافة الزمنية بين إيمحتب ^(٢) وبيثا، وفي ذلك ما يكفي لتعديل منظورهم إلى العلم القديم " ^(٣)

ويكفي أن نقارن بين تشخيص المصري القديم لأغراض المريض، ومعرفة المرض من خلال الفحص العام والخاص للجسم، ثم الملاحظة اليومية المستمرة، ثم العلاج، والتعليقات عن تقدم المريض، يكفي أن نقارن هذا كله بما نجده في الطب الهيبوقراطي بعد المصريين القدماء بآلف سنة، لنرى مدى تقدم الطب عند المصريين ^(٤)

^(١) نفس المصدر : ص ٥٢-٥٤، ص ٥٧ وما بعدها.

^(٢) أقدم طبيب مصري معروف باسمه وهو وزير الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة في القرن الثلاثين قبل الميلاد.

^(٣) سارتون : ص ١١٣ .

^(٤) أنظر في الطب الهيبوقراطي : كتاب لويد Early Greek Science, ch. 5

وعن الطب المصري القديم : سارتون ص ١١٤ وما بعد، وكذلك بول غليونجي، " ابن النفيس " الكويت، بلا تاريخ، الباب الثاني والثالث والرابع عن الطب البابلي والمصري واليوناني، ص ١٥-١٦ .

ويتساءل سارتون بعد ذلك :

" هل نستطيع أن نتكلم عن " علم " مصرى، أم هل كان ذلك تطبيقاً تجريبياً عابراً وأساطير موروثة ؟ ما هو العلم ؟ أليس من حقنا أن نقول كلما حاول الإنسان حل معضلة بطريقة منهجية وفقاً لترتيب سابق أو خطة، أننا أمام منهج علمى، أى إننا نشهد نشأة العلم على حقيقته، ... والمصريون لم يبدأوا العلم فحسب، بل قطعوا شوطاً بعيداً فى الطريق الذى مازلنا نسير فيه " (١)

وعن فلك وادى الرافدين، ومآثرهم فيه، يقول سارتون :

" على أن سهمهم الكبير فى ميدان المعرفة الفلكية هو المعرفة العامة، إذ الواقع أنهم المؤسسون للفلك العلمى، وأن النتائج المدهشة التى حصل عليها الفلكيون الكلدانيون والإغريق من بعدهم أمكن تحقيقها بفضل استنادهم إلى الأساس البابلي (٢)

وعن أهمية مسألة حمورابى، تقرأ قوله :

" وهذا القانون أقدم ما وصل إلينا من القوانين فى صورة كاملة تقريباً، وهو برغم قدمه أبعد من أن يكون شريعة بدائية، إذ ينم عن تطور طويل للفكر القانونى، ويصور لنا الناحية القانونية من العبقرية البشرية تصويراً باهراً، وهى ناحية لا يمكن الاستغناء عنها فى بناء أية حضارة " (٣)

وينتهى سارتون إلى القول :

" وإنى واثق من أن الذين قرأوا ما قلته - على قصره - عن العلم المصرى والسومرى، فى أول عهده، يستطيعون أن يردوا على أولئك الأصدقاء - اليونانيين - فكثير من ذلك العلم القديم أصيل نقى جدير بالإعجاب، وبعضه أعلى مستوى من العلم اليونانى القديم، ومن الخيف أن يسرف الإنسان فى إظهار ما فى العلم الشرقى القديم من نواح لا تعتمد على العقل، وأن يقارنها بأعظم نواحي العلم

(١) سارتون، ص ١٢٠-١٢٢ .

(٢) نفسه، ص ١٧٨-١٧٩ .

(٣) نفس المصدر، ص ١٩٢ .

اليوناني جنوحاً إلى استعمال العقل تاركاً الأسرار الدينية اليونانية وغيرها، مما لا يستند إلى العقل، دون أن يتكلم عنها " (١)

وختاماً نقول مع سارتون :

والآن يبدو أن على كاهل الذين ينكرون تأثير الشرق في الحضارة اليونانية، أو ينحسون قيمته، من العبء، في إقامة الدليل على رأيهم، مثل ما على كاهل حضومتهم... فالذين ينكرون إمكان تأثر اليونانيين بحضارات الشرق ويعوزهم التقدير الكافي للحضارات الشرقية القديمة، وتعودهم الخبرة بأحوال الإنسان، وكلا وجهي هذا القصور كان يمكن الإغضاء عنه منذ قرن مضى، أما اليوم فلا عذر لأصحابه .

٢- هوبهوز :

يقسم هوبهوز - وهو عالم أثروبولوجي - المراحل الحضارية الكبرى لتطور الفكر البشري إلى خمس هي :

١- مرحلة مجتمعات ما قبل الكتابة the pre-Literate Societies

٢- مرحلة بواكير العلم في الشرق القديم، بابل ومصر والصين القديمة،

the stage of pre - to - science.

٣- مرحلة التأمل في الشرق (القرن الثامن - الخامس ق.م) في الصين وفلسطين والهند. the stage of Realection

٤- مرحلة التفكير الانتقادي المنظم في الإغريق .

the stage of critical and systematic thought.

٥- المرحلة الحديثة ابتداء بالقرن السادس عشر (٢) .

Modern World .. Aron the 16 th. C.

(١) نفسه، ص ٢٧٣ .

(٢) Hobhouse : Mind in Evolution, london 1951, p.374 -385

ويجعل هوبهوز هذه المراحل أربعا فهو يدمج انقسم الثالث والرابع معك أى الفكر التأملى عند الصين والهنود وفلسطين واليونان، ويعطيه خصائص واحدة، فعلى يد البراهمة والزرادشتية، وفلسفة لا تسووكونفوشيوس، احتاج العقل المستيقظ إلى نظرية موحدة عن الكون، ولم يعد مكتفيا بالتفسير الأسطوري حيث استبدلت التخيلات البدائية بتصورات عقلية محددة مبنية على تحليل وإعادة بناء الأفكار البدائية⁽¹⁾ وهذا له دلالة كبيرة، فهو هنا يعتبر تأملات هؤلاء وفلسفة اليونان من طبيعة واحدة، وهذا يقوى من شعورنا بأنه من الظلم حقا إصرار بعض المؤرخين الغربيين على أن التأمل الحق أو الفلسفة إنما تبدأ مع اليونان.

وعنده أن الإنسان في (بابل ومصر) عرف المقولات، وميز بينها عمليا دون أن يسميها أو يصفها وصفا نظريا، على منوال ما نجده في المنطق الصورى ابتداء بأرسطو، وهذا في الحقيقة ينطبق على كل الفلسفة والعلم قبل أرسطو، ولكن ما قام به أرسطو ليس سوى وضع الإطار النظرى لما جرى الاعتراف به والإقرار بكامل مضمونه ونتائجه قبل فترة طويلة .

وينتهى (هوبهوز) إلى القول أنه لا العلم ولا الفكر ولا المنطق ولا الميتافيزيقا، بدأ مع اليونان، وأن أسس التفكير وضعت قبل اليونان، مثل تسمية الأشياء، تمييز بعضها عن بعض، معرفة خصائصها واستخداماتها، إدراك العلاقات فيما بينها، كذلك زاول الإنسان عمليا المقولات والمبادئ المنطقية، ووصلت في أطوار متأخرة إلى ما يدل على إدراكه لها إدراكا تاما، يتضح ذلك في أحكامه الخلقية، وقوانينه، وهندسته، وزراعته، وفنونه، وحرفه، وعلومه الطبيعية كالكيمياء، ولم يبق لليونان سوى وضع هذه القواعد المنطقية رسميا بشكل قوانين منطقية أو رياضية .

وكذلك، إن محاولة بناء موقف منظم " معقول " من الكون والأشياء وجد عند الصينيين والهنود وجميع الأديان الكبرى، كما أن العلوم قطعت شوطا عمليا ونظريا عند سابقى اليونان، وليس هناك وقت ولا مكان نستطيع أن نقول أن فيه بدأ العلم لأجل العلم، أو فيه بدأ التجريد العقلى والتعميم.

(1) Mind in Evolution , p.459.

٣- يذهب - أورسيل - إلى أن التفكير الفلسفى ليس وقفاً على الغرب وحده، بل إنه - الغرب - مسبق في هذه الناحية بالشرق، كما يقرر في صراحة أنه ليس الآن من يستطيع الاعتقاد بأن اليونان وروما وشعوب أوربا في العصور الوسطى والحديثة، هم، دون سواهم، أرباب التفكير الفلسفى؛ ففي جهات أخرى من الإنسانية سطعت عدة مواطن للتفكير المجرد، وظهرت أشعتها جلياً في شتى الأنحاء^(١)

وإنه ليكفى في الدلالة على ذلك أن نورد بعض الوقائع الساطعة الثابتة : تفجر الروح الشرقية عند الفلاسفة السابقين لسقراط وعند أفلاطون نفسه، والأصل السامى لجمهرة الفلاسفة الرواقيين والجو الدينى الذى نمت فيه الأفلاطونية الحديثة، وغزو المذهب المانوى الإيراني الأصل؛ وإذن يكون من السذاجة الظن بأن كل هذا مرجعه إلى تقدم العبقريّة اليونانية تقدماً منطقياً حتمياً^(٢).

وفى رأى أورسيل، أنه ليس من السهل أن نعثر على أصل هذا اللحن، ولكن من الممكن أن نقرب من هذا الأصل، فنذكر الأصول المشتركة للفكر الأوروبى الآسيوى، ونفهم كيف قامت هذه الحركة الفكرية الكبيرة، التى اتسع نطاقها فجابت العالم من أحد طرفيه للآخر؛ ولنأخذ مثلاً لهذا "ديانات الخلاص" التى نشأت ببلاد إيران، ونمت وترعرعت من منتصف الألف الأول قبل الميلاد فى أوروبا وآسيا بأسرها، والتى لا تزال تشهد ظواهرها العديدة إلى هذا العصر الذى نعيش فيه. ويذهب - أورسيل - إلى أن إدراك تلك الروابط والعلاقات إدراكاً واضحاً، لا يتجه الى اعتبار هذه المذاهب متماثلة عن طريق الحكم التعسفى الذاتى على الظواهر، بل يكون عن طريق الصلات التاريخية الحقيقية القابلة للمراجعة والتمحيص، فإلى جانب بعض العناصر المشتركة التى توجد هنا وهناك، يُعترف بوجود عناصر أخرى ذات طابع خاص يجعلها غير قابلة للانتقال من حضارة لأخرى، ومن قبيل هذه العناصر، ما يوجد فى اللوحات القيمة للفكر الهندى والصينى.

(١)، (٢) أورسيل (بول ماسون) : الفلسفة فى الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف، بمصر،

ففى مبدأ التفكير الهندى كانت طقوس التضحيات، ثم نظام الخلاص السائد فى البوذية الذى وجد صداه بعدئذ لدى البراهمة المتأخرين، وممارسة "اليوجا"؛ وفى الصين كانت أنظمة إنسانية ترمى إلى ضبط سير الفصول وشئون الدولة، والآداب الاجتماعية التى سارت على وتيرة كونية، وتصوف المذهب التاوى؛ كل أولئك ليست إلا قواعد عملية نشأت عنها بطبيعة الحال صور تتفق مع تفكيرهم عن العالم والآلهة، وتتطلب لتكون واضحة ضرباً من الرمزية المنطقية، ولكن تمثيل تصوير الأشياء تصويراً منطقياً يستمد كل قيمة من الوظيفة الضرورية التى يؤديها عملياً.

وإذا كان البعض قد اعترض بأن تلك النظم الشرقية كان جلها أكثر صلة بالحياة الدينية منها بالتفكير الفلسفى، فإن أورسيل يجيب بأن كلا نوعى التفكير قد اختلط خلال عصور الإنسانية كلها، وكل محاولة ترمى إلى إيجاد فاصل حاسم بينهما سيؤدى إلى جعل كليهما غير مفهوم.^(١)

فمنذ أقدم عصور التاريخ قامت فى جهات مختلفة جهود فى التفكير الحر؛ فالمذهب الواقعى لم يحتكر الأخلاق المستقلة، ولا الروح التى لا تتقيد بالدين، ولكن يمكن أن نقول قطعاً بوجه عام إن البحث الفلسفى نشأ على أثر الإيمان بالدين، وكثيراً، ما تولدت الأديان عن الفلسفات.

٤- يحدد توملين، فيحدد خصائص الفكر الشرقى والغربى قائلاً:

إن من يتناولون فلاسفة الشرق بالدراسة، بعد دراسة عميقة للفكر الغربى - لابد أن يسترعى انتباههم مظهر واحد بارز، إذ أنه فى الوقت الذى نجد فيه عدداً كبيراً من فلاسفة الغرب، وخاصة فى العصر الحديث، يسهبون فى شرح مسائل فنية دقيقة، ويظهرون أنهم يتجنبون العموميات حول الكون باعتباره كلاً، نجد أن فلاسفة الشرق لم تغب عن نظرهم قط المسألة الأساسية، أى تلك التى تتناول معنى الحياة والغرض منها.

ومن أقدم التأملات الفلسفية الملازمة للفكر الهندى القديم، إلى حكماء الهند المعاصرين، استمر البحث بدون توقف لا سعياً وراء المزيد من اليقين، بقدر ما هو بحث عن الحقيقة، كما أن هذا الانشغال لم يكن وقفاً على قلة قليلة من

^(١) الفلسفة فى الشرق، ص ١٦

الناس، لهم تفردهم وعلمهم، أو ورعهم في كل جيل، بل فرض نفسه على عقول ملايين، ممن يمجج بهم الشرق، من وجهة نظر الغرب، ومن ثم كان هذا التمييز الذي يلقي قبولاً من الجميع، بين "مادية الغرب" و"صوفية الشرق"^(١)

ويرى -توملين- أن ما يضمنى على دراسة الفكر الشرقى سحره الخاص به، هو حقيقة، أنه ليس مجرد كونه أعرق قدماً من الفكر الغربى، بل لأنه يعبر عن استمرار أبعد، وفي استعراضنا لتاريخ الفكر البشرى الطويل نلاحظ أن البحث الفلسفى الغربى ماهو إلا مجرد فرع -برغم ازدهاره- من شجرة العائلة الشرقية، وهذا بلا شك هو السبب فى أن المفكرين الأوروبيين أمثال شيلنج وشوبنهاور وجوته وتولستوى، قد أدهشهم، عند بدء تعرفهم على الفلسفة الشرقية، عمقها المذهل، وهى فى الواقع عميقة، وعمقها هو ذلك العمق الذى هو نتيجة أن لها جذوراً عميقة.

٥- يدعونا (كولر) إلى أن نفهم الفلسفة الشرقية، على نحو ما فهمها أصحابها، بمعنى ألا نحاول أن نفرض علينا مفاهيم جاهزة، مستمدة من الفلسفة الغربية، إن علينا، كما يقول، أن ندرس الفلسفة الشرقية فى إطار معاييرها الخاصة.

ويذهب إلى أن فلاسفة الغرب يهتمون، فى بعض الأحيان، بأنهم يعيشون فى أبراج عاجية، عندما يعكفون على مفاهيم مجردة بعيدة عن أرض الواقع، ويكتفون بتركيز اهتمامهم فيها، متجاهلين المسائل الكبرى المتعلقة بالحياة، أما فلاسفة الشرق، فهم - فى رأيه- قد تجنبوا هذه التهمة عندما استمر التواصل بينهم وبين مسائل الحياة، عائدتين بصفة مستمرة إلى محك التجربة الإنسانية.

لكن ذلك لا يعنى أن فلاسفة الشرق قد ركزوا فلسفاتهم ومذاهبهم على مشكلات السلوك البشرى والقيم الأخلاقية وحدها، فنحن نجد عند كثيرين منهم اهتماماً بمشكلات ميتافيزيقية أساسية.

(١) أ.و.ف. توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم، مراجعة على أدهم، دار المعارف،

مصر، ١٩٨٠، ص ١٧ من المقدمة

فهناك مدرسة ترى أنَّ الذات أو النفس جوهرٌ قائمٌ بذاته، بل وتنظر إلى الواقع نفسه من هذا المنظور، في حين تنكر مدارسٍ أخرى فكرة الجوهر وتعتبرها مجرد "وهم" لا أساس له، وهناك مدارس تؤمن بأن الواقع مؤلفٌ من عدد هائل من العناصر النهائية، وهي التي يسميها - كولر - بـ "الواقعية التعددية"، ثم تأتي مدرسة أخرى تفند هذه "الواقعية التعددية"، وترى أنها تنطوي على تناقض ذاتي، لأنَّ الواقع هو مجرد "خواء".

هناك مدارس، إذن، ترفض "الجوهر" و "الهوية" والدوام أو الثبات، وتصرى أنَّ هوية الأشياء ودوامها مسألة وهمية؛ ومن ثم فإن رؤية الواقع من خلال منظور الجوهر هي زعمٌ باطل لا أساس له، لأنَّ الأشياء لا تكف عن الظهور والاختفاء، فلا هوية دائمة بين الأشياء، بل عناصر تنشأ وتنفرد، وتتوقف وتظهر وتختفي على نحوٍ مستمر.

وهناك مدرسة "التاو.. Tao.." الشهيرة التي تجعل المبدأ الأول المطلق لكل شيء وجوداً لا سمة له ولا خواص، ولا تعيّن ولا تحديد، لكن الوجود الذي يخلو تماماً من كل سمة هو "العدم" وهكذا نجد أنَّ البداية التي كانت وجوداً خالصاً قد تحولت إلى عدم خالص، فتخبرنا هذه المدرسة، أنَّ الأضداد يتحول بعضها إلى بعض، فعندما يصل شيء ما، وهو يسير في اتجاه معين، إلى حده الأقصى، فإنَّه يعكس اتجاهه، ويعود إلى الاتجاه الآخر، وينطبق هذا المبدأ على عالم المادة والروح على حدٍ سواء، فعندما تغدو الدنيا باردة للغاية فلا بد أن نتوقع أن عكساً للأمر سوف يقع، بحيث يبدأ الدفء في القدوم، وعندما يتفاقم الحر، يبدأ في الانعدام، ويظهر البرد، وهذا هو طريق الطبيعة على نحو ما نراه في تعاقب الفصول، كذلك عندما تكون هناك حياة، يكون هناك موت، وعندما يكون هناك موت تكون هناك حياة، وقُلْ مثل ذلك في الأمور الروحية، فعندما يغدو شخصٌ شديد الكبرياء والغرور فإنَّ الفضيحة والذل يعقبان^(١).

وفي اعتقاد كولر، أنَّ تراث الفلسفة الشرقية، لا يقل قيمة ولا أهمية عن تراث الفلسفة الغربية، أما الزعم بأنه لا يمكن الأخذ بيد شخصٍ ما إلى رحاب الفلسفة إلا من خلال دراسة كبار المفكرين، والمشكلات الرئيسية في التراث

(١) راجع جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص ١١-١٢ من المقدمة.

الغربي، فهو افتراض ضيق الأفق على نحو بالغ الوضوح، حتى أن المرء ليعجب من أنه استمر قائماً دونما تقييد له بصورة كاملة تقريباً.

ويُنظر في الغرب إلى الفلسفة، عادة، من خلال فلاسفة العالم الغربي التقليديين، ولكن ليست هناك ميزة خاصة في فهم طبيعة الفلسفة والمشكلات الفلسفية، أن ندرس فلاسفة تصادف أنهم عاشوا في نصف الكرة الغربي، فالموقع الجغرافي لا أهمية له هنا، وهناك بالطبع، ميزة في دراسة الفلاسفة الغربيين، إذا لم يكن مقتصرًا على فهم طبيعة النشاط الفلسفي، والاقتراب من مواقف فلسفية معينة فحسب، وإنما استخدام التراث الفلسفي كوسيلة لاستيعاب تلك الأفكار التي شكلت الوضع الراهن للإنسان في نصف الكرة الغربي، ولكن هناك، للسبب نفسه، ميزة في دراسة الفلاسفة الشرقيين، ذلك أنه بالإضافة إلى تعرف المرء على طبيعة الفلسفة، فإنه يكتسب كذلك فهماً للوضع الراهن للإنسان في الشرق.

والأسئلة المهمة المتعلقة بالحياة ليست مختلفة بالنسبة للشرق عنها بالنسبة للغرب، وأسئلة من قبيل: ما الإنسان؟ ماهي طبيعة الكون الذي يحيا فيه الإنسان؟ فيم تتمثل الحياة الفلسفية؟ وكيف يتأتى لنا أن نعرف أن الدعاوى التي ندعيها عن طبيعة الإنسان والكون والحياة الطبيعية هي دعاوى حقيقية؟ هذه الأسئلة، هي أسئلة فلسفية أساسية مشتركة بين البشر جميعاً، على امتداد العالم، لأنها تثور حينما وحيثما يتأمل الإنسان في تجربته، وتثور هذه الأسئلة، بالطبع، في سياقات مختلفة، وتتخذ أشكالاً متباينة، بالنسبة لأناس يعيشون في أزمان مختلفة، وأماكن شتى، وقد تختلف الإجابات فيما بينها اختلافاً كبيراً، ولكن تلك مشكلات الإنسان بإعتباره إنساناً، تنشأ من الفضول المراكب لطبيعته الواعية بذاتها، والإلحاح الفطري لتحسين ظروف وجوده، وما من موجود بشري يمكن أن يحيا دون أن يُمعن النظر فيها؛ وليس المهم أن نُجيب، أو لا نُجيب، عن هذه الأسئلة، بل ما إذا كانت الردود ستكون صريحة ومدروسة، وقوية الحجّة، أو مفترضة، وضمنية في الأعمال التي تشكل تاريخ شخص بعينه واستناداً إلى الافتراض السهل القائل، بأن فهم هذه الأسئلة على نحو ما طرحها الفلاسفة، وتحليل الإجابات التي قدموها من شأنه أن يُساعد الشخص على أن يفهم الإجابات التي يقدمها في معرض الرد على هذه الأسئلة، وأن يقومها بشكل أفضل - استناداً إلى هذا الافتراض - يبدو جلياً أنه من المهم معرفة الأشكال الخاصة والسياق الخاص

بالأسئلة الفلسفية الأساسية والرد عليها، لا على نحو ما تبذرت في التراث الغربي فحسب، وإنما على نحو ما تجلت في تراث الإنسان الفلسفي بأسره.

فقصة الفلسفة هي قصة التأمل البشري في الحياة، ومشكلات الحياة هي نبع الفلسفة ومحك اختبارها، ولو أن احتياجاتنا العملية كافة تمت تلبيتها، وجرى اشباع فضولنا الإنساني، فمن غير المحتمل أن يكرن هناك نشاط فلسفي، ذلك أن المصدرين الأساسيين، للفلسفة هما الفضول فيما يتعلق بالذات وبالعلم، والرغبة في التغلب على جميع أنواع المعاناة؛ إذ تُفضي الاحتياجات العملية والفضول النظري إلى النشاط الفلسفي، فالناس يتأملون ذواتهم على نحو طبيعي، وليس لنا احتياجات وفضول فحسب، وإنما نحن ندرك أن لذواتنا هذه الاحتياجات وذلك الفضول، ونحن ننظر إلى دواتنا في سياق ما يحيط بنا، باعتبارنا كائنات تكافح للتغلب على المعاناة، وتحاول كشف أسرار الوجود، وعلى هذا النحو فإننا نفحص أي نوع من الموجودات نكون؟ وفي أي نوع من العالم نعيش، كما نفحص مصادر القيمة والمعرفة التي تميز وجودنا، فالنشاط الذي يدور حول تأمل الذات هو ما يشكل الفلسفة.

ولكن كيف يتأتى لنا أن نعرف أن أفكاراً بعينها صحيحة؟ إن التفكير التأملي يضع كل فكرة موضع التساؤل، ويسعى إلى معيار يختبر به مدى صحتها، وفي غمار هذه العملية تتولد أفكار جديدة، وتوضع موضع التساؤل، وإما أن تُقبل أو تُرفض، وفي سعيها لأن نعرف على وجه اليقين من نحن، وكيف ينبغي لنا أن نحيا، فإننا لا نتأمل تجربتنا فحسب، وإنما نُفحص أفكار الآخرين، الذين أمعنوا التفكير بمزيد من العناية في أسئلة الحياة الجوهرية.

ولما كانت هذه هي أكثر الأسئلة أهمية، فإن علينا أن نتصدى لكل رد مقترح، وأن نختبره بكل ما وسعنا من طرق، للتأكد من أنه رد يمكن الاعتماد عليه، وكل صياغة للسؤال، ولكل جانب من كل رد ينبغي فحصه من كل الوجوه، بل ينبغي التصدى بالفعل للمعايير التي تستخدم في اختبار ردودنا، ولكن كيف نعرف متى يكون الجواب صحيحاً؟ وما المعرفة؟ وكيف نعرف أن ما نسميه بالمعرفة هو معرفة حقاً؟

والغرب، في رأي كولر، مسئول إلى حد كبير، عن اتهام الفلاسفة في بعض الأحيان، بأنهم يعيشون في أبراج عاجية، متجاهلين الاهتمامات الكبرى المتعلقة

بالحياة، ذلك أننا - في الغرب - والحديث لكولر - معتادون، إلى حد كبير، على النظر إلى الفلسفة باعتبارها شيئاً مستقلاً عن الحياة، مغرقاً في التجريد، وفي الطابع الأكاديمي بالنسبة للشخص العادي^(١).

أما في الشرق فإنَّ الهوة بين الفلاسفة والناس العاديين، ليست على هذا القدر من الاتساع، ذلك أنَّ الفلاسفة الشرقيين يستمرون في التواصل عن كثب مع الحياة، عائدین إلى محك التجربة الإنسانية لاختبار نظرياتهم، والناس العاديون يمتدنون باهتمامهم إلى ما يتجاوز حياتهم العادية، ويكافحون لرؤية الوضع الصحيح لوجودهم وفهمه، من خلال المفاهيم الفلسفية.

ويرجع هذا الاختلاف بين الشرق والغرب، وهو على وجه اليقين اختلاف في الدرجة، في جانب من جوانبه، إلى التشديد الشرقي على كمال الحياة والمعرفة، ويميل الشرقيون إلى تجنب تجزئة وعزل الحياة والمعرفة، والنتيجة المترتبة على ذلك هي أنَّهم لايفصلون بين ميادين الفلسفة المختلفة، مثل نظرية المعرفة، ونظرية الوجود، ونظرية الفن، ونظرية السلوك، ونظرية التنظيم السياسي، فليس هناك تمييز قاطع بين الفلسفة الشرقية والديانة الشرقية، أو بين الفلسفة وعلم النفس، أو بين الفلسفة والعلم، ومن النتائج المترتبة على ذلك، الميل الشرقي إلى حمل الفلسفة محمل الجد البالغ، فهي في الشرق ليست أمراً مجرداً متسماً بالطابع الأكاديمي، أو لاتربطه كبير صلة بالحياة اليومية، وإنما يُنظر إليها باعتبارها المشروع الأكثر أهمية وجذرية للحياة.

ونأخذ مثالين لذلك، "الكونفوشية" في الصين، و"اليوجا" في الهند، فالأولى أصبحت الفلسفة الرسمية في الصين، لدرجة أنه كان من المستحيل الحصول على وظيفة حكومية دون معرفة أعمال كونفوشيوس، ويُحدثنا التاريخ الصيني عن العديد من الملوك والفنانين والمثقفين الذين كانوا فلاسفة، وينظر الصينيون إلى الفكر والممارسة، على أنَّه لايفصل أحدهما عن الآخر، كجانبيين لنشاط واحد، وتنعكس المشكلات الجوهرية للفلسفة الصينية في هذين السؤالين: "كيف يمكن تحقيق التناغم مع الإنسانية بأسرها؟" و"كيف يمكن تحقيق التناغم مع الطبيعة؟".

(١) الفكر الشرقي القديم، ص ٢٠

وكون المرء في حالة تناغم مع نفسه قد نظر إليه باعتباره الأساس
الضروري لتحقيق التناغم مع الآخرين، وكون المرء في حالة تناغم مع نفسه ومع
بقية الإنسانية هو "الخير الأسمى" في الفلسفة الصينية، وإذا كانت الطبيعة الأساسية
للإنسان يُنظر إليها، أساساً باعتبارها طبيعة أخلاقية، فإن السائد في الجانب
الأعظم من الفلسفة الصينية قد تمثل في الأخلاق؛ وتمثل في السؤالين: "كيف
يمكنني أن أكون خيراً؟" و "ما هو أساس الخير؟" هما سؤالان أساسيان، على
امتداد تاريخ الفلسفة الصينية.

والثانية - أي اليوجا الهندية - فتهدف إلى تحقيق التكامل المطلق للحياة،
في شكل ترويض النفس، ولكي يُتاح هذا لكل الأشخاص، فإنه يتم توجيهه عبر
نشاطات العبادة والتفاني، ونشاطات العمل، ونشاطات المعرفة والتركيز، ودروب
ترويض النفس، هذه هي الحكمة الفلسفية، التي تنهت عبر العصور وقد وضعها
الناس موضع الممارسة، ويمكن العثور على مصدر حكمة ترويض النفس هذه في
ذلك التركيب، المؤلف من التجربة الشخصية العميقة والثرية، والتفسير العقلاني
المجرد إلى حد بعيد، الذي يميز العقلية الهندية.

وقد اعتنق الملايين من الناس في المناطق البوذية من آسيا، تعاليم
"جوتاما سد هارت" ^(١) الساعي وراء الحكمة، باعتبارها حلاً لكل ضروب
المعاناة التي تحفل بها الحياة، والمشكلة الجوهرية لدى البوذية هي مشكلة التغلب
على المعاناة، وتدور التعاليم الأساسية التي قال بها بوذا حول هذه الأسئلة: ما
المعاناة؟ كيف تنشأ؟ كيف يمكن القضاء عليها؟ كيف يتعين علينا أن نحيا لكي
نحقق وجوداً يخلو من المعاناة؟ غير أنه لا سبيل إلى الإجابة عن هذه الأسئلة، دون
البحث في طبيعة الذات التي تُعاني، وطبيعة العالم الذي يُشكل مصدراً للمعاناة
وبالنسبة للذات.

ويمكننا ذكر حالات تشابه عديدة بين مفكرى اليونان ومفكرى الهند،
فالتطبيعون اليونانيون لهم أمثالهم في أصحاب نظرية الجوهر الفرد القدماء، التي تعد

^(١) مؤسس البوذية، وُلد في حوالي العام ٥٥٣ ق.م.، ابناً لأحد زعماء قبيلة ساكاس، عند الحدود
الجنوبية لنيبال، وقد أدرك أن الموت يُلقى بظلاله على الحياة بأسرها، لتحول إلى ناسك، محققاً
الاستارة تحت شجرة "بو" في العام ٥٢٥ ق.م. وواصل نشر تعاليمه، حتى وفاته في حوالي العام
٤٨٠ ق.م.

أساساً للأنظمة الفلسفية أو الدينية في الهند، وفلسفة هيراقليطس والفيشاغوريين
فلسفتان شبيهتان كل الشبه بالفلسفة الهندية؟ الأولى بحكم فكرة التشاؤم
بالمستقبل، والثانية بحكم اعتقادها بتناسخ الأرواح ورغبتها الصادقة في الخلاص،
والتصوف العددي يجعل صلة قرابة بين الفيشاغوريين والبوذيين، كما يجعل اتصالاً
بين الساميين والمدرسة الأفلاطونية، وهناك في هذين الوسطين، نجد سوفسطائيين
وشكاكاً، فالأوائل ينقبون عن موارد للحجج، والآخرون ينكرون اليقين المنطقي،
ولهذا يمكن أن يُقال عن كليهما من الكلبيين^(١)، ولنضف إلى ما تقدم، أن ما أثير
عن أصحاب الرواق والأبيقوريين يحاكي تماماً النحل الشرقية التي تبحث عن
الخلاص والسعادة بواسطة المعرفة .

وكان تأثر الفلسفة اليونانية بأديان الشرق ومعتقداته من أبرز سماتها في هذا
العصر، فعرفت الزرادشتية ونظريتها الثنائية في الخير والشر وتفرقتها بين المادة
والنفس، وعرفت عبادة ميترا إله الشمس في فارس، ومجده الرومان بخاصة لأنه إله
الحروب، وعرفت ديانات الهند وفلسفاتها، كذلك عرفت الثقافة اليونانية بـبلاد
الشرق الأوسط، واشتد الصراع بينها وبين تراث اليهود والمسيحية، وانحصرت
مشكلات الفلسفة نتيجة لكل ذلك في البحث عن سعادة الفرد، ولم تُعد
الأخلاق، التي أصبحت المبحث الرئيسي في كل فلسفات هذا العصر تُفهم على
النحو السابق الذي كان لها عند فلاسفة عصر أفلاطون وأرسطو، وتخلصت من
ذلك الجانب السياسي والاجتماعي الذي كانت تتميز به.

وعلى الرغم من الفوارق العديدة بين فلسفات الهند والصين والمناطق
البوذية من آسيا، فإنها تتلاقى عند الاهتمام المشترك بالحياة والوجود، وكذلك
بالتعليم والمعرفة، ولذلك كان للفلسفة والفلاسفة أهمية فائقة في الثقافات الشرقية

(١) سُميت هذه الفلسفة بالكلية لأن مؤسسيها (أنستيس) كان يتخذ من ملعب الكلب مكاناً للتعليم،
ولأنه في رواية أخرى كان يُلقب نفسه بالكلب، وقد كان من أشهر تلاميذ سقراط، وتلميذ أيضاً
على أشهر سوفسطائي عصره مثل جورجياس، والفضيلة عنده في الأعمال والسلوك، وليست في
النظر، ولا تحتاج إلى علم ولا إلى هبة إلهية، ولكنها ثروة تعود والممارسة، شاع عنه قوله إن الفضيلة
هي الطريق الوحيد إلى السعادة، وأنها السلاح الذي لا يجب أن نلقى به مهما كانت الأحوال، وأن
علينا أن نُحصن أنفسنا بأسوار قوية من الفضيلة.

كافة، ومن الضروري لفهم حياة الشعوب الشرقية : مواقفنا من فهم فلسفاتنا،
ولفهم هذه الفلسفات من الضروري إمعان النظر في التراث الذى تطورت فيه
هذه الفلسفات والتي تُواصل من خلاله تغذية ثقافات آسيا .

٦- "برنال" وموسوعته " أثينا السوداء " والأصل المصرى- الشامى للحضارة
اليونانية:

ونصل إلى (برنال) صاحب كتاب "أثينا السوداء" الذى صدر مجلده الأول
والثانى خلال السنوات الثمانى الماضية، وأثار العديد من القضايا الفكرية الهامة فى
العالم الأوروبى والعربى، باعتباره من أكثر الكتب الجادة التى قوضت مفهوم "
المركزية الأوروبية" وأثبتت دور الحضارات القديمة (المصرية بصفة خاصة) فى
التأثير على الحضارة اليونانية، ومن ثم على الحضارة الأوروبية المعاصرة، وكثرت
المقالات العربية التى تناقش أهمية الكتاب، باعتباره من الكتب الهامة التى تشير إلى
العلاقة بين الحضارات القديمة، ووحدة الأصول الإنسانية .

(ومارتن برنال) صاحب الكتاب الموسوعة- أثينا السوداء- إنجليزى يعود
فى أصل أحد أبويه إلى اليهودية، يعمل أستاذاً فى جامعة كورنيل بالولايات
المتحدة الأمريكية، درس العلوم السياسية والإدارية فى كمبردج وتخصص فى
اللغات الصينية والآسيوية. وعنوان الكتاب - أثينا السوداء - فى حد ذاته-
وكما يصفه الدكتور حسن حنفى^(١) -جميل ودال، ويدعو إلى التفكير والتساؤل،
أثينا ليست بيضاء أى أن مصدر حضارتها ليس الغرب الآرى بل أفريقيا السوداء
أو الشرق الشامى فى آسيا، لذلك وضع المؤلف عنواناً فرعياً " الجذور الأفريقية
الآسيوية للحضارة القديمة"^(٢)، والكتاب كله فى أجزاءه الثلاثة ملحة فى تاريخ

^(١) الدكتور حسن حنفى: أثينا السوداء- أثينا المصرية، مجلة القاهرة، العدد (١٥٦) نوفمبر ١٩٩٥م،
ص ١٨٠-١٨١.

^(٢) Martin Bernal: Black Athena, The Afroasiatic roots of classical
civilization; Rutgers Universty press. New Brunswick, New Jersy,
U.S.A.
Vol.1 - The Fabrication of Ancient Greece 1785-1985-1987.
vol.2 - The Archedological and Documentary Evidence, 1991.
Vol.3- Solving the Riddle of the sphinx, In print.

مصر، وأنشودة لدورها في التاريخ، وفضلها على الحضارات الشرقية والغربية على السواء.

ويحاول الكتاب تأكيد الأصل المصري- الشامى للحضارة اليونانية القديمة، وبالتالي للفكر الغربى بشكل عام، وأكد برنال فى لقاءه مع المثقفين المصريين، على أن الكتاب ينصرف إلى التالى:

أن قدماء اليونان كانوا يرون أنهم استمدوا العناصر الرئيسية فى حضارتهم - مثل الأبجدية والكتابة - من مصر وبلاد الشام، وهناك روايات عدة تركها الكتاب اليونان القدماء تحكى لنا قصة علاقة قديمة نشأت بين بلاد اليونان - منذ أقدم مراحل تاريخها- وبين بلدان الشرق الأوسط، خصوصاً مصر وفينيقيا، إلا أن الأوروبيين المحدثين أنكروا هذه العلاقة، وذهبوا إلى أن حضارة اليونان -وبالتالى أوروبا - كانت متأثرة بمؤثرات تأتي أساساً من مصر والشام.

وملخص ما يقوله برنال هو أن القصص الأسطورية اليونانية القديمة تحكى حكاية جماعات مصرية وسورية استوطنت بلاد اليونان منذ القدم، كما أن أسماء المعبودات والمدن اليونانية تشبه الأسماء المصرية والفينيقية القديمة.

وتبين له من دراسة اللغة العربية- التى تعتبر جزءاً من اللهجة الكنعانية القديمة وجود تشابه بين هذه اللغة وبين اللغة اليونانية، ليس نتيجة للمصادفة، وإنما نتيجة لتنقلات التجاور الفينيقيين بين المدن اليونانية، وظهر له أن هناك العديد من الكلمات اليونانية التى تشبه الكنعانية، ليس فقط فى طريقة نطقها، وإنما أيضاً فى معناها، وبعد دراسة استمرت أربع سنوات، تبين له أن ربع الكلمات اليونانية القديمة يرجع فى أصله إلى العائلة السامية للغات، ثم لاحظ برنال -عند دراسته للغة القبطية- أن هناك تشابهاً كذلك بين ربع آخر من الكلمات اليونانية، وبين اللغة المصرية القديمة، وهنا بدأ يفكر فى احتمال أن تكون الروايات اليونانية القديمة ذات الطابع الأسطورى، والتى تشير إلى أن المصريين القدماء قاموا- بالاشتراك مع الفينيقيين - باستيطان بلاد اليونان، ذات دلالة تاريخية، و ليست مجرد روايات خيالية.

وتوصل برنال فى بحثه إلى أن الهكسوس الذين سيطروا على مصر منذ أواخر القرن ١٨ ق.م، قاموا فى ذلك الوقت بمد نفوذهم إلى البلاد اليونانية، وهذا

هو السبب - في رأيه - لانتقال عناصر الحضارة المصرية / الشامية، إلى بلاد اليونان منذ القدم.

بعض كتابات اليونان القدماء تكشف عن أثر مصرى وشامى قديم فى الحضارة اليونانية:

واستعرض مارتن برنال فى الفصل الأول من الجزء الأول من "أثينا السوداء" بعض الإشارات التى وردت فى كتابات اليونان القدماء، والتى تكشف عن أثر مصرى - شامى فى الحضارة اليونانية القديمة.

أ- هيروdot:

يذكر هيروdot أن الفينيقيين الذين حضروا إلى بلاد اليونان مع (قدموس) أدخلوا إلى اليونان، بعد استقرارهم فى البلاد عددا من المنجزات من أهمها الكتابة، وهى فن - على ما أعتقد - كان غير معروف لليونان.

وتحدث كذلك عن أن اليونان أخذوا أسماء آلهتهم عن المصريين، "ميلامبوس - فى رأيه - كان رجلاً قديراً وهو الذى حصل على فن العرافة، وأحضر إلى اليونان، مع تغيير بسيط، عدداً من الأشياء كان تعلمها فى مصر، من بينها عبادة ديونيسوس، وربما حصل (ميلامبوس) على معرفته بديونيسوس الصورى (الفينيقى) ومن حضر معه من فينيقيا إلى البلاد المسماة الآن بيوثيا، وجاءت أسماء كل الآلهة تقريبا من مصر.

ب- فيثاغورس:

أغلب المعلومات التى وصلتنا عن حياة فيثاغورس ورد فى كتاب "يامبليخوس" أحد أتباع أفلاطون فى القرن الرابع الميلادى الذى اعتمد على المصادر الموجودة فى عصره لكتابة تاريخ حياته، يقول الكتاب:

أن فيثاغورس ولد فى مدينة صيدا الفينيقية، ومنذ طفولته عهد أبوه بمهمة تربيته إلى معلم سورى، ولما بلغ فيثاغورس الثامنة عشرة من عمره رحل للقاء طاليس الذى نصحه بالسفر إلى مصر لاستكمال علومه هناك على يد كهنة منف، وبحسب ما جاء فى الفصل الثانى من كتاب يامبليخوس، فإن طاليس اعترف لفيثاغورس (بأن شهرته هو فى الحكمة جاءت عن طريق التعاليم التى تلقاها من هؤلاء الكهنة).

وفي مصر أمضى الشاب اليوناني - فيثاغورس - حياته متنقلاً بين معابدها، حيث درس على يد الكهنة مختلف فروع العلم والمعرفة، وتدرّب على علوم الفلك وأعمال المساحة والهندسة، وتعرف على الطقوس الخاصة بجميع المعبودات.

وقد أمضى فيثاغورس اثني عشر عاماً ما أخرى من حياته في بابل، تعرف خلالها على الاعتقادات البابلية والفارسية، قبل عودته إلى موطنه في جزيرة ساموس، وقد بلغ السادسة والخمسين من عمره.

وهكذا نرى أن فيثاغورس، أهم فلاسفة اليونانية في القرن السادس ق.م ولد في فينيقيا، وأمضى حياته طالباً للعلم في بلاد الحضارات الشرقية القديمة خاصة مصر وبابل، ليس هذا فقط، وإنما كذلك أن طاليس - أول فلاسفة اليونان - نفسه تلقى تعاليمه في مصر، على يد كنهة منف.⁽¹⁾

ح- سقراط:

ويؤكد لنا سقراط ما جاء في كتاب يا مبليخوس عن الأصل الشرقي للفلسفة اليونانية، فهو يذكر " أن المصريين يعيشون كشعب واحد، لا يهتمون بملكيتهم ولا يتأمرّون للحصول على ممتلكات الآخرين، وإذا رغبتنا في تطبيق قوانين المصريين التي تقضي بأن يعمل البعض، ويقوم الباقون بحماية ملكية العاملين، فسوف يمكننا جميعاً تملك أمتعتنا وقضاء أيامنا في سعادة " .

ويتحدث سقراط هنا عن المزايا التي تحققت للمصريين عندما تم توحيد بلادهم وتكوين حكومة مركزية واحدة، فقد أدى هذا إلى إمكان التخصّص وتوزيع العمل، بحيث يمكن زيادة الإنتاج، مما أتاح الفرصة أمام الحكومة لتنفيذ مشروعات ضخمة، كما وفر الفرص أمام عدد منهم للتفرّغ لتحقيق الدراسة والعلم، الذي أصبح هو جوهر التقدم الحضاري بعد ذلك.

ويتابع سقراط حديثه قائلاً :

" إن المصريين يقومون بتدريب فلسفي للروح لمتابعة القدرة، ليس فقط على إنشاء الشرائع ولكن للبحث في طبيعة الكون كذلك، وتستحق تقوى المصريين بصفة خاصة وعبادتهم للآلهة الشاء والإعجاب ... فكل هؤلاء الرجال

(1) .

الذين أغصونا رهبة الآلهة في البداية - في الواقع - بعلونا نختلف عن علاقاتنا مع بعضنا البعض عن الوحوش المفترسة، وأكثر من هذا هو الورع الكبير والجدية التي يتعامل بها المتصليون أكثر إلزاماً مما لو تم في مكان آخر - بل إن كل شخص منهم يؤمن بأنه سيدفع جزاء سيئاته فوراً، وأنه لن يتمكن من الهرب من اكتشاف أمره " .

وتمننى سقراط ليحدثنا عن فيثاغورس وما جلبه من مصر من العلوم الفلسفية، ففى رأيه، أن فيثاغورس، في زيارته إلى مصر، كان هو أول من جلب كل الفلسفة إلى اليونان، وأهتم هو نفسه بشكل أكثر وضوحاً من الآخرين، بالأشحيات وبشعائر الطهارة، لأنه اعتقد - حتى لو لم يحصل بهذا على ثواب كبير من الآلهة - بأن سمعته ستزداد عظمتها بين الناس في كل الأحوال، وهذا ما حدث له فعلاً، فغير تشوق على الآخرين في سمعته إلى درجة كبيرة، حتى أن كل الشباب رغبوا في أن يصبحوا تلاميذه ^(١).

د- أفلاطون:

مما لا شك فيه أن أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) هو أهم الفلاسفة اليونان على الإطلاق، وأول مفكر غربي يكتب في الموضوعات الفلسفية الخالصة، وإن كانت السياسة هي التي شغلت اهتمامه في البداية، كتب عن ما وراء الطبيعة، والمعرفة، والمنطق، والأخلاق، والسياسة، واللغة، والفن، والحب، والرياضيات، والعلم، والدين، وجاءت كتاباته كلها على شكل حوار بين شخصيات عدة أهمها شخصية أستاذه سقراط.

وتقول مصادر قديمة أن أفلاطون زار مصر عام (٣٩٠ ق.م) - بعد تسع سنوات على إعدام أستاذه سقراط - وقضى فترة من الوقت هناك يتحدث إلى الكهنة، وبعد عودته إلى أثينا حدث تطور أساسي في فكره، فأصبح يناقش قضايا فلسفية مختلفة عن القضايا الاجتماعية التي اهتم بها سقراط، فتحدث عن انفصال الروح، ووجودها المستقل عن الجسد، في محاورته "فيدون" وفي "تيمائوس"، يناقش

^(١) راجع : Richmond, W.R. : Socrates and the Western World . London .

1954.

- Xenophone : Memorabilia, p.3-8, It , 2, v.5, 1.

أفلاطون مسألة خلق الكون، والسبب أو المحرك الرئيسي له، إلا أن أهم أعمال أفلاطون كلها هو محاورته "الجمهورية"، حاول فيها تحديد معالم المدينة الفاضلة.

والموضوع الرئيسي فيها هو: ما هي طبيعة الفضيلة؟ وماهي أفضل طريقة لتنظيم المجتمع البشري؟ وتحديد ماهية الفضيلة عنده يكون داخل العلاقات الاجتماعية وليس في عزلة عنها، وهو يقسم الكيان الاجتماعي إلى ثلاث طبقات رئيسية، وبينما تقوم غالبية المواطنين بعملية الإنتاج، فإن هناك من يتولى مهمة الدفاع عن المجتمع في مواجهة الأخطار الخارجية والداخلية، كما أن هناك من يتولى حكم الجماعة وقيادتها.

ولكل من هذه الطوائف الاجتماعية الثلاث، قواعد خاصة تنظم سلوكها، فيكون على المنتجين الطاعة، ويتصف الجنود بالشجاعة، أما الحكام فهم يحكمون بالحكمة والمعرفة الفلسفية، ويربط بينهم جميعاً رباط العدالة، لتنظيم العلاقة بين مختلف الطبقات والفئات.^(١)

وقد لاحظ الباحثون وجود تشابه كبير بين وصف أفلاطون للمدينة الفاضلة في كتابه عن الجمهورية - خصوصاً في تقسيم المجتمع إلى طبقات، وقيام الفلاسفة بدور الحكام في المجتمع المثالي - وبين ما كتبه سقراط في وصف المجتمع المصري القديم، الذي كان ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية: قسم العاملين سواء في فلاحه الأرض أو الحرف، وقسم الجيش والقوات العسكرية المسؤولة عن حماية البلاد من الاعتداءات الخارجية، وحماية النظام في الداخل، وقسم الكهنة الذين يشرفون على طقوس العبادة، وهم الذين يتلقون العلم والمعرفة، ومنهم العلماء والمهندسون والكتبة والموظفون، وهم الذين يتولون إدارة البلاد تحت إشراف الملوك، بل إن أحد الكتاب اليونان القدامى ويسمى كراتور "كتب بعد فترة وجيزة من وفاة أفلاطون يقول:

"كان معاصرو أفلاطون يسخرون منه ويقولون إنه ليس من ابتكر جمهوريته، وإنما اقتبسها من النظم المصرية.

^(١) راجع: أفلاطون: الجمهورية ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨م، الدكتور فؤاد زكريا: دراسة لجمهورية أفلاطون، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨م.

- Taylor, A.E.: plato, The Man and his works, 1952.
1940.

كما قال ماركس في العصر الحديث في الجزء الأول من كتابه "رأس المال":
"إنَّ جمهورية أفلاطون، في ما يتعلق بمعالجتها لقضية تقسيم العمل على أنه
المبدأ المكوّن للدولة، ماهي إلا تصور أثيني خيالي لنظام الطبقات المصري".

من الواضح إذن أنَّ أفلاطون - وهو أهم الفلاسفة اليونان إطلاقاً - في
جمهوريةه، التي هي أهم أعماله، تأثر بالنظم والاعتقادات المصرية القديمة.

وقصة زيارة أفلاطون لمصر هي قصة متواترة بين القدماء، لم يحاول واحدٌ
منهم التشكيك فيها أو إنكارها، وما يؤكد هذه الزيارة هو ما ذكره أفلاطون
نفسه عن نماذج الفن المصري القديم من رسم ونحت، والذي لا يمكن أن يصدر
إلا عن شخص أتيحت له فرصة الإطلاع شخصياً على نماذج عدة منه، بل ومن
مراحل تاريخية مختلفة، فقد تحدث (أفلاطون) عن الفن المصري القديم في محاورته
(القوانين) ^(١) قائلاً، إن المصريين قاموا بعمل "قائمة تحتوي على نماذج موحدة من
الرسومات"، يتبعها الرسّامون في أعمالهم ولا يخرجون عنها، ولهذا فإن من يشاهد
رسوماً قديمة يجد أنها لا تختلف في أي شيء عن رسوماتها الحديثة، (أي في
عصر أفلاطون نفسه خلال القرن الخامس ق.م.)، فهي تقوم على أساس فني
واحد، وفي مصر، تم وضع أسس ثابتة غير متغيرة لتنظيم الألحان الموسيقية "عن
طريق القانون"، وذكر أن هناك قواعد جمالية رياضية مطلقة ثابتة - تنتمي إلى
العالم الإلهي المقدس - يجب التعرف عليها وتفتيتها حتى يلتزم الجميع بإتباعها،
وهي تؤدي إلى تقدم الفن والمعرفة.

كما تظهر دراسة تاريخ الفن المصري أنَّ المصريين كانوا يعتقدون أنَّ الفن
الذي يقوم على نظام دقيق من النسب والأبعاد، إنما هو يعبر عن شكل سامي
مطلق دائم الوجود، لأنَّه يُعبر عن نظام الكون وليس عن مظهره ولهذا رأى
أفلاطون أنَّ الفن المصري لا يحاول محاكاة الطبيعة في مظهرها، وإنما يسعى إلى
التعبير عن الحقيقة الخفية وراء هذا المظهر، فالفن عنده يجب أن لا يعبر عن العالم
الذي نراه بأعيننا، ولكن عن الوجود الكوني الذي ندركه عن طريق التحليل
الفلسفي والعلمي، وأصر على ضرورة أن يكون العمل الفني جميلاً، فالجمال

شرط أساسي "عنده في الفنون، إلا أن هذا المفهوم يتفق تماماً مع الفنانين المصريين الذين يرون أن الجمال الحقيقي هو جمال الروح والفكر وليس جمال العالم المحسوس^(١)

وهكذا يتبين لنا من تعليقات أفلاطون على الفن المصري، ليس فقط أنه لا بد وأطلع على العديد من نماذجه شخصياً، بل وتعرف على الطريقة الحرفية التي اعتمد عليها المصريون في تنفيذ أعمالهم الفنية، مما لا يدع فرصة لإنكار الروايات التي تواترت على التأكيد بأنه زار مصر وقضى بها بعض الوقت، وهذا يدحض إصرار الباحثين الغربيين الآن على عدم ذكر رحلة أفلاطون بالذات إلى مصر، عند الحديث عن حياته ومصادر معرفته، بل إن بعضهم يذهب إلى حد إنكار هذه الواقعة صراحة، ولا يخفى علينا أن السبب في ذلك الإصرار - على التشكيك في هذه الزيارة وإنكارها- هو أن فلسفة أفلاطون تمثل القاعدة الأساسية التي قامت عليها حضارة الغرب المسيحية منذ عصر الرومان، وحتى وقتنا هذا، فلو ثبت أنه تعلم أفكاره من مصر لانهارت الحجة التي يستندون إليها للقول بتفوق العقل الآري، وتخلف الشرقيين، لهذا كان من الضروري لأصحاب النظريات العصرية الحديثة رفض وجود أية علاقة بين أفلاطون ومصر، حتى يصح ادعاءهم الكاذب بتفوق الرجل الأبيض^(٢)

وهكذا يؤكد برنال - من خلال بعض الإشارات التي وردت في كتابات اليونان القدماء - على وجود أثر مصري-شامي في الحضارة اليونانية القديمة، فقد اعترف المؤرخون اليونان أنفسهم بفضل الشرقيين عامة ومصر خاصة على اليونان، وتعلم فلاسفة اليونان مثل فيثاغورس وأفلاطون على أيدي المصريين.

إن بعض الأفكار التي اعتمدها البعض أن ينسبها إلى الحضارات التي أعقبت الحضارة المصرية، شبق لها أن رأت النور قبل ذلك بأكثر من ألف سنة وأن الكثير من الفلاسفة اللاحقين لم يفعلوا أكثر من ترديد، أو العودة إلى بعض الخواطر الحيوية التي ومضت في مصر القديمة.

^(١) راجع: 1857

أفلاطون، محاوره "فايدروس"، ترجمة الدكتورة أميرة حلمي مطر، دار المعارف، ١٩٦٨م،: الدكتورة أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، ١٩٧٧م، ص ٢٣٣ وما بعدها.

(٢) أحمد عثمان، الحياة، لندن، ٧ يونيو ١٩٩٦م ٢١ محرم ١٤١٧ هـ - العدد ١٢١٥٦، ص ٢١

لقد نحت المنحرون ورسخوا أو لونوا عالماً متنوعاً من النصوص، إن أفخم
العمائر وأبسط أشياء الحياة اليومية، تشهد جميعها على حد سواء على أقدم فكر
عبر عنه البشر في لغة موضوعية، تخاطب العين، كما تخاطب العقل، وصاغها
منعراء الطبيعة، ومن ثم تعرض على عقولنا وقلوبنا، ثلاثة آلاف سنة من تاريخ
العالم، ثلاثة آلاف سنة من الفكر الذي يفيض ورعاً مقدساً، ثلاثة آلاف سنة من
في ذي مواضع ميتافيزيقية .

ثم تعد مصر القديمة في أعيننا في الوقت الراهن ظاهرة معزولة مجرد جهلنا
بها، بل عادت لتحتل مكانها البالغ الأهمية في ملحمة تاريخ العالم، ولأنها تستمد
أصولها من قلب القارة الأفريقية، ومن ما قبل التاريخ الآسيوي على السواء، فإنها
في جانب منها، هي أم حضارات المعروفة بالحضارات الكلاسيكية (اليونانية
والرومانية) فهي تسبقها وتلقى عليها ضوءاً جديداً^(١) .

(١) كلير لالويت: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة " الترجمة العربية ماهر جويحاتي،
مراجعة، الدكتور طاهر عبد الحكيم، دار الفكر القاهرة-باريس، المجلد الأول، الطبعة الأولى،
القاهرة ١٩٩٦ م . ص ٢١-٢٢ من المقدمة.

وحول هذا المعنى يقول (بيير جريمال) Pierre Grimal:

"علينا نحن أهل الغرب أن نسلم بأن كل مافي الثقافة الإنسانية ليس من إبداع الإغريق والهللينية، إن دورهم هو من الأهمية بمكان حتى أنه لا يحتاج إلى مزيد من الإضافات، وقد أشادوا هم أنفسهم بالحكمة المصرية، وكانوا يعلمون أكثر منا عما يتحدثون، فعلى مر الزمان، أثارت حضارة مصر والبلد التي ازدهرت فيه هذه الحضارة فضول القدماء (والإغريق والرومان، هم قدماء العالم الغربي)، إنها بداية (السر المستور)، وكان يلوح بالطبع، واجهتها المطلقة على البحر، ويعرف أنه قد اقترب منها، من لون الماء الذي صبغته النيل المحمل بالطمى"^(١).

لهذا فنحن نرى أن مدارس الفكر العنصرية التي زعمت تفوق الجنس الآري الأبيض، لا تستند إلى حقيقة من تاريخ، وإنما تقيم دعواها على فلسفة عنصرية عدائية دعائية، وبالطبع فإن مثل هذه الفلسفات التي لا تستند إلى جوهر حقيقي من الأدلة لا تدوم طويلاً ومصيرها إلى نهاية محتومة، وما موسوعة برنال عن "أثينا السوداء" سوى محاولة من بعض المفكرين الغربيين لنقض الفكر الآري "المتعصب، إلا أن هذه النظريات الاستعمارية لن تنتهي إلا إذا عاد الإنسان الشرقي إلى الإمساك بزمام العلم والمعرفة من جديد، فهذا هو الدليل القاطع على أن الحضارة الشرقية لم تمت بعد، وإنما تعود في بعث جديد.

رابعاً: تعقيب:

إضافة إلى ملاحظتنا التي سبق ذكرها، خاصة أثناء حديثنا عن الذين تعصبوا للعقلية الغربية منكروين دور وقيمة التراث الشرقي القديم، لنا وقفتان:

الأولى:

ليس هناك جدُّ بدأ عنده التجريد أو التنظير، ذلك أنه - بالنسبة للإنسان - يمكن التأكد من أنه منذ نطق يكون جرد، على أساس أن الكلام عبارة عن تجريد

^(١) ص ١٢-١٣ من التقديم لكتاب كلير لالويت "نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة"، المجلد الأول.

للواقع، وهو يقوم بدور وسيلة للتعميم والتجريد^(١)، فكلمة (الفرجار) - مثلاً - لا تعني فرجاراً بعينه، مع ما يلزمه من خصائص فردية، بل الفرجار على العموم، أى نموذجاً أو جنساً معيناً من الأشياء، سواء أكان طوله ١٤ أو ١٥ أو ١٦ سم، سواء أكان مصنوعاً كله من المعدن أو صنعت بعض أجزائه من البلاستيك... الخ والقول ذاته ينطبق على الكلمات الأخرى.

ومع هذه الخاصية للكلام، يرتبط تكوين المفاهيم واستعمالها، أى التفكير النظرى، "بفضل الكلام بالذات، أصبح بإمكان الوعى استعمال لا ما تقدمه الإحساسات فى وقت معين فحسب، بل وما قدمته فى السابق، وما يمكن أن تقدمه فى المستقبل، وبفضل ذلك نشأت إمكانية فصل خاصة الشيء ذهنياً، عن الشيء ذاته، إمكانية تجريد بعض خواص الأجسام عن بعضها الآخر، مما وسع كثيراً نطاق المعرفة^(٢) .

ولقد ازدادت قدرة الإنسان على التعميم عن طريق اللغة تدريجياً، وكانت هذه القدرة عند الإنسان البدائى هزيلة رغم بدئه بالكلام.

وبفضل قدرة الإنسان على التجريد يستطيع أن يخاطب إنساناً آخر، وأن ينقل إليه بالكلمات مضمون أفكاره، أى أن يمارس عليه الفعل، ويلعب التعميم وتبادل الأفكار دوراً فى حفظ التجربة المكتسبة، ونقلها، وفى تنمية الفكر والمجتمع، وكل فرد بعجز لوحده جسمانياً أن يعانى مباشرة، ويسدرس جميع مواضيع الواقع، وجميع ظاهراته، وتوجد ظاهرات لا نستطيع إدراكها مباشرة مثل الأحداث الماضية للحياة الاجتماعية، ولكننا نستطيع معرفتها بواسطة الكلمة المكتوبة (الوثائق) والرواية الشفهية.

فالإنسان - يمتلك، لا نتيجة جهوده الشخصية وحدها، بل - بمساعدة اللغة والنطق - المعارف المكتوبة والمتراكمة خلال أجيال، وتعتبر هذه المعارف - معارفنا بواسطة النطق.

(١) جارودى (روحية): "النظرية المادية فى المعرفة" تعريب إبراهيم قريط دار دمشق - بدون

تاريخ، ص ٢٣٠

(٢) جارودى: "النظرية المادية فى المعرفة"، ص ٢٣٨.

وهذه المعارف المكتسبة بالنطق كانت نتيجة للتجربة المباشرة، التي عبرت عنها الأجيال قبلنا، وتثبيتها بالنطق، وهكذا يتحرر كل جيل بفضل اللغة من ضرورة قطع الطريق الطويل مرة ثانية، طريق البحث الحثيثة، الذي قطعتة الأجيال السابقة، ويبدأ آخر حيث انتهى سلفه، وهكذا يتم نمو المعرفة التدريجي^(١).

فالمفاهيم هي تعميم تجربة الناس المغرقة في القدم في جهدهم لعكس الواقع الموضوعي، من خلال ممارسة الناس الاجتماعية والإنتاجية وينتج عن ذلك أن المفاهيم غير العلمية، أي المفاهيم التي تعكس العالم بشكل مشوه، تجهر بالتتابع، كما تبدلت مفاهيم الناس عن المادة أو الذرة مثلاً منذ ديمقراطيس حتى اليوم، وكذلك عن المفاهيم الخاصة بالفيزياء، وسائر العلوم، وكذلك مفهوم الزمان والمكان، والمفاهيم المتعلقة بالعلوم الاجتماعية^(٢).

وهكذا يتضح لنا أن الإنسان منذ نطق يكون جرد، فكل كلمة هي تجريد، وكل تجريد هو سلسلة من الممارسات العلمية الطويلة، وسلسلة من العمليات العقلية العليا، كالتحليل والتركيب، وبالتالي يتأكد خطأ ادعاءات أبتدأ التنظير والعلوم النظرية مع اليونان.

وعلى العكس فإن ما قدمه الإنسان قبل اليونان، هو كالحيط بالنسبة لما قدمه اليونان، فخلال مئات الألوف من السنين، من خلال العمل والممارسة العملية والمتكررة، وصل الإنسان إلى بحمل إنسانيته، إلى اللغة والآلة، وإلى المجتمع، إلى معظم الصناعات والحرف والممارسات الحياتية كالصيد والتجارة والزراعة، وألوان أخرى كالحياكة والحدادة وبناء المساكن وأعمال الري، والتعدين، وشتى أمور المجتمع، ونظمه وعاداته، وقوانينه وأعرافه وقيمه وسائر العلوم والفنون، وسائر قابليته الفكرية العليا، كالأحكام العقلية والمبادئ المنطقية والرياضية وسواها، ومن الغلط الشنيع بعد هذا أن يدعى مدع أن العلوم بدأت، وكذلك سائر الفنون.. الخ مع اليونان، أو أن ما قدمه هؤلاء معجزة تستعصي على التفسير.

(١) نفسه، ص ٢٤٠ فما بعد.

(٢) جارودي: ص ٢٦٧، ٢٨٧.

إن هذه النظرية المستعلية الخاطئة تماماً، متأية بالدرجة الأولى، من اعتبـلو أن العلم والفكر والحضارة الجديرة بهذه الأسماء، لا تتمثل إلا في بناء الفلسفات المثالية، واحتقار الواقع، والاستعلاء على العمل، وتقسيم ما ينتجه الإنسان إلى عمل يدوي حقير، وآخر نظري جليل مقطوع الصلة بالأرل، إنها نظرة متأية، وبالتأكيد من جهل أصحابها بالتسلسل التاريخي لبناء المعرفة والعلم من خلال العمل وحياة الناس الاجتماعية بواسطة النطق، إنها نظرة متأية من بناءات خاطئة لتفسير المعرفة البشرية، تقوم على الثنائية الحادة بين العقل والجسم، والعقل والعالم الخارجي، واعتبار العقل فطرياً، ثابتاً، مطلقاً، ومستعلياً عن التجربة والعمل، والعالم الخارجي.

والحقيقة أن أي تنظير أو تجريد ذهني، إن أي بناء عقلي، يتقوم ويتعدل- كما يقول الدكتور الألوسي^(١) - من خلال التجربة، والممارسة الحياتية، كما أنه ينبع أساساً من هذا الأساس، إن أي عمل يتضمن جملة معقدة من المفاهيم والأحكام والعلاقات العقلية العالية، كما أن أية معرفة لشيء لا تتم إلا من خلال العمل، من خلال ممارسته واختباره مباشرة عن طريق ممارسته.

وحول هذا المعنى يقول الدكتور فؤاد زكريا:

"... ولقد أحس الفلاسفة والمفكرون من عهد قريب نسبياً منذ حوالي قرن ونصف من الزمان، بأن الفكر المجرد لا بد أن ينتهي إلى طريق مسدود، وظهر لديهم وعي واضح بأزمة الفكر الخالص". وأنه قد تأكد "ثبوت عجز العقل في مجاله النظري الخالص عن الانتهاء إلى رأي قاطع حاسم في المشكلات الأساسية التي ظلت الفلسفة تشغل نفسها بها حتى ذلك الحين، والتأكد من أن الحل لهذه المشكلات إنما يكون في المجال العملي، لا النظري، وهذا العامل كان نتيجة جهود مجموعة من كبار الفلاسفة على رأسهم إيمانويل كانت^(٢).

ولا بد أن المقصود هنا، بعجز العقل، "العقل التأملي"، إن مشكلات الميتافيزيقا مشكلات لا تُحل إلا بالرجوع إلى العلوم الاجتماعية التاريخية، والعلوم الطبيعية الحديثة، أي علوم الأنثروبولوجيا، ونشأة الحضارات، وحياة وأفكار

(١) الدكتور حسام محي الدين الألوسي: بواكير الفلسفة قبل طالبس، ص ٧٥.

(٢) الفكر المعاصر: العدد (٤٣) سنة ١٩٦٨م.

البدائيين، ثم العلوم الطبيعية المعاصرة، حيث سنجد في العلوم الأولى، عند البدائيين، بداية المشكلات الميتافيزيقية.

ونخلص إلى القول أنه من الجهل تماماً أن يحذف الإنسان دور وأثر أية خدمة يقدمها الإنسان مهما كانت أو بدت ضئيلة، في مجالات العلوم، واستكشاف الطبيعة والحرف، والاختراعات، وشتى المجالات الأخرى، كما أنه من المبالغة وعدم الصواب تفخيم هذا الدور أو ذاك، إلى حد نسيان الأدوار التي مهدت له، أو التي تلتها، كما فعل أنصار المعجزة اليونانية، كذلك فإنه من الخطر عزل الأمور بعضها عن بعض في مجال التقييم، إن أي اختراع لآلة أو تحسين لها، يتضمن عمل البشرية كاملة، ومن ذلك، كم يظهر بجانب العدل والموضوعية قول (برنيت) ومؤيديه، عن الدور العالي الابتكاري المحض لليونان، والدور الضئيل لسائر من سبقهم، إن الخطوة الأولى التي يخطوها الطفل عند أول تعلمه المشي هي ليست أصغر ولا أبطأ ولا أقل أهمية ودلالة على القدرة، من عدوه السريع فيما بعد، إلا بمنظار انعزالي جامد ومتعصب.

والثانية:

والذين يريدون أن يبدأوا الفلسفة بطاليس أول فلاسفة اليونان (القرن السادس ق.م) على أساس أن هؤلاء تركوا التفسير الميثولوجي، إلى الطبيعي، ينسبون أن التفسيرات الطبيعية هذه ليست إلا جزء من سلوك الفيلسوف، فهو عملياً يزاول عادات قومه ومعتقداتهم وتجول في ذهنه تصورات مجتمعه، ثم ينسى هؤلاء أن أوج ازدهار الفلسفة اليونانية متمثلة في تكون المدارس الفلسفية بالمعنى العميق الكامل على يد أفلاطون وأرسطو والرواقية والأفلاطونية المحدثة، هو نفسه - أي هذا الأوج - حضيض العقلانية والرجوع إلى نفس المسلمات الغيبية للبدائيين، موضوعة بكلام منمق، ونظام فلسفي يخفي على غير الخبير معدنها الميثولوجي البحث^(١).

وكان عشاق "العقلانية" وهم يسبقونها على "الروح اليونانية" لا يهتمهم هل ما يتحدث عنه هؤلاء موجود حقاً لحواسنا ولخبرتنا أم لا؟ المهم أن يوضع بشكل

(١) بواكير الفلسفة قبل طاليس، ص ٨٢.

منطقي متلاحق ومتساق، ومبهرج بإطار من الحجج والأدلة النظرية المفعمة بروح التعالي على الحس المشترك البسيط للإنسان العادي.

وإلا فأي شيء في ميتافيزيقا أفلاطون موجود؟ مثله، أم آلهته، أم عالم التناسخات؟ ومع ذلك فهذه فلسفة عقلانية، ليس لشيء إلا لأنه أدار الكلام بأسلوب منطقي وعقلاني، فكان معنى العقلانية مساو لمعنى التخيل والابتداع على نحو ما يتدع الفنان صورة بمنحة لا تمت إلى مخلوق بعينه بصلة - والفنان له حقه في الابتداع، وليس للفيلسوف مثل هذا الحق، فواجبه فهم نفسه، وفهم ما يحيط به، لا أن يخلق عوالم يلجأ إليها هرباً، فلا يحل مشاكله ومشاكل الواقع، بل يزيد الطين بلة بخلقه عوالم أخرى تحتاج إلى حل وفهم هي الأخرى^(١).

^(١) تجدر الإشارة إلى أن أفلاطون وضع لكل موجود في العالم الحسي "مثالاً" غير مادي في عالم خارج

العالم الحسي المادي، وهذه المثل هي الوجود الحقيقي عنده، وليس للأشياء المادية الحسية سوى وجودات ثانوية، أو هي تشوية ومحاكاة وأشباح لذلك العالم، وعالم المثل فيه نماذج عقلية، لا مادية، لكل موجود حسي في عالمنا، قبيحاً أم جميلاً، جزئياً أم كلياً، وحقى للعلاقات، وقد وجه أرسطو إليه عدة انتقادات منها: أن أفلاطون ضاعف العالم دون أن يفسر العالم الذي نعيش فيه.

أنظر: Aristo: Met, 1. 990 b 34 وبقية نقده الموضوع نفسه، وأنظر: -

- Zellet: Outline of the History of Greek Philosophy p. 131, 173.

- Burnet: Greek Philosophy, p. 206

حيث يوضح انتقادات أفلاطون نفسه لنظريته في محاوره "بارمنيدس"،

وراجع: كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٨٥،

يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، طبعة ثالثة ١٩٥٩/، ص ١٧٤ وما بعدها. وإلى مثل هذا المعنى يذهب هانز ريشباخ - أحد ممثلي الوضعية المنطقية - فيعرض نظرية أفلاطون في "المثل"، كمثلي على الاستدلال الوهمي الافتراضي، وينبغي على المحاولات التي قام ويقوم بها الدارسون، لإضفاء صفة علمية أو لتبرير أخطاء جسيمة ترتكبها هذه المثاليات، والفلسفات التأملية، يقول - في نقده لفلسفة أفلاطون - " . وأنه ليبدو أن الفيلسوف عندما يصادف أسئلة يعجز عن الإجابة عليها، يشعر بالإعراء لا يقاوم لكي يقدم إلينا لغة مجازية، بدلا من التفسير، وإنما لنجد العقل الفلسفي، طوال تاريخ الفلسفة، مقترنا بخيال الشاعر، فحيثما كان الفيلسوف يسأل كان الشاعر هو الذي يجيب، لذلك كان من الواجب، عند قراءتنا للعرض الذي يقدمه الفلاسفة لمذاهبهم، أن نركز انتباهنا في الأسئلة، لافي الإجابات المقدمة.. " =

ومعنى هذا أن دعوى ابتداء الفلسفة مع اليونان دعوى فارغة، فالعلوم وهى جزء أساسى من الفلسفة بمعناها الشامل سابقاً، نشأت قبل اليونان، والميتافيزيقاء وهى معنى الفلسفة الخاص والأهم، لا تعنى المعنوية، بل مجرد موقف، وحظ الفلسفة اليونانية من العقلانية، متمثلة، فى كبريات فلسفاتهما، وهى فى الجوهر، حظ أى من المواقف البدائية قبلهم، ومعنى هذا أن فلسفات اليونان الميتافيزيقية الكبرى هى مجرد عمل (بان) استمد المواد الخام، بل ربما الخطة عموماً لبنائه الذى يبنيه، من الشعوب البدائية، واعتقادات الحضارات المعاصرة له، والمتقدمة عليه.

والفلسفة لم يكن لها يومٌ منه بدأت، وفيه ظهرت، شأنها شأن العلم، وهذا حال كل الفعاليات البشرية، كالفنون والعادات وغيرها، وتقدم الدراسات الخاصة بأفكار الشعوب البدائية الغابرة، وما يقدمه علم النفس والاجتماع، عن تطورنا من الطفولة إلى النضوج، أفراداً، وعلى نطاق البشرية جمعاء، قدمت معلومات، أظهر أن البشر مروا بمراحل، تنامى فيها عبر آلاف السنين، فكرهم، وتجمعت خبراتهم، حتى ساعدتهم على تمييز الأشياء، واستنباط المبادئ العامة للتفكير وغير ذلك.

وباختصار، فإن القارى المنصف لحضارات الشرق القديمة، سوف يلتقى بالفلسفات المثالية والواقعية والمادية والروحية والواحدية التعددية، كما سيلتقى بالترعات العدمية والأدرية، ومذهب الشك الفلسفى، فضلاً عن مناقشات مستفيضة لمفاهيم فلسفية أساسية : كالجزئى والكلى والفردى والصيرورة، والوجود والعدم، والدوام والثبات، والهوية، والمطلق والنسبى، والذات العارفة والموضوع المعروف، كما سيجد مناقشات لطرق المعرفة الممكنة أو ما يسمى بنظرية المعرفة، مما يؤكد أن العقل الشرقى لا يقل عمقاً وأصالة عن العقل الغربى.

وباختصار أيضاً، أن جميع ما يحويه التفكير الإغريقى، يبدو أمامنا على حقيقته، إذا عرض تحت ضوء العلاقات بين الشرق والغرب، ولن نقع فى خطر الجهالة إذا ما عمدنا إلى جمع معلومات عن حالة التفكير النظرى فى أهم الحضارات المحيطة بالأفق الإغريقى، وهى حضارات الشرق القديمة.

= (ها نزيشباخ) : "نشأة الفلسفة العلمية" ترجمة الدكتور فؤاد زكريا. القاهرة ١٩٦٧ م. ص

ونتيجة لكل ما تقدم نستطيع أن نقول : إن فلاسفة اليونان ليسوا أول من بدأ الفلسفة والعلم والتجريد أو التنظير، فإنه - وكما سبق - ليس هناك وقت ولا مكان، يمكن أن يقال إنه فيهما أو معهما بدأ العلم والتفكير والتعميم.

فلم يعد مقبولاُ الرأي القائل بأصالة الفكر اليوناني، بان من سبقهم لم يصلوا إلا إلى طور العلم العلمي فقط، ويقوى من عدم القبول هذا، ما قدمته حضارات الشرق القديمة من إنجازات في مجال العلم والمحاولات الأخرى قبل اليونان بوقت طويل.

إن البحث الموضوعي الهادئ، يؤدي إلى الاعتراف بوجود "قفزة" أو تبديل كفي في مسار الحضارة البشرية، حصل مع مجيء الحضارات اليونانية، إلا أنه تبديل حدث من تجمع كمى هو حصيلة ما كسبته البشرية من تقدم قبل اليونان.

الفصل الثانى

" العقيدة المصرية القديمة . القوة والقدسية وعظمة المصادر "

ويشمل:

أولاً : تمهيد

(أشكال العقائد الدينية فى مصر القديمة، مظهر مرئى لقوى مقدسة مجردة)

ثانياً: " صفات الآلهة " ونشأة العالم " عند المصرى القديم.

ثالثاً: " قدر الإنسان ومصيره " بين البشر والآلهة " عند المصرى القديم.

أولاً : تمهيد

(أشكال العقائد الدينية في مصر القديمة، مظهر مرئى لقوى مقدسة مجردة)

لعبت الحضارة المصرية القديمة دوراً كبيراً في التاريخ الروحي للإنسان على مدى تاريخ البشر المتطاوّل، مازالت تأثيراته بادية بوضوح أحياناً، أو متسربة، لا تخفى على عين المتخصص المتتبع لتاريخ الديانات المقارنة في طيات النظم الروحية، والطقية والعقائدية، في حياة الإنسان المعاصر.

وفي هذا يقول المؤرخ الإغريقى (هيرودوت):

" إن المصريين أكثر تقوى من سائر البشر. .. ويهتمون كل الاهتمام بالشعائر المقدسة، فقد سبقوا شعوب العالم إلى إقامة الأعياد العامة والمواكل العظيمة، وعندهم تعلم الإغريق، ودليل على ذلك أنها تقام في مصر منذ زمن بعيد، بينما لم يحتفل بها الإغريق منذ وقت قريب".

فقدماء المصريين عظماء، لاشك في ذلك احد، أحبوا وطنهم ارضاً وسماءً وماءً وهواءً وزرعاً وحيواناً، ثم قدسوا كل ذلك، ولم يكن الهوى هو مصدر ذلك الحب، ولكنه اليقين الذى أضحى لدى أصحابه من قواعد الإيمان.

وكان للديانة المصرية القديمة واعتقاد المصريين في حياة أخرى عظيم الأثر في مدنيتهم وعلومهم وفنونهم وآثارهم، فولا معتقدات المصريين الدينية، لما رأينا المعابد والأهرامات والمقابر والتماثيل والتحنيط وروائع الفن.

وحول هذا المعنى يقول برستيد:

" لا يوجد شعب قديم أو حديث، خلع على فكرة فيما وراء القبر أهمية كتلك التى خلفها قدماء المصريين على تلك الفكرة، بل إن هذا الإيمان - الملح - بوجود الآخرة، ربما كان - وقد هدتنى التجارب في أرض مصر إلى الاعتقاد بذلك - يجد عوامل مشجعة ومواتية بسبب ما ترتب على صيامة الجسم الإنسانى صيانة فائقة، على نحو لا يمكن أن يوجد في الأحوال الطبيعية في أى جزء آخر من أجزاء العالم، وأى شخص له إلمام ببجانات مصر - القديمة منها والحديثة - لابد أنه وجد

جسوماً عديدة أو أجزاء من جُسوم قديمة قدماً لا حد له تظهر في حالة من الصون تقترب من جُسوم الأحياء.^(١)

إن حالة الصون، التي تدعو إلى الدهشة، التي وجد عليها المصري القديم أسلافه، لا بد أن عشت إلى حد كبير - اعتقاده في بقائهم المستمر، وأيقظت خياله مراراً إلى مزيد من الصور المفصلة عن صقع وحياة الراحلين الذين تكتفهم الأسرار، وتكشف جبانات مجتمعات ما قبل التاريخ المكتوب، الواقعة بمحاذاة النيل، التي عُثر عليها وأجريت حفائر فيها منذ عام ١٨٩٤، عن إيمان بحياة مستقلة كان قد وصل إلى مرحلة متقدمة^(٢).

وتقدم لنا نصوص الأهرام^(٣). أقدم فصل في تفكير الإنسان، وصل إلينا محفوظاً، وهو أبعد قسم في تاريخ الإنسان العقلي نستطيع أن نتبينه، وتعكس هذه النصوص، كما يفعل كل أدب مدو جزر الحياة حولها، وتتحدث في تعبيرات نجاريب الناس الذين انتجوها، وهي تعابير جارية في حياة القصر اليومية في الشوارع والسوق.

(١) تطور الفكر والدين في مصر القديمة " دار الكرنك، ١٩٦١ م، ص ٨٥-٨٦.

(٢) راجع أيضاً " تاريخ التحنيط في مصر" أعمال الجمعية الفلسفية الملكية في جلاسجو سنة ١٩١٠ للأستاذ ج إليوت سميث.

- Prof. G. Elliot, Smith, The History of Mammification in Egypt , proceedings of the Royal Philosophical society of Glasgow, 1910.

(٣) ظهرت الطبعة الأولى من نصوص الأهرام لما سبرو في مجلته Recneil في المجلدات ١٤، ١٢، ١١، ١٠، ٨، ٨، ٧، ٥، ٤، ٣ ثم ظهرت بعد ذلك في سفر واحد، وهناك مجلدات أخرى تحوى ترجمة وشرح النصوص ومواد الكتابة القديمة قام بها شفير H. Schafer

وهي (نصوص الأهرام) مكتوبة بالهيروغليفية، وتغشى حيطان الممرات والدهاليز والغرف في خمسة أهرام في سقارة، إن أقدمها هو هرم " وناس " آخر ملوك الأسرة الخامسة التي ترجع إلى النصف الأخير من القرن السابع والعشرين ق.م، والأربعة الباقية هي أهرام أوائل ملوك الأسرة السادسة، تبنى وبنى الأول، ومرنر، وبنى وبنى الثاني، الذين مات آخرهم في بواكير القرن الخامس والعشرين ق.م، وعلى هذا، فإنها تمثل فترة يبلغ مداها مائة وخمسين عاماً، من قرابة عام ٢٦٢٥ إلى عام ٢٤٧٥ ق.م، على ما هو راجع، أي القرن السادس والعشرين بأجمعه، وعلى الراجح ربع قرن قبله وربع قرن بعده.

راجع : برستيد : تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ص ١٣١.

ووظيفة نصوص الهرام، هى فى جوهرها، ضمان نعيم الملك فى الآخرة، إنَّ النعمة الرئيسية السائدة هى الاعتراض على الموت فى الحاح أو حتى فى عاطفة غنيمة. ويمكن أن يُقال إنها سجل لأقدم ثورة عظمى قامت بها الإنسانية ضد الظلام حالك والسكون الذى لارجعة لأحد منهما.

ولا يجيئ لفظ موت أبداً فى نصوص الأهرام إلا فى صيغة سلبية، أو عندما يطبق على عدو، إنا لنسمع مراراً وتكراراً التوكيد المستعصى بأن الموتى يعيشون. "إن الملك تبتى لم يمت موتاً، لقد أصبح شخصاً ممجداً فى الأفق" ^(١).

"هيا: أيها الملك وناس! إنك لم ترحل ميتاً، إنك رحلت حياً" ^(٢)، "لقد رحلت لكى تستطيع العيش، إنك لن ترحل حتى تموت" ^(٣)، "إنك لا تموت" ^(٤)، "إن هذا الملك ببى يعبش إلى الأبد" ^(٥). وهكذا يكون أجل موضوع فى نصوص الأهرام هو الحياة، الحياة الأبدية للملك.

وتقدم لنا الحضارة المصرية القديمة كثرة من العقائد الدينية، ترتبط إحداها بأشكال حية حيوانية أو نباتية، والأخرى بأشكال مادية غير حية، والثالثة اتخذت صوراً بشرية.

فقد نظر إنسان وادى النيل، المبكر، إلى الحيوانات البرية - رغم كونها هدفاً للصيد - نظرة ملؤها الهيبة والرغبة، بسبب ضراوتها أو قوتها، فنجد - فى نقوش العصور المتأخرة لما قبل التاريخ - صوراً للأسود والثيران الوحشية، ترمز للسُّلطة المسيطرة، وهى ترمز بالمثل للملك "نعرمر" وهو يطاء تحت قدمية أعداءه الذين ألحق بهم الهزيمة.

وقد عُثر على العديد من التماثيل الصغيرة للقردة، كذلك رسوم لها على بطاقات عاجية ترجع جميعها إلى العصور التاريخية مما يُرجح تقديسها منذ وقت

^(١) نصوص الأهرام - ٣٥٠.

^(٢) نفسه - ١٣٤.

^(٣) نفسه - ٨٣٣.

^(٤) نفسه - ٧٧٥.

^(٥) نفسه - ٤٦٤ ج، ١٤٦٨ ج - د، ١٣٧٧ ب.

مبكر؛ أما الرمز الحيوانى للمعبود " ست " ^(١) كما يظهر 'لى أحجار مقلبر
الأسرة الأولى، فهو يمثل حيواناً يشبه الحمار، له ارجل طويلة، وآذان طويلة أيضاً
مستعرضة وذيل قصير قائم.

وكانت - عبادة الغزال Oryx- antelope فى المقاطعة السادسة عشرة من
مصر العليا، ثابتة من توارى هذا الحيوان رمزاً لها، وهناك مثال يمكن أن يستشهد به
على ذلك من عهد الملك "زوسر" فى الدولة القديمة، وإن كانت عقيدة ذلك
الحيوان المقدس قد انحسرت منذ وقت مبكر لحساب الصقر "حورس".

وعقيدة الصقر "حورس Hores" كانت لها أهميتها العظمى منذ عصور ما قبل
التاريخ ^(٢)، واسمه بالمصرية القديمة "حرو Horew" يعنى "الساحق" وهو اسم يناسب
طائراً من طيور القنص يرقى فى تحليقه إلى مسافات عظيمة فى ارتفاعها، وقد عُبد
حورس فى العديد من المقاطعات التى انتشرت فيها عقيدته قادمة من مركز عام لها
فى نخن "Nekhen" أى "هيراكوبوليس" اليونانية "الكوم الأحمر" الحديثة فى المقاطعة
الثالثة من الصعيد.

وهناك مركز هام أيضاً لعقيدة ذلك المعبود فى الصعيد عُرف باسم " بحدت
مكان مدينة "ادفو" الحديثة، وعُرف به تحت اسم "حورس" بحدتسى أو
الإدفوى، وإلى جوار ذلك كان الصقر الطائر المقدس، رمز للعديد من المعبودات
الموجودة فى مختلف المواقع بمصر، والتى توحدت فى وقت لاحق مع "حورس".

أما عقيدة " البقرة المقدسة" فقد وجدت لها عدة مراكز، منها الإقليمان
السابع والثانى والعشرون فى مصر العليا، والإقليم الثالث من الدلتا، وفى عصر
مبكر للغاية، كان الرمز الحيوانى المقدس للإلهة "حتحور" فى "دندرة" هو البقرة،
متوحدة معها تماماً.

^(١) يعد الإله " ست " من أقدم آلهة مصر التى عبت منذ فجر التاريخ، وكانت مدينة " نوبت " (أمبوس)
مكان مدينة طوخ الحالية بمحافظة قنا، وهى مركز عبادته، ولقد مزج الهكسوس بينه وبين معبودهم " سوتخ"
حيث أقاموا له المقابر فى عاصمتهم " أواريس" أصبح كل منهما يُعرف باسم الآخر، ولما أتى
الإغريق إلى مصر شبهوا "ست" بمعبودهم " تيفون" إله العواصف والرعد.

^(٢) وطبقاً لأسطورة " أوزوريس وأيزيس" كان " حورس" هو ابنهما الذى التقم لأبيه من عمه الشرير
الذى اغتصب العرش من أخيه "أوزيريس".

هذا، وقد انطبعت في مخيله الفلاحين الشعبيين في مصر الخصائص المميزة لبعض الحيوانات التي ارتبطت حياتهم بها، فالثور والكبش، قد أثرا على هذه المخيلة بقدرتهما الإنتاجية وقواهما الإخصابية، أما البقرة، فقد ألهمت عنايتها الفائقة بوليدها، وحنوها عليه مفهوم تقديسها كرمز للأمومة، وتعود عقيدة العجل " حابي Hapi - بالمصرية - و"أيس Abis باليونانية"، إلى الأسرة الأولى - على الأقل - في مركز لها في مدينة منف.

وقد اعتبرت بعض الأشجار المعينة - خاصة الضخمة منها - قاعدة أو مشوى لبعض المعبودات، فهناك شجرة جميز على مقربه من مدينة منف، كان يعتقد أنها مستقر الألهة أنثى طيبة تنتفع الناس ببركتها، ولقد كان من المعتقد أن ارواح الموتى القادمة من المدافن المجاورة على شكل طيور تجدد في ظل الجميزة الوارف حاجتها من الطعام والشراب، وتقدمها لها الإلهة الخيرة التي تقطن هذه الشجرة، وهناك نباتات ارتبطت باسم إله أو ألهة معينة، وقدست نزولا على ذلك الاعتبار، وإن لم ينظر إليها كرمز أو مظهر لهذه الإلهة المرتبطة بها.

والعقائد المرتبطة بأشكال مادية غير حية، هي ظاهرة بالغة القدم في تاريخ الديانة ومنها المصرية، شأنها في ذلك شأن العقائد الحيوانية والنباتية، وقد ارتبطت هذه الأشياء المادية بالمعابد أو بالملك الحاكم.

ففي مدينة " هليوبوليس Heliopolis وهو اسمها باليوناني - كان هناك عمود أو نصب مقدس يسمى "يون yon"، وكان يوجد في هذه المدينة أيضاً حجر مقدس هو ال "بنبن Benben" على شكل مسلة، قد تكون السبب في أن اعتبرت المسلات بعد ذلك رمزاً للشمس المشرقة، واعتبر الكثير من رموز السلطة والقوة كالصولجان والعصى وعلامات تمثابة أشياء مقدسة.

ومن غير الإنصاف أن نحكم على المصريين - نزولاً على وجود الأعداد الكبيرة من المعبودات التي ظهرت أولاً مرتبطة برموز حيوانية أو نباتية أو بأشياء مادية غير حسية بأنهم قد اعتبروا هذه الحيوانات أو الأشياء آلهة في حد ذاتها، والحق أن مثل هذا الحكم المحدثي عليهم قد تبنته شعوب أخرى في العالم القديم، وهم اليونانيون على وجه التحديد، الذين سخرُوا منهم، وكذلك اضطهدهم المسيحيون في العصور اللاحقة، بناءً على ذلك، ومن الجلي أنه لا يوجد عقل حتى لو كان بدايياً يمكن أن يعتقد أن الأشياء المادية أو الحيوانات، أو حتى البشر، هم أكثر من

بمجرد مظهر مرئى، أو مستقر لقوى مقدسة مجردة، والمصريون مثلهم في ذلك مثل غيرهم من البشر التمسوا - عموماً الاتصال بالقوى فوق الطبيعية، وارتأوا أن أفضل السبل إلى ذلك هو إختيار إطار أو محور محدد ومرئى، يمكن أن تتجمع فيه الصفات التى تعبر عن هذه القوى^(١)

وقد حدث تطور فى مفاهيم ومظاهر الديانة المصرية القديمة، بأشكالها الحية، الحيوانية والنباتية، أو المادية غير الحية، عندما أحرزت الحضارة المصرية درجة معينة من التمدين، وأفضى هذا التطور إلى ازدياد القوى التجريدية لدى البشر، فاصبحت القيم المعنوية أعظم تأثيراً، وهى القيم التى تطورت مظاهرها فى الإنسان أكثر من أية كائنات أخرى، فالمعبودات التى يعزى إليها قدر جليل من المعرفة والقدرة، أصبحت تمثل فى صورة إنسانية فى النهاية، وعلى ذلك فإن وضع الآلهة فى هذه الصور هى علامة تحدد المرحلة الأخيرة لهذا التطور، وإن كانت هذه الصورة لم تشمل الآلهة كما لم تتأثر بها كل طبقات السكان بنفس القدرة فبينما الطبقات العليا منهم والمتعلمة قد ارتفعت إلى مصاف المفاهيم الإنسانية لآلهتها، نجد العامة الأكثر بدائية من المزارعين استمروا أكثر احتضاناً للمفاهيم الحيوانية والنباتية أو المادية القديمة.

وكان للمتغيرات السياسية أثرها الكبير فى مصائر العديد من الآلهة فى العصور القديمة، كالاختفاء التام لبعضها من على مسرح الحياة الدينية، أو صعود البعض الآخر منها إلى المقام الأكبر، أو التغير التدريجى فى صفات وطبيعة العديد منها، فالتطورات السياسية أدت أولاً إلى توحيد المقاطعات المنفصلة إلى أقاليم، وهى بدورها فى النهاية اندمجت فى وحدتين سياسيتين كبيرتين هما مملكتا الدلتا والصعيد، ثم وصلت هذه التطورات السياسية إلى نهايتها باتحاد هاتين المملكتين فى وحدة كبرى ضمت القطرين مصر العليا والسفلى تحت عرش واحد.

وقد أدت هذه الأحداث السياسية، إلى علاقات متقاربة بين الآلهة المحلية، فقد أصبح إله عاصمة الإقليم - المعبود الرئيس فى الإقليم، بينما انزوت الآلهة الأخرى إلى مصاف المعبودات الثانوية، أيضاً أضحي إله العاصمة السياسى للمملكة الموحدة بمثابة الإله الأكبر لها جميعاً، وفى مجرى هذا التطور حُجبت أو ضمرت بعض

(١) ياروسلاف تشرنى: "الديانة المصرية القديمة" ترجمة الدكتور أحمد قدرى، مراجعة الدكتور محمود ماهر

طه، مطبعة الآثار المصرية ١٩٨٧م، ص ٤٨.

المعبودات لحساب الآلهة الأكثر أهمية، أو اندجبت فيها تماماً فاقدة قوامها الفردى،
منتهية بذلك إلى النسيان،

ثانياً : " صفات الالهة " و " نشأة العالم " عند المصرى القديم.

إن القوى الطبيعية بأسرها، هى فى المجتمعات القديمة، أجزاء صغيرة من القوة
الإلهية العظمى، المنتشرة فى الكون.

وقبل خلق العالم، كانت هذه القوة الإلهية لا تزال غير فاعلية، ولكنها كانت
متأهبة للفاعلية، وسط كتلة ضخمة، هى محيط أزل، بلا حدود، وبلا ضياء، فهو
خواء لاعضوى.

وعندما تجلت هذه القوة للمرة الأولى، على هيئة إنبثاق وضاء، خلقت
بأساليب متنوعة السماء والأرض والآخرة فى العالم السفلى والجبال والتلال
والوديان والصحارى والأنهار والبحار والبشر والحيوان والنبات والأحجار، وكل
ما لا يزال يشكل عالمنا الراهن، وفى بعض هذه العناصر يكمن جزء متناهى الصغر
من الكيان الإلهى يربطها بالقوة الأولية العظمى، وهكذا ولد سحر العالم.

وتتميز آلهة مصر القديمة عن بعضها البعض بالقابها وأعيادها، وكذلك المدن
والأقاليم التى ارتبطت بها عبادتها فى الأصل، وفى حالات كثيرة استمر ذلك
الارتباط طوال فترات التاريخ البكى للبلاد، وبغض النظر عن هذه الملامح الخارجية
لهذه المعبودات، فإنه يتعسر إلى حد ما تحديد طبيعتها أو صفاتها الفردية بوضوح
تام، خاصة وأن الوثائق المحررة للدولة القديمة قد صمتت عن مثل هذا التحديد،
إضافة إلى أنه من المحال رسم صورة لديانة متسقة ومنطقية فى كل تفاصيلها أو
صلاحيتها العامة للإقليم المصرى بأسره، لأن مثل هذه العقيدة الموحدة والمتناسقة لم
تتواجد قط، فالديانة المصرية ليست من خلق مفكر واحد، لكنها النتاج العام
للعديد من مختلف التيارات اللاهوتية والسياسية، ولم تكن هناك ثمة سلطة مفردة
ومسيطرة بشكل كاف طوال التاريخ المصرى القديم لكى تختصر كل العقائد المحلية
وتوحيدها فى إطار لاهوتى أو فكرى شامل يفرض على كل المصريين. بمختلف
انتماءاتهم الإقليمية أو الطبقية.

والموطن الأصلى للآلهة المصرية يقع فى ربوع أرض مصر ذاتها، فهى آلهة
وطنية خالصة، وظلت كذلك حتى زمن امتداد النفوذ السياسى المصرى إلى الخارج،
حيث انتشرت عقائد هذه الآلهة إلى البلاد المجاورة فى النوبة والسودان وفلسطين

وسوريا، أما قبل ذلك وفي إطار العزلة الأصلية للبلاد، فإنها اختصت فقط بمصر
والمصريين فالأرض التي انطوت عليها سلطاتهم الإلهية كانت هي أرض مصر،
والبشر الذين ارتبطت معهم بعلاقة مقدسة كانوا هم المصريون وحدهم.

وقد أبدى المصريون دوماً تسامحاً دينياً فيما بينهم في داخل مصر نفسها، كما
أبدوا مثل ذلك التسامح مع آلهة البلدان المقهورة، لجنود الحاميات والموظفون منهم
في الخارج وإن عمدوا بطبيعة الحال إلى بناء المعابد والهيكل المقدسة لاهتهم
المصرية، إلا أنهم نهجوا إزاء الآلهة الأجنبية المحلية - كما كانوا يفعلون دائماً في
مصر - إزاء أي إله أو إلهة حامية لمدينتهم أو إقليمهم الأصلي على سبيل المثال، وفي
مثل هذه الظروف، فمن البدهي ألا يظهر طوال عصور الديانة المصرية أي مظهر
من مظاهر الإضطهاد الديني^(١).

والإنسان المصري الذي تحيط به مظاهر الطبيعة، ويتوقف عليها ذاته قد
تصور حوله قوى إلهية تقطن العناصر الكونية، وعلى رأسها الأرض والسماء والأثير
وفيضان النيل فضلاً عن الشمس والقمر، فهذه القوى التي تجسدت في هيئات
بشرية بلورت العديد من الآلهة الكونية ذات الأهمية العامة للجميع، للدرجة التي لم
تعد هذه الآلهة ترتبط في أصولها بأي إقليم أو مدينة في البلاد، فهي بوجودها في كل
مكان لم يكن ثمة حاجة بشكل منظم لعقيدة لها أو معبد محلي محدد بعينه.

لقد خلقت الآلهة العالم، وبالنسبة لكل إله في مدينته الرئيسية، تخيل البشر
أساليب متنوعة لانبجاس عملية الخلق على خير وجه، لقد نظمت الآلهة الكون، وكان
المصريون المرهفو المشاعر والحس، المولعون بالصور الأسطورية الجميلة، يكثرون إذ
ذاك من المناظر الخيالية التي تهدف إلى تفسير تشكيل العالم وموقع الأشياء.

كما كان المصري إنساناً شديد التقوى، فنظم الأناشيد معبراً للآلهة، في
صورة شعرية، عن امتنانه وعبادته، وسوف يترك هذا الشعر المقدس الغزير أثراً
مؤكداً على الآداب اللاحقة الكلاسيكية القديمة واليهودية والمسيحية.

^(١) باستثناء فترة قصيرة وغير عادية، خلال ثورة العمارنة الاخناتونية، التي اتبعت فيها بعض اجراءات
عنيفة في فرض عقيدة " إخناتون " في مصر، أو في قهرها بعد ذلك على حد سواء، مما أدى إلى حدوث
انقسام كبير في البلاد نتيجة لاعتناق المسئولين لديانة آتون، واتخاذ كهنة آمون، وبعض العائلات المحافظة ،
من اخناتون وديانته موقفاً عدائياً.

وانقسمت آراء المصريين حول خلق الآلهة والبشر والأشياء، وقدم اللاهوتيون منهم العديد من النظريات الرامية إلى تفسير نشأة العالم، وكان أكثر ثلاث منها أهمية هي فلسفة الأشمونين وهليوبوليس ومنف.

(أ) وطبقاً لفلسفة الأشمونين اللاهوتية لم يكن ثمة شيء ما في البداية سوى اللاوجود أو الفوضى ذاتها، والتي تخيلها المصريون إما كعنصر عبارة عن "المياه الأزلية"، أو قوى تتجسد في الإله "نون" الذي أطلق عليه اسم "الواحد القديم" فهو "المبدأ الأول" أو "الأصل الأول"، وقوام هذا الأزل خواص أربع يمثل كل منها زوجين ذكر وانثى من المعبودات، فالخاصية الأولى هي "العمق العظيم" ثم "اللانهاية"، ثم "الظلام المخيم" فاللارؤية.

ونحن لا نعرف على وجه الدقة تطور الفلسفة الكونية الآشمنية، حيث أنها اختلطت منذ زمن مبكر خلال فترة الانتقال الأول بلاهوت هليوبوليس، حيث قدمت مفهوماً أكثر تقدماً في تفسير بدء الخليقة فيما بعد.

(ب) أما معبود هليوبوليس - الإله "أتوم Atum" فقد بدأ وجوده الذاتي من فوق قمة تل أزلي، انبثق بدوره من المياه أو اللانظام الأزلي، ثم نفخ الإله في نفسه، وبزق من فمه الإله "شو show" وقرينته "تفنون tfenet" واللذين نسلا، ومن خلال ولادة طبيعية بقية المعبودات الأخرى.

ويعزى إلى أتون، الذي يعنى اسمه في اللغة المصرية "الكامل" أو "المطلق" ثلاث صفات رئيسية، فهو الموجود بذاته "الذي أتى إلى الوجود بنفسه"، وهو "الأقدم" أو "الأزلي"، كما أنه "الأوحد" المتفرد بذاته، وعلى ذلك فهو الحاكم على كل الآلهة الأخرى "سيد الجميع" ^(١).

ولقد كان "شو" يجذ الهواء أو الأثير، بينما "تفنون" تمثل الرطوبة، وبهما بدأ العالم المنظم، فـ "شو" كأثير كان معطى الحياة أو القوة الخالقة التي اعتمدت عليه في كل عناصرها، وما الريح والأنسام التي تتنفسها الأحياء إلا من ظواهره وهو

^(١) وكان ينطق اسمه باللغة المصرية القديمة "Temor Tum" بمعنى اكتمل، وهو في ذلك يشبه الفعل "تم" في اللغة العربية. "To be complete" وقد وجد المصريون بينه وبين إله الشمس "رع"، وأطلقوا اسمه على قرص الشمس قبل الغروب عندما (يتم) أو يكتمل، وكان يُعد هذا الإله في بعض الأحيان بأنه أصل الجنس البشري.

لأنهائي وغير مرئي لا تحيط به الأنظار، ولقد فصل السماء عن الأرض، بأن رفعها
مالاً الفراغ بينهما بأدلة وجوده^(١).

وقد حلل اللاهوت المصرى الخلق الميتافيزيقى للإله "شو" بأنه قد تم وجوده
من خلال انسام الحياة، وهو تفسير يتسق إلى حد بعيد مع طبيعته كباله أيتري، قد
نفته "أتوم" مستخدماً قواه السحرية، منذ أن بشر اللاهوت هليوبوليس بأن "أتون
" ماهو إلا مظهر آخر لإله الشمس "رع"، فإن الاثنين اندجما معاً في مركب إلهي
واحد هو "رع - أتوم" الذي بانبثاقه من الظلمة، غمر ضياؤه كل شيء، وقد
شخص المصريون الكون طبقاً لهذا المفهوم بتخيل الإله "شو" رافعاً بذراعيه
المتدتين إلى أعلى ابنته "نوت" ربة السماء، بينما "جب" رب الأرض يقع قابعاً
عند قدميه.

(جـ) وفي فترة ما بين عصرى الأسرتين الثالثة والخامسة، عندما كانت
مدينة منف العاصمة السياسية لكل البلاد، كانت هناك ثمة ضرورة عقائدية
وسياسية معاً لإجراء ضرب من المصالحة بين لاهوت "هليوبوليس" الذى احتل فيه
الإله "أتوم" دور الإله الخالق، وبين لاهوت "منف" الذى يتمتع فيه الإله "بتاح"
بهذا الدور.

وعلى ذلك فقد أعلن عن ثامون مقدس بضم ثمانية آلهة، احتواها جميعاً الإله "بتاح"
متجسدة أشكالها فيه، والتي لم تكن إلا "بتاح" نفسه، وتعبّر الفلسفة المنفية
عن ذلك مرددة:

" فى الأصل تم الخلق من اللسان والقلب باعتباره صورة "أتوم" ولكن "بتاح"
الأعظم "حبا الآلهة وأرواحها الفعالة بالحياة بغض من قلبه ولسانه اللذان توحدتا
منذ البدء فى (حورس وتحوت) واللذان هما (بتاح) بعينه الذى يقف تاسوعة المقدس
(٢) منه كالأسنان التى هي بذور (أتوم) والشفاه التى هي أصابعه، لأن أتوم قد ولد

(١) عندما فصل الإله "شو" السماء عن الأرض ملأها بالنور والهواء، ومنذ ذلك الحين بدأت الحياة،

ولذلك يسمى "شو" فى نصوص التوابت والنصوص الدينية بـ "عنخ" بمعنى "الحياة"

(٢) كان التاسوع يتكون من "أتوم" الذى خلق من ذاته "شو وتفنوت" وتزوج المعبودان وأنجبا "جب" رب
الأرض و "نوت" ربة السماء، وتزوجا أيضاً، وأنجبا أربعة هم "أوزيريس وإيزيس وست ونفتيس".

من بذرته ومن أصابعه، وما هذا التأسوع إلا الشفاه في قم هذا الذي نطق بالأسماء الأولى للأشياء جميعاً التي خلقت (شو وتفنوت) وباقي تأسوعه".

وتتخلل نصوص الخليقة للمدرسة المنفية فقرات تقدم في سياقها فهماً مدهشاً للظواهر الفسيولوجية، كما تقرر "أن القلب واللسان هما السيطرة على كل الأعضاء، فالقلب يوجد في كل الأجساد، واللسان في كل الأفواه للآلهة والبشر وكل المخلوقات والأشياء الحية، والقلب يحتفظ بالأفكار، بينما اللسان ينطق بالكلمة، فنظرة العين وسمع ونشاط الأيدي والأذرع وكل ما سعى على قدميه مصدر كل معرفة، منه تنجم المهن والأعمال ونشاط الأيدي والأذرع وكل ما سعى على قدميه، وكل حركة للأعضاء التي تصدع بالأوامر التي يفكر فيها القلب، وينطق بها اللسان والكلمات التي تعطي أثرها في إنجاز كل الأشياء".

وهنا تبدو قصة "بدء العالم" الذي خلقه "بتاح" معروضة في أسلوب فكري رفيع، ففكرة الخلق تبدأ في العقل أو القلب، ثم يتحقق من خلال الكلمة المنطوقة للسان أو الأمر، وما الآلهة الأخرى إلا اللسان والقلب والأسنان والشفاه للإله "بتاح".

ثالثاً: "قدر الإنسان ومصيره" بين "البشر والآلهة عند المصري القديم.

فالآلهة إذاً هي التي خلقت البشر، وهم - أي البشر - ينطوون في تكوينهم على قبس إلهي، وليس من المستحيل عليهم أن يصبحوا هم أنفسهم آلهة حال مماتهم^(١)، وقد كان الميت المؤله يحتل عادة قبل وفاته مركزاً رفيعاً، كمنصب وزير الملك وأعظم موظفيه في القطر، وكنموذج لذلك تقديس "كاجمني Kagemni"^(٢) في نهاية

(١) وإن كان هناك استثناء لذلك، هي قداسة الملك الحي حال حياته على الأرض، ولعل أشهر ملك أله أثناء حياته هو الملك "رميس الثاني"، فلما اتبعه في التبشير بعبادته أسلوب تصويره بين الآلهة كأله واحد منهم، والظهور ثالث الثالث، فقد صور بين "آمون وموت" في مقام ابنيهما "خونسو"، وبين "إيزيس وأوزيريس" في مقام ابنيهما "حورس" وبين بتاح وسخمت في مقام ابنيهما "نفرتم"، وبين إله = الشمس ويوسعاس في مقام "شو". كما صور بناسوته يتعبد إلى شخصه، أو يتلقى منه البركات، كذلك يقدم القربان إلى الثالث الذي هو واحد فيه.

(٢) كان "كاجمني" وزير الدولة في عهد الملك "تيقي"، وتقع مقبرته على مقربة من حوله في سفارة، وقد سجل تاريخ حياته على جانبي واجهة مدخلها.

الدولة القديمة، فنجد أفراداً من أتباع عقيدته - يحملون جميعاً اسم "جِمينُ Gemen" وهو اختصار "كاجمني" - يبنون مقابرهم حول مصطلبته قرب منف في سقارة، ورغم ذلك لم يكن يُطلق عليه لفظ إله، وربما كان شيئاً قريباً من القديسين.

وقد أله أيضاً كل من "إيمحوتب Imhotep" ^(١) وزير معمارى الملك زوسر العظيم من الأسرة الثالثة، و"أمنحوتب بن هابو" وزير الملك "أمنحوتب الثالث" من الأسرة الثامنة عشرة، واستمر تقديسهما حتى العصر الصاوى ^(٢)، بل وامتدت عقيدتهما محرزة شعبية كبيرة في العصر البطلمى، وبين الإغريق أنفسهم الذين أطلقوا عليهما على التابع "إموثس Imuthes" و"أمنوئثس بأبيوس Amwnathes paapios" أى ابن هابو "حيث كانا يمثلان حكمة الأجداد.

ويبدو في مفهوم المصرى القديم، أن مصائر البشر أو أقدارهم ليست حتماً يستحيل تجنبها، فالإنسان قادر على تغيير قدره من خلال أفعاله إذا أراد الإله له ذلك، وطالما أن الغد دائماً "يقع بين أيدي الإله" فالطفل يولد مصحوباً بالعناية الإلهية، والوالدان يوطدان صلاتهما بالآلهة فتأمر بأن يولد الطفل لهما، ومنذئذ فإن الإنسان يمارس أعماله فقط من خلال رضى الآلهة وموافقتها، فالبشر يقترحون الأفعال، أما الإله فيفرضها، أو كما عبر عن ذلك أحد حكماء المصريين:

"الإنسان ينطق بالكلمة أما الأمر فللرب".

^(١) يعنى اسم "الآتى فى الإسلام"، وفى العصر الفارسى لُقِب "بابن بتاح" حيث أخذ مكان الإله "نفرتم" وينحدر "إيمحوتب" من أب مهندس يدعى "كانفر" وأم اسمها "خردوعنخ" تنتمى إلى إقليم "منس" غالباً، ويُقال أن "إيمحوتب" ولد فى إحدى ضواحي منف تسمى "عنخ تاوى"؛ وقد أصبح إلهاً للطب، وروحد مع الإله الإغريقى "أسكليبيوس Asklepios" وكان يُنظر إليه منذ وقت مبكر فى الدولة الحديثة كراعى وحامى للكتاب الذين اعتادوا أن يسكبوا قطرات من مدادهم قرباناً له قبل شروعهم، كما اعتبر ابن الإله "بتاح" نفسه من السيدة "خردوعنخ".

^(٢) لم تتعد عبادة "أمنحوتب بن هابو" حدود طيبة، فى حين أن عبادة "إيمحوتب" انتشرت فى جهات كثيرة مثل منف والصعيد والنوبة والواحات.

ونجد نموذجاً لما يأمله المصري من فضل الآلهة في نص ينسب للملك "رمسيس الرابع"^(١)، يسأل فيه الإله "أوزيريس" أمانيه التي يرجو تحقيقها، كمثوبة له على أعمال التقوى التي أعرب عنها لهذا الإله، وهو يضمن هذه الأمان ما هو خاص به وبرعاياه، والذين يخاطب باسمهم الإله، وهو يعبر عن ذلك في أسلوب محدد هو نمط مصري حقيقي قائلاً:

"لسوف تحبونني بالصحة وبالعمر الطويل، وبعهد ملكي ممتد، وبالقوة لكل أطرافي، البصر لعيني، والسمع لأذني، والهناء لقلبي كل يوم، ولسوف تعطونني الطعام حتى الشبع، والشراب حتى الري، وتطلون بذرتي من الأطفال بالحماية، حتى يصبحوا ملوكاً تحكم مصر دوماً وإلى الأبد، ولسوف تعمرون قلبي بالرضا، وتمنحوني سمعكم لما أقول، وستأمرون بفيضانات للنيل مترعة تحقق متطلبان قرايبي وقرايين الآلهة والإلهات سادة مصر العليا والسفلى حفاظاً على العجول المقدسة، وكل الناس على أرضك، مع قطعانهم وأشجارهم التي هي صنع يديك، لأنك أنت خلقتهم جميعاً ولن تتركهم في ضلالة يعمهون"^(٢).

ونحن واجدون في هذا النص القيم والأشياء التي أهتم المصري القديم، ألا وهي الحياة والصحة والعمر الناضج المديد، ثم وفرة من طعام وشراب يطلبها لأطفاله، كما سألها لنفسه، ثم فيضان غامر تتوقف عليه رفاهية سكان مصر وثرواتهم من قطعان وأشجار كما تتوقف عليه حياة دينية ثرية في ممارستها من التقدمة وقرايين الآلهة البلاد، وفي النهاية يُحث ربه على تحقيق هذه الدعوات بمبرر مقنع فالإله خالق البشر وكل شيء مما يُرتب التزاماً بأن يجوبهم بعميم رحمته ورعايته، وألا يعدل عن تلك الخطط الإلهية التي قدرها لهم عندما خلق ذلك العالم.

والآلهة - كما يتضح من النص السابق - هم الذين يصنعون الطفل، ويخرجونه للحياة، ويجوبونه بالحماية والحب والتربية، يقفون وراء حافظين له حياته، يقدون له

(١) عُثر على هذا النص منقوشاً على لوحة رمسيس الكبرى في أبيدوس، وهي حالياً بالمتحف المصري تحت رقم ٧٥٧، ومسجلة برقم ٤٨٨٣١، وقد نُقشت هذه اللوحة غالباً في أوائل حكم "رمسيس الرابع"، وأهداها إلى الإله "أوزيريس" متأثراً بولادة والده.

(٢) راجع: "الديانة المصرية القديمة"، ص ٧٠-٧١.

ويغمرونه بالفضل والصحة والثياب، رافعين إياه عالياً، وإجمالاً فإن حياته كلها تقع بين أيدي الإله، لأن الإنسان هو خادِم الرب المتبتل في عبادته وحبّه.

وكان التشوق للعمل بالاتساق مع إرادة الآلهة طابعاً مميزاً للمصريين، فدائماً أبدأ كانوا يصرون على أن أى عمل معين " هو ما قرره الإله " وفي رأى المجتمع، فإن القيم الأخلاقية كانت تقرر بواسطة البشر أيضاً فضلاً على الآلهة، وكان المعيار فى ذلك عادة هو " ما يحبه الإنسان وتقره الآلهة " لأن ذلك هو العدل والطيب، وقد استخدم المصريون كلمة " نفر Nufer " للدلالة على " الطيب والجميل " فهم يتحدثون على سبيل المثال عن " شخصية طيبة " وعن شيء أو شخص بأنه من الجميل النظر إليه، كما أن " نفر " يرتبط أيضاً مع البهجة والحظ الطيب، والكلمتان المضادتان لذلك تعنى باللغة المصرية القديمة " دحو dgow " (الردى وغير سار أو غير محظوظ أو حزين) بينما كلمة " بوين boien " تعنى (ردى فى علاقته) مع " عدم الجدوى والكارثة والمصيبة "، وهذه الكلمات لها على ذلك معنى " جمالى وأخلاقى " بينما كلمة " ماع " التى تعنى " حق، صادق، عادل " وكذلك الاسم المشتق منها " ماعت " بمعنى " الحق، الصدق، العدالة " تنتمى على النقيض من ذلك فقط إلى المجال الأخلاقى^(١).

والإنسان نفسه مسئول تماماً عن أثر أفعاله، لأن المصريين على الرغم من إيمانهم بالقدر فإنهم لم يخلصوا إلى أن القدر يمكن أن يعرقل الإرادة الحرة للإنسان، فالقدر يتبدى فى مختلف الأحداث فى العالم المحيط، والتى تؤثر على حياة الإنسان من الخارج، والإنسان تظل لديه الفرصة لكى يناضل، ويواجه هذا التأثير لجهده الخاص.

(١) وهناك مفهومان مضادان لكلمة " ماعت " هما " جرج Goreg " بمعنى كذب أو زيف و يسفت Yesfet " وتعنى تقريباً " خطأ أو رذيلة " وأحياناً نجد " ماعت " فى صيغة المثنى " ماعتى Maeety " وربما تغير هذه الصيغة الثنائية عن درجة كاملة أو عميقة من المعنى، وليس إلى وجود مفهوم يعنى حقيقتين أو عدالتين، وتعنى " ماعت " كذلك النظام الذى قام عليه الكون . ونظمت كل ماتم خلقة من مظاهر الطبيعة.

وما نطلق عليه اسم الضمير الآن، كان طبقاً لإدراك المصري القلم مستقراً في القلب " إيب Yeb" ^(١). والذي كان موطن العقل و(العواطف) والرغبات، وصوت القلب هو "صوت الإله" و" ذلك الذي يقوده القلب إلى نسق طيب من السلوك هو السعيد".

والمصريون ذوو العقلية، العملية لم يشغلوا أنفسهم بتأملات نظرية عن الخير المطلق الذي يمكن تطبيقه، وإتباعه تحت كل الظروف وبأى ثمن، ووجهة نظرهم في هذا الصدد كانت عملية محضة، فقد كان من المرغوب فيه عمل الخير، لأن ذلك سيعود بالنفع على الفرد فرضاً الآلهة والبشر سيثمر عطاؤه طال ذلك أم قرب، وهو يحفظ للإنسان (اسماً طيباً) بين معاصريه وبين أخلاقه وسيحمي هذا الاسم من السقوط في زوايا النسيان أو من اللغة.

والاسم كان عنصراً فعالاً لأى شيء أو لأى شخص يسهم في جوهر وجوده، و"الاسم الطيب" كان يذكر - كما اعتقد المصري القلم - إلى الأبد، كمل أن حامله يتمتع بحياة ممتدة، ومثل هذا الاسم أمر حري بأن يجتهد الإنسان من أجله ^(٢).

وإتيان الخير والحق يتوافق إلى حد كبير مع السلوك الطيب، وقد كان ذلك يلحق للشباب من خلال فرع خاص في الأدب هو أدب التعاليم، وهو عبارة عن مجموعة من الحكم والنصائح التي تشكل الحكمة العملية، أو بالأحرى الذكاء في تناول الحياة ^(٣)، وهذه التعاليم كان يفترض أنها من نسج رجال ناجحين في حياتهم

^(١) ولذلك كان القلب المتوفى يوضع في الميزان مع ريشة العدالة أثناء محاكمته في الآخرة أمام " أوزيريس" رب المتوفى.

^(٢) كان تحطيم الاسم يعنى القضاء على صاحبه، وهذا ما قام به مثلاً الملك "تحوتس الثالث ضد الملكة "حتشبسوت" بعد وفاتها، حيث قام بتهديم أسماءها على جدران معبدها بالدير البحري، وكذلك ما قام به أعداء "إخناتون" ضده، وضد إله " آتون" بعد انتصار كهنة "آمون" مثل ما نراه على جدران مقبرة رموزا بالأقصر.

^(٣) كانت هذه الحكم تبدأ عادة بكلمة " سبوي" كمنوان لها، وهذه الكلمة معناها "درس أو تعليم" ولكثرة استعمال هذه الحكم والتعاليم، كان التلاميذ يكتبونها على قطع من الفخار وشظايا الحجر =

ومستقبلهم، وعلى ذلك فقد كان هناك ضمان معين لنجاح مماثل لأولئك الذين يتبعون هذا النهج.

وهناك أجزاء من الأعمال المتأخرة من هذا الفرع من الأدب، المسماة تعاليم "امنموبى Amenemope" والتي صيغت في مصر الأسرتين العشرين والواحد والعشرين، وأقدم نموذج معروف لهذه التعاليم هي التي نسبت للحكيم "بتاح حتب ptah-hotep" الذى كان وزيراً في الأسرة الخامسة، وتتركز حول سلوك الإنسان إزاء رؤسائه في مختلف شئون الحياة، ولب هذه التعاليم أن "ما يحدث هو أمر الإله الذى يهب المكانة العظمى" وأن النهج الأفضل للشخص الراغب في التقدم هو ألا يعمل في تناقض مع النظام الراسخ.

وبينما كان هذا النظام في الدولة القديمة مؤسسا فوق كل شيء على إدارة منظمة جيدة، فإن الدولة الوسطى قد أضافت مفهوم تقوى الآلهة كجزء من هذا النظام، فعلى الرغم من أن الإله قد خلق السموات والأرض طبقاً لرغبة البشر، والنبات والحيوان لطعامهم، فهو كذلك فرض العقاب لأنه،

"يُنكل بالمخلوقات على ذلك الذى اقترفه عندما كانوا أعداء له، كما أنه محق كل العاصي منهم، فمن المحال الإفلات منه، لأن الإله يعرف كل اسم، والتقوى أو الفضيلة هي الأكثر قبولاً عند الإله من القربان الذى يقدمه الشرير".

والتجربة قد أدت رغماً عن ذلك إلى أن النظام الإلهى الذى يفرض المشيئة للخير، والعقاب للإثم، لا يتحقق دائماً في الحياة الدنيا، وطالما أن المصريين قد آمنوا دائماً باستمرار الحياة بعد الموت، فإنه قد بدا لهم أن من الطبيعى والمنطقى أن يمتد أو يؤجل آثار النظام الإلهى، أى العدالة إلى الحياة الأخروية، ومن المحتمل أن الإيمان بأن السعادة في الحياة الأخرى التى تتوقف على السلوك والأعمال خلال الحياة على الأرض، كان سائداً في الدولة القديمة، يتضح ذلك من الوثائق المكتوبة لهذه الفترة، ومنذ الدولة الوسطى فصاعداً أصبح ذلك الإيمان مفهوماً سائداً، مما يجعلنا

=الجيرى الملاء، ومعظمها يرجع إلى عهد الرعامسة، وأقدم ما وصلنا يرجع إلى الدولة القديمة، وخاصة تعاليم "كاجنى" و"بتاح حتب".

لنخلص إلى أن هذا الإيمان تأصل في فترة الانتقال الأول من التاريخ المصري القديم.^(١)

والنظرة التشاؤمية، ومفهوم عبثية هذه الحياة، تشكيلان الخلفية لقطعة أدبية أخرى من نفس هذه الفترة، وهى "الحوار بين اليائس من الحياة وروحه"، فهو بسبب يأسه من الظروف المحيطة بهذا العالم، والتي يلخصها قائلاً:

"ليس ثمة ما هو حق، لقد انتقلت مقاليد العالم إلى أيدي من يرتكبون الشر مقترفي الإثم"، قرر الانتحار بأن يلقي بنفسه في النيران حاثاً روحه على أن تلحق به.

ولقد حاولت الروح جاهدة أن تصرفه عن قراره هذا، وأن تذكره بمباهج الحياة وكآبة عالم الموت الذي لارجعة منه، وإن اتفقت مع جدل صاحبها بأن من يصل إلى العالم الآخر سينعم بصحبة الآلهة، وسيخظى بمكانة على غرار إله، وربما أفاد ذلك في أن يعمل على عودة السلام والعدل على الأرض.

ومثل هذا الأدب التشاؤمي يتعارض مباشرة مع النظرة التفاؤلية التقليدية للمصري القديم إلى الحياة، والتمتع بنعائمتها بدون أى خوف من الموت، ورغم أن

(١) يمكننا القول بأن المصري القديم في العصور التاريخية آمن بالخلود، رغم أنه لا توجد كلمة تعبر عن الخلود في لغته، فكلمة الحياة نفسها تستخدم لكل من الحياة على الأرض والحياة بعد الموت، ولكن الخلود ليس مطلقاً، فإن متطلبات معينة يجب أن تتحقق للحصول عليه، والدليل على وجود مثل هذه العقائد في العصور التاريخية المبكرة هو مجرد العثور على أدلة أثرية، حيث احتوت مقابر هذه العصور على الطعام والأدوات الأخرى التي لا يُفسر وجودها إلا في ضوء الفراض أن هناك تصوراً بأن الحياة تمتد بعد الموت تحت ظروف شبيهة للغاية بتلك التي انصرفت. على الأرض.

وحالة الحفظ التي وجدت عليها أجساد الموتى فترة طويلة بعد الموت، والتي تعزى إلى المناخ الجاف، قد أسهمت إلى حد كبير في أصل فكرة استمرارية الحياة، ولقد كان الوضع الذي توسد الجثث على أساسه يختلف من مكان إلى آخر، ولكن هذا الوضع كان ثابتاً في الجبانة الواحدة، مما يعكس أيضاً بعض الاختلافات، أو بعض التصورات في المفاهيم الجنائزية.

راجع : - Erman, Adolf, Die Religion der Agypter, Berlin and Leipzig 1934;
French translation, La religion des Egyptiens by H. Wild, Paris, 1937.
- Sainte Fare Garno
1948.

الموت كان حقيقة لم يغمض المصري عنها عينية عامداً إلى مواجهته بالوسائل التي
تناسب مع إمكانياته، فالتشاؤم ليس أمراً طبيعياً للمصري.

الفصل الثالث

”إخناتون“ أول ”ثورى“
فى العالم يسعى لصياغة ”توحيد“ عالمى

ويشمل:

(أ) تمهيد.

(ب) ”إخناتون“ نائرا على التقاليد اللاهوتية.

(جـ) ”نزعة التوحيد“ عند إخناتون.

(د) تعقيب

(أ) تمهيد:

احتل "آمون" إله طيبة المحلي القدم في عهد "أمنحوتب الثالث" المكانة الأولى في علم لاهوت الدولة، بالنسبة إلى المركز الأعلى الذي كانت تحتله الأسرة الحاكمة بالمدينة موطنه، في الإمبراطورية.

ومن وجهة علم اللاهوت، فإنه خضع منذ زمن طويل للترعة القديمة التي كانت تتعرف هوية الآلهة المحليين القدامى في إله الشمس، وكان قد أطلق عليه منذ عهد بعيد "آمون-رع"، وقد حلت محل خصائصه المحلية القديمة، خصائص إله الشمس، وصيغ آمون المحلي القدم بالصيغة الشمسية تماماً.

وهذه الطريقة كان من المستطاع رفعه إلى المرتبة العليا في تجمع الآلهة، فأصبحت له المكانة الأولى بين الآلهة، وأدمج "أمنحوتب الثالث" طوائف كهنة كل المعابد في البلاد، في منظمة كهنوتية واحدة، وعلى رأسها وضع كاهن آمون الأعلى^(١)؛ وكانت هذه أقدم طائفة كهنة قومية عُرِفَتْ حتى ذلك الحين في الشرق الباكر في مصر القديمة.

وعندما خلف "أمنحوتب الرابع" أباه "أمنحوتب الثالث"، حوالى عام ١٣٧٥ ق.م، قام نزاع حاد بين البيت المالِك من جانب والمنظمة الكهنوتية التي يسيطر عليها آمون، من جانب آخر، ومن الواضح أن الملك الشاب "أمنحوتب الرابع (أخناتون)" كان يميل إلى مطالب إله الشمس القديم، وهي تتعارض مع مطالب آمون.

وفي بواكير حكمه نجده يعضد في حماس صورة جديدة من عقيدة الشمس القديمة يحتمل أنها كانت حلاً وسطاً بين الاثنتين، وخصص نفسه للمذهب العللي الشمسي الجديد، فأضفى على إله الشمس تعريفاً، حرر العقيدة الجديدة من تقاليد علم اللاهوت الشمسي القديم، التي تتعدد فيها الآلهة؛ في حل وسط، لقد أصبح الآن يطلق عليه "آتون" وهو إسم قدم للشمس المادية، وربما كان يدل على قرصها.

(١) حابر سب، أول كاهن أعلى لآمون، الذي احتل المنصب على رأس التنظيم الكهنن الجديد، وكان الوزير الأكبر في عهد الملكة حتشبسوت.

وبذل اخناتون جهداً لجعل اسم "آتون" معادلاً في بعض الصيغ القديمة للفظ "إله"، ولهذا أصبح يطلق الآن على التعبير التقليدي "قربان إلهي" (حرفياً "قربان الإله")، "قربان آتون"^(١).

ولم يأخذ إله الشمس اسماً جديداً وحسب، ولكن الملك الشاب "إخناتون" أضفى عليه رمزاً جديداً أيضاً، إن أقدم رمز لإله الشمس كان هرمًا وصقراً، ويصور الرمز الجديد الشمس كقرص تشع منه إلى أسفل أشعة منحرفة، وكل شعاع ينتهي بيد آدمية، ويوحى هذا الرمز بقوة تنبعث من مصدرها السماوي وتضع يدها على العالم وشئون الناس.

ولإدخال عقيدة آتون في طيبة، أقام أمنحوتب الرابع (إخناتون)، هناك معبداً رائعاً للإله الجديد، وأوقف عليه أوقافاً سخية من الخزانة الملكية، وسرعان ما نشبت أشد العداوات خصومة بين الملك وبين كهنة آمون، انتهت بإصرار الملك على جعل آتون إلهاً أوحده للإمبراطورية، وتشتيت شمل آمون.

ولقد نتج عن الجهد الذي بُذل لمحو كل أثر لوجود آمون، أن غير الملك اسمه من "أمنحوتب" (آمون يرتاح "أو" "يرضى") إلى "إخناتون" ومعناه "أتون راضٍ" وهو نقل الاسم القديم للملك إلى فكرة مماثلة في عقيدة آتون، وحتى اسم والد الملك، أمنحوتب الثالث، لم يُحترم، حتى لفظ "آلهة" كجمع، مُحى أينما وجد، وجرت على أسماء الآلهة الأخرى، أيضاً نفس المعاملة التي لقيها آمون^(٢).

(ب) "إخناتون" ثائراً على التقاليد اللاهوتية:

ولما وجد "إخناتون" إن طيبة قد أثقل كاهلنا بالكثير من التقاليد اللاهوتية، على الرغم من مكانتها وبهايتها، فقد هجرها وأقام عاصمة جديدة تقع على التقريب في منتصف المسافة بين طيبة والبحر، في مكان يعرف، على ما هو شائع الآن بتل العمارنة، وقد سماها "آخت أتون" أي "أفق آتون"، وأصبح اسم إله الشمس هو الاسم الإلهي الوحيد الذي يوجد في المكان، وكان الغرض منه فيما يتضح أن يكون

(١) راجع برستيد (جيمس هنري): تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة زكي سوس، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٢٧، ٤٣٠.

(٢) راجع برستيد (جيمس هنري): تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة زكي سوس، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٢٧، ٤٣٠.

مركزاً لنشر مذهب التوحيد الشمسى، ولم يكتف الملك الشاب بهذا فقط، بل أسس مدينة لآتون مماثلة في النوبة، وأخرى في آسيا، وبهذا أعطى كل قسم من الأقسام العظمى في الإمبراطورية - مصر والنوبة وسوريا - مركزاً للعقيدة الآتونية، وبخلاف هذه، فقد أقيمت لآتون هياكل في أمكنة أخرى متنوعة في مصر^(١).

وما كان ليتسنى لإخناتون إنجاز هذا، دون تكوين حزب قوى للقصر يستطيع ترجيحه ضد طوائف الكهنة المطرودين وخاصة كهنة آمون، إن حياة حزب القصر هذا، التي كشف عنها القناع الآن في "آخت آتن" كانت تتركز حول نشر العقيدة الجديدة، وتؤلف نقوش الحيطان البارزة التي تزخر بها المقابر التي حفرها الملك الشاب، تؤلف أجمل فصل شيق في قصة الشرق القديم^(٢).

وتحتوى هذه القبور على سلسلة من الأناشيد في حمد إله الشمس (آتون)، أو إله الشمس والملك، على التبادل؛ وهو ما يسمح لنا على الأقل بلمحة من عالم الفكر الجديد الذى نشاهد فيه هذا الملك الشاب ورفاقه يرفعون أعينهم ويحاولون أن يتبينوا الله في مدى قوته التى لا تحد، الله، الذى لم يعد بعد إله وادى النيل فقط بل إله كل الناس وكل العالم.

(جـ) "نزعة التوحيد" عند إخناتون

وليس أفضل من أن ندع هذه الأناشيد تتحدث عن نفسها^(٣) وتعرفنا قسماً الثورة التى قادها وصاغها إخناتون في ذلك الوقت.

(١) برستيد، آثار النوبة السودانية ص ٥١ - ٨٢.

(٢) كانت هذه القبور تزار كثيراً وتدرس، وقد نشرت في أجزاء متتالية، ولم توجد، مع هذا، أية طبعة كاملة حتى عام ١٩٠٣، عندما نشر "ديفس" كتابه القيم "مقابر العمارة الصخرية" مجلدات ١-٦ لندن ١٩٠٣ التى تحوى كل شئ في العمارة فيما عدا موقع المدينة وقبر الملك، ويقدم لنا هذا الكتاب القيم موطناً للموقف في العمارة من الوجهة التاريخية، وخاصة الحياة في القصر، في البيئة الجديدة، التى صاغها الملك الشاب، "إخناتون".

(٣) إن أحسن هذه الأناشيد، هو نص ديفس، عمارة ٦ لوح ٢٩، راجع برستيد، - Dehymnis in solem -

= sub rege Amenophide IV , conceptis, Berlin, 1894

تقول أطول وأهم هذه الأناشيد ، تحت عنوان ” بهاء آتون الذى يعمم الكون وقوته“:

”إن طلوعك جميل فى أفق السماء

يا آتون، يابادى الحياة

عندما تصعد فى الأفق الشرقى.

تضفى على كل أرض جمالك.

إنك جميل، عظيم، تلمع عالياً فوق كل أرض.

إن أشعتك تحوط الأقدار وتحوط كل ما أوجدته.

إنك تحكم وثاقهم بحبك“.

وفى مقطوعة أخرى بالغة الجمال نقراً: عن آتون أنه:

”خالق الجرثومة فى المرأة.

صانع البذرة فى الرجل.

معطى الحياة للوليد فى جسم أمه.

تدخل السكينة إليه حتى لا يجهد بالبكاء.

وترضعه (حتى) فى الرحم“.

وعن ”خلق الحيوان“ تقول مقطوعة أخرى من أناشيد آتون:

”عندما الفرخ فى البيضة يسقسق فى القيص.

تعطيه النفس داخلها لتحفظه حياً.

وعندما تكون قد جمعت بعضه إلى البعض الآخر.

إلى (الحد الذى) يدفعه فى البيضة.

فإنه يخرج من البيضة.

= وتقسيم هذه الأناشيد إلى مقطعات معنونة، من وضع بروستيد نفسه (تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ص ٤٣٢-٤٣٣).

ليستسقى بكل ماله من جهد.
ويسعى هنا وهناك فوق ساقيه.
عندما يكون قد خرج منها".
نصل إلى أعمق المضامين التي تحويها مقطوعات هذه الأنشودة، والتي تتحدث عن
خلق العالم "فتقرأ:
"كم عديدة هي أعمالك!
إنها خافية (عنا).
أيها الإله الأوحد، الذي لا يملك قواه أحدٌ غيره.
لقد خلقت الأرض وفقاً لمشيئتك.
عندما كنت وحيداً.
الناس وكل الماشية، الكبير منها والصغير.
كل ما يوجد على الأرض.
التي تسعى هنا وهناك على سيقانها.
وكل ما كان على ارتفاع.
تلك التي تطير بأجنحتها.
إنك تقرر كل إنسان في مكانه.
إنك تمدهم بحاجاتهم.
وكل إنسان لديه متاعه.
وأيامه معدودة.
والألسن تتنوع في الكلام.
وصورهم كذلك وبشراتهم يتميز بعضها عن البعض الآخر.
(إذ) أنك جعلت الغرباء يتباينون.
أنت سيد كل أرض، الذي تشرق لأجلهم.
أنت شمس النهار، العظيم في جلالك.

إن جميع الأقطار القاصية.
إنك تصنع (أيضاً) حياتها.
لقد وضعت نيلاً في السماء.
وعندما يسقط لأجلهم فإنه يصنع أمواجاً على الجبال.
أشبه بالبحر الأخضر العظيم.
يروى حقوقهم في بلدانهم.
ما أروع تدابيرك، ياسيد الأبدية.
يوجد نيل في السماء لأجل الغرباء.
ولأجل ماشية كل قطر، تسعى على سيقانها.
(ولكن) النيل، إنه يأتي من العالم السلفى، لأجل مصر.“
”وأتون“ في هذه الأناشيد التي تركها لنا المصري القديم ممثلاً في ملكنا
الشاب ”إحناتون“ مسئول عن تعاقب الفصول، ويجب على البشر أن يتأملوا
صنعتة الواضحة في كل شيء، وما أجمل ما تصوره لنا المقطوعة التالية من هذه
المعاني:

” إن أشعتك تغذى كل حقيقة.
عندما تشرق، فإنها تعيش .
إنك أنت الذي تنميها.
إنك تصنع الفصول.
حتى تخلق كل عملك .
الشتاء ليحلب لهم البرد.
والحر حتى يمكنهم أن يتذوقوك.
إنك جعلت السماء القصى يرتفع هناك.
حتى يشاهدوا كل ماصنعتة.
أنت وحدك وأنت تضيء في صورتك كآتون الحى.
تطلع وتلمع وتذهب بعيداً وترجع.

إنك تصنع الملايين من الصور.
عن طريقك وحدك.
المدن والبلاد والقبائل والطرق العامة والأفار.
كل العيون تراك أمامها.
لأنك آتون النهار فوق الأرض.“
ونصل مع هذه المقطوعات إلى ترنيمات جميلة يناجى فيها ”إخناتون“
إن“ بقوله:
”إنك فى قلبى.
لا يوجد آخر يعرفك .
سوى ابنك إخناتون.
لقد جعلتة حكيما.
فى تدابيرك وفى جبروتك.
إنَّ الناس يحبون بك.
بينما عيونهم تقع على جمالك.
إلى أن تغرب.
إنَّ لكل عمل يُرجأ.
عندما تغرب فى الغرب.
لقد وطدت دعائم العالم.
وتنشئهم لأجل ابنك.
الذى خرج من أعضائك.
ملك مصر العليا ومصر السفلى.
الذى يعيش فى الحق، سيد القطرين.
نفر- خيرو-رع، وع - إن - دع (إخناتون)
ولأجل الزوجة الملكية الأولى، محبوبته.

سيدة القطرين. نفر - نفرو - أتون، نفرتيتي.
تعيش وتزدهر إلى الأبد.

(د) تعقيب

ونحن واجدون في مثل هذه الأناشيد مذهباً عالمياً ملهماً، لا يوجد قبل ذلك في دين مصر، وفي مجاله ينتظم العالم كله، إن الملك يدعى بأن الاعتراف بسيادة إله الشمس العامة هو أيضاً عام، وأن كل الناس يعترفون بحكمه، ويقول عنهم، إن أتون صنعهم لأجل نفسه خاصة، يحملون جزيتهم فوق ظهورهم، لذلك الذي أوجد حياتهم، ذاك الذي يعيش الناس بأشعته ويستنشقون الهواء.

من الواضح أن إخناتون كان يضع الخطة لدين عالمي، ويحاول أن يجعله يحل محل القومية التي سبقتها مدى عشرين قرناً.

ومع هذه السلطة العامة، فإن إخناتون متأثر تأثراً عميقاً ببقاء الإله الأبدى، ومع أنه هو نفسه، يتقبل في هدوء قضاء الموت عليه، وفي بواكير حياته العملية في تل العمارنة يعلن ويسجل بصفة دائمة تعليمات عن دفنه، فإنه مع هذا، يعتمد على علاقته الوثيقة بـ "أتون" لتضمن له شيئاً من بقاء إله الشمس.

وتتناول الأناشيد مسألة خلق العالم، قائلة أنه أنجز بينما كان الإله لا يزال وحيداً، وأن "أتون" خالق الكون، أوجد كل سلالات الإنسان، وميزهم في اللغة، وفي لون البشرة، وأن قوته الخالقة لا تزال مستمرة، توجد الحياة حتى من البيضة التي لا حياة فيها، ففي داخل "نواة" البيضة التي لا حياة فيها، تستجيب أصوات الحياة إلى أمر أتون!، وعن طريق التغذية بالنفس الذي يعطيه، يخرج كل كائن حي.

إن هذه القوة، معطية الحياة، هي مصدر الحياة الدائم، وعاملها المباشر هو أشعة الشمس، ففي هذه الأشعة يكون أتون موجوداً على الأرض كقوة خيرة، وإذا جلى على هذا النحو، تحب الأناشيد أن تعطيل في ذكر قوته التي تشمل الكون، والتي تكون أبداً حاضرة. "إنك في السماء، ولكن أشعتك على الأرض"، "إن أشعتك تضم الأراضي، وحتى كل ما صنعه"، "وسواء أكان في السماء أو على الأرض، فإن كل العيون تشاهده دون (انقطاع)، إنه يملأ (كل أرض) بأشعته،

يجعل كل الناس يعيشون، أدعو أن تقر عيناي كل يوم بمشاهدته، عندما يطلع في
ت آتون هذا ويملؤه بذاته هو بأشعته، وهو جميل في الحب، ويضعها على في حيلة
ضية إلى الأبد“^(١)

يقول إخناتون أيضا:

”ابنك (الملك) الذي خرج من أشعتك،

نقد صفته من أشعتك أنت،

عندما ترسل أشعتك، فإن القطرين يكونان في أفراح عيد“

في هذه العبارات، يعبر الملك (إخناتون) نفسه عن وعيه الخاص بحضور الإله،
خاصة في المعبد، عن طريق أشعته، إن اعتماد مصر، الواضح على النيل جعله من
ستحيل تجاهل عامل الحياة هذا.

، رأينا أنه لا يوجد شيء يكشف بوضوح عن مذهب إخناتون العقلي، الذي يدعو
الدهشة والتقدير، أكثر من واقعة أنه يحذف، دون تردد، مجموعة الأساطير
ناليد المبجلة التي ألهمت النيل بوصفه أوزوريس؛ وينسب الفيضان إلى قوى طبيعية
حكم فيها إله الذي، في رفق مماثل نحو الأقطار الأخرى، صنع نيلا لأجلها في
سما.

إن هذا الاعتراف بخدب آتون ورفقه الأبوى بكل المخلوقات، هو الذي يرفع
حركة إخناتون شوطا بعيدا فوق كل ما وصل إليه الناس في دين مصر، أو الشرق
، قبل هذا الزمن: ”إنك أب وأم كل ذلك الذي صنعه“، إنها فكرة تنبئ مقدما
، كثير من التطور في الدين الذي جاء بعد ذلك، حتى إلى زمننا الحاضر.

صورة الماشية وهي ترقص في ابتهاج، و الأطياف وهي تنشر أجنحتها وترفعها
بيدا لأتون الحى، والأسماك وهي تقفز في النهر لتجيب الضوء، والنور الذي يعم
ون الذي توجد أشعته حتى ”في وسط البحر الأخضر العظيم“ إن كل هذا
شف عن تبين حضور الله في الطبيعة، وعن تقدير لوحى الله في العالم المنظور.

ومن الواضح أنه على الرغم من الأصل السياسى لحركة إخناتون هذه فإن
في مصادر القوة في هذه الثورة الرائعة توجد في هذا الرجوع للطبيعة، إن

راجع ديفس، عمارة ٥ اللوح ٢٩، ٢، ١٠ - ١١

إخناتون كان "رجلا نشوان بالله"، وكان عقله يستجيب في إحساس عجيب، وتميز للشواهد المنظورة عن وجود الله حوله، وكان يستولى عليه الجذب إلى حد معتدل في إحساسه بجمال النور الأبدى، الذى يشمل الكون، إن أشعته تحوطه، إنه يصلى: "أدعو أن تفر عيناي كل يوم بمشاهدته"، فى هذا الضوء الذى يتعرف هويته، أكثر من مرة، تغمره البهجة فى نشوة يندر وجودها إلا عند أصحاب التجارب السامية.

إن إخناتون كان أول "مفرد" فى التاريخ، وعن وعى، وعن تدبر بطريقة نسقية عقلية، ظفر بمكانته، ثم وضع نفسه وجها لوجه أمام التقاليد، ونحاها جانبا، إنه لا يرجع لأية أساطير، ولا إلى أية حكايات قديمة مقبولة على نطاق واسع، عن حكم الآلهة، أو إلى عادات قدستها القرون والحقب، إنه يرجع فقط إلى الحاضر، وإلى الشواهد المنظورة عن حكم إلهه، شواهد تحت أبصار الناس جميعا؛ أما عن التقاليد، أينما كانت، فقد حاول أن يلاشيها، هذا، ولم يكن للعقيدة الجديدة إلا اسما واحدا فى العمارنة، إنه كثيرا ما يطلق عليه "التعليم"، وهذا "التعليم" ينسب فقط إلى الملك دون سواه، ولا يوجد سبب يدعو إلى الشك فى هذه النسبة، ولكن يجب أن ندرك ماذا كان يعنى هذا "التعليم" فى حياة الشعب المصرى ككل.

هنا يوجد شعب أوقف فيض حياته إلى الأمام فجأة، على الرغم من قوة دفعه التى تكاد لا تقاوم، ثم يحول إلى مجرى آخر، لقد أغلقت الهياكل التى قدستها ذكريات آلاف السنين، وطرد الكهنة، وصودرت القرايين، وموارد المعابد، ونبت النظام القلم فى كل مكان.

أصبحت الردهات التى كان لها كل إجلال، والتى كانت تتردد فيها أصداة أفراح الجماهير، أصبحت ردهات المقابر هذه، خاوية، ولم يكن بوسع أى إنسان مهما علا قدره، أن ينطق بأسم أوزوريس، وفى حضرة قاضى الصلح فى المحكمة أصبح يتحتم الآن ألا يحوى اليمين القلم إلا اسم آتون، كل هذا أحدثته ثورة إخناتون، ماذا كانت النتيجة؟

لابد أن جماعات من الكهنة المتذمرين والمستفيدين من النظام القلم، قد مزجوا غضبهم بأصحاب بعض الحرف غير الراضين عن هذا التغيير الذى أحدثته إخناتون، نذكر منهم:

الخبازين الذين لم يعد يوجد لديهم مصدر لرقهم من بيع كعك الشعائر في أعياد المعبد، والصناع الذين لا يجدون السبيل لبيع تعاويذ الآلهة القدامى عند بوابة المعبد، والمثاليين المرتزقة، الذين تقع تماثيل أوزيريس التي صنعوها، تحت كوم من التراب في كثير من المراسم المنهارة على عروشها، وقاطعي أحجار الجبانة، الذين وجدوا أن شواهد قبورهم التي زخرفوها زخرفة رخيصة بمناظر من كتاب الموتى، قد أبعدت من الجبانة، والجند في الأيام التي كان عليهم تنظيم المراكب إلى المعبد، والأطباء الذين حرموا من كل رأسمهم في التجارة، في شعائر التعزيم، التي استخدموها بنجاح منذ أيام أقدم الملوك، قبل ذلك بألفى سنة، والرعاة الذين لم يعودوا بعد، يجسرون على وضع رغيف وجرة من الماء تحت الشجرة المائلة، وبهذا ينجون من غضب الآلهة التي تسكنها، والتي يمكن أن توقع محنة المرض على أهل المنزل في سورة غضبها، والفلاحين الذين كانوا يخشون نصب صورة لأوزيريس في الحقل لطرد الأرواح الشريرة.

في وسط هذا التدمير الذي شمل فئات كثيرة، أقام هذا الملك الشاب "إخناتون" فكرته ودعوته الجديدة.

وعندما نضع حركة أخناتون أمام خلفية صورة من تدمير شعبي كهذا، ونضيف إلى الصورة أيضا المعارضة السرية التي تقوم بها طوائف الكهنة العتيقة، وهم حزب "آمون" الذين لم يهزموا بعد، واللفيف العسكري القوي الذين استولى عليهم عدم الرضى من جراء سياسة الملك المسالمة، في آسيا وعدم اهتمامه بالإدارة الإمبراطورية والمحافظة عليها، فإننا نبدأ في تبين شيء من الفردية القوية في هذا الذي كان أول زعيم عقلي في التاريخ، لقد كان حكمه أقدم عهد لحكم الأفكار، بغض النظر عن حالة ورضى الشعب.

لقد كان "إخناتون" بذاته، أول ثوري في العالم، وكان مقتنعا تمام الاقتناع بأنه كان يمكنه أن يعيد صوغ عالم الدين والفكر والفن والحياة بالعزم المنيع الذي لديه، أن يجعل آراءه في الحال نافذة عمليا.

وعلى هذا قامت مدينة العمارة الجميلة، في بحر من التدمير، والمدهش أن مثل هذا الرجل يقدر له قيام لأول مرة في الشرق، وخاصة في مصر.

ولقد كانت وفاة "إخناتون" بعد حكم استمر سبعة عشر عاما بداية النهاية لديانته، بعد أن اختفى المبشر الذى نظمها وفرضها معا، انطلقت بهذه الوفاة قوى ردود الفعل ضدها، وتحول خليفته الثانى "توت عنخ أتون" (أو الصورة الحية لآتون إلى الديانة القديمة بعد أن غير اسمه إلى "توت عنخ آمون" (أي الصورة الحية لآمون) ، كما عرف أنه عاد إلى العاصمة الأصلية طيبة، حيث دفن هناك، وبدأ اضطهاد ذكرى "إخناتون" منذ العهد الملكى "لحور محب" خليفة "توت عنخ آمون" فدمرت أسماءه الملكية وصورة، كما أزيلت أسماء إلهة "آتون" من كل مكان به، ومن المثير أن هذه النقمة كانت موجهة بصفة رئيسية ضد شخص صاحب العقيدة الآتونية ، أكثر مما كانت ضد الإله "آتون" نفسه.

وقد بلغ الإعجاب ببعض الباحثين فى عصر إخناتون إلى تمجيده تمجيذا كلد يرفعه إلى درجة الأنبياء، لأن هذا الرجل العظيم استطاع فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ البشرية أن يكتب ما كتب ، ويدعو إلى ما يقرب من الوجدانية، وكان لأناشيده وآرائه أثر على من جاء بعده من الشعوب، فهو صاحب أول محاولة جادة لتقديم مفهوم توحيدى حقيقى مع إنهاء دور كل الآلهة العديدة الأخرى وعقائدها المقدسة، وهى محاولة لم يكن مقدرا لها أن تنال أى فرصة للنجاح حتى ولو فرصة مؤقتة، ما لم تكن قد تمت بمبادرة من شخص يعتلى قمة السلطة فى البلاد، مما أتاح إمكانية هذا التغيير، وهو الملك نفسه، أمنحوتب الرابع أو "إخناتون"

ويحمل البعض الآخر عليه متهما إياه بالضعف وتضيق الإمبراطورية، بل ومنكرا عليه أن أناشيده أو آرائه كانت مبتكرة، وأراد البعض الثالث أن يثبت أنه لم يكن لإخناتون أى فضل، بل أن الأمور فى ذلك العصر كان يجب أن تأخذ الطريق الذى أخذته سواء فى الدين أو الفن^(١)

والرأى عندنا أن إخناتون فيلسوف ومفكر من خير فلاسفة ومفكرى العالم القديم، وإذا كانت المرارة قد تملكته نفسه، بعد أن رأى الصعاب فى نشر دينه الجديد، فأهمل شأن الحرب، فرمما كان لذلك أسبابه، وربما كان أيضا عن عقيدة راسخة فى المحبة والإخاء بين الناس، وكراهية منه للقتل والتخريب.

(١)

ولا نغالى إذا قلنا أن إخناتون يعد عظيمًا من عظماء التاريخ، ليس في مصر وحدها، وإنما في تاريخ العالم، وأن صيحته كانت دعوة جديدة في آذان العالم لم يكن الناس قد قهأوا لها إذ ذاك، ومهما قيل عن تفكك الإمبراطورية في عهده، فهذا أمر آخر، ولو ساء لنا أنفسنا الآن عما كان يجنيه تاريخ مصر بوجه عام، إذا كان إخناتون ملكًا من الملوك المحاريين، فلا نلبث أن نجيب على أنفسنا بأن نتيجة حروبه كان مآلها دون شك إلى الزوال، كما حدث لمن جاءوا بعده، أما أناشيده وآراؤه فهي باقية وستظل باقية كأحدى مفاخر الحضارة المصرية، وسيظل اسم إخناتون وثوبته الدينية أسماء لامعة في تاريخ الفكر في العالم.

الفصل الرابع

”الحس الخلقى“

وقيام ”أقدم تجديد اجتماعى“ فى مصر القديمة

ويشمل:

- (أ) تمهيد (علم المصريات، واليقظة الأولى للضمير الأخلاقى والاجتماعى).
- (ب) ديالوج (كارة البشر) مع روحه، وهل تكفى ”فلسفة لنأكل ونشرب ونفرح، لا ننا، غدا، نموت؟“
- (ج) ”الوعى الأخلاقى“ عند المصرى القديم من ”الفرد“ إلى ”المجتمع“
 - ١- تجربة ”نع خبيرع- سنبر“.
 - ٢- تجربة: ”امنحت الأول“.
 - ٣- نصائح ”أبوور“
- (د) ”حكمة بتاح حوتب“ ونزعة التفاؤل عند المصرى القديم.
- (هـ) تعقيب .

تمهيد:

من الأمور التي لا ريب فيها أن الحضارة أقدم عهداً في مصر مما هي في أي بلد آخر من حوض البحر الأبيض المتوسط، فمنذ سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد شُرع هنالك في إصلاح التقويم، مما يدل على سبق التجارب والتفكير لعدة قرون خلست، وفي عهد الأسر الأولى، أي في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد بلغت طرق العمل الفنية شأواً جديراً بالإعجاب، فقد كان النيل الذي يفيد البلاد بأسرها تارة يفتقد على واديه النعيم، وطورا يصب عليه النقمات، مما جعل المصري لا يدرك أنه قادر على العمل دون أن يتحقق من أنه حكيم.

وقضت ضرورة إعادة مساحة أراضيه لتحديد لها بعد انحدار مياه النيل عنها، أن يصبح مساحاً ومهندساً فنياً، وإذا كانت كل ثقافة تتطلب نظاماً اجتماعياً واسع المدى والمدة، فإن مصر كانت في مقدمة البلاد التي تتطلب نظاماً ثقافياً دقيقاً^(١)

إن حضارة مصر تختلف عن كافة الحضارات الأخرى المعروفة، في اعتبارين على الأقل: طول أمدها واستمرارها.

فالسر الأول من أسرار مصر هو استمراريتها، فعند تأسيس روما عند منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، كانت آلاف السنين قد انقضت على وجود الحضارة المصرية على ضفاف نهر النيل، وانتشر إشعاعها في العالم الشرقي حيث لم تكن الحضارة الإغريقية قد تخطت بعد هماتها الأولى.

"إن المسافة الزمنية التي تفصل بين بدايات روما، والنشأة الأولى المعروفة للحضارة المصرية تعادل تقريباً عدداً من القرون بمئات المسافة الزمنية من

(١) بول ماسون - أورسيل: الفلسفة في الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف بمصر، ١٩٤٧م

رومولوس^(١) Romulus، وحتى وقتنا الراهن، ويجد خيالنا صعوبة في تصور الحقيقة البشرية التي تنطوي عليها هذه الأرقام^(٢)

ورغم أن مصر، كما توحى بذلك الآثار والنصوص، قد حافظت بإصرار على ثبات شكل ومضمون حضارتها، إلا أنه من غير المعقول ألا تكون هذه الحضارة قد تطورت بشكل ما، فكل حضارة تنطوي على عملية صيرورة، ولو أنها ظلت ساكنة في جمود، لماتت قبل أن تولد، إن الأفكار والأفعال اليومية شأنها شأن المياه والأمطار والبحر والرياح، تجرف موضوعها، فمن الثابت أن عالم مصر قد تطور منذ بزوغ الومضات الأولى لعصور ما قبل التاريخ، وحتى أواخر العصور القديمة

ولما كانت قصة الفلسفة الشرقية تبدأ بمثل هذه التأملات التي احتفظت بها الآثار المصرية، فنحن الآن في وضع أفضل للبحث عن مدى القدم الذي يمكن أن نتعقب فيه جهود الإنسان فيما له صلة بالتفكير المنظم، لأننا نواقون لمعرفة ما يدل على أن هناك "حضارة" - بمعنى منهج منظم لمجتمع تسوده وجهة نظر في الحياة ملازمة له - سابقة لوجود الآثار المدونة، وعلى أي امتداد زمني يمكن إدراكها^(٣)

ويظهرنا علم المصريات Egyptology على أن مصر كانت مهد التأمل الفلسفي كماله نعرفة، ولقد كان منشأ علمنا ببواكير تاريخ مصر القديم أثناء غزو نابليون (سنة ١٧٩٨م)، الذي أخذ معه مجموعة ضخمة من العلماء المتخصصين بصورة خاصة في العلوم وفي الآثار، وأياً كانت درجة إخلاص نابليون نفسه، فلقد كان يتقبل الأفكار الشرقية، حتى أنه أعلن عن نيته في اعتناق الإسلام.

ولقد استغل فريق العلماء وقتهم أحسن استغلال، وإن ما نشره في سنة

(١) هو مؤسس روما الأسطوري في منتصف القرن الثامن ق.م .

(٢) بيتر جريمال: ص ٥ من تقديمه لكتاب "نصوص مقدسة ونصوص دينية" من مصر القديمة، المجلد الأول، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٦م

(٣) راجع أ.و.ف. توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم، مراجعة على أدهم، دار

المعارف، ١٩٨٠م ص ٢٧

لبنهض دليلاً على ذلك.

ولعل أهم نتيجة للحملة، كان الاكتشاف الذى توصل إليه ضابط فرنسى، تصادف أن كان يعمل فى رشيد فى دلتا النيل، وهو اكتشاف حجر بازلى موجود الآن فى المتحف البريطانى، يحمل كتابة بثلاثة أنواع من الخطوط، الهيروغليفى، والديموطيقى أو الشعبى، والإغريقى .

وأسماء الأعلام التى كانت هى بذاتها فى الإغريقية كما فى الهيروغليفى، هى التى أرشدت، بعد دراسة متأنية، عن الدليل إلى تعرف الكتابة الهيروغليفية على الآثار المصرية .

فلما كانت إحدى هذه الكتابات، وهى الكتابة الإغريقية، معروفة، فقد استطاع العلماء أن يترجموا على الفور ما ثبت أنه قانون أصدره بطليموس الخامس إيفانوس Ptolemy V Epiphanus (٢٠٥ - ١٨١ ق.م).

أما الافتراض الذى برهن فى الوقت المناسب على أنه صحيح، فهو بالنسبة للكتابتين الآخرين، أعنى الهيروغليفية، والكتابة الأخرى باللغة الأكثر شعبية والمعروفة بالديموطيقية، وكانتا ترجمتين أمينتين عن الإغريقية، ومع ذلك فإن عملية كتابة لغة بحروف أخرى وعملية الترجمة قد أثارتا مشاكل متنوعة^(١).

وقد شحذ النقش على حجر رشيد والم محفوظ الآن بالمتحف البريطانى، لأمد طويل، هم العلماء فى كل بلد أوروبى، خاصة فى ألمانيا وإنجلترا وفرنسا، ولكننا ندين بالفضل إلى دارس فرنسى شاب لعلم المصريات يدعى جان فرنسوا شامبليون Jean Francois Champollion (١٧٩٠ - ١٨٣٢) تم على يديه تفسير الطلاسم الأخيرة لهذا النقش .

وقد يمكن الاستدلال على شيء من عظمة ما حققه شامبليون من إنجاز من أمرين، فى المقام الأول، كان النص مستمرا فى السرد دون مراعاة لأية فواصل بين الكلمات، وثانياً، لم يعرف شامبليون ولا أى عالم آخر معاصر له، فى البداية، هل

(١) توملين: فلاسفة الشرق، ص ٢٩.

كانت العلامات الهيروغليفية تمثل أفكاراً أو أصواتاً أو مقاطع، أو باختصار هل كانت كتابة رمزية أو صوتية أو محض كتابة مقطعية، كما أن الخبراء لم يدركوا، اللهم إلا بعد ترو طويل، إن الكتابة الهيروغليفية كانت في الواقع قائمة على مزج حروف الكتابة الرمزية والصوتية، وأن بعض الحروف الأخيرة كان عملها مساعداً فحسب على الفهم أكثر من أن تكون عناصر في النطق، وهي حقيقة استنبطها شامبليون أصلاً من زيادة عدد الرموز الهيروغليفية على الإغريقية .

وقد قضى شامبليون أربعة عشر عاماً ليفسر طلاس الكتابة الهيروغليفية، وعشر سنوات أخرى ليكتسب إلماماً باللغة، وفي سنة ١٨٢٢ م صار في حوزته الوسائل التي تمكنه من تفهم عقلية مصر القديمة، ومنذ غلق المعابد المصرية في القرن الثاني بعد الميلاد، لم يكن في الإمكان الوصول إلى مثل هذه الثروة.^(١)

^(١) تولى بعد شامبليون علماء من كل بلد أوروبي، ولن ينسى التاريخ أبداً عالماً مصرياً رائداً في مجال دراسة الهيروغليفية، ذلك هو الأستاذ أحمد كمال، أول مؤرخ عربي كتب في تاريخ مصر وحضارتها القديمة كتابه علمية سليمة، وإمام الرعيل الأول من الأثريين المصريين.

ولد (أحمد كمال) سنة ١٩٤٩ م بالقاهرة، وتعلم في (مدرسة الألسن)، أو مدرسة (بر ونغش) للآثار واللغات القديمة، ثم عمل في مصلحة الآثار المصرية، التي كان يسيطر عليها الأجانب، حتى أصبح أميناً للمتحف المصري، وكان أول مصري، وعربي يحتل هذا المنصب الذي شغله حتى تقاعد سنة ١٩١٤ م، وهو في الخامسة والستين من عمره، وعاش بعدها تسع سنوات حتى تولى سنة ١٩٢٣ م، عن أربعة وسبعين عاماً، وقام بتدريس اللغة المصرية القديمة، والحضارة المصرية في المدارس والجامعات الأهلية، ونال عضوية المجامع العلمية واللغوية، وحصل على كثير من الرتب والأوسمة، وله ثمانية كتب مطبوعة، وعدداً كبيراً من المقالات والبحوث المتنوعة، ونشرها باللغات العربية والفرنسية.

وأحمد كمال، نموذج رائع للعالم المؤمن بقضية عروبة مصر منذ فجر التاريخ، أدرك حقيقة الصلة المتينة بين اللغتين المصرية والعربية، وجاهد لكي ينه الأذهان - في وقت مبكر جداً - إلى ما بين اللغتين من وشائج وصلات، ساعده في ذلك إلمامه بكثير من اللغات، كالفرنسية والإنجليزية، والألمانية، بجانب العربية والتركية، وإطلاعه على ما وصل إليه علماء الغرب من أبحاث في اللغة والتاريخ والحضارة والديانة وجغرافية البلاد القديمة.

يقول (أحمد كمال) في محاضرة ألقاها بمدرسة المعلمين القاهرة سنة ١٩١٤ م:

ويظهرنا هذا الكشف على أن المصريين أول أناس، بل أول شعب يناقش المشاكل الأخلاقية، مشاكل الخير والشر مطبقة على الحياة ذاتها، ومشاكل الصواب والخطأ مطبقة على السلوك البشرى، تلك المشاكل التى هى بعينها ماثار اهتمامنا اليوم.

ففيما وراء حقيقة أن المصرى القديم قد مارس التحنيط وبنى الأهرامات الضخمة، إلا أن الشعوب بوجه عام لم تكن على علم تام بما حققه هؤلاء المصريون الماهرون، ولا شك أن أصول الفكر واليقظة الأولى للضمير الأخلاقى والإجتماعى أقل إثارة من التنقيب عن مقبرة أو فتح تابوت من التوابيت الحجرية.

وبرغم أن وجود الإنسان على ظهر البسيطة ربما يرجع إلى مليون سنة قبل ظهور أول "آداب للغة Literature" معروفة، فإننا لا يمكننا فى وضعنا الراهن بما لدينا من

"أعلموا أيها السادة أن كثير مطالعي فى اللغة المصرية القديمة منذ كنت فى الثامنة عشرة من عمري إلى أن بلغت الستين مهدت لى سبيل الوصول إلى اكتشاف غريب مفيد ألا وهو أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة من أصل واحد....."

وأدى به هذا الاكتشاف إلى كتابة معجمه الذى استغرقت كتابته، ما يقرب من عشرين عاما، وأخرجه فى اثنين وعشرين جزءا، ويتضمن كل جزء أحد الحروف الهيروغليفية، وكانت طريقته فى هذا المعجم أن يدون الكلمات الهيروغليفية - وقد يسجل أحيانا النصوص التى احتوتها - ثم يذكر مرادفاتها العربية والفرنسية والقبطية والعبرية. =

=وقد انتهى أحمد كمال من معجمه تقريبا قبل أن يظهر قاموس إرمان "وجرابو" الصغير سنة ١٩٢١، كما أن المعجم المصرى الكبير المعروف بقاموس برلين، الذى أخرجه المجمع البروسى جامعاً بين الكلمات المصرية والقبطية والألمانية، لم يظهر إلا فى الفترة بين ١٩٢٦، ١٩٣١ أى بعد بضع سنوات من وفاة المرحوم أحمد كمال. راجع : الدكتور محمد جمال الدين مختار: "أحمد كمال - العالم الأثرى الأول فى مصر" المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٢، ١٩٦٤م - ١٩٦٥م، الصفحات ٤٣ - ٥٧.

وعن " فكرة " أن اللغة المصرية القديمة ليست إلا فرعاً من اللغة العروبية (أى لفات الوطن العربى القديمة، فى بلاد الرافدين والشام والجزيرة وجزء من شرق أفريقيا) الأم، لها أوثق الصلات بالعربية فى قديمها وحديثها، والعربية الشمالية، لغة الحجاز، أو العربية العدنانية، وهى الفصحى.

عن هذه الفكرة، راجع الدكتور على فهمى خشيم: أله مصر العربية المجلد الأول، الطبعة الأولى، السدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ليبيا، ١٩٩٠م.

معرفة أن نظن أن كانت هناك أية محاولة مماثلة نحو التفلسف المنطقي المتماسك قبل تلك المحاولة التي قام بها الحكماء المصريون.

لماذا مصر إذن؟

يمكننا أن نبدأ بالإشارة إلى أنه بعد الجفاف البطيء في شمال إفريقيا في مستهل العصر النيوليتي Neolithic period (حوالي ٥٠٠٠ ق.م.) بقيت مصر منطقة محمية نسبيا.

لقد زودتنا عمليات التنقيب التي بدأت منذ عهد طويل بقدر طيب من المعلومات عمن كانوا يقطنون وادي النيل فيما قبل التاريخ، إذ قد لجأ كثير من هؤلاء الناس إلى ذلك الإقليم الخصب بعد أن لحق القحط بهم وبقطعاتهم، وتوحي المقابر التي اكتشفها علماء الآثار بأن المصريين في العصر النيوليتي وما بعده كانوا يضمنون على الأقل مقوما واحدا من مقومات الحضارة، وهو استمرار التمويل الغذائي، ويبدو أنه لم ينعم شعب آخر على ظهر الأرض بمثل هذه الميزة من قبل.

وفضلا عن هذا، فلقد عرفوا كيف يستخدمون المعادن وكيف يستأنسون الحيوانات، ومن عادات دفنهم، يبدو أنهم كانوا يغذون ذلك الاعتقاد الراسخ في الحياة بعد الموت الذي من أجله تبعا لتطور حضارتهم، سعوا بأساليب مختلفة لأن يعدوا أنفسهم له.

وإذا كان هيرودوت المؤرخ اليوناني الذي زار البلاد في القرن الخامس قبل الميلاد قد ذكر "أن مصر هبة النيل"، وأن التربة والحاصلات والنبات والحيوان والحياة الإنسانية كلها على السواء، يقرر أمرها النهر العظيم، وهو الذي قبل بحسيء الإنسان بزمان مديد، عمل على توسيع كسر في الحجر الجيري، وبطغيانه على البحر المتوسط كون الدلتا.

ومصر واحة طويلة ضيقة تمتد سبعمائة وخمسين ميلا من الشلال الأول، الحد الجنوبي القلسم، إلى الدلتا، والوادي يتراوح اتساعه من عشرة إلى ثلاثين ميلا، تحصره حواجز صحراوية في الشرق والغرب، ويعتمد رخاؤه، الآن، كما كان يعتمد منذ سبعين قرنا مضت، على ظاهرة طبيعية عظيمة واحدة، فيضان النيل السنوي، الذي تسببه أمطار الربيع وذوبان الثلوج في مرتفعات الجنوب القاصية،

وانتظام هذه الأحوال الطبيعية البسيطة يعادله انتظام :سائل في حياة وعادات الشعوب.

نقول: إن اعتبار مصر حصيلة سعيدة للظروف الطبيعية البحتة المتمثلة في نهر النيل فقط، فيه سوء إدراك خطير ويمثل نصف الحقيقة فقد، إذ يجب أن نضيف إلى ذلك جهد المصرى القديم الذى جعل الحياة في ذلك الوقت الذى انعدم فيه انتظام فيضان النيل، جعل الحياة ممكنة بل ومستمرة.

فقد حفز عدم انتظام فيضان النيل جهد الإنسان المصرى القديم إلى صد غائلة المجاعة التى تحل من حين إلى آخر، ولا يوجد مكان آخر صاويل فيه مكر الإنسان الطبيعة في دؤوب على مثال ما صاويل هنا^(١).

كانت البلاد تشيع فيها القنوات والسدود والخزانات، وأظهر المهندسون في مصر القديمة في إنشائها تمكنا فنيا عاليا، وخزان بحيرة مورييس الفسيح، وهو من عمل فراعنة طيبة في الأسرة الثانية عشرة (في أوائل الألف سنة الثانية) ينهض دليلا على ذلك الجهد الذى صد به المصرى القديم الظروف الصعبة التى خلفها عدم انتظام فيضان النيل؛ ونحن نعلم في الواقع من نقوش قديمة مختلفة أن النيل، نظرا لأن فيضانه يصل إلى مناسيب غير منتظمة، قد جر الخراب عدة مرات على البلاد، والكوارث العشر التى وصفها "سفر الخروج" ربما تمثل كما أوضح فلندرزبترى Flinders Petrie أحسن إيضاح في كتابه "مصر واسرائيل"، صورا متعاقبة لمثل هذه الكارثة، باختصار، فإن بقاء مصر يرجع إلى جهود الإنسان، أعنى الرى.

فالمتبع لنظام الرى في مصر القديمة، يجد أنه كان نظاما غاية في الدقة، وإذا أخذنا في اعتبارنا أن بلدا يبلغ طوله ٢٠٠٠ كيلومتر وعرضه بضعة كيلومترات، ولا يضم أكثر من ٣٠,٠٠٠ كيلومترا مربعا من الأراضي المزروعة (٣,٥%) لأدركنا مدى خطورة هذه المشكلة التى كان يسببها عدم انتظام فيضان النيل، ولأدركنا أيضا كيف كان المجتمع المصرى أقوى مجتمع بشرى، وأكثر صبرا وجلدا عرفه التاريخ.

(١) و.ج. دى بورج: تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة زكى سوس، راجعه الدكتور يحيى الخشاب ودكتور صقر خفاجة، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، ١٩٦٥، ص ٣٠ وأيضا:

Maspero, Le Nil et La Civilisation Egyptienne, Paris, Ren. du Livre (Evol. de L. Human.), 1926

إن الخيال يبهير عندما جلى العلماء حقبة بعد حقبة من التاريخ الماضى، الذى يمتد إلى الوراء، إلى الألف الرابعة قبل الميلاد، وهو ليس بمجرد تاريخ حروب وغزوات ملوك، ولكن تاريخ عقائد وعادات وفن وثقافة يشمل سلسلة من المدنات الزاخرة لم تكن تدور فى خلد الناس إلى ذلك الحين.

فكان هؤلاء المصريون الذين يرجعون إلى ما قبل الأسرات، قد حذقوا فنون صناعة الصلصال والحجر ووصفوا السنة التقويمية التى تبلغ ٣٦٥ يوما، والى اتخذها بعد ذلك بأكثر من ٣٠٠٠ سنة، يوليوس قيصر، ولا يزال العمل يجرى بها حتى يومنا الحاضر^(١)

وتقدم قصة مصر من أول توحيد لها تحت حكومة واحدة فى الألف سنة الرابعة حتى الغزو الفارسي فى سنة ٥٢٥ ق.م. سلسلة من حقبة المدنية، كل حقبة بعهدتها من الصعود والهبوط.

ففى بواكير الألف سنة الرابعة، نجد مملكتين واحدة فى الدلتا والأخرى فى مصر العليا أدبجهما مينا، أول ملك فى الأسرة الأولى (حوالى ٣٤٠٠ ق.م.) فى حكومة واحدة، ومن هذه المرحلة فصاعدا يمكن جمع التاريخ المصرى حول قيام وستوط ثلاث حقبة عظيمة من التطور: الدولة القديمة، والدولة الوسطى، والإمبراطورية الحديثة^(٢)

(١) الدولة القديمة (الأسرات من الأولى إلى السادسة)، وقد وصل هذا العهد الذى دام ألف سنة إلى ذروته إبان حكم ملوك الأسرة الرابعة فى ممفيس (من ٢٩٠٠ ق.م.)، وهم الذين مدوا سيادتهم صوب الغرب على ليبيا وصوب الجنوب على النوبة، واستغلوا مناجم سيناء، ونهضوا بالتجارة بأساطيلهم فى البحر الأحمر والمشرق.

ولقد كانوا إداريين وبنائين عظاما، وضعوا نظاما مثاليا محكما وحكموا مصر بجيش من الموظفين، وأوصلوا رى البلاد إلى درجة عالية من المهارة، وشيدوا أهرام الجيزة العظيمة لتكون قبورا لهم، كما أن فن هذا العهد، وخاصة نحت الصور

(١) Breasted (J.H.), Development of Religion and Thought in Ancient Egypt. New York, 1912, pp. 1-25.

(٢) راجع بورج: تراث العالم القديم، الجزء الأول، ص ٣٢

والنقش البارز في المقابر والمعابد كان على جمال لا يضارع في أى عهد لاحق للثقافة المصرية.

(٢) الدولة الوسطى (الأسرتان ١١-١٢)، فقد سقطت الدولة القديمة في أواسط الألف سنة الثالثة على أيدي الأشراف أصحاب الأراضي، ثم ترادف نحو من ثلاثة قرون من الانقسام إلى أن قامت ملكية ثانية مركزة، تعرف بالدولة الوسطى في طيبة في مصر العليا تحت حكم فراعنة من الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٥٠-١٧٨٠ ق.م.)، وقد أعيدت التجارة على مجال واسع مع الصومال في الجنوب بجوار البحر الأحمر ومع الساميين في سوريا وكنعان، والشعوب البحرية في شرق البحر المتوسط.

وتحت حكم الدولة الوسطى وصلت الفنون الصناعية أعظم ذروة لها من التقدم وازدهر الأدب.

(٣) الإمبراطورية الحديثة (الأسرتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة):

أعقب ختام الأسرة الثانية عشرة فترة كانت فيها مصر تحت رحمة الغزاة الأجانب وحكم البلاد بدو ساميون (الهكسوس) أو ما يطلق عليهم الملوك الرعاة، وقد أعاد أمراء طيبة الوحدة، ويبدأ أعظم العهود روعة، إذا لم يكن في الثقافة المصرية، فعلى الأقل في السلطة السياسية، بقيام الأسرة الثامنة عشرة (سنة ١٥٨٠ ق.م.)، وبداية تكوين جيش منظم غزا سورية وفينيقية وحارب الحيثيين على الفرات الأعلى، ودان له بالسيادة من ذلك النهر حتى الصحراء الليبية.

وقام على تدبير الأمور في تلك الإمبراطورية لفيف عظيم من موظفي الدولة، وكان هذا العصر أعظم عصور الفن المعماري المصري، وكان معبد الإله آمون في الكرنك واحدا من أعظم الآثار الدينية روعة في الأزمنة القديمة، وتقوم اليوم على رصيف نهر التيمس مسلة تذكارية أقامها ألمع غزاة الأسرة الثامنة عشرة (تحتمس) الثالث.

وبعد انقضاء قرنين من العظمة الإمبراطورية بدأت بؤادر الانحلال في الظهور، فنجد الرؤساء المرتزقة، الليبيين يحكمون في الدلتا، وأمراء أثيوبيين في مصر العليا، وفي أواخر القرن السابع (٦٧٠ ق.م.) غزا الآشوريون الدلتا تحت إمرة أسر حدون، وجعلوا من مصر ولاية تابعة، وبدأ عهد الحكم الأجنبي بسقوط مصر أمام

الفرس سنة ٥٢٥ ق.م.، وظلت البلاد خاضعة لإمبراطورية فارس فيما عدا ثورات متقطعة خاطفة حتى مجيء الإسكندر المقدوني (٣٣٢ - ٣٣٠).

تقدم لنا نقوش مصر القديمة أقدم فصل في تطور الإنسان الخلقى، كما نعرفه، فصل ربما يحدد أهم خطوة أساسية في تطور المدينة، وهذه المواد، التي تقدمها هذه النقوش، من الوفرة والبعد عن اللبس بحيث توضح أنه كانت توجد منذ قرابة ثلاثة آلاف سنة ق.م، قدرة على الحكم الخلقى النفاذ، كانت قد تطورت إلى شوط بعيد، مما يجعلنا نستنتج أنها بدأت في زمن سحيق القدم في الألف سنة الرابعة ق.م.

وظهر في هذا العصر، أقدم تعبير معنوي أمكن تبيينه في العالم القديم، وهو الكلمة التي تدل على "الصدق والحق والاستقامة والعدل" وكلها تعرف بكلمة واحدة.

وعلاوة على هذا، فإنه في الحياة الدنيوية اليومية في هذا العصر البعيد، حتى في الإدارة، كان للمثل العليا تأثير عظيم، وفي عصر الإقطاع بعد ألف سنة من قيام الدولة القديمة، جرت العادة، عند تنصيب الوزير، أن يوجه ذلك الموظف إلى مثلل وزير قديم، كان قد قدم حكماً نزيهاً في قضية كانت تشمل أقاربه، ضد ذوى قرابته بغض النظر عما فيها من حق أو باطل لئلا يتهم بإصدار حكم فيه تحيز لصالح أسرته هو.

إن أكثر الفضائل شيوعاً، بين الشعب في ذلك الوقت، والتي تكشف عنها نقوش مصر القديمة، هي الأخلاقيات شديدة الود والاحترام من الأبناء تجاه آبائهم، إننا نجد، مرارا وتكرارا القبور عظيمة التكوين، في عصر الأهرام، يقيمها الابن لأبيه الراحل، وكذلك دفنا راعيا يهيئه الابن، ويتجاوز أحد أبناء هذا العصر مثال الآخرين كلهم فنجدته يذكر في عبارة جاءت في نقوش قبره:

"والآن عملت على أنه يجب أن أدفن في نفس القبر مع "جاو" (أبيه) حتى أكون معه في نفس الموضع، ليس مع هذا، لأنني لم أكن في موقف يمكنني من صنع قبر ثان، ولكن فعلت هذا حتى يتيسر لي أن أرى "جاو" هذا كل يوم، حتى يمكن أن أكون معه في نفس المكان" ^(١) وعلى قاعدة تمثال مقام في أحد القبور، نقرأ:

^(١) راجع برستيد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ص ٢٤٢

"عملت على أن يصنع مثال هذه التماثيل، وقد رضى بالأجر الذى دفعته
له"^(١)، إن الرجل كان يريد، فى جلاء واضح جداً، أن يعرف بأن معداته الجنازية
حصل عليها بأمانة .

ويترك لنا حاكم إقليم عاش فى القرن السابع والعشرين ق.م السجل الآتى
عن حياة القومية:

"لقد كنت أعطى الخنز لكل جائع فى جبل، لقد كسوت من كان عارياً
هناك . لقد ملأت شطوطه بالماشية الكبيرة، وأراضيه المنخفضة بالماشية الصغيرة،
ماظلمت أحداً، وكنت أنطق بما هو خير وأتحدث به، إنى لا أنطق بالكذب لآنى
شخصاً يحبه أبوه وتثنى عليه أمه، فائق الخصال نحو أخيه ومحبوياً لدى أخته ."

إن هؤلاء القوم، الذين عاشوا منذ أربعة آلاف وخمسمائة سنة أو خمسة
آلاف سنة، يؤكدون مراراً وتكراراً برعهم من عمل السوء. " لم أرتكب أبداً أى
شئ سيئ نحو أى شخص " هكذا يقول كبير أطباء الملك ساحورخ فى منتصف
القرن الثامن والعشرين ق.م. بينما يقول كاهن، بعد ذلك بزمان وجيز نفس الشئ
فى مضمونه: " لم أرتكب أبداً أى عمل من أعمال العنف نحو أى شخص ."

ونُطالع خطاباً، وضعه مواطن عادى، فوق واجهة قبره، يقول، موجهاً
حديثه الى الأحياء :

"أيها الأحياء، الذين يمرون بهذا القبر، كنت شخصاً يحبه الشعب، ما أخذت
أبداً ملك أى إنسان عنوة، لقد كنت أصنع ما كان يسر به كل الناس ."

ويتضح من أمثال هذه الخطب للأحياء، أن أحد دوافع هذه التوكيدات عن
الخلق الجدير بالتقدير كان الرجاء فى المحافظة على رضى الجيران، جيران المرء الباقين
على قيد الحياة، حتى يقدموا قرايين جنازية من طعام وشراب فى القبر؛ وكذلك
فمثل هذا السلوك الخلقى، كان يُعتبر ذا قيمة فى نظر الآلهة، ويمكن أن يؤثر تأثيراً
مادياً على سعادة الميت فى الآخرة.

(١) مثال فى مجموعة جامعة ليزج، شفيندورف، ص ١٥٦

وتُظهرنا نصوص الأهرام على أنه لمواجهة كل احتمالات الآخرة، كيف كان مما لاغنى عنه، تطهير الميت في قمة مرحلة في فترة انتقاله من مكانه الأرضي إلى مكانه السماوي، ومغزى هذا التطهير ليس فقط في التنظيف البدني بل وأيضاً في التطهير الخلقى .

وحتى فرعون، الذي انتقل إلى السماء والذي أعلنت براءته، يداوم على إظهار نفس الخصائص في النهوض بسيادته السماوية التي يتسلمها :

"إنه يحكم بالعدل أمام رع في يوم العيد " أول السنة"، إن السماء في حالة راضية والأرض في ابتهاج، وقد سمعنا أن الملك وضع العدالة (مكان الجور) ."

ولا يوجد شك في أنه في الدولة القديمة، نتج عن سيادة رع أن نُسبت إليه المطالب الخلقية التي يلتزم بها الموتى في الآخرة، وأنه جاء في أدب ذلك العصر الذي وصل إلينا، أن الإستقامة خصيصة ترتبط بألهة عديدين في الدولة القديمة، ولكن لا يُداني واحد من الآخرين بروز "رع" في هذا المضمار .

واعتبار النعيم بعد الموت يعتمد، على خصيصة حياة المتوفى الدنيوية الخلقية، كان خطوة هامة في سلوك المصري القديم، ولا بد أنه كان وعياً خلقياً عميقاً هذا الذي جعل فرعون الإلهي الذي كان فوق وصايات الحكومة الأرضية؛ يجد حُسن القبول أمام القاضي السماوي وخاضعاً للمطالب الخلقية، ويمكننا أن نتبين هذا الأثر لتقدم الوعي الخلقى وهو يندرج حتى على الملك في مطالبه المتعالية في الفترة الزمنية التي استغرقتها نصوص الأهرام، وتتضمن قرناً ونصف القرن .

وعندما خرجت مصر من الظلام الذي أعقب عصر الأهرام، وبعد قرن ونصف قرن من التطور التمهيدى الذي وصل إلى منتهى عصر الإقطاع (الأسرة الثانية عشرة) حوالى ٢٠٠٠ ق.م فإن رجال هذه الحقبة الكلاسيكية تطلعوا إلى الورا، إلى كفاح قام به أجدادهم مع الموت، مازال موجوداً بأثاره على قبور الأسرتين الأوليين في أبيدوس وماجاورها.

وترتب على الحكم على المطالب الخلقية، تأمل ذاتي، وبدأ الإنسان لأول مرة في التاريخ يتأمل نفسه، وكذلك مسيره، إنه عصر ناضج، تجاوز فيه الإنسان المصري القديم حد قبول المعتقدات التقليدية قبولاً لا تردد فيه، وبدأ يفكر فيما كان حتى ذلك الحين موضع قبول دون تفكير، إنه الاعتراف الواعى بالقدرة الشخصية

على الاعتقاد أو عدم الاعتقاد، وفي هذا خطوة واضحة إلى الأمام في تطور الوعي الذاتي والابتكار الشخصي.

ونجد تعبيرا عن اتجاه المصريين القدماء العقلى هذا فى الأغنية التالية: ^(١)

"مأعظم رخاء هذا الأمير الطيب! ^(٢)

إنه مصر خير، أن الجسوم تتضاءل

وتذهب، بينما يبقى غيرها

منذ أيام السلف،

الآلهة الذين كانوا فى الماضى،

الذين يستقرون فى أهرامهم

النبلاء والأجداد، رحلوا كذلك

مقبورين فى أهرامهم

لا يوجد بعد لهم مكان

شاهدوا ما يفعل داخلها

لقد سمعت كلمات إمحوتب وحرحدف ^(٣)

^(١) نشرها و.م. ملفر W.M. Meller "أغانى الحب" المتحف البريطانى لوح (٦) ٢،١ ولوح (٧) ٣،١.

^(٢) يقصد الملك المتوفى الذى كتبت فى قبره الأغنية .

^(٣) كان(أمحوتب) وزيرا ومهندسا معماريا وحكيما ذائع الصيت فى عهد الملك زوسر (زسر نشرخت - Ze set Nether Khet) مؤسس وأعظم ملوك الأسرة الثالثة (٢٧٨٠-٢٦٨٠ ق.م) فى عهد الدولة القديمة، يمتاز عهده - زوسر = بتقدم كبير فى جميع مظاهر الحياة وأخصها البناء، مما يجعل مدة حكمه بحق فاتحة عهد جديدة فى تاريخ مصر، التى شاء حفظها أن يظهر فيها فى ذلك الوقت أحد التوابغ الذين تركوا أثرا واضحا فى تاريخ البشرية، ذلك هو أمحوتب، وقد عرف الملك زوسر قيمة نبوغه فمد له يد العون، وممكنه من تحقيق آرائه. =

(كلمات) ذاعت ذيوها عظيما على أنها نطقاتهم

شاهدوا أمكنتهم

لقد هدمت حيطانها

= وقد ارتبط اسمه باسم الملك زوسر، سواء أثناء حياته أو فيما تلا ذلك من أجيال، فإن المصريين خلّدوا اسميهما معا، وظل الناس يذكروهما حتى آخر أيام التاريخ المصري، واعتبره الكتاب المصريون في الدولة الحديثة، إماما وحاميا لهم، وكان يحرص كل كاتب قبل بدء عمله إراقة بضيء قطرات من الماء قربانا له. "والمحوتب" أول مهندس معماري في تاريخ مصر شيد قبرا يشبه الهرم في شكله العام، وهو قصر الملك زوسر الذي جاء على شكل هرم مدرج ذا ست درجات كانت كلها مكسوة من الخارج بالحجر الجيري الأبيض.

وقد عرف زوسر قدر مهندسه، فكرمه، وأراد أن يخلده معه، فسمح بأن يكتب اسمه على تماثيله، وهذا تقدير كريم لم نعرف له شيئا لأن الملك كان إلها معبودا من شعبه وأراد أن يخلد معه المحوتب الذي عسرف له مكانه في دليا النبوغ الذي لم يقتصر على فن العمارة والنحت، بل نبغ أيضا في الطب وألف فيه، كما ألف في الحكمة، وأله المصريون بعد وفاته وشيدوا له المعابد، واطلقوا على "ابن الإله بتاح". وكان المتبع في مصر حتى ذلك العهد، وبعد ذلك العهد أيضا حتى الأسرة الخامسة، أن جميع الوظائف الكبرى، لايتولى أمورها في أكثر الحالات إلا أفراد البيت المالك وبخاصة أولاد الملك نفسه، فهل كان "المحوتب" ممن لهم صلة بذلك البيت حتى وصل إلى ماوصل إليه؟ وما الذي جعل الملك يكتب اسمه على تماثيله، وهو تكريم لم ينله أحد من أفراد الشعب قبله أو بعده في وقت سطوة ملوك الدولة القديمة؟ لم يكن المحوتب إلا فردا من أبناء الشعب، وكان مولده على الأرجح في بلدة الجبلين بين الأقصر وإسنا في قنا، أمد أبوه فكان مثل ابنه مشرفا على الأعمال، وإنما الذي أوصله إلى ذلك المركز العظيم مواهبه وحسن استعداده.

-J.B. Hurry, Imhotep, The vizier and physician:

راجع

of King Zoser (1926).

3vols, Cairo, 1936-1939.

الدكتور أحمد فخري: مصر الفرعونية، القاهرة، الطبعة الثانية، أكتوبر ١٩٦٠ م ص ٩٠-٩٢،

الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول (مصر)، ص ١٢٥-١٢٦، الإسكندرية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٠ م.

- أما (حرجوف) فقد كان أميرا ملكيا وابنا لخوفو (الجيوزة)، وعاش بعد قرن من المحوتب.

كأنها لم تكن أبدا
لا يأتى أحد من هناك
حتى يخبرنا عن حالهم
حتى يخبرنا عن حظوظهم
حتى يدخل السكينة إلى قلبنا
إلى أن نرحل نحن (أيضا)
إلى المكان الذى ذهبوا إليه "

إلى أن تقول كلمات الأغنية :

"شدد عزيمة قلبك وأنت عائش
ضع المر على رأسك
وارتد ثيابا من رقيق الكتان
وقد تشبعت بالأشياء المترفة
لا تدع للتراخي سبيلا إلى-قلبك
كيف أمورك فى الدنيا
وفق أوامر قلبك
إلى أن يحل يوم النواح عليك، ذلك
عندما لا يسمع ساكن- القلب نواحهم
أوذاك الذى فى القبر يحضر الحداد
احتفل باليوم البهيج
لا تكن متعبا فيه
هاكم : لا يأخذ إنسان سلعه معه

بلى، لا يعود أحد مرة ثانية، ذاك الذى ذهب هناك" .

على هذا النحو كانت مشاعر بعض أولئك الرجال الذين عاشوا فى عهد الإقطاع وهم يتطلعون إلى قبور سلفهم، ويتأملون فى عدم الجدوى الهائل فى جبانات أهرام الدولة القديمة الفسيحة الأرجاء، حتى أنه ورد إلى ذاكرة المغنى أسماء بعض الحكماء الذين عاشوا منذ ألف سنة خلت، والذين أصبحت أقوالهم مضرب الأمثال، وبذلك وصلوا إلى ما يتجاوز خلودا يهيئه ضريح فى قبر عظيم.

ولم تكن أبدا مسألة صدفة أن (أمحوتب) أول الاثنين اللذين يخلد المغنى ذكريهما، وأن يكون (حرجدف) ثانيهما، فالأول (أمحوتب) كان أقدم مهندس عمارة فى البناء، كان أبا لفن العمارة بالحجر، وصاحب أقدم بناء علوى حجرى لا يزال باقيا من العالم القديم هو ما يطلق عليه "هرم سقارة الحجرى المدرج"، فتعود الأغنية إلى قبر مهندس العمارة الأول، العظيم، هذا، وتظهرنا على حالة الدمار التى لحقت به، حتى أن أمكنته "كأنها لم تكن"، وفى الواقع لا يعرف مكانه إلى هذا اليوم .

و(حرجدف) أيضا، الحكيم الذى تذكره القصيدة، كان ابنا لخوفو، وعلى ذلك كانت له صلة بأكبر هرم، وقبره لا يعرف مكانه هو الآخر حتى اليوم .

وواقعة أن هذين الحكيمين القديمين (أمحوتب وحرجدف) بقيا خالدين فى أقوالهما فقط، هذه الواقعة كانت توضيحا آخر لعدم الجدوى فى العوامل المادية كوسيلة للخلود، وفى الوقت نفسه، فإن توارى أمثال تلك الأرواح، كهذين، إلى قبور لا يمكن أن يتبيننا بعد فيه، الذى لا يعود منه أحد ليخبر عن مصيرهم، يضرب على أعظم نغمة كثيفة، فيها تشوق وحنين فى كل هذه الأسطر، إنها نغمة يخال لنا أننا نسمع صدى لها فى الشرق بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة فى أبيات عمر الخيام:

" غريب، ليس كذلك، إنه من بين الجموع

الذين اجتازوا قبلنا باب الظلام

لا يعود واحد ليخبرنا عن الطريق

التي، للكشف عنها، يجب أن نقطعها أيضا "

وهنا يكشف للعيان تشكك يرتاب في جميع الرسائل، مادية أو غير مادية، للوصول إلى نعيم أو حتى بقاء فيما يوالى القبر، ولا يوجد جواب على مثل هذه الشكوك، وتوجد فقط وسيلة لتنجيتها إلى جانب مؤقتا، وهذه الوسيلة يمكن أن توجد في إرضاء المتعة الحسية التي تغرق مثل هذه الشكوك في خضم النسيان " لنأكل ونشرب ونفرح، لأننا، غدا نموت " .

ولكن من الخير، على أية حال، أن يترك المرء اسما طيبا يبقى على الزمن، خلفه، ليس لأن ذلك بالضرورة يضمن للرجل الصالح أى شئ في العالم القادم، ولكن بالحرى ليبقى في عقول أولئك الذين يبقون وراءه.

(ب) " ديالوج كاره البشر مع روحه " وهل تكفى فلسفة "لنأكل ونشرب ونفرح لأننا، غدا، نموت"؟! "

ومع هذا، فإنه كان يوجد أولئك الذين رفضوا حتى هذه النصائح على أنها ليست إلا حلا سطحيا لمسألة الحياة، القائمة، ولنفرض أن الاسم الطيب يضيع دون ذنب وبغير حق، وفرص المتعة الذاتية يبعدها المرض وسوء الطالع .. إنه بالضبط هذا الموقف الذى يعرض علينا في وثيقة من أعظم الوثائق أهمية، وصلت إلينا من هذا العصر السحيق، ويمكننا أن نطلق عليه " ديالوج كاره البشر مع روحه " والموضوع العام هو القنوط الذى ينجم عن الموقف السابق ذكره قنوط يتحول إلى الموت على أنه المخلص الوحيد، وهذا الموضوع في ذاته عقلية، تجربة لمصاب دون حق^(١) .

إن هذا التعيس (كاره البشر) كان رجلا وادع الروح، ومع هذا لحقته مصائب كثيرة، لقد ألم به المرض فهجره أصحابه وحتى إخوته، الذين كان يجب أن يعنوا به في مرضه، وفي غمرة محنته سرقة جيرانه، حتى أن عمله الصالح الذى فعله بالأمس لم يعد يذكره أحد، وأصبح اسمه الذى كان يجب أن يحوطه التبجيل، له رائحة تزكم أنوف الناس.

وفي هذه المرحلة، وهو في ظلام ويأس، ويعتزم أن يودى بنفسه، تبدأ الوثيقة وصاحبنا يقف على حافة القبر، يفزع روحه من الظلمة في رعب ويأبى أن يصحبه،

(١) إن الوثيقة هي بردية من الدولة الوسطى موجودة في برلين، أعاد إرمان نشرها عام ١٨٩٦ م:

(Gespruchelnes lebensmueden mit: Seiner Seele) Abhandl der Koenigl. Preuss: Berlin 1896.

وفي ديالوج طويل يتحدث مع روحه كأنه مع شخص آخر، ولكن روحه لا تطاوعه وسبب هذا الموقف توجسها من عدم وجود قبر يقطن به بعد الموت، وفي بداية الأمر يظهر هذا على شيء من الغرابة، نظرا إلى التشكك الذي كان يرى فيه أمثال هؤلاء الرجال مثل هذه الاستعدادات المادية للموت، كما برهن صاحبنا (التعس) أنه واحد منهم، ويظهر أن الروح نفسه كان قد نصح بالموت حرقا، ولكنه فزع من هذه النهاية المروعة، ولما لم يكن هناك صديق أو قريب على قيد الحياة ليقف بجوار التعس ويؤدي الشعائر الجنائزية، فقد عكف صاحبنا (كاره البشر) على أخذ الموثيق على روحه ليؤدي هذه المهمة، ولكنها الآن ترفض الموت على أية صورة؛ ولا يوجد إلا حل واحد، هو أن يعيش المرء مستغرقا في نسيان الحزن والقضاء عليه كله بالأخذ بأسباب المسرات.

وبعد هذه المرحلة من الديالوج بما فيها من فلسفة: "لنأكل ونشرب ونفرح لأننا، غدا، نموت"، يتقدم صاحبنا (كاره البشر) إلى خاتمة رتيبة توضح أن الحيلة، وهي أبعد من أن تكون فرصة للحشرات والمتعة التي لا ضابط لها، أكثر قابلية لعدم الاحتمال، من الموت، وهذا التوضيح تخويه أربع قصائد يخاطبنا بها صاحبنا (كاره البشر).

(١) تصور الأولى الكراهية غير العادلة التي يضمها العالم لاسم التعس، ولتأكيد هذا، يقدم للموازنة شيئا ممقوتا في حياة الشعب اليومية وخاصة رائحة السمك والدواجن المعروفة والشائعة في حياة ساكن النيل، تقول بعض أبيات القصيدة:

"هاكم : إن اسمى مكروه

هاكم: أكثر من رائحة الطير

أيام الصيف عندما يكون السماء حارا

أكثر من رائحة الدواجن

على تل الصفصاف الذي يزخر بالأوز

أكثر من رائحة صالدي السمك

بحوار يشواطئ الغدران عندما يكونون قد اصطادوا

هاكم : إن اسمى مكروه

أكثر من امرأة

قيلت ضدها أكذوبة لزوجها "

وهذه القصيدة الأولى ليست إلا ترديدا لواقعة أن اسم الرجل التعس قد أصبح ذا رائحة تزكم أنوف أنداده .

(٢) وفي القصيدة الثانية، يتحول صاحبنا (التعس، كاره البشر) عن نفسه ليصف المسؤولين عن تعاسته، إنه يلقي النظر على مجتمع زمانه، ولا يجد إلا الفساد وعدم الأمانة والجور وعدم الوفاء حتى بين ذوى قرابته، إنه حكم خفيف، ويستهل صاحبنا كل مقطع بسؤال 'من أتحدث اليوم؟'، وربما كان يعنى " أى نوع من الناس أولئك الذين أتحدث معهم؟ " ويتلو كل تكرار لهذا السؤال حكم جديد، وحول هذه المعانى تدور أبيات القصيدة الثانية، يقول فيها:

" لمن أتحدث اليوم؟

إن الأخوة، أخوة سوء

وأصدقاء هذا الزمن ليسوا (على حب)

إن القلوب تتلصص

وكل رجل يأخذ عنوة سلع جاره

لمن أتحدث اليوم؟

إن الرجل الوادع يفنى

وذو الوجه الجسور يذهب إلى أى مكان

إن ذا الوجه المسالم، تعس

لمن أتحدث اليوم؟

السرقه تمارس

وكل رجل يأخذ عنوة سلع جاره

لمن أتحدث اليوم؟

إن القلوب تميل إلى اللصوصية

إن الرجل الذى يستند المرء إليه، ليس لديه فهم

لمن أتحدث اليوم؟

لا يوجد أخيار

إن الأرض لأولئك الذين يرتكبون الإثم

لمن أتحدث اليوم؟

يوجد نضوب فى الأوفياء

لمن أتحدث اليوم؟

إن الشر يضرب فى الأرض

وليس له نهاية "

إن روح صاحبنا قد جزع من الموت، واقترح حياة رغدة كوسيلة يجد فيها مخلصه
ثم وقد أثاره رعب الموت وخيبة الأمل فى الاستعدادات المادية لمواجهة، فإن
صاحبنا (كاره البشر، الرجل التعس) ينطوى على نفسه برهة ويتحول إلى التأمل فى
الحياة، وصورت لنا القصيدتان السابقتان ما يراه عند تحوله هذا.

(٣) أما القصيدة الثالثة، فهى الارتداد المنطقى عن أى أمل خافت فى أن الحياة قد
تكون مستطاعة، إلى الاعتقاد النهائى بأن الموت وحده هو الفكاك من التعاسه السقى
وقع بين برائنها.

وهذه القصيدة الثالثة أنشودة قصيرة فى مدح الموت، إنها ليست تأملا رفيعا
فى مزايا الموت كالذى نجده بعد ذلك بألف وخمسمائة سنة فى قصة أفلاطون عن
موت سقراط، ولكنها صرخة لتألم يرتد صداها إلينا من أقدم عصور العالم، ومن
هنا تأتى أهميتها الفريدة، التى لا تخلو من جمال اختصت به، وشعور يجيش فيه
الحنين والشوق، وهذا كله يظهر فى شكل صور محسوسة استمدت من حياة ساكن
النيل، اليومية، تقول أبيات هذه القصيدة:

" الموت أمامى اليوم

(مثل) شفاء رجل مريض

مثل رائحة المر

مثل مجرى الغدير فى فيضه

مثل عودة رجل من مركب الحرب إلى بيته

الموت أمامى اليوم

كصحر السماء

الموت أمامى اليوم

كما يشتاق رجل لرؤيه بيته

عندما يكون قد أمضى أعواما فى الأسر "

تصور هذه القصيدة الحياة كمرض طويل نشفى منه عند الموت، الذى هو كعقيق المر يحمله نسيم النين العليل، كعودة محارب أنهكت قواه الحرب، وهو يدنو من منزله، كل هذه التشبيهات تثير الوجدان العام فى أى عصر وفى أى إقليم.

(٤) وموضوع القصيدة الرابعة، النظرة إلى الأمام، إلى المستقبل النهائى، وتبدأ بعبارة " ذاك الذى هناك " ويعنى الإله الذى يوقع عقاب الشر على فاعله، وتختتم بحل يجعل الموت فناء الدخول لساحة الأبدية، وعلى هذا يلتزمه بأسرع ما يمكن، يقول:

" ذاك الذى هناك

سيقبض (على المذنب) كإله حى

ويوقع عقاب الشر على مرتكبه

ذاك الذى هناك

سيكون رجلا حكيما لم يعد

يصلى إلى رع عندما يتكلم "

وعلى هذا، وهو يتشوق إلى الانطلاق السعيد الذى يهيئه الموت، وواثق من المزايا العالية التى سيستمتع بها فى الآخرة، فإن روح صاحبنا التعس يرضخ فى النهاية ويدخل الظل، ويسير ليكون مع "أولئك الذين هناك" (الموتى).

إن قصة (كاره البشر) قصة تدين بمصدرها إلى تجارب فردية كان يتمرس بها رجال هذا الزمن فى الواقع، إنها معلم واضح فى تطور الوعي الذاتى الطويل،

فى تلك العملية النسقية البطيئة التى كان قصارها ظهور الفرد كعامل خلقى، فرد يرجع للضمير كسلطة أخيرة يمكنه بموجب وصايتها أن يواجه المجتمع ويحاكمه، وتبين فى هذه الوثيقة مدى تأثير العوامل الاجتماعية فى مأساة الفرد ومن هنا بدأت الدعوة إلى الإصلاح والتجديد الاجتماعيين .

إن قصة (كاره البشر)، ولو أنها قصة تجربة فردية، فإنها مع هذا، تتضمن تأمل المجتمع الذى يرجع إلى نواحي قصوره، تجربة الكاتب فى معظمها، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر، فإن الاهتمام بالبلاء الاجتماعى، والقدرة على التأمل فى عدم وجود قدر للرجال وتبينه، والكوارث التى تصيب المجتمع، تظهر أيضا كموضوع تأملات قائمة، متشائمة فى هذا العصر، الذى قام فيه الوعي الذاتى المتزايد، كما قام أول اصطدام بالواقع .

(ج) "الوعي الأخلاقى" عند المصرى القديم، من "الفرد" إلى "المجتمع"

ونعرض الآن لثلاث وثائق، ترجع لعصر الاقطاع، تتضمن تجارب حياتية عاشها أصحابها، واصطداموا فيها بالواقع الذى انعدمت فيه وجود قيمة خلقية، وحلموا بأيام أفضل، الأولى لكاهن من هليوبوليس يدعى "خع خبر رع - سنبر" والثانية لا منمحت الأول، المؤسس العظيم للأسرة التى كانت تحدث فى عهدها هذه التطورات الهامة فى الفكر، والثالثة يمكن أن يطلق عليها نصائح "أبوور".

(١) تجربة "خع خبر رع - سنبر"

ولد كاهننا فى عهد سيزوستريس الثانى (١٩٠٦ - ١٨٨٧ ق.م)، وهو يعبر فى تجربته، عن أفكاره القائمة عن المجتمع فى عجالة، كان لا يزال لها رواج بعد

ذلك بنحو أربعمائة سنة، عندما نسخها كاتب في عهد الأسرة الثامنة عشرة على نوح محفوظ الآن في المتحف البريطاني^(١) ومن بين ما جاء في هذه الوثيقة نقرأ:

' .. إني أتأمل في الأشياء التي حدثت، الحوادث التي وقعت في البلاد، إن التحولات تسير قدما، ليس على مثال السنة الماضية، وسنة أثقل عبئا من الأخرى .. الاستقامة نبذت خارجا، والجور يوجد في وسط ردهة المجلس، إن خطط الآلهة تنتهك، والبلاد في حزن، والحداد في كل مكان، والبلدان والأقاليم في نواح، إن كل الناس، على السواء، يزرحون تحت مظالم، أما عن الاحترام، فقد وضعت له نهاية، إن صباحا يجيء كل يوم ويرجع مرة أخرى إلى ما (سبق) أن كان، عندما أريد أن أتحدث (عنه) فإن أعضائي تقع تحت عبء ثقیل، لقد ألم بي حزن بسبب قلبي، إنه مجلبة للألم أن أسكت عما يتصل به "

" .. إني أتأمل فيما حدث، إن الأرزاء تجيء اليوم، وغدا لا تكون مرت (المحزن)، كل الناس صامتون فيما يتعلق به، (مع أن) الأرض كلها في اضطراب عظيم، لا يوجد أحد خاليا من السوء، كل الناس على السواء يفعلونه، إن القلوب يستولى عليها الحزن، ذلك الذي يصدر الأوامر مثل ذلك الذي تصدر إليه الأوامر، إن قلب كل منهما راض، إن الناس يستيقظون له في الصباح كل يوم (ولكن) القلوب لا تدفعه بعيدا، وماجرت عليه الحال أمس، هو مثل اليوم، لا يوجد أحد من الحكمة، بحيث يدرك إدراكا حسيا، ولا يوجد أحد بلغ منه الغضب بحيث يتكلم، إن الناس يستيقظون في الصباح ليعانوا الألم كل يوم، إن مرضى طويل وثقیل، إن الرجل الفقير ليست لديه قوة لينقذ نفسه من ذاك الذي هو أقوى منه " وتصل الوثيقة إلى مناجاة الكاهن قلبه فيقول :

" .. إني أتكلم إليك يا قلبي، أجب على (لأن) قلبا هو جرم، لا يسكت، هاكم، إن شئون الخادم هي مثل (شئون) السيد، إن الحمل الذي يستقر فوقك ثقیل " .

هنا رجل أثر فية، تأثيرا عميقا، فساد زملائه، إنه يتأمل المجتمع ككل، ويعبر عن تعاسته الخاصة بالنظر إلى مثل هذا المصير المتوقع، إن شغله الشاغل هو المجتمع،

(١) المتحف البريطاني ٥٦٤٥، وكان جاردنر أول من بين محتراته ونشرها في "نصائح حكيم مصري"

Admonitions of an Egyptian Sage كملحق من ٩٥ - ١١٢ والواح ١٧ - ١٨ .

الذى عرقله حموده، غير القادر على تبين تعاسته الخاصة، أو إذا كان له وعى بما
منى الإطلاق، فإنه يعدم القدرة على الابتكار للنهوض بتحديد نفسه.

ومنا نصل إلى عهد استيقظ فيه الناس، لأول مرة في التاريخ، في شعور عميق بعدم
:جود قيمة خلقية للمجتمع.

(٢) تجربة " امنمحت الأول"

ولم يكن هذا الاعتقاد قاصرا على تأملات كاهن من هليوبوليس، رقيق
الحال، إنه ينطق أيضا، في الاصطدام بالواقع الذى تمس به امنمحت الأول، الذى
بضرب أيضا على نفس النغمة الكئيبة.

لقد ترك لنا الملك كلمة نصح وجيزة موجهة إلى ابنه (سيزوستريس الأول)
الذى كان سيخلفه، بعد محاولة اعتداء - دنيئة - على حياة الملك المسن، قام بها
أولئك الذين كان يضع فيهم ثقته^(١).

يقول الملك الأب وهو يحدد الاستقامة لابنه :

" .. استمع إلى ذلك الذى أقوله لك

حتى يمكنك أن تكون ملك الأرض

حتى يمكنك أن تكون حاكم الأقطار

حتى يمكنك أن تزيد الخير

(فس) نفسك ضد كل مرءوسيك

إن الناس يصغون إلى ذاك الذى يدخل الرعب فيهم

لا تقترب منهم وأنت وحيد

لا تملأ قلبك بأخ

^(١) يرجع تاريخ نسخ هذه الوثيقة إلى ما يقرب من نهاية حكم رعمسيس الثانى، ولعل أفضل وأوضح

ترجمة هي تلك التى أوردها إرمان في "برديات متحف برلين الملكى ٤٤-٤٥ Ausden Papyrus des

Koeniglichen Museums Zu Berlin.

وراجع أيضا ماسيرو "لجبر المدينة ٤٦٧ تذكره ٢ Dawn of Civilization.

لا تعرف صديقا
أو تصطنع لنفسك مقربين
حيث لا تكون في ذلك غاية
عندما تنام حافظ لأجل نفسك، على قلبك
لأن الإنسان لأهل له
في يوم السوء
لقد أعطيت المتسول، وأطعمت اليتيم
وقد سمحت بدخول من لا قدرله، وكذلك ذاك الذى كان عظيم الشأن
(ولكن) ذاك الذى أكل طعامى قام بثورة
ذاك الذى أعطيته يدي أثار الخوف فيها .
وتأتى بعد كل هذا قصة المؤامرة على حياته، وهى حادثة كانت السبب إلى حد
ما، لاصطدام الملك، مرير النفس، بالواقع.

(٣) نصائح أبوور

وهكذا تكشف لنا نقوش مصر القديمة عن أنه كان هناك رجال لمسوا تماما
فساد المجتمع، وجسروا على أن يحلموا بأيام أفضل، وهذا مصلح خلقى آخر في
هذا العصر العظيم، يضع لنا، في عرض فاجعى، ليس فقط اتهامه العلنى العنيف
لتلك الأزمنة، ولكن أيضا، نصائح تنطلق إلى تجديد المجتمع والعصر الذهبى الذى
يمكن أن يتبعه، وهذه، ربما كانت أعظم وثيقة هامة في هذه المجموعة التى نعرضها،
ويمكن أن يطلق عليها نصائح أبوور^(١)

وتحكى لنا هذه الوثيقة كيف أن الرجل الحكيم "أبوور" وفي حضرة الملك
نفسه وآخرين، من الراجح أنهم الحاشية المجتمع، يلقي اتهاما علنيا طويلا، عنيفا
للعهد، ويختتمه بالموعة والنصح، ويعقب هذا رد موجز من الملك، وإجابة في
كلمات قليلة من الحكيم.

^(١) راجع الن. هـ. جاردنر The Admonitions of an Egyptian Sage, Leibzig, 1959.

ففى رؤية فاحصة لحياة سكان وادى النيل، يجد حكيمنا كل شيء فى ارتباك

” لقد وقف دولاب الحكومة على التقريب، أن قوانين ساحة القضاء قد ألقى بها فى منهب الريح، والناس يمشون فوقها فى الأمكنة العامة، والفقراء يفضونها فى وسط الشوارع“ .

” إن انحلال الحكومة هذا، يرجع سببه إلى حالة عنف وحرب داخل البلاد، إن الرجل يضرب أخاه من أم واحدة، ماذا يجب أن يصنع ؟“

” انظروا : إن الرجل يذبح بجوار أخيه، بينما هو (الأخ) (يهجره) لينقذ أعضائه هو، إن الرجل يعتبر ابنه عدوا له، إن العنف فى كل مكان، لا يوجد رجل الأمس“ .

” انظروا الرجل (الذى يظفر) بسيدة نبيلة كزوجة، وأبوها يجميه، وذاك الذى دون (مثل هذه الحماية) إنهم يذبحونه“، إن الدم فى كل مكان، لا يوجد (انعدام) للموت، إن أكفان (الميت) تتحدث، قبل أن يأتى المرء بالقرب منها“

والى هذه الحالة من انحلال النظام والثورة فى الداخل، تضاف أهوال الغزو الأجنبى، يقول مصلحننا :

” .. وفى الواقع، توجد الصحراء فى البلاد، وأقاليم (مصر) أتى عليها التخريب، وحاملوا الأقواس يأتون إلى مصر“ .

وبعد أن أصبحت البلاد فريسة للفوضى الداخلية والثورة، وعاجزة أمام غزوات الأجانب، فإن ممتلكات مصر دمرت، وتوقفت عمليات البلاد الاقتصادية، يقول (أبور):

” .. انظروا، كل مهرة الصناع، إنهم لا يعملون، إن أعداء البلاد أفقرُوا حرفةها، إن الكاتب (يكسل فى مكتبه، لا يوجد عمل يقوم به، وعندما يفيض النيل، لا أحد يحرث لأجله(النيل) وكل إنسان يقول : لنعلم ماذا حدث فى البلاد؟“

” انظروا لقد تركت الماشية تشرد، ولا يوجد أحد يجمعها معا، وبما لأن اللحم يتوارى، على هذا النحو، فإن الناس يأكلون الأعشاب ويتلعونها بالمياه، وفى الواقع

أصاب الخنطة الفناء في كل جانب، والناس يحرمون من الملابس و(العطور) وزيوت الثليب، كل الناس يقولون: لا يوجد شيء منها، إن المخزن أصبح خراباً".

و في مثل هذه الأحوال الاقتصادية، في الداخل، تندهور التجارة الخارجية وتتوارى، "الناس لا يحرقون صوب الشمال في هذا الزمن، ماذا نصنع بخشب السدر اللازم لمومياواتنا، بالتحية التي يدفن بها الكهنة، وبالزيت الذي يحنط به (الأمراء)، ويندر وجود الذهب وقد انتهت كل الحرف، ياله من أمر عظيم، إن أهل الواحات (لا يزالون) يأتون حاملين محصولهم للأعياد!"^(١)

مثل هذه الأحوال، يمكن توقعها، لأن الأمن العام للناس والسلع التجارية، قد زال. "ولر أن الطرق تقوم عليها حراسة، إلا أن الناس يجلسون في الأدغال، إلى أن يلتقي المسافر الذي دهمه الظلام حتى يستولوا على ما يحمل، إن ذلك الذي معه يؤخذ منه، وتكال له الضربات بالعصا، ويذبح بقسوة"

"والواقع، أن البلاد تدور (نظام الأشياء ينقلب) كما تفعل عجلة صانع الفخار، إن ذاك الذي كان لصاً هو سيد الثروة و(الرجل الغني) هو الآن شخص انتهب، وحتى عندما لا تحترم القبور الملكية، فإن الناس لا يبذلون إلا القليل من الجهد لبناء قبر"

وهكذا، كما يوحي تشبيه دولاب صانع الفخار، فإن كل شيء انقلب رأساً على عقب، وقد أتت على الأحوال الاجتماعية ثورة تامة، ويقابل الحكيم (أبوور) بين ما كان وما هو الآن، متتبعا الأحوال التي طرأ عليها التغير، فيما يتعلق بأفراد معينين وطبقات المجتمع، فيقول:

"انظروا، إن ذاك الذي لم يكن لديه زوج من الثيران فإنه (الآن) مالك لقطيع، انظروا، إن ذاك الذي لم يكن لديه حنطة هو (الآن) صاحب مخازن غلال، وذاك الذي اعتاد أن يجلب الخنطة لنفسه، فإنه (الآن) يعمل على صرفها (من مخزنه الخاص)، انظروا، إن صاحب الثروة (الآن) يمضي الليل عطشان (بدلاً من إقامة الولائم)، وذاك الذي اعتاد أن يتسول ثملاته هو الآن صاحب كؤوس (فياضة)؛

^(١) هذه الملاحظة الأخيرة هي بالطبع تمكينية، بالإشارة إلى الحقيقة الواقعة، وهي أن التجارة الوحيدة مع العالم الخارجي التي تركت لمصر هي نتاج الواحات الفيصل الذي كان لا يزال يتسرب .

انظروا، إن أصحاب الملابس أصبحوا (الآن) في أسمال، وذاك الذى لم ينسج لنفسه هو (الآن) مالك التيل الرقيق“

وهكذا، يسير الحكيم من مقابلة إلى الأخرى، وفي مثل هذه الحالة، فإن المجتمع يسير إلى دمار . ” الرجال قلة، ويوجد نضوب في النساء، ولا يوجد حبل في (أطفال)

وفي الخراب العام، فإن التدهور الخلقى يأتى بين ثناياه، ” إن رجل الفضائل يسير في حداد بسبب ما حدث في البلاد“، ويقول آخرون ”لو كنت أعلم أين يوجد الإله، إذن لكنت قدمت القرابين إليه، وفي الواقع توجد (الاستقامة) في البلاد في اسمها هذا، ومايفعله الناس في الرجوع إليها هو الجور“.

وهذا ينتهى بالكل إلى حالة من اليأس العام ” في الواقع قد زال المرح، إنه التسهل الذى يوجد في البلاد، يختلط بالنواح، وفي الواقع، يقول العظيم والوضيع: اتمنى أن أموت، وصغار الصبية يقولون: لكنت أرجو أنه لا يوجد أحد يحفظ لى حياتى“.

إن الحكيم، لايمكنه أن يرى هذا كله، دون شعور منه بأن الكارثة العامة تؤثر فيه، أيضا، تأثيرا عميقا، ويرجو انتهاء كل شئ. ” إني لأرجو أن تحل نهاية الناس، وألا يوجد حمل أو ميلاد،“

ويبلغ به الأمر أن يرجع باللائمة على نفسه، لأنه لم يحاول أن ينقذ الموقف قبل ذلك. ” ليتنى أعليت صوتى في ذلك الوقت، حتى يمكن أن يخلصنى من الألم الذى أوجد فيه، الويل لى للتعاسة في هذا الزمن !“

هذه هى الصورة القائمة التى يصورها الحكيم المصرى، ويشمل الاهتمام الذى يوجهه الحكيم، ثلثى الوثيقة على التقريب، إنه يعرض الأحوال التى سادت مصر في زمن محدد.

وكما يمكن أن يتصور من الحزن البالغ الذى يرى فيه ” أبوور“ تعاسة الزمن، فإنه لايرضى بأن يترك جيله في هذه الحالة التى لارجاء فيها، إنه الآن يتحول إلى الوعظ ويحض مواطنيه أولا أن يحطموا أعداء الملك، ويدعو كل الناس لمواصلة القيام بالشعائر المقدسة بالنيابة عن الآلهة، هذا ماتناوله المجموعة الثانية من مواعظ (أبوور)، وفيها تبرز أهم عبارة في حديث الحكيم بأجمعه، وهى واحدة من أهم

العبارات مدى الأدب المصرى كله؛ فيتطلع حكيمنا إلى إصلاح البلاد، دون ريب، كنتيجة طبيعية للنصائح عن الإصلاح التى وجهها إلى قلوب مواطنيه، إنه يرى الحاكم المثالى الذى يتشوق إلى مجيئه، إن ذلك الملك المثالى حكم مصر مرة بوصفه إله الشمس، رع، وعندما يتذكر الحكيم ذلك العصر الذهبى، فإنه يعقد مقابلة بينه وبين الحكيم الجائر الذى وقعت البلاد بين يديه. "إنه يبرد أوار الذهب، يقال إنه راعى كل الناس، لا يوجد سوء فى قلبه، عندما تكون قطعانه قليلة، فإنه يمضى النهار فى لم شملها، إذ أن قلوبها عطشى، أين هو اليوم؟ هل ربما يكون قد أخذته سنة من نوم؟ انظروا، إن قوته لا ترى".

وتكشف لنا عبارة الحكيم عن صورة الحاكم المثالى، الوالى القسوم الذى "لا يوجد فى قلبه سوء" ويسير هنا وهناك أشبه "براع" يجمع قطعانه التى نقصت وأخذ منها العطش، إن عنصر الأمل فى أن مجيء الملك الصالح قريب، لا يتطرق الخطأ إليه فى الكلمات النهائية:

"أين هو اليوم! هل ربما يكون قد أخذته سنة من نوم؟ انظروا: إن قوته لا ترى".

وبهذه العبارة الأخيرة، يضيف المرء دون طواعية، "حتى الآن"، إن مغزى الصورة الخاص هو فى واقعة معينة، إذا لم تكن خاصة بالبرنامج الاجتماعى فعلى الأقل بالمثل العليا الاجتماعية، هى أن الحلم الذهبى الذى يراود مفكرى هذا العصر السحيق كان قد تضمن الحاكم المثالى الذى يتحدث على خاصته ويحميهم ويحطم الأشوار، وسواء أكان مجيء هذا الحاكم قد تنبأوا به أم لم يتنبأوا، فإن رؤيا أخلاقه وعمله قد رفعه هنا عاليا، دون أن يتسرب إلى ذلك خطأ، الحكيم القديم، رفعها بحضور الملك الحالى وأولئك الملتفين حوله، حتى يمكنهم أن يروا شيئا من سنائها.

وفى ذهن الحكيم، تستدعى المقابلة المروعة بين حكم الملك المثالى وحكم فرعون الموجود الآن، والذى يقف الحكيم فى حضرتة، أعنف استنكار لملكه، وبهذا يضع الحكيم المسئولية عن كل ما أعاده للذاكرة فى مثل هذا الوضع، على عاتق الملك.

إنه يقول ” الذوق والمعرفة والاستقامة لديك “ (ولكن) ” إنه الصراع ذاك الذى تجلبه فى البلاد، ومعه صوت الاضطراب، ها هو ذا الواحد يهاجم الآخر، إن الناس يسرون وفق ذلك الذى أمرت به “

ويصل حكيمنا إلى ذروة المواجهة بينه وبين الملك عند ما يقول له:

” إنك فعلت (هكذا) لتجلب هذه الأمور، لقد نطقت بالأكاذيب “

ويعود الحكيم لحظة إلى وصف حالة المجتمع الكثيرة التى شغل بها فى اتهامه الطويل، ومع هذا، فإن تقدم فكره يتجه صوب إصلاح الحال فى المستقبل الذى كان ينصح به بعد ختام الاتهام واستنكاره المريع للملك، والآن، على هذا فإن التعاسة المسئول عنها تندمج فى صورة نهائية من ” الفرح والرخاء “

وفى تعرف الأعماق التى هوت إليها حكومة ومجتمع فاسان، فإن حكيمنا يشترك مع ” كاره البشر “، فى أشياء كثيرة، وعلى أية حال فإن هذا وجد حظوظه الفردية مهددة تميذا فيه القضاء عليها، فى البلى العامة حتى لم يكن يوجد أمل، ورغب فى الموت على أنه الحل الوحيد، أما ” أبوور “ من الوجهة الأخرى، فإنه يتطلع فى تيقن تام، صوب خلاص للمجتمع فى المستقبل، إنما لظاهرة ذات مغزى، إنه ظهر فى هذا العصر السحيق، الانعزال الضرورى والقدرة على التأمل فى المجتمع، وهما أمران لم يكونا معروفين قبل ذلك فى فكر الإنسان، وكذلك مما له مغزى أعظم خطرا، هو هذه الرؤيا لخلاص المجتمع المرجح وقوعه، وأن العامل فى ذلك الخلاص هو ملك قويم يحمى خاصته، ويظهر الأرض من الأشرار، إن هذا، ماهو إلا أقدم ظهور لمثالية اجتماعية؛ بدأت تهم بالطبقات العادية فى المجتمع، فأنحاز ” المثل الأعلى الرفيع “ للعدالة نحو الفقير والمضطهد، وهذا يمثل نسمة من ذلك الجو الخلقى السليم الذى يشيع فى تفكير طبقة الموظفين الاجتماعيين.

وماهو جدير بالذكر حقا أن نجد هؤلاء الارستقراطيين من حاشية فرعون - منذ أربعة آلاف سنة خلت - يعنون، فى درجة وافية، بصالح الطبقات الدنيا ليحملوا أنفسهم عناء إصدار ماهو، من الواضح جدا، نشر دعوة لعهد عدالة وعطف نحو الفقير، لقد كانوا واضعى نشرات فى حملات إصلاحية من أجل العدالة الاجتماعية.

(د) "حكمة بتاح حوتب" و "نزعة التفاؤل" عنا. المصوى القديم:

وتعطينا حكمة "بتاح حوتب"^(١) دليلا على هذا الانحياز الجديد للعدالة، وقد نطق بهذه الحكمة شخصية تاريخية في مناسبة معينة، في الأسرة الخامسة التي كان ينتمى إليها الملك (أسيس)، وفي الواقع، كان يوجد سلسلة من الوزراء يطلق عليهم (بتاح حوتب)، وهم الذين أوصلوا الوظيفة من الأب إلى الابن، ولقد وقع حكم (أسيس) قبل عصر الإقطاع بما يقرب من خمسمائة سنة، وفيه نجد حكمة وزيره العامل (بتاح حوتب) تدور على الألسن.

وتبدأ هذه الحكمة بقول بتاح حوتب:

"أيها الملك سيدى، إن الضعف يجئ والهرم يتقدم، والأعضاء تسير إلى ضعف و(الوهن) يتجدد، والقوة تفنى بسبب خمود القلب (التفكير)، إن الطيب يصبح سيئا، كل ذوق يرحل، إن ما تفعله الشيخوخة بالناس سيئ في كل شيء، إن الخياشيم تسد، إنها لا تتنفس، إنه سيئ سواء وقف المرء أم جلس"

إن (بتاح حوتب) يلتمس من الملك بأن يعين ابنه في وظيفة الوزارة بدلا عنه، بسبب تقدمه في العمر، الذى يعدد أمراضه في وصف تصويرى، ولكى يمكن أن يصبح ابنه على علم بواجبات مثل هذه الوظيفة الهامة، فإن الوزير يلتمس من الملك الإذن بتعليمه.

وتتضمن هذه الحكمة وصايا (بتاح حوتب) الحذرة عن العيش القويم السليم، وعن المسلك الرسمى المتعقل، وهذا يمثل نتاج التجارب الناضجة التى تمرست بها أجيال كثيرة في الحياة الرسمية.

(١) إن حكمة "بتاح حوتب" محفوظة في خمسة مخطوطات:

(أ) بردية برس papyrus prisce في المكتبة القومية في باريس رقم ١٨٣-١٩٤،

(ب) الثلاث برديات الموجودة في المتحف البريطاني رقم ١٠٣٧١، ١٠٤٣٥، ١٠٥٠٩،

(ج) لوح كتابة من الخشب في متحف القاهرة المعروف باسم لوح كارنفلون رقم ٤١٧٩٠.

1847.

راجع:

ماسيرو: "خمس سنوات من الحفر في طيبة"، جامعة أكسفورد، ١٩١٢

وبينما فقد رجال الدين من أمثال (كاره البشر) و(خج خبر رع - سسبنو)، وإلى حد كبير أيضا (أبوور) نفسه، كل ثقل في فضيلة عالم الموظفين التقليدية، فإن (حكمة بتاح حوتب) تكشف لنا، على الأقل، عن نواة من أحسن الناس في الطبقة الرسمية والقصر لا يزالون يشعرون بالثقة في طريقة العيش القديمة الطيبة، التي وصلت من أسلافهم، إذا ما حوفظ عليها بعناية.

وشرع (بتاح حوتب)، لما جاءه الإذن الملكي، في تعليم ابنه "فاتحة الأمثلة من القول الطيب" الذي وصل إليه حكيمنا بعد طول تأمل وتمرس في الحياة، وكان مما جاء في أقواله، التي تعرضت للعديد من المسائل الخلقية، مايلي:

١- "إذا وجدت رجلا عاقلا في زمنه، زعيما في التفكير، أكثر تفوقا منك، فإثن ذراعيك وأحن ظهرك".

٢- "إذا كنت زعيما (أو إداريا) تصدر المراسيم للجمهور، فالتمس لنفسك كل مسألة متفوقة حتى يبقى مرسومك على الزمن دون سوء فيه، عظيمة هي الإستقامة (الحق، الصواب، والعدالة) إنما باقية على الزمن".

٣- "إذا كنت تحرث ويوجد زرع في الحقل، فإن الإله يعطيه كزيادة في يدك، لا تشبع فمك دون ذوى قرابتك".

٤- "إذا كنت زعيما (أو "إداريا") فاستمع (بمدوء) إلى خطاب مقدم الالتماس: إن ذاك الذى أصابه ضيم يرغب فى أن يبتيج قلبه، فى أن يفعل ذاك الذى من أجله أتى... إنه زينة القلب، أن يستمع المرء (إلى شكوى الآخرين) فى رفق".

٥- "إذا أردت أن توطد الصداقة فى منزل تدخل فيه كسيد أو كأخ أو كصديق... أينما دخلت، كائنا ما كان، فخذ حذرك من الاقتراب من النساء، إن ألفا من الرجال يصبحون لا شىء بسبب الاستمتاع بلحظة وجيزة أشبه بحلم، والرجال يحصلون (فقط) على الموت لمعرفتهم بمن".

٦- "إذا أردت أن يكون إجراؤك حسنا، فامتنع عن كل شر وخذ حذرك من فرصة الطمع، إن ذاك الذى يدخل فيه، لا يتقدم، إنه يفسد الآباء والأمهات، إنه يفرق بين الزوجة والرجل، إنه حزمة من كل شىء سافل. موطد هو الرجل

الذى يكون مقبسه الاستقامة، الذى يسير وفقا لنهاجها، إنه تعود أن يحصل على ثروته بما (ولكن) الطماع لا بيت له“.

٧- “إذا أصبحت عظيما بعد أن كنت وضيعا، واستحوذت على أملاك بعد أن كنت فقيرا فيما سبق، فى المدينة، فلا تكن (متكبر) القلب بسبب ثروتك، لقد جاءت إليك كهبة من الإله“.

٨- “إن الاستماع إلى النصيح يعود بالنفع على المستمع، أما عن الجاهل الذى لا يسمع، فإنه لا يؤدى شيئا، إنه يعتبر الحكمة جهالة؛ وما فيه نفع، مصابا، إن حياته بذلك أشبه بالموت، إنه يموت وهو يعيش، كل يوم، إن الناس (يتحاشون) خصاله بسبب وفرة الأرزاء التى تقع عليه كل يوم“.

فى حكمة (بتاح حوتب) لدينا ما يدل على الحكمة الدنيوية الناضجة فى رجل سياسة ورجل حاشية عجوز حنكته التجارب، وله حياة من التجربة طويلة، ومن السهل أن نتصور أمير عجوزا راضيا عن نفسه، يتطلع إلى الوراء، فى رضاء عظيم، إلى حياته العملية الخطيرة، ويستمد من تجربته الطويلة، نصائح سلوكية، رسمية وشخصية، ذات قيمة أخلاقية، كبيرة.

وهذه النصائح، بوجه عام، تعلم رقة الحاشية، والاعتدال والتعقل، دون انعدام التوكيد الداتى، وتظهر أسلم إحساس طيب فى الثبات والتوازن اللذين توصى بهما الشباب، ولا يوجد شيء من التشاؤم القائم كالذى يوجد لدى “كاره البشر” أو “خزع خير رع - سنو”، إن الحياة تستحق الاهتمام الوفير، إن قدرا من المتعة، سليما، يجب أن يؤخذ، ويجب ألا يسمح للأثقال الرسمية أو غير الرسمية، بلأن تختصر ساعات الاستجمام، يقول حكيمنا حول هذا المعنى:

”اتبع رغبتك طالما كنت حيا، لا تفعل أكثر مما يطلب منك، لا تقصر وقت إتباع رغبتك، إنه ممقوت، التعدى على وقته، لا تحمل الهم كل يوم إلا فى تدبير أمور بيتك، عندما تجبى الممتلكات، فإتبع الرغبة (لأن) الممتلكات لا تكتمل عندما يكون هو (صاحبها) فى ضيق“.

وعلاوة على هذا، فإن الإنسان يجب عليه -على الدوام- أن يظهر بوجهه بشوش لأنه -كما يقول حكيمنا - “لا فائدة من النواح على اللبن المراق”، وفى النهاية، فإن النعمة السائدة هى جد خلقى مسيطر يشيع فى كل فلسفة حكمة

الوزير العجوز المألوفة، وأعظم أمر، ظهورا فيها كلها، هو ” افعل الصواب “،
”وعامل الكل بالعدل“.

(هـ) تعقيب

وهكذا يمكن أن نشهد تحولا عظيما في الوعي الأخلاقي عند المصري القديم،
إن التشاؤم - الذى كان يرى فيه رجال عصر الإقطاع الباكر - الحياة الدنيوية،
وهم يشاهدون جبانات الأهرام المهجورة، أو عندما كانوا يعيلون الفكر في
الآخرة، وخيبة الأمل فيها، التى كانت تراود بعضهم، قوبلا بتيار مضاد متواصل من
الاستقامة والعدالة الاجتماعية، كانت له السيادة، وعرضته فلسفة المفكرين
الاجتماعيين الأكثر تفاؤلا، التى يشيع فيها الرجاء.

هؤلاء الرجال كانوا يرون الأمل فى الجهد الإيجابي الذى يبذل فى سبيل أحوال
أفضل، ويجب أن نعتبر نصائح (أبوور) أمثلة أخاذة لمثل هذه الجهود، ويجب أن
نعرف فى كتاباتهم أسلحة أول فئة معروفة من المحاربين الاجتماعيين والأخلاقين،
والإصلاحيين.

وعلى هذا، فإننا نتبين المصريين، وقد نشأ فيهم، فى تاريخ باكر - يدعو إلى الدهشة
والاحترام والتقدير - إحساس بعدم قيمة الإنسان الخلقية، ووعى بالتزام خلقى
عميق الغور، تطور إلى أن أصبح أمرا رسميا من الإله، وسرعان ما أصبح مقتهم
للجور، مقت الإله له، ومثلهم العليا الخاصة، أصبحت كذلك، مثل الآلهة العليا، مما
كسب لها قوة الوصاية.

فقد أعلنت السياسة الملكية رسميا، أنه أمام منصة القضاء يجب أن يتوقع العظيم
والقوى نفس المعاملة ونفس الحكم اللذين يلقاها الفقير ومن لا صديق له.

ومن العسير أن نشكك فى أن مثل هذه المبادئ للعدالة الاجتماعية، كما وجدناها
فى هذا العصر، أضافت بقوة إلى ما فيه تطوير الاعتقاد بأنه ليس الرجل ذا الصولة
والثراء، ولكن رجل العدل والاستقامة هو الذى يكون مقبولا أمام كرسى قضاء
الإله العظيم، وعلى هذا، فإنه هنا تنتهى دعوى العظيم والقوى، الخاصة العجيبة فى
مكانه الاعتبار والنعيم فى الآخرة.

.. انفسهم انفسهم التي تزخر بها توابيت هذا العصر، المصنوعة من خشب السدر،
بين في وضوح أن الوعي بالمسئولية الخلقية في الآخرة تعمق كثيرا منذ عصر
الأهرام.

إن الفلاح، اندى من صديق له، وهو يقيم دعواه أمام الوكيل الأعظم يقول له:
”خذ حذرك! إن الأبدية تقترب”، إن الحاكم يضع على باب قبره، سجل العدالة
الاجتماعية في معاملته لكل كأحسن جواز سفر يمكن أن يتدعه لأجل الرحلة
الطويلة؛ ومرارا وتكرارا: يقيد رجال عصر الإقطاع في قبورهم دعاواهم في استقامة
الخلقة ”إن (فلانا من الحكام) قد فعل الاستقامة، إن مقتته كان الإثم، إنه لم يره“.

إن موازين العدالة، التي كان الفلاح يرفع إليها أمره، مرارا عديدة، قد أصبحت
الآن في الواقع، تجد مكانا في واقعة التبرئة في الآخرة. ”إن السوء قد طرد، إن الجور
قد اكتسح، قام بذلك الذين يزنون بالموازين في يوم الحساب“.

فأصبح واضحا الآن، لمن تكون موازين الصدق، ومن هو القاضي الذي يقوم
بالرياسة عليها، وكيف يقف الجميع أمام القضاء، لاتفرقه بين قوى وضعيف، بين
غنى وفقير، بين حاكم ومحكوم، هكذا وصل الوعي عند المصري القديم، فلا أقل من
تقرير أن المباحث الأخلاقية، أن التأمل في الحياة، وأن العمل من أجل تحسين الحياة
وإجادتها، وأن الالتزام الخلقى، إن كل ذلك موجود عند المصري القديم.

الفصل الخامس

"الحس السياسي عند المصري القديم"

ويشمل :

أولاً: تمهيد:

ثانياً: تعاليم تحوتمس الثالث لوزيره (رخ-مي-رع) ، والصلة التي يجب أن تكون بين الحاكم والمحكوم.

ثالثاً: تعاليم الملك خيى الثالث (أو أختوى) لابنه (مري-كا-رع) ، وسعادة الإنسان في آخرته تتوقف على عمله في الدنيا.

رابعاً : بردية "القروي الفصيح" وضرورة أن يكون الحاكم "سياجاً" يحمى الضعيف من عسف القوى.

أولاً: تمهيد:

يعتبر الإنسان المصري القديم أقدم سياسي عرقة التاريخ الإنساني كله، سياسي عمره من عمر الزمن، علّم الدنيا كيف تحكم بالعدل بين الناس، وكيف تصنع القوانين التي تساوى بين الحاكم والمحكوم، وكيف يتكلم الحق في حضوره، ويسكت الباطل، وكيف نحمل الحياة جأً وعشقا وأدباً وفضيلة.

وهذا المصري المعلم والمشرع هو أول من اشتغل بالسياسة يوم أن كون أول حكومة منظمة، وأول دولة عريقة في التاريخ المكتوب كله، وهى التي أعلنها مينا نارمر عام ٣١٥٠ ق.م، وقبل أن يخرج الإنسان الأوربي، الذي يتكبر الآن ويتبجح بخيلاء بما وصل إليه، من الكهوف التي كان يعيش فيها فوق الجبال، وداخل الوديان والغابات بقرون طويلة.

ولكي نعرف كيف كان يعيش المصري حاكماً أو محكوماً، يملك الرقاب والعباد، أو زارعاً فقيراً ليس له من الدنيا إلا صحته وقطعة من طين الأرض يزرعها حباً وحباً وضحكاً وشيخاً، ولكي نعرف كيف كان الوزراء يحكمون بين الناس إن خيراً أم شراً، إن عدلاً أم ظلماً، نتصفح بعض نصوص مصر القديمة.

فهذا مينا موحد القطرين، ومكون أول حكومة عرفها التاريخ، يرسى أول قواعد ثابتة للحكم، أساسها العدل والمساواة بين الجميع، فيعلن حق كل فرد في الهواء والماء، وفي أن يعيش آمناً مطمئناً، لا يظلم ولا يظلم، وفي ضرورة أن تسود روح المودة والتسامح بين الجميع، يتساوى في ذلك فقيرهم وغنيهم، ضعيفهم وقويهم، حاكمهم ومحكومهم؛ استمع إليه يوصي وزيره بما قاله الإله:

" لقد خلقت الرياح الأربع حتى يستطيع كل إنسان أن يتنفس مثل أخيه.. والمياه العظمى حتى يستطيع الفقير أن يشرب منها ويروي حقله وزرعه كما يفعل سيده.. لقد خلقت كل إنسان مثل أخيه تماماً.. ولقد حرمت أن يظلم الناس بعضهم بعضاً، لكن قلوبهم نقضت ما أمرت به وما شرعت".

ثانياً: تعاليم "تحوتمس الثالث" لوزيره "رخ-مي-رع"، والصلة التي يجب أن تكون بين الحاكم والمحكوم:

اشتهر اسم "تحوتمس الثالث" كقائد حربي من الطراز الأول، يضع الخطط وينفذها، ويلجأ إلى أساليب جديدة في فن القتال، يتحلى بشجاعة نادرة، ولم يكن يطلب من أحد جنوده أن يفعل أمراً لا يستطيع هو نفسه أن يفعله.

وتخبرنا وثائق مصر القديمة أن مميزاته الحربية لم تكن إلا إحدى نواحي تميزه، فقد حكم إمبراطوريته الواسعة بالحزم واللين، وكان يعرف كل ما يحدث في أرجائها، وكان كما قال عنه وزيره "رخ-مي-رع" كالصقر يرى كل شئ^(١).

أدرك تحوتمس أنه لن يستطيع الإبقاء على إمبراطوريته، إذا لم تقم على أساس المودة، ولهذا لم ينتقم من الأمراء الذين حاربوه، بل قرَّبهم وثبتهم في وظائفهم، وقبل منهم الولاء بعد أن أقسموا له بيمين الطاعة، ولكنه رأى أن يأخذ معه بعض أبنائهم ليتعلموا في مصر مع أبنائه، ومع أبناء كبار الموظفين، ليشبوا مؤمنين بصداقة مصر لهم ولبلادهم، ولكي يرتبطوا منذ طفولتهم وشبابهم بروابط الصداقة مع الأمراء المصريين ومع أبناء كبار الموظفين.

وكانت رحلاته الخارجية إلى سورية والعراق، غير مطبوعة بالطابع الحربي فقط، بل بطابع آخر، فقد أصدر أمره إلى رجاله بأن يُدخلوا إلى مصر كل ما يجدونه صالحاً من حيوان أو نبات، ونرى صوراً لكثير من الطيور والحيوانات والنباتات - التي أمر بإحضارها إلى مصر - على جدران إحدى القاعات التي بناها في معبد الكرنك.

وليس من المستغرب بعد ذلك أن نرى بعض مظاهر الفن السورية والعراقية بدأت تظهر في البلاد، وبدأ كثير من الآسيويين يستقرون في وادي النيل، وكانت لهم الحرية التامة في أن يعيشوا كما كانوا يعيشون في بلادهم، ويعبدوا آلهتهم الآسيوية كما يحلو لهم.

(١) أحمد فخري: مصر الفرعونية (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق.م.)، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، أكتوبر ١٩٦٠ م، ص ٢٨٢-٢٨٣.

أما نظرة هذا الفرعون إلى الحكم، وكيف يجب أن يعامل الناس، فإننا نقرأها على جدران مقبرة الوزير "رخ-مي-رع"، وهي وصايا هذا الملك لوزيره يوم أسند إليه منصب الوزارة، ورسم له الطريق الذي يجب أن يسير عليه، وتقدم هذه الوصايا صورة مفصلة، وتوضح الأساليب الفنية لأعباء منصب الوزير (من قضائية ومالية وعسكرية وإدارية وزراعية)، وبالتالي فهي ليست دستوراً صالحاً للماضي فقط، بل صالحة لكل زمان ومكان، وفيها تحليل نفسي للشعب، والصلة التي يجب أن تكون بين الحاكم والمحكوم.

يقول نخوئس موجهاً كلامه إلى وزيره "رخ-مي-رع"، على مسمع من الشعب:

"لا تنس أن تحكم بالعدل لأن التحيز عدوانٌ على الآلهة.."
عامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه، والمُقرب من الملك كالبعيد عنه..
أعلم أنك سوف تصل إلى تحقيق الغاية من منصبك، إذا جعلت العدل رائدك في عملك، إن الناس ينتظرون العدل في كل تصرفات الوزير، وهي سُنّة العدل المعروفة منذ أيام حكم الإله في الأرض..

عندما يأتي إليك شاك من الوجه القبلي، أو الوجه البحري، أو من أي بقعة في البلاد، عليك أن تطمئن إلى أن كل شيء يجري وفق القانون، وأن كل شيء قد تم حسب العرف الجاري، فتعطي كل ذي حق حقه.."^(١)

ولم يكن في قدرة الملك أن يقضي بعقوبة على أحدٍ من الناس مدفوعاً بكيدٍ له، أو غيظ منه، أو بأي دافع ظالم آخر، بل عليه أن يتصرف وفق ما تنص عليه القوانين في كل حالة، وأكثر من ذلك، فإن واجب العدل، الذي يقع على عاتق الملك، لم يكن مجرد واجب أخلاقي، وإنما كان واجباً دينياً وسياسياً في الوقت نفسه، فرغم النظر إلى الفرعون بوصفه إلهاً، فإن صعوده إلى السماء عند موته لم يكن، في الاعتقاد الديني المصري القديم، يتم بصورة آلية، وإنما كان مشروطاً بأن

- Urkunden, IV, pp. 1088-1093

(١) النص المصري:

راجع أيضاً النص الذي نشره:

- R.O. Faulkner in Journal of Egyptian Archeology, 1955, vol. 14, pp. 18 sq.

يكون قد أمضى على الأرض حياة فاضلة قام خلالها بواجباته نحو الآلهة الكبرى ونحو البشر.

ففي المفهوم الديني المصري القديم، كان الملك، شأنه شأن البشر، يُسأل عن أفعاله يوم الحساب، وكان عليه أن يدافع عن تصرفاته أمام قضاة العالم الآخر، ولم يكن يُسمح له بالصعود إلى السماء، إلا بعد أن يقتنع القضاة بأنه فعلاً عاش حياة طيبة، وأدى واجباته على النحو المطلوب، وإذا ثبت على العكس، أن حياته لم تكن فاضلة، وأن أفعاله كانت آثمة، كان مصيره جهنم.

ففي آخر أيام الجِداد، يضعون النعش الذي يضم مومياء الملك، أمام مدخل القبر ويُشكلون - طبقاً للطقوس - محكمة تنظر فيما قدم المتوفى من أعمال في هذه الحياة الدنيا، وقد أباحوا لمن شاء، أن يتهمه، أمّا الكهنة فتؤنبه مععدة مناقبه، وألوف الناس التي اجتمعت لتشيعه تنصت إليها، وتشترك في تأبينه، هذا إذا كان المتوفى قد قضى حقاً حياة مجيدة، أمّا إذا كانت حياته على العكس، وضعيفة، تصايحت الجماهير، وقد حرم كثير من الملوك حق الدفن الرسمي الذي تخوله لهم الشرائع نتيجة لاعتراض الشعب، ولذلك كان من يخلفونهم على العرش، يقيمون العدل، لا لما سبق من أسباب فحسب، بل خوفاً من العار الذي يلحق بأجسادهم بعد الموت، ومن اللعنة الأبدية كذلك (١).

إن ملكاً له القدرة على إلقاء مثل هذا الخطاب، يقترب من سمت وقوام ذلك الملك المثالي الذي كان يحلم به مصلحوا مصر القديمة الاجتماعيون، ولا يوجد شك في أن ذلك الملك المثالي كان (رع)، الذي كانت لتجدد أبحاد حكمه الخلقية في نائبه الفرعوني على الأرض.

إن الملك كان يرجع إلى موافقة حكم إله الشمس، وخصيسته التقليدية، كأساس نهائي لإرشاده للوزير، إنه (رع) الذي له السيطرة في تفكير هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيين.

إن الالتزام الخلقى الذي يشعر به الناس في داخلهم، أصبح أمراً رسمياً من الإله، وسرعان ما أصبح مقتهم للوجوده، مقت الإله له، ومثلهم العليا الخاصة، وقد أصبحت كذلك مثل الآلهة العليا، كسبت قوة الوصاية.

(١) راجع مصر الفرعونية، ص ١٧١، وما بعدها.

ولترك القصر، وتُيَمَّم شطر الأقاليم والمقاطعات حيث نجد:

(أ) (أحينما) حاكم الإقليم السادس في عهد الملك سنوسرت الثالث، الذي حكم مصر قبل ٣٨٧٤ سنة، يقول:

"أني لم استعمل القوة مع أية ابنة من بنات الأهالي، ولم أظلم أية أرملة، ولم أقبض على عامل ماء، ولم أطرد راعياً من أرضه، ولم يكن هناك رئيس أخذت منه عمّاله أثناء العمل".

(ب) وحاكم إقليم آخر في أسيوط، يدافع عن تصرفاته، قائلاً:

"لقد كنت في حياتي رجل ورع وتقوى، وقد أحبني الناس، كما دعيت لي أمهاتهم بالخير، فقد كنت أرعى وأحمي شيوخهم وعجائزهم، ولم أستعبد بنت أحد منهم، وكنت أطعم الجائع وأكسو العاري".

(جـ) وثالث يقنع قضاة العالم الآخر بقوله:

"لقد أعطيت خبزاً للجائع، وثياباً لمن كان عارياً، لقد أعطيت قدراً من اللبن ومكبلاً من الغلة الآتي من (الوقف الأبدي) للجائع، الذي كنت أجده في إقليمسي، لقد رددت بنفسي، نيابة عن كل إنسان وجدته، وليس لديه سوى غلة مقرضه من آخر، هذه الغلة إلى المقرض، بواسطة "غلال" من (الوقف الأبدي)، لقد دفنت كل إنسان لم يكن له ابن، بأقمشة من الكتان الأبيض".

(د) ونقرأ، في نقش بأحد المعابد، كلمات لأحد الحكام، قوله:

إنه أنقذ الأرملة، وواسى المتألم، ودفن المسن، وأطعم الطفل، ووقف إلى جانب مدينته في زمن الجذب، وهو الذي أطعمها في وقت القحط، وهو الذي زودها بسخاء بلا تمييز، فكان عظماءها في ذلك مثل أصاغرها.

(هـ) ويضع حاكم - أميني (في بني حسن) - على باب قبره، بياناً يُسجّل العدالة الاجتماعية في معاملته لكل، كأحسن جواز سفر، يمكن أن يتدعه لأجل الرحلة الطويلة، رحلة الأبدية، يقول (أميني) عن سياسته الإدارية كسيد إقليم:

"... لم تكن توجد ابنة مواطن أسأت إليها، لم تكن توجد أرملة أوقعت عليها خطباً، لم يكن يوجد فلاح أبعدته (انتزعت ملكه)، لم يكن يوجد راعي قطع طرده، لم يكن يوجد مشرف على خمسة أخذت أهله من أجل الضرائب

(التي لم تدفع)، لم يكن يوجد تعس في مجتمعي، لم يكن يوجد جوعان في عهدي، وعندما حلت سنوات المجاعة حرثت كل حقول إقليم المهة (ضييعته) حتى تخمه الجنوبي وتخمة انشمال، وحافظت على حياة الناس، وقدمت طعاماً حتى لم يكن يوجد في عهدي جوعان، وكنت أعطي الأرملة، كما كنت أعطي المرأة ذات البعل، ولم أرفع (الرجل) العظيم فوق (الرجل) الوضع في كل شيء أعطيته، ثم جاءت أوقات ازداد فيها النيل ازدياداً عظيماً (فيضانات) مستحوذاً على الحنطة وكل الأشياء، (ولكني) لم أجمع متأخرات الحقل^(١).

في هذا السجل يبدو أننا نسمع صدى تنصيب الوزير، وخاصة في عبارة "لم أرفع الرجل العظيم فوق الرجل الوضع في كل شيء أعطيته"، ومن السهل أن نعتقد أن مثل هذا الشريف كان يحضر في القصر، وأنه سمح إرشادات فرعون عند تنصيب الوزير.

ونستنتج من هذا، أن التعاليم الاجتماعية، التي كان يُلقِيها الحكماء في القصر، كانت معروفة على نطاق واسع بين العظماء في جميع أرجاء المملكة، ومن الواضح أن المثل العليا للعدالة الاجتماعية، التي تعرض في مثل هذا الإلحاح في أدب العصر، لم تصل فقط إلى الملك، ولكن كان لها تأثير عميق أيضاً بين الطبقة الحاكمة في كل مكان.

هذا، وكانت هناك شروطٌ معينة ينبغي توافرها فيمن يشغل منصب القاضي، كما كانت هناك قيود على حرية القاضي في الاتصال بالجمهير، رغبة في قيام القضاة بمهمتهم على الوجه الأكمل، بل إن قانون (حور محب)^(٢) اشترط اختيار القضاة من أحسن الناس سيرةً، وأكرمهم خلقاً، كذلك حرم على القضاة أن

(١) راجع برستد: تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ص ٣٤١-٣٤٢.

(٢) "حور محب" (حرفياً "حور-إم-حب" أي "حورس- في عيد" هو آخر فراغة الأسرة الثامنة عشرة (حوالي عام ١٣٤٠ ق.م.)، لم يكن من سلالة ملكية، وفي أعقاب نزعة التوحيد التي قادها اخناتون في تل العمارنة، استعاد كهنة "آمون" في طيبة سلطتهم في ظل الحكم القصير للملك ضعاف من أمثال "توت عنخ آمون" و"آي"، وكان القائد العسكري "حور محب" قد تولى على ما يبدو مسئولية الجانب الأكبر من الإدارة الملكية في السنوات الأخيرة من حكم الملك "آي"، وقد برز اعتلاءه العرش بالرعاية التي حظي بها من "حورس" راعي هذه المدينة - طيبة - الذي رافقه حتى طيبة لمقابلة "آمون" الذي أنعم عليه بالملكية (بوصفه صاحب عرشي القطرين) أثناء أحد الأعياد الكبيرة التي كانت تحتفل بها الأقصر.

يصادقوا أحدا من الناس، أو يتهادوا مع الناس، أو تكون بينهم وبين الناس معاملات مادية، وللحفاظ على نزاهة القضاة، جاء تشديد العقوبة على القاضي المرتشي أو المنحرف، وعلى شاهد الزور، أيضا فقد عاقب قانون (حور محب) القاضي المرتشي بعقوبة الموت، كذلك كان شاهد الزور يعاقب عقابا صارما يتمثل في صلم أذنيه وجدع أنفه أو نفيه إلى مناطق نائية.

ثالثا: تعاليم الملك خيتي الثالث (أو أختوي) لابنه (مري-كا-رع)، وسعادة الإنسان في آخرته تتوقف على عمله في الدنيا:

من أهم المصادر القديمة لدراسة الحالة في مصر في أواخر أيام إهناسيا، تلك البردية التي تحتوي على النصائح والتوجيهات التي وجهها الملك خيتي الثالث (أو أختوي) إلى ابنه (مري-كا-رع) قبل أن يتولى الحكم في عام ٢١٢٠ ق.م.، أي قبل ٤١١٦ سنة^(١).

وفي هذه التعاليم يحاول أختوي أن يعطي خلاصة تجاربه لابنه، حتى لا يقع فيما وقع فيه هو من أخطاء، ويبدأها بتحذير ابنه من أي تابع له يكثّر من الكلام،

^(١) هذه البردية في متحف ليننجراد، ومرقومة تحت رقم ١١١٦، وأول من نشرها جولينيشف في عام ١٩١٣، وظهرت لها ترجمات كثيرة في اللغات المختلفة، وقام (شارف) بدراسة وافية في عام ١٩٣٦ ونشرها تحت عنوان:

- A. Scharff, Der historische Abschnitt der Lehre Fuer Konig Merikare (SBAW, 1938).

وقد نشرها مرة أخرى (فولتين):

- A. Volten, Zwei a Agyptische politische schriften (A nalecla Aegyptiaca, Iv) Copenhagen, 1945.

و"خيتي الثالث" هو من أواخر ملوك الأسرة العاشرة التي حكمت مصر، وكانت عاصمتها "هرقليوبوليس" في الفيوم، ولكن ظل جزء من الوجه القبلي بعيدا عن سيطرتها (وكان جنوب الوجه القبلي قد توحد تحت سيطرة أمراء طيبة الذين سرعان ما أعادوا توحيد البلاد لحسامهم، بينما عانى الوجه البحري من مشاكل كثيرة نتيجة تسلل الشعوب الآسيوية (لا سيما في قسمه الشرقي)، وتمدنا هذه "التعاليم" بإيضاحات عظيمة الفائدة حول الأوضاع السياسية لذلك الزمن، وحول مبادئ الحكومة الملكية ذاتها و"واجبات" الملك تجاه الآلهة وتجاه البشر على حد سواء.

وراءه أتباع كثيرون، فإن هذا الشخص يسبب الانقسام بين الناس، وينصحه بقوله:

"اطرده، اقتله، أمح ذكره (هو) وأتباعه الذين يحبونه"

ويوصي (ابنه) بعد ذلك بأن يكون فنانا في الحديث لأن "اللسان كالسيف للإنسان"، وبأن ينهج سبيل آبائه وأجداده، وأن يكثّر من قراءة ما خلفوه من كتب الحكمة، وألا يفعل الشر، وأن يتحلّى بالصبر، ويترك وراءه ذكرى حسنة من حب الناس له.

ويحذر أختوي ابنه من الطمع، وينصحه بأن يعتني بتثبيت حدوده، وأن يعلي من شأن رجاله، ويقويهم، لأن الغنى في غير حاجة "لمحابة غيره، أما الفقير، فإنه لا يقول الحق الذي يؤمن به، وإنما يحابي من يملك شيئا يعطيه له، فيقول لابنه:

"ما أعظم الشخص عندما يكون رجاله المقربون عظماء، وما أشجع الملك الذي يكون له رجال بلاط، وما أعظم وأقوى الذي يكون له نبلاء كثيرون".

ويكثر من نصح ابنه لإتباع جادة الحق وإقامة العدل، ويحذره من ظلم الأرملة، ويوصيه بألا يجرم شخصا من ثروة أبيه، وألا يطرد الموظفين من وظائفهم، ويقول له:

"حاذر من أن تعاقب الناس دون خطأ جنوه، لا تقتل فإن ذلك لا يجديك شيئا، ولكن عاقب بالضرب والاعتقال، فتصلح الأمور في البلاد، اللهم إلا الشائر عليك الذي تثبت من أمره.

المملكة بكاملها تعتمد على حكمك الرشيد، وإنه لما يغبط القلب أن ترى العمال مشغولين بعملهم، لكن من الخطأ أن تطلب من الشعب الكثير، فمن شأن هذا أن يجعلك غير محبوب، وسوف يمحو ذكراك، وذكرى أسلافك لأنهم يعتمدون على محبتك.

لتكن عادلا نحو المواطنين المقيمين في البلد، فأنت عنهم مسئول.

لتحكم بالعدل في بيتك، لكي يخشاك النبلاء الذين يحوزون السلطة على الأرض.

أحكم بالعدل طالما بقيت على الأرض، وواسي الباكين، ولا تضطهد أرملة أو يتيمًا، ولا تحرم رجلاً من مال أبيه، ولا تعزل القضاة من مناصبهم دون أسباب مشروعة ومعقولة".

ولأول مرة في تاريخ مصر، نقرأ في تلك النصائح عن وجود محكمة بعد الموت، يقف أمامها الإنسان صاغراً، ولا ينفعه أمام قضاها إلا العمل الصالح، "فإن أعماله توضع مكدسة إلى جواره" ^(١).

ويشير أختوي إلى الشباب. فينصح ابنه بالعناية بهم، وتقريبهم منه، وأن يمنحهم الحقول، ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية، ولكنه يحذره بشدة من أن يُميز ابن شخص غني على ابن شخص فقير، بل يجب أن يقدر كل إنسان حسب كفاءته الشخصية.

ويحذر ابنه من الاعتداء على آثار الآخرين، ومن محاربة الجنوب، لأن ذلك يُعطي فرصة للبدو الآسيويين، فيعيشون فساداً في الدلتا، ويذكر (أختوي) ما جرّه عليه اصطدامه بالجنوب، "أنظروا لقد حدثت نكبة في عهدي، لقد تحطمت مناطق عديدة، حدث ذلك حقاً بسبب ما فعلت، ولكني لم أعلم به إلا بعد حدوثه، انظروا لقد جوزيت على ما اقترفت".

ويوصي أختوي ابنه بالإكثار من إقامة المنشآت الدينية، وترتيب القرائين، وأن يُرضي الله، فإن الله يعرف الذين يعملون من أجله، فنجدّه يختم نصائحه بحث ابنه على طاعة الله والخوف منه، فهو يعلم السر وما يخفى، ويذكره بالألا ينسى آخرته، وأن يعمل لليوم الآخر، ذاكرًا نعم الله عليه، ويقول (أختوي) عن الله:

"إنه هو الذي خلق أنفاس الحياة لخياشيمهم (أي الناس)، وأولئك الذين خرجوا من صلبه ليسوا إلا صوراً له، إنه يشرق في السماء ليبي رغبتهم، إنه خلق لهم النباتات والحيوانات والطيور والأسماك ليقتاتوا منها".

وما أجمل قوله:

"إن الله يقبل أخلاق الرجل المستقيم الضمير، أكثر من قبوله للشور الذي يقدمه الشرير (كقربان) للآلهة".

^(١) راجع الدكتور أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة، ط ١، ١٩٦٠م، ص ١٧٢.

وما أصدق عبارته التي يشير فيها إلى أن الله يوقع عقابه على بعض الناس لمصلحتهم:

"إنه (أي الله) يقضي على من يملأ الشر قلبه بينهم (أي الناس) كما يضرب الأب ابنه إكراماً لأخيه، لأن الله يعرف كل إنسان".

وهذه البردية لا تمدنا فقط بتلك المعلومات الهامة عن الحالة الداخلية في البلاد، بل تمدنا بما هو أهم من ذلك، وهو:

(أ) ظهور تلك النعمة الجديدة من التواضع، فلم يعد الملك ذلك الإله المترفع الجبار الحاكم فوق البشر والذي يرجو جميع الناس تعطفه ورضاه ليصيبهم شيء من إحسانه في الدنيا والآخرة، بل أصبح شخصاً يتحدث عن ضعفه ويردد عبارات ندمه كسائر البشر.

(ب) ونقرأ في البردية شيئاً آخر تزداد أهميته، لأن قائله ملك يعترف له شعبه - ولو نظرياً - بالالوهية الملكية، وهو أن سعادة الإنسان في آخرته تتوقف على عمله في الدنيا، ولا تتوقف على رضا الملك فقط.

(ج) ونقرأ فيها أيضاً أن كل امرئ مهما كان مركزه، سيحاسب على أعماله أمام محكمة الآلهة، وأنه سيجد تلك الأعمال مكدسة إلى جانبه بما فيها من خير وشر، وأن السعادة في الآخرة لم تعد تتوقف على قبر يُبنى، أو على قرابين تقدم بانتظام، ولكن الله يعرف ما في القلوب، ويطلب من عباده أن تحسن نياتهم، ويذرون وراءهم الطمع والشر، لأن النيات الحسنة هي التي يقبلها، وهي أقرب إليه من القرابين التي يقدمها المذنبون ليكفروا بها عما اقترفوه من إثم.

وهكذا تمدنا هذه البردية بمعلومات قيمة عن قيمة الإنسان المصري وحقوقه، وعن معنى الخلق الكريم، الأمر الذي غير الشيء الكثير من نظرة المصريين إلى حكامهم بوجه عام، وجعلهم يدركون ما للفرد من قيمة وما له من حقوق.

رابعاً: بردية "القروي الفصيح"، وضرورة أن يكون الحاكم "سياجاً" يحمي الضعيف من عسف القوي:

تعتبر بردية "القروي الفصيح" ^(١) قطعة أدبية ذات هدف خلقي أحسن فيها كاتبها اختيار تعبيراتها وصيغها، وأظهر فيها مقدرته في اللغة، تتكون من مقدمة على صورة قصة، وتسع شكاوى في موضوع واحد، وهو الحث على العدل وإعطاء الفقير حقه، وحمايته من الغني الطامع، وأن يكون الحاكم سياجاً وملجأً للمظلوم ويخشى من عقاب الله، إذا انحرف عن الطريق السوي.

وإليك بعض تفاصيل ومرامي هذه القصة اجتماعياً وسياسياً.

كان يعيش أحد القرويين واسمه (خو إن أنوب) في وادي النطرون، يذهب ببعض محاصيله لبيعها في إهناسيا، ثم يشتري بثلثها غللاً يعود بها إلى أهله، وبينما هو في طريقه رآه من بعيد شخص يسمى (تخوتي نخت) - من أتباع رنسي بن مرو الذي كان رئيس مديري القصر الملكي، ومن كبار موظفي البلاد، ومن أقرب الناس إلى الملك الحاكم - انتوي (تخوتي نخت) هذا، اغتصاب ما مع فلاحنا الفصيح، وكان بيت (تخوتي) قريباً من جانب الطريق الضيق الذي سيمر منه فلاحنا، وكانت الحقول على أحد جانبي الطريق، وعلى الجانب الآخر ترعة فيها ماء، فأمر (تخوتي نخت) أحد خدمه، فأحضر له قطعة من القماش فرشها فوق الطريق، فوصل أحد طرفيها إلى الشعير المزروع في الحقل، بينما تدلى الطرف الآخر في مياه الترعة التي كانت هناك، أي أن ذلك النسيج غطى عرض الطريق، فلما وصل فلاحنا، حذره (تخوتي) من أن تدوس حميره على النسيج، فصعد للأمر، وساق حميره على حافة الطريق من ناحية حقل الشعير وهنا نهره (تخوتي نخت) سائلاً عما إذا كان يريد أن يجعل من حقل شعيره طريقاً لحميره، فأجابه فلاحنا بأنه لا يقصد سوءاً، فالطريق مرتفع وقد غطاه بالقماش، ولم يعد هناك مكان يسير فيه

^(١) كتبت هذه البردية، ووقعت حوادثها في أواخر أيام الأسرة العاشرة في إهناسيا، وأول من لفت إليها الأنظار العالم الأثري "شابا" في عام ١٨٦٣، ونشر (لوجزلزنج) نصوصها نشرًا كاملاً،

- Vogelsang, Kommentar Zu den Klagen des Bauern, Leipzig, 1913.

وقد تُرجمت عدة مرات، أحدثها ترجمة ولسون في كتاب:

- Ancient Near Eastern Texts.

ومُترجمة أيضاً إلى العربية في كتاب:

سليم حسن، الأدب المصري القديم، الجزء الأول، ص ٥٤ وما بعدها.

إلا حقل الشعير، وفي أثناء تلك المناقشة مال أحد الحمير، فأكل شيئاً من حقل الشعير، وعند ذلك قال (تخوتي نخت) إنه سيستولي على ذلك الحمار ثمناً لما أكله، فصرخ فلاحنا سائلاً إذا كان من العدل أن يأخذ حماره مقابل قبضة من الشعير ملأ بها فمه، ويردد الاعتراضات السابقة التي تتسم بالاحترام، ولكنه يضيف احتجاجاً جريئاً هو:

"إن طريقي مستقيم وجانب منه موصد، ولما أسوق حماري بمحاذاة طرفه تستولي عليه، لأنه اقتطف لقمة من الحنطة، إني أعرف سيد هذه الضيعة، إنها ملك ابن مرو رنسى، والآن، إنه هو الذي يطرد كل لص في البلاد بأجمعها، هل يحدث، على هذا، أني أسرق في ضيعته؟"

فنهزه (تخوتي نخت)، وأخذ غصناً من شجرة، وأوسعه ضرباً، وأخذ كل حميره وساقها إلى الضيعة، ولم يكتف بذلك بل أمر فلاحنا بالسكون، عندما ارتفع صوت الأخير باكياً، لأنه على مقربة من معبد "رب السكون" (أي أوزيريس)، فصاح فلاحنا:

"إنك ضربتني وسرقت متاعي، وتأبى إلا أن تأخذ أيضاً الشكوى من فمي!! يا رب السكون رد إلي بضاعتي حتى لا أضحى.."

وظل المسكين عشرة أيام كاملة يستجدي ظالمه أن يرد إليه حميره دون جدوى، فسار في طريقه ليشكوه إلى (رنسى) نفسه في العاصمة، وبلغت شكواه تسعاً صيغت بأسلوب فصيح، وكلها تدور حول العدل ومسئولية الحاكم في الدفاع عن المظلوم، ومساوئ الطمع والتكبر على الناس.

ويقابل فلاحنا رنسى، وفي أدب رسميات بالغ، وسيطرة تامة على سياسة التخاطب الجارية، يظفر - الفلاح - باسترعاء سمع الرجل العظيم لحظة وهو مار، حتى يرسل خادماً خاصاً ليستمع إلى قصة الفلاح، وعندما عاد الخادم وأبلغ رنسى سرقة (تخوتي نخت)، يعرض (رنسى) المسألة على حاشيته من الموظفين.

وفي الحال يقف زملاء رنسى صفاً في جانب مرءوسهم - تخوتي نخت - ويحيون رنسى، في كثير من عدم المبالاة، بأن القضية، على الراجح هي قضية فلاح كان يدفع ما يستحق عليه إلى ضابط أعلى، غير مختص، وما فعل (نخت) إلا أنه استولى على ضرائب هي في الحق ملكه، ويسألون في امتعاض "هل يعاقب تخوتي من

أجل القليل من النظرون والقليل من الملح؟ (أو على الأكثر) ليصدر إليه الأمر لردّه وسيرده"؛ وتجاهلوا تماما أمر الحمير، ومعنى فقدانها موت الفلاح وأسرته جوعا.

وفي هذه الآونة يقف الفلاح إلى جانب ويستمع إلى من بيدهم السلطة وهم يتهاونون في شأن خسارته القاضية ويهملونها، أما -رنسى - فإنه يقف في هذه الفترة يتدبر الأمر في صمت.

إنها صورة تلخص عصورا من التاريخ في مصر القديمة، فمن جهة، الفريق الماهر من حاشية الرجل العظيم، فريق المداهنين الخاضعين، وهم الطراز العام لطبقة الموظفين، ومن الجهة الأخرى، الفلاح الذي أنتهب ماله، الشخص المهجور الذي لا صديق له، والذي يمثل في شخصه الصيحة لأجل العدالة الاجتماعية، "إن هذا المشهد هو واحد من أقدم الأمثلة لتلك المهارة الشرقية في وضع المبادئ المعنوية في مواقف مادية" ^(١).

ويوجه (فلاحنا) خطابه إلى الرجل العظيم الذي تستقر قضيته بين يديه الآن، وينوه بما ذاع عنه من فعل المعروف، "لأنك أبو اليتيم، وزوج الأرملة، وأخو المهجور، ودثار من لا أم له، دعني أضع اسمك في هذه البلاد فوق كل قانون صالح، أيها الزعيم الذي يخلو من الطمع، الرجل العظيم الذي يخلو من الحقد، الذي يحطم الباطل، ويجلب الصدق، استجب إلى الصيحة التي ينطق بها فمي، استمع عندما أتكلم، افعل العدل أنت الذي تمدح، الذي يمدحه أولئك الذين يمتدحون، ارفع تعاسي، أنظر، إني مثقل، اختبرني، ها هو ذا أنا في حزن".

ويقول (فلاحنا الفصيح)، مخاطبا رنسى (الوكيل الأعظم)، ومذكرا له باليوم الآخر، وطالبا منه أن يقيم العدل، حتى ينال العدل بعد موته:

(١) برستد: تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ص ٣٠٧.

"أيها الوكيل الأعظم، سيدي! إنك رع، سيد السماء، ومعك حاشيتك، إن كل شئون الناس (هي ملكك)، إنك تشبه الفيض (الفيضان) إنك النيل الذي يجعل الحقول نحضراً، ويروي الأراضي البور، صد اللص، احم التعس، لا تكن سيلاً ضد من يتوسل.

خذ حذرک (لأنّ) الأبدية تقترب، فضّل العمل على القول (الذي يُضرب به المثل) إنه نسمة الخياشيم، فعل العدالة، أوقع العقاب على ذاك الذي يستحق العقاب، ولن يوجد شيء يشبه لهجك الصائب، هل تخطئ الموازين؟ هل ينحرف ذراع الميزان إلى جانب؟.. لا تنطق بالكذب (لأنك) عظيم (وعلى ذلك مسئول)، لا تكن ذا خفة (لأنك) ذو وزن، لا تنطق بالكذب، لأنك أنت الموازين، لا تنحرف لأنك مقدار صائب، هاك! إنك والموازين واحد، وإذا مالت (خطأ) فلنت تميل (خطأ).

"إنّ لسانك هو مؤشر (الموازين)، وقلبك هو المثقال، وشفيتك هما ذراعها."

وتظهر هذه الموازنات، مراراً وتكراراً، في خطب الفلاح، بين صفات الوكيل الأعظم - رنسى - ووظائفه، وبين الموازين، والدرس فيها واضح، أن معيار الإجراء العدل يوجد بين أيدي الطبقة الحاكمة، وإذا فشلوا، فأين، إذن، يمكن أن يوجد؟ إن المتوقع أنهم سيزنون الصواب والخطأ، ويصلون إلى قرارٍ عدل، فيه العصمة التي تكون في الموازين الدقيقة، لقد أصبحت رمزاً شاع شيوعاً عظيماً في الحياة المصرية، حتى أن الميزان يظهر كوسيلة وصفية لتصوير محاكمة كل روح في الآخرة، وفي الواقع، بقي إلى يومنا، في يدي العدالة العمياء.

ويلاحظ أيضاً، أن الفلاح يُذكر الوكيل الأعظم - رنسى - بظهوره هو أمام محاكمة الموازين التي لا تتحيز، ويقول:

"خذ حذرک (لأنّ) الأبدية تقترب"! إنّ هذه إحدى الدعاوى القليلة ضد الجور أمام مسئولية الظالم المستقبلية.

وفي آخر شكواه التاسعة، وبعد يأسه من أن يرد له الحاكم حقه، يُذكر (رنسى) بأخطار مخادنة الخداع، إنّ من يفعل ذلك، "لن يكون له بنون ولا ورثة على الأرض، أمّا عن ذاك الذي يجر معه (الخداع) فإنّه لن يصل إلى البر، وسفينته لن ترسو في مرفئها... لا يوجد أمس للذي لا يُبالي، ولا يوجد صديق لذاك الذي يصم أذنه عن العدالة، لا يوجد يوم سعيد للطّماع".

ويقرر الفلاح قتل نفسه قائلاً:

"انظرا إني أشكو إليك، ولكنك لم تسمع فهل تريد مني أن أذهب وأشكوك إلى (إله الموتى) أنوبيس؟"

ثم غادر مكانه، فأرسل رنسى وراءه اثنين فأعاداه، وظن المسكين أنهم سيعاقبونه على ما بدر منه، فلما وقعت عيناه على رنسى ابتدره قائلاً:

"إني تواق إلى الموت، كما يتوق الظمآن عندما يقترب من الماء، وكما يتوق فم الرضيع إلى لبن (أمه)"

ولكن رنسى رد عليه قائلاً:

"لا تخف أيها القروي، انظرا إنك ستقيم معي". ثم يُرسل اثنين من الشرطة لإحضار "تخوتي نخت"، ويُرضي القروي إذ عوضه عن كل ما فقدّه، كما انتقم له فمن ظلمه دون وجه حق، فأعطاه كل ما كان يمتلكه تخوتي نخت.

وتركز بردية (القروي الفصيح) على مطلبٍ أساسي ينبغي أن يضعه أولوا الأمر من الحكام نصب أعينهم دائماً وهو حماية الفقير من الغني، وأن يكون الحاكم

سياجاً يحمي الضعيف من عسف القوي، وألاً يعتقد الموظفون أو الذين يتمنون إلى ذوي النفوذ من بين الحكام أنهم يستطيعون أن يظلموا المساكين دون أن تنالهم يد العدالة.

كما أنها - البردية - تُلح على ضرورة السعي وراء الحق، وتبين لنا كيف أن صغار الموظفين يظلمون الفقراء من الناس، بينما يعني كبارهم ببرد الحق إلى صاحبه متى وصل ذلك إلى سمعهم، لأنهم هم المسئولون عن ذلك، ونرى فيها أيضاً بوضوح أمر الخوف من عقاب الذي لا تخفى عليه خافية، عندما ذكر فلاحنا رئيس البيت الملكي بأنه هو المسئول عن نكته، وأنه سيقف يوماً أمام الله ليحاسب عن ظلمه له، لأنه لم يستمع إلى شكواه ولم ينصفه من تابعه.

وتُظهرنا هذه البردية على ما نشأ في مصر القديمة من وعي اجتماعي بعدم السكوت على الظلم وضرورة أن يعود الحق إلى أصحابه، وعناية المسئولين بالنظر في مظالم مرؤسيهم وإنصافهم.

وأخيراً، فإن "الشكاوى التسع للفلاح المسروق" توضح أن خطاب الإنسان البسيط الذي يتحدث حديثاً حياً بما فيه من إيماءات، كان يعتبر منذ ذلك الوقت المبكر مشهداً ممتعاً لا مثيل له، إننا نقف هنا عند حدود مسرح شعبي، فلا يعجز هذه القصة شيئاً لتصبح عرضاً مسرحياً، فالمناظر منصوبة، المشهد الأول، الطريق الممتد بمحاذاة القناة وحقل الشعير الواقع على الجانب الآخر، والفلاح ودوابه في مواجهة الشرير، وهناك ممثلون صامتون والأعيان أيضاً المتواطئون تلقائياً مع الموظف الجشع القاسي، وبالإضافة إلى هؤلاء جميعاً هناك رئيس الحجاب نفسه، وهو على دراية تامة بالأعياب البشر فيتجنب أن يُصدّق حرفاً مما يقوله أهل القرية

وخدمه الخاص، إنه إنسانٌ عادل يفعل ما يمليه عليه -نصبه، فيتنبأ بكل شيء ويخفف من الفقر الذي يعانيه رعاياه.

أما نخطب الفلاح المسروق، فتصور مشاعر الشاكي وجسارته واحترازه، فإزاء صمت الذين يُفترض أنَّهم قضاته يسعى (الفلاح) إلى البوح بكل شيء، ويُطلق العنان لشخصه، وقبل أن تظهر علوم البلاغة بزمنٍ طويل، مارس المصري فن الخطابة بالسليقة، الخطابة التي تُسحر عقل من يريد إقناعه، وتحول دون أن يدافع عن نفسه، أمام ولعه الشديد بحبكة الألفاظ، إنَّ الشعب المصري كان قد أدرك منذ ذلك الوقت مختلف إمكانيات اللغة.

إنَّ المثل الأعلى الرفيع للعدالة نحو الفقير والمضطهد الذي تعرضه قصة القروي الفصيح، ما هو إلا نسمة من ذلك الجو الخُلقي السليم الذي شاع في تفكير طبقة الموظفين الاجتماعي، وما هو جديرٌ بالذكر حقاً أن نجد هؤلاء الأرستقراطيين من حاشية فرعون - منذ أربعة آلاف سنة خلت - يعنون بدرجة وافية بصالح الطبقات الدنيا.

الفصل: " السادس "

" الأفكار الفلسفية " في " حضارة مصر القديمة "

ويشمل:

(أ) تمهيد.

(ب) العلوم [الهندسة - الحساب - الفلك - الطب]

(ج) الفن.

(د) الدين والفلسفة.

(هـ) تعقيب.

(أ) تمهيد:

زودتنا البرديات والآثار المكتشفة في مراكز الحضارة المصرية القديمة، بمعلومات جيدة عن مستوى تفكير الإنسان في تلك العصور ونزعاته الفلسفية، حول الكون والطبيعة والحياة.

فقد اجتهد المصري القديم في تكوين صورة واضحة عن الكون والطبيعة والحياة، ليتجاوز مصاعب العيش، التي سهّل بعضها وجود النيل في وسط الصحراء، باعتباره شريان للحياة في هذه الربوع.

لقد كان المفكر المصري ليستحث الخطى باتجاه (الوحدة) السياسية والكونية والاجتماعية، وعبرت عنها آراؤه في الحياة والموت والخلود والروح، بطريقة ظنّها البعض متناقضة، ومفنكرة للنظام والتنسيق، عزاها (فرانكفورت) إلى قبول المصريين بالجديد المستحدث، بجانب القدم البالي، بطريقة لم تسمح بالجديد أن يكون معبراً عن الحالة التي تتجاوز القدم، فجاءت أفكارهم وكأنها -حسب هذا الزعم- خليط غير متجانس^(١)

وأبناء مصر القديمة، شأنهم شأن من جابهعضلات الحياة، بثقة عالية بالنفس، فأطلقوا طاقتهم العقلية والمادية من أجل بناء صرح حضارة مزدهرة لذلك اهتموا، أول ما اهتموا بالواقع الحيوي، ومنحو للجغرافيا قدراً من الاهتمام في عقائدهم، فتحدثوا عن أثر (الشمس) على الحياة، فالناس يحيون، لأن الشمس تشرق عليهم، مع أنهم (في بداية الأمر) لم يتركوا لقوة (الهواء) -الريح- في عقائدهم، إلا موقعا ثانوياً، لكنهم، في المقابل، منحوا (النيل - الماء) موقعا هاماً في نظام الأشياء، فكانت له دورة (ميلاد) وموت (سنوية)، وذلك لصلة الحياة بالماء، يفسر ذلك عثور الأثريين على تميمة ذهبية نادرة، محتواها "طائر الفينوكس الاسطوري" وهو يمثل بداية خلق العالم من الماء الأزلي في بحيرة عين الشمس والتي انبثقت منها الحياة المنتظمة، ويقابل ذلك الانتظام، شئ من الفوضى، في حركة الأشياء لا لسبب ازدواجية الموقف الفكري، بل من أجل أن يقول لنا المصري

(١) راجع لي هذا: ويلز، ج.هـ: موجز تاريخ العالم ترجمة عبد العزيز بجاويد، القاهرة ١٩٦٧ م

ص ٢٥-٣٥ و ٥٨-٥٩ و ٦٦ و ١٢٨.

المفكر القديم، أنه قادرٌ على التوفيق بين (الأضداد) في صورتها القرينة، أو في الوحدة الكامنة وراءها.

ونتناول الآن بعضاً من هذه الإبداعات المصرية القديمة.

(ب) العلوم

في الحقيقة أننا نجد أنفسنا إزاء منجزات عبقرية، رائعة ودقيقة، حققها العقل المصري، أجبرت اليونانيين على الاعتراف بأسبقية العلوم المصرية عليهم، ولاسيما الرياضية منها، على الرغم من أنهم قوم قليلو الاعتراف بمصدر معارفهم، ومع ذلك أشار هيرودوت وأفلاطون إلى هذه الحقيقة^(١)

فكان أبناء وادي النيل بحق عمالقة في الهندسة، ومازالت الأهرامات، والمعابد، والقصور والمقابر، شواهد شاخصة على هذه العبقرية، إلى يومنا هذا، وفي معرض كشف العلماء عن حجم العلوم المصرية، يقول العالم (هانزفوديك):

"إن الهرم من أكثر الصروح كمالاً، حينما يقف المرء أمامه، ويرنو ببصره نحو القمه (الذروة) فيبدو أمامه ثمة طريق يؤدي به إلى (اللامحدود) ليكون خط ولوج عالم الإنسان البعيد"^(٢)

وقد كانت مقاييس المسطحات والمكعبات دقيقة إلى أقصى حد عند قدماء المصريين؛ وكانت الأعداد ذات شكل عشري، بعكس البابليين فقد كانت أعدادهم على شكل ستيني، وكانت عملية الضرب تتحول إلى مضاعفات متوالية، أما عملية القسمة فكانت بمضاعفة المقسوم عليه حتى يصلوا إلى المقسوم؛ وكان حساب الكسور يُعد أهم شيء في علم الحساب، بل كان حل المعادلات التي من الدرجة الأولى من الأمور اليسيرة عندهم^(٣)

(١) راجع: د. سامي جبره: "في رحاب المعبود توت، رسول العلم والمعرفة، ترجمة عبد العاطي جلال،

القاهرة ١٩٧٤ م، ص ١٦٣ وأيضاً:

دكتور ياسين خليل: "التراث العلمي العربي" بغداد، ١٩٧٨ م، ص ٢٧-٣٠.

(٢) دكتور عبد الغفار مكاوي: "لم الفلسفة"، الاسكندرية ١٩٨٢ م، ص ١١٨-١١٩.

(٣) راجع: أورسيل (بول ماسون): الفلسفة في الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف بمصر،

١٩٤٧ م، ص ٥٥ - ٥٦.

أما عن حجم التقدم العلمى والتقنى، فكتب كاهن من النمساويين (بيتر كراسا، وراينهارت هايبك) فى كتاب نشر لهما فى ألمانيا يحمل عنواناً عن "الكهربائية فى مصر القديمة" أكدوا فيه معرفة المصريين القدماء، القوانين التى أوصلتهم إلى معرفة الكهرباء، والاستفادة منها فى الإنارة، وذلك فى سياق حديثهم عن البطارية الكهربائية التى وجد أحد العلماء جداريتها فى معبد "دندرا" فى وادى الملوك، والتى تحمل تخطيطاً لمصباح (مشكاة كهربائية)، مع كامل النظام الهندسى مع المشكاة، مثل السلك والقوة، وجهاز تنظيم درجة الضوء، يستخدمونها فى قصورهم ومعابدهم وأهراماتهم، والطريف فى الأمر أن مهندساً نمساوياً، نجح فى صناعة نموذج مشابه لذلك الذى اكتُشف فى المعبد، وبهذا جاء إنجاز هذا المهندس، ترجمة للأثر المصرى القديم^(١)

وكان علم الفلك موضع ملاحظات منظمة ومتوالية، فقد جعلت السنة ٣٦٥ يوماً وربيع يوم، مقسمة إلى (١٢ شهراً)، وكان الأسبوع سبعة أيام مسماة بأسماء الكواكب السيارة السبعة، واليوم مكون من اثنتى عشرة ساعة فهارية ومثلها ليلية، كل هذا ينتقل إلينا من مصر عن طريق أجدادنا الأقدمين.

وفكرة البروج؛ وشكل الكون الكروى، وكروية الشمس والقمر؛ لا الأرض التى كانت تُعد حلقة مستوية بمنطقة بالمحيط، وطبيعة النجوم النارية، وشرح الكسوف والخسوف، وافتراض وجود دوائر أوساطها على محيطات دوائر أخرى لتبرير دوران الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل على بعضها.

أما الطب، فوصل ذروته فى التشريح والتحنيط، مع ما رافق هذا التقدم من ازدهار فى المنجزات الكيميائية، وعمليات معقدة تنطق بها "مومياءات" متحفظة القاهرة^(٢)، التى تبقى شاهدة على تقدم هذه العلوم على مرّ العصور والدهور.

(١) راجع: وصف سراج توت عنخ آمون فى "موجز فى وصف الآثار المصرية" لدائرة الآثار المصرية، القاهرة ١٩٦٩م، ص ٢٢٩، نقلاً عن: على حسين الجابرى: الحوار الفلسفى بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، بغداد، العراق، ١٩٨٥م ص ١١٥.

(٢) "موجز فى وصف الآثار المصرية" ص ٧٩-٨٠ و ١٥٢، ٢٠٢.

وحقيقة، فإنَّ الطبَّ المصرى القديم، جديرٌ بأنَّ يدرس فى اهتمام حتى يومنا،
لقد وصل قدماء المصريين إلى تقدّم عظيمٍ فى الطب والجراحة، واقتبس الطب
الإغريقى من الطب المصرى نصيباً عظيماً حتى يمكن اعتباره امتداداً له.

وتذكر أدراج البردى الأطباء والسحرة وأطباء الأسنان وأطباء العيون
وغيرهم من الإحصائيين. بما فيهم الأطباء البيطريين، وتضمُّ عُجالات طبية وتذكرات
وضعها الأطباء القدامى تصف ما يجب القيام به فى حالات خاصة: الطب العام
وأمرض النساء وجراحة العظام وأمراض العيون.

وقد عرف المصريون القدامى القلب و"الأوعية التى تذهب إلى كل عضو"،
والعلل التى تُصاب بها أجهزة التنفس كالزلة الشعبية والتهاب الحنجرة، وتعوزنا
القدرة على ترجمة كل الألفاظ التى تصف الأمراض والألفاظ الدالة على كثير من
مواد العقاقير، لكننا نعلم أنهم استخدموا عسل النحل والقشدة واللبن، وضمادات
الأعشاب والتحميلة والحقنة وزيت الخروع.

وتشير النصوص إلى علاج الأسنان، وعلمنا من فحص الموميات أنَّهم كانوا
يعرفون كيف "تمشى" الأسنان بنوع من الأسمنت المعدنى، وأنَّهم استخدموا الذهب
لربطها.

ولقد عنوا بعلاج العيون، وجاءنا عدد من الوصفات التى قصد بها علاج
الرمد الحبيبي والكترتا والعشى، الذى استخدموا له مزيجاً من كبِد الحيوان، ولا
تزال تستخدم اليوم خلاصة الكبِد فى علاج هذه العلة.

وقد تحقق أن الكثير من مشاهداتهم للعوارض كانت دقيقة، والأدوية التى
استخدموها ناجعة المفعول، أما جراحة العظام، كما جاءت فى بردية (أدون سميث)،
فإنها تكاد تكون علمية.

وكان للطب المصرى القديم ذبوع فى الشرق الأدنى، ولم ينكر أبقراط وجالين
أن بعض ما حصلوا عليه من علم بالطب، جاء من المصنفات المصرية التى كانا قد
درسها فى معبد المحوتب فى ممفيس.

كل هذه المعارف والعلوم، قد أخذها اليونانيون عن قدماء المصريين،
والمراجع التى استقينها منها معلوماتنا عن أثر مصر فى اليونان حديثة العهد نوعاً، إذ
أنها لم تعاصر إلا الحضارة النيلية المصطبغة إلى حد كبير بالإغريقية.

فلم يكتف فراعنة سايس (صا الحجر في الثرية) - الأسرة السادسة والعشرون (٦٦٣-٥٢٥ ق.م.) - باستخدام مرتزقة يونان ضد خصومهم الأثوبيين، مفضلين إياهم على المرتزقة اللوبيين القليلي الإخلاص، بل إنهم منذ عام ٦٦٠ أجازوا للتجار اليونانيين التجوال في جميع أنحاء الإمبراطورية المصرية، فأقدم المشاهدين والمؤرخين القدماء أمثال "هيكاتيه الميليس" و"هيرودوت"، وكلاهما آسيوي، قد وصلا إلى مصبات النيل بعد مضي قرن ونصف أو قرنين على تدخل اليونان في مصر، بل إن أكبر المؤرخين الوطنيين، وهو (ماينتون)، الذي وضع مصرياته (إيجيبتياكا) بعد عام ٢٧١ ق.م. بمدة وجيزة، كان يُتقن اليونانية كلغته الأصلية، فمن باب أولى إسترابون وديون وبلوتارك^(١)

ولعل أهم ما أخذته العقلية الإغريقية عن مصر هو الهندسة التي تُعد النموذج الأصلي للمعرفة حسب مذهب أفلاطون، وبديهي أن (طاليس) هو الذي حمل عصاه وقاس ارتفاع الأهرام، لكن هناك مسائل أخرى اضطر إلى حلها مشيدوا تلك الصروح، نعم إن المصريين لم يضعوا نظريات البناء الهندسي كما فعل إقليدس، لكنهم استخلصوا نتائجها ومبادئها وحلولها، كما تشهد بذلك أعمالهم. ويظهر تأثر أفلاطون بالعلوم الرياضية، وخاصة الهندسة، في تلك العبارة التي توج بها مدخل أكاديميته فقال:

"لا يدخل الأكاديمية إلا من كان ملماً بالهندسة"، لذلك فقد جعل من دراسة العلوم الرياضية تمهيداً لدراسة الفلسفة في نظام تربيته للحكام الفلاسفة، أما العلوم الرياضية التي كان أفلاطون يعنيها في هذا النظام، فهي الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، وهو لا يعنى بالحساب فن العد الذي يستخدمه التاجر أو القائد، ولكنه يعنى به دراسة نظرية للأعداد ولخصائصها.

أما الهندسة فهي ليست قياس المساحات، ولكنها دراسة للنسب المعقولة، ولكن المعرفة الرياضية، على الرغم من أهميتها عند أفلاطون تظل في مرتبة أدنى من معرفة المثل، وذلك لأن الرياضيات تعتمد على فروض ومسلمات ليس وجودها يقينياً، ثم تسير بطريق الاستدلال في استنباط النتائج المترتبة على الغرض الأساسي الذي سلمنا به، ولذلك يُسميها أفلاطون بالعلم الذي لا يستغنى عن استعمال الفروض، والضرورة فيها ضرورة فرضية، كما يقول أرسطو.

(١) راجع أورسيل: الفلسفة في الشرق، ص ٥٥.

والمعارف والأفكار الفلكية التي أبدعها العقل المصرى القديم، وما نعرفه عن الكواكب التي تنتسب إلى سيارات تُرى من الأرض أنها مراكز لها، كل هذا، قد أخذه اليونان - إما قضية مسلمة وإما موضعاً للنظر والبحث - عن قدماء المصريين، وإلى أولئك أيضاً يمكن أن تنسب نظرية العناصر الأربعة في الطبيعة، مع فكرة أن الماء هو العامل الأساسى.

ومجموع هذه النتائج والافتراضات الفلكية المصرية القديمة، هي التي ذهب للبحث عنها على ضفاف النيل طاليس أولاً ثم فيثاغورس بتوصية منه، وهو الذى قضى اثنين وعشرين عاماً في المعابد المصرية.

ولاشك أن الإغريق عندما زاروا البلاد في عهد الأسرة السادسة والعشرين، تأثر خيالهم بطبيعة الحالة بقدمها:

"أنتم معشر الإغريق أطفال على الدوام، إذ لا يوجد رجل هرم بينكم".
هذا ما قيل إن الكاهن المصرى أنبا به صولون.

والاحترام للآثار التي طالت عليها الحقب يقويه تحفظ المترجمين الكهنة، وما يتسم به من وقار، جعل المسافرين الشماليين يتصورون المثل العليا، في حدود ما وصلوا إليه من أعمال عقلية جليلة، لعلم شعب له مثل ذلك الماضى البعيد.

ولا يغيب عنا أن هذا الإتصال الذى فتح باباً للتفكير الإغريقى، قد تلاه عصر التعاون بينهم، وبين المصريين في موطن العلم الذى لا نظير له في العالم، وهو الإسكندرية، تلك المدينة التي نجحت في جمع الشرق بالغرب.

(جـ) الفن:

فرض فن مصر القديمة طابع نفوذه على العالم الخارجى، كما يتضح من العلامات التي يمكن تبينها في مصنوعات الخزف والنقوش البارزة في الصناعة (المنوية والميسينية)، وكان هذا قبل أن يبرز فجر الثقافة الهلينية.

لقد شيد المصريون معابد عظيمة، وقبوراً، واستخدموا الأساطين وطرق العلم للسماح للضوء بالانسياب إلى الأرجاء الداخلية، بينما اقتصروا على أبسط الأبنية، واعتمدوا في الزخرفة على النقش البارز وعلى اللون.

ولقد كان لفنهم المتأخر في الحفر أثر على فن الإغريق في مراحلـه الأولى، ولكن سرعان ما تجاوز تقاليده الصارمة، ولقد أعاد محكام مصر المقدونيون إحياء الفن القومي، ولكن ما استنسخه الإغريق كان يجافى الذوق والدقة.

واليوم بفضل علماء الآثار، فإن الحال غير تلك الحال، إن أعمال النحاتين العظيمة في الأسرات الأولى قد تكشفت في جمالها لتكون مصدرا جديدا للوحى، لفنانى العالم الحديث.

(د) الدين والفلسفة:

رغم أن الدين المصرى كان صعب الاستيعاب بالنسبة إلى كثير من الشعوب التى اعتبرته صيغا فنية أو لمحات خاصة بعلم الكون، إلا أن اليونانيين اعتبروه كتقاليد كلها حقائق، ويستدل على ذلك من اهتمام الفلسفة اليونانية القديمة بالمطابقات والمقارنات بين الآلهة الإغريقية اللاتينية وآلهة طيبة أو منفيس.

بيد أن الشيء الذى كان يؤثر في الأجانب من الإدراك المصرى لم يكن تلك الآلهة المحلية التى على شكل حيوانات، ولا الآلهة السماوية والأرضية التى كان لسائر الأديان ما يعادلها، فلا أهمية كثيرا لأن تكون الأرض ذكرا والسماء أنثى في زواج الأرض والسماء، كما كان الأمر عند الصين، بعكس الحال عند الهنود والأوروبيين^(١).

وكثير من الشعوب الأخرى قد عبدوا الشمس كالإيرانيين والسومريين من قبلهم، لكن الميزة الخاصة العظيمة التى امتازت بها العبادات المنفيسية أو الطيبية كانت ما تدعيه من قوة لمقاومة الموت، باتباع سلوك شخصى خاص، وبمعالجة الجسد معالجة خاصة حتى لا يبلى^(٢).

هذا، والاستمرار في تغذية الأموات لا يكفى لبقائهم أحياء، فخطر الموت مرة أخرى الذى طالما شغل الإدراك الهنـدى لم يستبعد استبعادا تاما؛ فهناك أسباب أخرى عدا عدم التغذية، قد تؤدى إلى الموت الأبدى، لذا وضع قدماء المصريين فضلا للتخليد يتناول المظهر المادى والمظهر النفسى، وهكذا وضعوا حلا لمشكلة الخلاص لا يشابه أى حل آخر.

(١) «(٢) أورسيل: الفلسفة في الشرق، ص ٥٧.

إن التحنيط يحفظ قوة الحياة، ثم يشرع في عمليات على المومياء نفسها أو على صورة تشبهها، فيتم منح (الجسد) القوى الحيوية كحركة الكلام والإشارة، ويجب أن نعلم أن الفرد لا يعيش فقط بواسطة جهازه الجسمي، وقلبه الذي يعد حاسة داخلية وأداة للإدراك، بل هناك جزء هام من الفرد يبقى خارجا عنه وهو "الكاه" (وهي مبدأ القوى الفعالة للناس والآلهة)، فالشعيرة التي تجمع المومياء إلى "الكاه" تحول الجسد - أى "زت" - إلى شيء لا يفنى ويتيح للمتوفى أن يظهر، إما على شكل روح (باه)، وإما على شكل عقل (آخ)، ويظل العقل سماويا، أما الروح فتعود وتبعث الحياة في التماثيل والمومياء متنقلة بين السماء والأرض^(١).

إن من الطبيعي أن يكون للإنسان جسد (زت) وكاه منفصلين، ولكن ليس من المعقول أن يكون له روح تستطيع التوفيق بين المبدأين، أو تحقق تلك الروحية؛ تلك الطريقة، طريقة الوجود الإلهي الخالد التي تشير إليها الصورة الهيروغليفية المرسومة على الجدران، والتي تدل على الخلود، فالسحر يستطيع أن يؤدي إلى حركة فوق الطبيعة، وهي حركة طالما التمسيتها من الرحمة الإلهية بعض العبادات الأقل مادية، وذلك بإحلال الخلود محل عدم الفناء المستمر، وهذا حل أول للرحلة إلى الشاطئ الآخر، الشاطئ الغربي حيث لا يرجع من ذهب إليه، ثم شعرت البوذية برغبة في الأخذ به، كما سنتناول ذلك تفصيلا عن حديثنا عن الفلسفة البوذية.

ولا يسعنا إلا أن نرى في ازدواج (زت وكاه) صورة أولية لنظرية العالمين الحسى والمعنوى التي وصفها أفلاطون ودافع عنها بقوة^(٢)، وهى المسماة بـ "نظرية المثل". وتجدر الإشارة إلى أن أفلاطون يعنى بالمثل (eidos) الحقيقة الثابتة وراء الظواهر المحسوسة الدائمة التغير، والمعرفة بالجزئيات - عنده - لا تكون صحيحة إلا إذا توافرت للإنسان المعرفة بالفكرة العامة المفسرة للأمثلة الجزئية المحسوسة.

ويرى أفلاطون أن الفكرة العامة أو الماهية المعقولة سابقة على وجود الجزئيات المشتركة معها في الاسم، ويشير إليها بقوله المثل في ذاته (Auto to) ويستعمل كلمة الماهية أو الجوهر (ousia).

(١) 1903, p. 462.

(٢) وكذلك "إيدوكس السينيدى" وهو من مؤلفى نظرية المثل، قد أقام ستة عشر شهرا بجوار هليوبوليس (٣٨٢ - ٣٦٤ ق.م.)؛ بيديز، مجلة الجمع الملكى عام ١٩٣٣، ج ١٩، ص ١٩٥-٢١٨.

وقد عمم أفلاطون نظرية المثل على كل مجالات الوجود، فافترض أن هناك مثلاً للعناصر الطبيعية الأربعة ولمركباتها وللنبات والأحياء جميعاً، بل ذهب إلى القول بوجود مثل للمصنوعات، كذلك فإن لكل التصورات الأخلاقية والمعنوية مثل خالدة مطلقة، لا تتعدد ولا تتغير رغم تغير تطبيقاتها وأمثلتها المشاهدة في الواقع. ويقوم المثال في الفلسفة الأفلاطونية، بوظيفة العلة المفسرة للوجود الطبيعي، وهذه العلة المثالية أدخل أفلاطون التفسير الميتافيزيقي الذي لا يكتفى بالبحث التجريبي في العلل، بل يفترض أنها توجد في مستوى يعلو على التجربة وعلى المعلومات، وقد ترتب على هذا أن صارت علاقة العلة عند أفلاطون هي علاقة مشاركة، participation^(١).

ولكن من يتتبع تطور نظرية المثل عند أفلاطون وخاصة بعد محاورة (بارمنيدس)، أى في الطور الأخير من فلسفة أفلاطون فإنه يتبين تسرب مؤثرين رئيسين:

أولاً: قول أفلاطون بعلة النفس في العالم الطبيعي واعتبارها - النفس - علة مباشرة فعالة بعد أن كان المثال يقوم بهذه الوظيفة.

ثانياً: التوحيد بين المثل والتصورات الرياضية، لدرجة أن المثل أصبحت أقرب إلى نماذج مجردة، ليس لها فعل مباشر في العالم الطبيعي أى (براديجما Pradeigma)^(٢).

و لقد أفضت فكرة أفلاطون في علة النفس وفعاليتها في عالم المحسوسات، إلى إمكانية القول باشتراك المثل أو النماذج مع النفوس في التأثير على عالم الطبيعة، بل أصبحت النفس بمثابة العلة الفاعلة والمباشرة في تحريك الطبيعة، بل واسطة بين الموجودات الحسية والمثل العقلية.

ونلاحظ أن هناك اختلافاً بين العنصر الأزلي والروح الخالدة، فيما يتعلق بمصر واليونان القديمة، وأن أمانة العقل هي أن يصل بقدر الإمكان إلى حياة دائمة، حياة لا يمكن أن تتأتى بالتعاون بين الذات والوجود.

(١) راجع، الدكتور أميرة حلمي مطر، "الفلسفة عند اليونان" دار النهضة العربية، ١٩٧٧م، ص ١٦٩،

وما بعدها.

(٢) 242-261.

وقد عملت مصر أيضا على تكوين فكرة الكلمة أو العقل (اللوجوس)، وشاركها في ذلك شعوب أخرى؛ ولكن لم يصل شعب من هذه الشعوب، حتى في الأوساط الإغريقية إلى ما وصلت إليه مصر، من تنظيم هذه الفكرة تنظيما دقيقا؛ فالصانع يخلق بالتعبير بلسانه عما يفكر فيه بقلبه.

وقبل أن تنشأ الفكرة القائلة بأن نظام الكون والناس لا بد أن يحدد بقوانين، وجدت فكرة تقول بتكوين (النظام) من مجموعة من الكلمات؛ والفراعنة كان لكلامهم نظامه وانسجامه، فكان هذا تمهيدا لتأسيس نظام العدل الأخلاقي.

ولنضف إلى ذلك أن الصيغ والأشكال التالية للنظرية، قد اصطبغت بصبغة العقلية المصرية، (فاللوجوس) الذي سطع لإحياء الكائن وإنارة العقول، يشهد بهذه القضية المسلمة التي استلزمها النظام الملكي الفرعوني: تطابق القوة المطلقة لسلطة الكلمة وقوة الشمس.

وهكذا، ابتداء من العصر السابق لسقراط إلى العصر الأفلاطوني الجديد، تركزت الفكرة اليونانية في دائرة طرق التمثيل المصرية، التي ارتفعت إلى ذروة التفكير بطريقتين:

أولا، بإخلاصها المتفاني للحكمة العملية التي اعتبرها اليونانيون فلسفة وأطلقوا عليها هذا الاسم،

وثانيا، بفلسفتها الدينية، وعندما انهارت مؤقتا جميع العقائد في خلال المملكة الوسطى، بدت مقابل روح الشك واليأس بعض الثقة المعقولة في قيمة الإدراك الفردي، وذلك لايجاد التوازن الضروري في الحياة اليومية، ففكرة "اعرف نفسك" السقراطية كانت لها سوابق، فضلا عن فكرة محاسبة الضمير الرواقية، لقد تقدمت تلك الحكمة على شكل قصص رمزية على الطريقة الشرقية، ومع ذلك فقد أثرت في أحوال الحياة الإنسانية بأفكارها الواضحة، وفي بعض الأحيان، استطاعت تقوية اخفاضة على الدين.

ونلتقى الآن بعض الضوء على جانبين هامين من جوانب إبداع العقل المصري القدم، ونعني بهما، الفلسفة الطبيعية، والفلسفة الأخلاقية.

(١) الفلسفة الطبيعية:

نظر المفكر المصرى إلى الكون على أساس (المواليد)، فقصة الخليقة المصرية^(١) تلخص فى أن "آتوم" بدأ من المياه الأولى، ودون تدخل من أحد، بخلق الكون من (الهيولى - السديم-)، واتخذ هذا نظاما كونيا تضمن ثنائية الموجودات المتناظرة، حيث كان:

- اللامتعين: أساسا للبحر (السديمى) عدم الشكل وهو المادة الأولى
- واللامتحدد: أساسا للمحدود واللامتناهى.
- واللامشخص: أساسا للظلام والعتمة والانظام
- واللامكتشف: أساسا للخفى والمحجوب.

وبذلك أرجع المصرى، الموجودات فى الكون إلى (أربعة أزواج) هى العناصر الأولى للموجودات، تفرعت عنها أصول ثمانية فى الأزمنة السحيقة^(٢)، ولكنها كانت بلا نظام، مما فرض على المفكر المصرى أن يقابلها بعناصر النظام التى تحكمها الشمس، والتى بفضلها انتقل الكون من (الفوضى) إلى (النظام) بسبب عناصر القوة التى عبرت عنها مع الشمس عناصر الهواء والرطوبة وكائنات (الأرض) و(السماء).

وبذلك يصبح (الخلق) فى الفكر المصرى هو الحد الفاصل بين (الفوضى) و(النظام) وهو ما نسميه بهندسة الكون التى نادى بها أفلاطون فيما بعد.

أما عملية خلق السماء والأرض، فتتلخص، فى أن "آتوم" - الفراغ المشحون - انفصل إلى (هواء) و(رطوبة)، ثم تكثف الهواء، فكانت السماء، ومثل ذلك حدث للرطوبة (الماء) فكانت الأرض، ومن السماء والأرض، جاءت الكائنات التى عمرت بها الدنيا^(٣). ولمعرفة حقيقة هيمنة المبادئ (الفلكية) فى الكون المصرى، على

(١) دكتور محمد جابر الحسنى، فى العقائد والأديان، القاهرة ١٩٧١م، ص ٤٦ وما بعدها.

(٢) 1988, ch. 4.

(٣) كرم: أساطير العالم القديم، ص ١٩، ٤٦

حركة الأشياء في الأرض، وتحديد خصائصها وسماتها، نجد إشارة صريحة في (كتاب الموتى)^(١) تفيد بأن الإله (الشمس) خلق العالم بما يملكه من عناصر النظام.

فالاسم، هو قوة الشيء؛ والتلفظ باسم جديد-من قبل الإله-هو بمثابة خلق جديد^(٢)، ويتجلى هذا الاتجاه (الاسمي) بصورة واضحة في أجمل نص وصلنا من مصر، ونعني به "نص منفس" أو اللاهوت المنفس^(٣)، الذي تضمن إشارة صريحة لمبادئ الخلق المستمر هذا، وهي (القلب) الذي يتدع الفكر، و(اللسان) الناطق بالأمر، شخص لنا هذه العملية من خلال (حو=النطق بالأمر) و(سيا=الادراك).

بمعنى، أن النطق الذي يخلق الحالة المراد إيجادها، يعتمد مسبقا على معرفة بالشيء، أو فكرته، كمقدمة لعملية الخلق، وهذه العملية لا تتم إلا بادراك شيء ما في سياق مترابط ومتكامل مصدره الإله، وما ينتج عن ذلك من نطق الأمر الخالق: لشيء جديد.

ويتجلى لنا في هذا النص، أن الإله (الشمس) هو جوهر الوجود، وسر الحياة، وإله (المعرفة والحقيقة)^(٤) وتلك مسألة توصل المفكر المصري، إلى حلها، من خلال التأمل العميق والاستقرار المتراكم، لمتغيرات الحياة وتقلباتها، بما ينسجم والبيئة المصرية.

إن من يطلع على نص (منفس) يقتنع بمضامينه الفلسفية، عن الكون والحياة، ذلك أنه يمثل تطورا في نمط التفكير الفلسفي في مصر القديمة، لأنه ينتمي إلى مرحلة تسبق سنة ٧٠٠ ق.م.، ولعله أعمق ما أبدعه الفكر المصري من مفاهيم ومصطلحات فلسفية، يصف فيها الخليفة التي كانت فكرة انبعثت من قلب الإله ثم كانت أمرا حول الفكرة إلى حقيقة بفضل قوة الكلمة الخلاقة، والفكر والنطق، من الخواص المتميزة للسلطة في مصر، واقتران (الفكر) بـ (النطق) ينبئ عن تصور منطقي تحدث عنه الإغريق فيما بعد على لسان (الرواقية)، أما الإدراك، فهو العلم

(١) راجع: موجز في وصف الآثار المصرية، ص ٦٨-٦٩ وص ١٩٦.

(٢) لوانكفورت، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، بيروت ١٩٦٠م، ص ٦٩.

(٣) أساطير مصر القديمة، ص ٢٢ و ٤٨ - ٥٢ و ص ٦١.

(٤) راجع : ولسن (جون): الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فخري، القاهرة ١٩٥٥م ص ٤٧٣.

المعبر عن الشيء، والذي كان أصلاً فكرة مصدرها القلب، ثم جاء اللسان، ليعبر عنها بالفعل الواقع^(١).

وقد مثلت لنا هذه الفكرة، الشيء (بالقوة)^(٢) يتحول إلى وجود بالفعل، بالأمر (النطق)، وتلك إرهابات فلسفية، ليست قريبة العهد من زمن الإغريق، بل يرجع عودتها إلى عصر يسبق عام ١٣٠٠ ق.م، حيث كانت وحدة الكون الحيوية واحدة؛ وهذا ما تحدث عنه أرسطو بعد ذلك بألف عام من خلال (القوة والفعل) أو (المادة والصورة).

وتجدر الإشارة إلى أن تصورات أرسطو للمادة والصورة أو القوة والفعل، تعتمد على وجهة نظره في التغير أو الصيرورة، لأن أى تغير يفترض الثبات، وكل صيرورة تستلزم وجود شيء لا يصير.

وكل جوهر، أو موجود معين مركب من هذين المبدئين، مبدأ المادة، الذى يقدم أساساً يصدر عنه وجوده، كأن يكون البرونز مثلاً مادة التمثال، ومبدأ الصورة، التى تحدد حقيقتها وماهيتها، كأن تكون صورة التمثال هى (الإله هرمس) مثلاً ولئن اتصفت الصورة بأنها الوجود، إلا أن المادة ليست اللاوجود أو العدم المطلق، وإنما هى وسط بين الوجود واللاوجود، أو هى باختصار استعداد وإمكانية (potentiality) للوجود، أو هى وجود بالقوة يتحول إلى وجود بالفعل بعد حصوله على صورة معينة، أى أن المادة هى مجموعة الشروط الواجب توافرها كي تظهر الصورة^(٣).

وأى وجود لا ينشأ فى رأى أرسطو من العدم، بل من إمكان، أى من وجود بالقوة، وغاية الكائن أن يصل إلى تمام صورته، ونهاية التغير هى أن تحصل المادة على الصورة المناسبة لها، ومتى تم ذلك أصبح الوجود موجوداً بالفعل بالنسبة للقوة كالإنسان اليقظ بالنسبة للنائم، أو كالبذرة بالنسبة للشجرة، أو كالبرونز بالنسبة للتمثال.

(١) "ما قبل الفلسفة"، ص ٧٢-٧٣

(٢) نفس المصدر، ص ٧٧-٨١

(٣) Brehier, E. : Histoire de la philosophie, Tom I, Paris P.U.F. 1948, p.199.

لذلك، فإن القوة لا معنى لها بذاتها، وإنما تفهم بالنظر إلى ما ستصير إليه، أو إلى الصورة، فالصورة (فعل - إنرجيا energia) لأنها تحقق ماهو بالقوة إلى موجود كامل، لذلك فهي أيضا كمال وغاية (إنتلخيا - entelchia) أى أنها تحدد الحالة النهائية الكاملة.

وهي أيضا، التي تمب الكائن حقيقته الثابتة أو ما هيته - (essence)، ومن هنا فقد انتهى أرسطو عند بحثه في العلل إلى التوحيد بين العلة الصورية، والعلة الفاعلة، والعلة الغائية، فالصورة هي الغاية في كل تغير، لأن التغير يهدف إلى تحقيق الصورة، وهي أيضا محرك وفاعلة، فصورة (الإنسانية) في الفرد - مثلا - علة محرك للتوالد، لأن الأب يهب الابن صورته التي هي الغاية النهائية لوجوده.

ويتداخل معنى المادة والصورة عند أرسطو، فقد تكون الصورة مادة بالنسبة لصورة أخرى، فصورة البرونز مثلا تصبح مادة وهيولى لصورة التمثال، أما الصورة التي لا يصح أبدا أن تكون هيولى لغيرها، والتي ينتهى عندها تسلسل الصور فهي الله أو المحرك الأول.

والمحرك الأول - عند أرسطو - لا يتحرك، صورة خالصة وليس به مادة، لأن احتواءه على مادة يعنى افتقاره إلى صورة، وبالتالي وجود بالقوة يترع إلى الفعل، فلا بد إذن أن يتصف هذا المحرك اللامتحرك بأنه صورة خالصة وفعل خالص لا يوجد به شئ من القوة، ويترتب على ذلك أيضا ألا ينقسم وألا يتعدد لأنه خال من المادة.

أما عن تأثير (الله) في العالم - عند أرسطو - فليس أكثر من تأثير صورة يتعشقها محبوبها، لأنه لا يؤثر فيه إلا كعلة غائية لا تزيد على أن تكون مبدأ لوحدة العالم، كما يكون حلا لتفسير الحركة والتغير المستمرين في العالم، فالغائية الملاحظة في الطبيعة ليس مصدرها - عند أرسطو - تدبير العقل الإلهي، وتوجيهه الأشياء حسب خطة وغاية يتصورها^(١).

(٢) الفلسفة الأخلاقية:

نستطيع أن نتناول أبعاد الفلسفة الأخلاقية عند المصرى القديم من خلال تساؤل فلسفى هام، طرحه على نفسه، هو: لماذا وجد الإنسان في هذه الدنيا؟

^(١) راجع في هذا كله: الدكتور أميره حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان، ص ٢٧٧ وما بعدها.

ولقد أدرك المصري القديم، أن الآلهة خلقت الإنسان على صورتها، ولمصلحته^(١) مركبا من (جسد) و(روح)، الأول - الجسد - مادي، والثاني - الروح - لامادي، ويفارقه الروح بالموت، ويعود إليه بعده، لوجود حياة ثانية، هي مستقر الإنسان لذلك أصبح الموت لدى المصري بداية حياة جديدة^(٢) أبدية، وهي القاعدة التي استند إليها سقراط اليوناني فيما بعد، لكي يبرر تناوله للسم^(٣).

فالإنسان الفاضل - في رأى المصري القديم - لا يمحوه الموت، بل يحظى بالخلود، بسبب طيب ذكراه، واجتهد بعد ذلك في بيان خصائص كل من (الجسد) و(الروح)، المادية والنوعية، وانتهى إلى أن لبعض الكائنات وظيفة أو فعالية، وهذه الفعالية إما أن تكون محسنة أو مسيئة^(٤)، مما جسد الحل التناسخي في عالم الأرواح المصري، المرتكز على رؤيا أخلاقية، تحث الإنسان - تجنباً للعقاب - أن يكون من ذوى الأفعال الحسنة المطيعة، لكي لا تحبس روحه في حيوان، فلا ترتقى إلى عالم السماء، إنها ذات الفكرة التي شرقت وغربت، فظهرت في الهند، كما كان لها صدى في اليونان.

لقد جاءت فكرة " الحياة الثانية " لدوافع أخلاقية، يقصد من ورائها تهذيب سلوك الإنسان، لأن الفعل السيئ لا يمر دون حساب^(٥) هذا وقد احتوت فلسفة مصر الأخلاقية فضائل عديدة نذكر منها:

العدالة: والتي جاءت في المجتمع المصري، مساوية (للخير) وفق المنطق الدينى، ترجمه، مجموعة الوصايا الأخلاقية التي، تطلب من الإنسان، أن يتعامل مع

(١) " ماقبل الفلسفة " ، ص ٧١

(٢) راجع : علام ، فنون الشرق الأوسط والعالم القديم، ص ٦٩.

(٣) أفلاطون، المحاورات، (فيدون)، ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود، القاهرة، ١٩٤٥م (خلود الروح)، ص ١٦٤، وماتلاها.

(٤) " ماقبل الفلسفة " ، ص ٧٦-٨٨.

(٥) كرمير: " أساطير العالم القديم " ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف، القاهرة ١٩٧٤م، ص ٤٠-٤٣.

الآخرين بما يجب أن يعاملوه به^(١)

والقاضي العادل، هو الذى تقترب به صفات العدل والقانون^(٢) ويدرك، مقتضيات كل حالة وحيثياتها، ويمتلك القدرة على الأمر والنهي، وصولاً إلى (العدالة) بشكلها الاجتماعي، بفضل ما تنطوي عليه العدالة من عناصر الرحمة.

وقيل عن العدالة، إنها "الزاد الذى تتقوت به الآلهة"^(٣)، وفى هذا دلالة عن (روح العدل) التى يتخطى القاضي بفضلها، حرفية القانون، إلى حيث الحكم (بروح القانون) وصولاً إلى أفضل الأحكام وأعدلها، وبذلك أصبحت محبة العدل تعبيراً عن إرادة (الآلهة) لصالح (الإنسان).

فضيلة الطاعة: احتلت فضيلة الطاعة فى مصر القديمة، موقعها، كواحدة من الفضائل التى تظهر نوايا الإنسان الحسنة، إزاء مجتمعه، فالإنسان السعيد، هو الإنسان المطيع، وفى ضوء ذلك الشعار، حقق الشعب المصرى فى تاريخه القديم أعظم المشاريع التى تتطلب صبرا وطاعة وجلدا وتحملاً، وأصبحت (الطاعة) خصيصة من خصوصيات المجتمع المصرى.

هذا إضافة إلى وجود فضائل أخرى تنظم العلاقة بين الفرد ومجتمعه مثل فضيلة (العمل الجماعى) والرفق وحب الناس وفعل الخير والتمسك بالأخلاق الفاضلة، والمساواة بين المواطنين، التى هى فى المنظور العقيدى، فضائل تسر الآلهة، وتفتخر بالله رص المساواة بين الناس، الذين خلقوا شركاء فى (الهواء والماء والعدل) دون أن يسى عودة ومسئولية الإنسان عن الشرور، دون الآلهة.

وقد تضمنت الوثائق المصرية من المبادئ والقيم الأخلاقية، ما يستحق الإشارة، منها:

الصمت: عنوان الحكيم، الذى يتجنب المصاعب، لذلك قالوا: بئر الحكمة "مغلقة لمن يكشف عن فمه، ومفتوحة لمن لاذ بالصمت".

(١) "ما قبل الفلسفة"، ص ١٠١-١٠٣

(٢) "أساطير العالم القديم"، ص ٦٣

(٣) "ما قبل الفلسفة"، ص ١٠٤-١٠٦

التسليم: صفة محبة، فمع ثقة الإنسان بنفسه، وبقدراته العقلية، تبقى قدرة وجيروت الآلهة، فوق قدرات الإنسان العقلية والبدنية "فأقوال الناس - شئ - وأفعال الآلهة شئ آخر" مما رسم في شخصية الإنسان، مسحة من العجز تفرض عليه التعلق بالإله والاعتماد عليه^(١).

وقد آمن المصري القلم، بأن (القدر) هو البعد الذى يشد الإنسان إلى مصيره (مستقبله) المجهول، لا بمعنى الاستسلام، ولكن بمعنى أن لكل إنسان ساعته التى لا يمكن الإفلات منها مهما كبر ذلك الإنسان أو صغر^(٢).

القناعة الواعية: إن السلوك الحميد رهن بقناعة الإنسان، المتأتية من وعيه لصواب الفعل الذى يقوم به، دون أن تنفصل هذه المسألة عن طبيعة الإنسان، لأن هذه الطبيعة، هى محرك السلوك ومقود الإنسان تنفيذا لنداء الإله:

"وإنما أجعلك تعرف ما هو الحق فى قلبك، أنت، لكى تفعل ما هو صواب فى نظرك"^(٣).

(هـ) تعقيب:

لم يعد أمام الحشد الهائل من المكتشفات العلمية والفلسفية والأدبية فى مصر القديمة، أن يقول أحد: ماذا قدمت مصر القديمة إلى العلم والفلسفة والأخلاق؟ فيها هى منحزاتهم، ترسى لنا ركائز النهضة اليونانية اللاحقة، واليونانيون - أكثر من غيرهم - يعرفون هذه الحقيقة، ويمتلكون القدرة على إيضاح قيمة (الحكمة المصرية) ورحمتها، التى يسرت لفلسفاتهم وعلومهم، محيطا تاريخيا ومعينا معرفيا ممتازا، لا ينضب، وضحت منحزاتهم الظاهرة، وطلاب العلم الذين كانوا يفلدون إلى مصر للإفادة من فلسفة الشرق وفكره، فاستفادوا منها، بقدر ما تستقيم وتجربتهم الحضارية اليونانية^(٤). يفسر ذلك وصول العديد من فلاسفة الإغريق إلى المراكز

^(١) راجع "ما قبل الفلسفة"، ص ١١٠-١١٦.

^(٢) "فى رحاب المعبود توت"، ص ٩٨.

^(٣) "ما قبل الفلسفة"، ص ١٣٧.

^(٤) "ما قبل الفلسفة"، ص ١٤٠ - ١٤١، وفى رحاب المعبود توت ص ١٦٣.

العلمية المصرية التي استقروا فيها ردحا من الزمن، فكانوا بذلك حملة الفكر الشرقى وقنوات توصيله إلى اليونان^(١).

والاعتقاد السائد عند اليونان بأن التأمل المصرى كان عميقا بنسبة قدمه، قد قابله من جانب المصريين ثقتهم في تقاليدهم الخاصة الدائمة، إلى حد كانت تبدو لهم ذات قيمة خالدة، فالشكل العقلى الخاص بوادى النيل يمتاز بصبغته الأزلية، ولكن كيف التوفيق بين هذه القيمة العالية، والخاصة بالشئ البسيط والذى لا يتغير، وبين اختلاف الآراء؟ فالمصريون والإغريق المختلطون بعضهم ببعض في الإسكندرية، والذين اتصلوا فضلا عن هذا بالعامل السامى، الذى أكد "فيلسوف" أهميته، قد وضعوا شكلا جديدا للحقيقة، قد يبدو أقل وضوحا كما ينظر إليه اليونانيون، لكنه لا ينقص عمقا بحكم اتفاق الرمز.

ولكى يعطوا الصيغ القديمة جدة الزمن الحاضر، ولكى يوفقوا بين المعرفة والعقيدة، لم يسعهم إلا الالتجاء لفن التفسير والتأويل، الذى يجد فى الأساطير تبريرا للشعائر، وفى القصص الخيالية تصورا للإدراكات، وفى مذهب الاختيار، المقدرة على فهم الشئ فهما موحدا دائما.

واستمرار وجود الأشكال الحيوانية باعتبارها رموزا للمقاطعات أو للآلهة التى نسنتها، ومعادنة النقوش ذات الأشكال الحيوانية والإنسانية، والاعتقاد بالمطابقات المختلفة التى تكشف عن أشياء سرية متماثلة، كل هذه الأمور كانت مواتية لانحياز الخماز وسيلة للفهم والإدراك، فالشمس، باعتبارها شكلا اعتيدت رؤيته، ورسمها عن حورس، من شأنهما أن يستجلبا الحدس العقلى، أسوة بالجران، وهو التميمة العادية، هى طريقة مشتبه فيها، ويتفهم بمقتضاها منطق الإدراك أمام مسطق التخيل والإرادة، وكلاهما من مميزات الروح الأولية، وإذا ما خضع لها المذهب العقلى الناشئ عن سقراط وأرسطو وإقليدس وأرشميدس، فقد كان يتوافق مع عقلية الزنوج التى يكشفها المختص بدراسة مصر القديمة خلف دقائق الحضارة التى تبهره.

(١) جورج سارتون: العلم القديم والمدينه الحديثه، ترجمة دكتور عبد الحميد صبرة، القاهرة، ١٩٦٠م،

إن هذا الحل الوسط بين المعرفة والتجربة الدينية قد يدل على خطوة إلى الوراء في مضمار العقلية العلمية، لكنه قد ترتب عليه تقدم للإنسانية في مجموعها؛ إذا قد أصبحت أقدر على معرفة أن عقائدها، مهما كان فيها من اختلاف وغرابة، تخفى وراءها معنى له قيمته وخطره.

هذا، ومن الأمور البديهية أن الروح المصرية كانت ذات صبغة إغريقية، وهذا ما يساعدنا على فهم مختلف مميزات ثقافتها؛ وهى المذهب الوجودى والوثنية الزنجية، والاعتقاد فى تعادل مختلف أشكال الوجود، دون حاجة إلى تدخل التناسخ، كما هو الأمر فى آسيا.

وكل ما نأمل هو أن تقوم مقارنة مستندة إلى وثائق وبعيدة عن التحيز، لتلقى ضوءاً على التشابه والاختلاف بين حضارتى مصر واليونان، اللتين هما أصل الحضارات الأخرى، واللتين لم تنشأ بينهما علاقات مباشرة مستمرة إلا من الألف الثانى ق.م.، ولكن ليس هنالك من يشكك فى أثرهما فى تكوين باقى حضارات العالم.

الفصل السابع

” حضارة وأدى الرافدين ”

وبدايات

” الفلسفة الكونية والخلقية ”

ويشمل :

أولاً : تمهيد.

ثانياً : ” الفلسفة الكونية ” وحيوية المادة.

ثالثاً : ” الفلسفة الخلقية ” بين ” ملحمة جلجامش و ” تشريعات حمورابي ” :

(أ) ” الطاعة ” جوهر الحياة الفاضلة عند العراقي القديم .

(ب) ” ملحمة جلجامش ” ومشكلة الحياة والموت.

(جـ) ” فلسفة التشريع ” عند حمورابي.

أولاً : تمهيد :

كان لحضارة وادي الرافدين، وخاصة البابلية والأشورية، منذ زمن باكر، دورها المؤثر في تاريخ البشرية، الديني والعلمي والاقتصادي، وكان للفلسفة الخاصة بما بين النهرين نصيب ملحوظ في تكوين الفكر العالمي.

فهذه (بابل) أحد مخازن غلال العالم الرئيسية، حيث كانت المحاصيل تؤتى ثماراً وفيرة، وكانت الأرض حتى بعد الحصاد الثاني تهيئ الكثير من المراعى^(١)

وحاضرة الملك التي قامت على شواطئ الفرات، وأصبحت من فجر الألف سنة الثانية مقراً عظيماً للإمبراطورية، كانت أعجوبة الأزمنة القديمة، وكان محيط دائرة السور الداخلي زهاء أربعين ميلاً، يقول أرسطو:

” إن بابل أمة أكثر منها مدينة ”^(٢)

ولقد أضيف إلى مواردها الزراعية الثراء المستمد من النسيج ومن تجارة رائجة، فمنذ الألف سنة الثانية، كانت بابل سوق الشرق ومركزاً عالمياً، اجتذب إلى أسواقه وأرصفتة محاصيل الهند وإيران، وكان ملتقى مرور التجارة عبر الطرق الصحراوية إلى الفرات من أقطار البحر المتوسط إلى الغرب.

فكان للمدينة البابلية تأثير صادق في حياة العالم الغربي الصناعية والتجارية، والطرق العامة التي كانت تسير حول شمال الصحراء السورية عبر آسيا الصغرى إلى سرديس وساحل بحر ايجا، كانت حلقة الاتصال بين الشرق واليونان، وعلى

^(١) أورد ثيوفراستس (theophrastus) أبعد تلاميذ أرسطو شيئاً في كتابه (تاريخ النبات) : ” في بابل تحصد حقول القمح مرتين في النظام، ثم يطعم بها الحيوان للتقليل من غزارة الأوراق وبغير ذلك لا تطلع السنبال للنبات، وعندها ينجز هذا، فإن محصول الأراضي التي تفلح فلاحاً سيئة يكون خمسين ضعفاً، بينما يأتي محصول الأرض جيدة الفلاحة بمائة ضعف نقلاً عن : بورج، تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة زكى سوس، دار الكرنك، ١٩٦٥ م، ص ٣٨ .

^(٢) أرسطو - ” السياسة ٣/١١٢٧٦ .

الأخص، لاقت العملة والمقاييس البابلية في الألف سنة الأولى انتشاراً أوسعاً النطاق في آسيا وعالم البحر المتوسط.

وقد أدى امتداد سلطان الإمبراطورية وسيادتها التجارية في آسيا الغربية إلى انتشار ثقافتها على مساحة أعظم، وأهم ما جاءت به حضارة بابل، اللغة، وهى غنية وأكثر مرونة وأقوى على التعبير عن المجردات، وإلى جانب التقدم اللغوي سار تقدم الكتابة، فقد ساهم البابليون في تحويل الحروف الهيروغليفية السوميرية إلى الشكل البابلي أولاً ثم الآشوري ثانياً، كما أن كتاب الحضارة الجديدة المختلطة عرفوا فصل الكلمات إلى مقاطع، والوصول إلى الأصوات البسيطة للحروف المتحركة المعروفة.

والجهود التي بذلت لتحليل الأشياء وردها إلى عناصرها الأولية، لا تقل أهمية في تطور الفكر الإنساني، سواء في ناحية الكلام، أم في ناحية الطبيعة، وقد سارت المحاولتان جنباً لجنب تسند كل منهما الأخرى^(١)

هذا عن البابليين، الذين كانوا شعباً من الزراعة والتجار، وكان للدين أجل قدر في أوضاعهم العامة فن في الحرب، أما الآشوريون^(٢) فعلى النقيض، كانوا منذ البداية إلى النهاية سلالة حرب، وكان ملوكهم قادة تحت أمرتهم أشراف عسكريون، ولما كانوا أكثر شعوب الشرق الأخرى غلظة وقسوة، فإن تاريخهم هو سجل حروب وغزوات، وما اكتسبوه من ثقافة استعاروه من بابل، وكان التقدم الوحيد الذي حققوه هو البناء بالحجر كما كانوا يبنون بالأجر، وتسجل الثيران المجنحة الضخام والألواح المنقوشة في المتحف البريطاني قصة متواصلة عن الحروب الوحشية

وبحكم أن آشور كانت أوثق اتصالاً من بابل بغرب الأناضول وبسوريا، بل ومصر، قد استطاعت القيام بهجمات مستمرة ضد الحيثيين والميثانيين المصطبغين بصبغة نصف هندية أوربية، وضد الأراميين المقيمين في سوريا العليا.

وكذلك كان الآشوريون مضطرين إلى الغزو للدفاع عن أنفسهم، فأسسوا أشد القوات العسكرية بأساً فيما عرف التاريخ القديم قبل الأنظمة الرومانية، واستخدموا تلك القوات لإرهاق البابليين ثم السيطرة على آسيا القديمة بأسرها، وحوالي عام

(١) راجع أورسيل : الفلسفة في الشرق، دار المعارف، ترجمة محمد يوسف موسى، ١٩٤٧ م، ص ٧١ .

(٢) "آشور" كلمة تدل على الأمة والإله الوطني والحاضرة.

١١٠٠ ق.م. أعلن (يتجللات فالازار الأول) نفسه " ملكا للعالم كله وملك الملوك القادر " ^(١)، فوضع بهذا ادعاء سيادة عالمية، أخذها عنه بعدئذ الإيرانيون والمقدونيون والقيصرية، وكان لذلك رد فعل هو أشد في نظام العقائد أو الأفكار، مما هو في نظام المطامع المادية، إذا أنه كانت الإمبراطوريات ضعيفة سهلة الانهيار، فقد كان واجبا أن يتخذ المثل الأعلى للسيطرة الإمبراطورية شكلا دائما عاما.

وكانت طريقة الآشوريين التي اتبعوها للبحث عن هذه السيطرة، هي طريقة عبادة القوة الوحشية المنظمة، ذبح المهزومين، وسبي شعوب بأسرها، وإفناء ملوك محترمين لدى أعدائهم في مقابرهم، ومصادرة الآلهة، فقد تميز الآشوريون بوحشيتهم الباردة، التي كانت تجرى بحساب معلوم، وتختلف كل الاختلاف عن وحشية الرجل غير المتمدين .

فقد كتب أحد الأمراء الآشوريين القدامى عن أعدائه:

" ملأت بجسومهم وديان الجبال وقللها، بترت رؤوسهم وتوجت بها حيطان مدائنهم، وجلبت العبيد والغنائم والكنوز، أشياء لا تحصى " . وكان الآشوريون يخلصون في تعصب، لدينهم، وكانت جميع انتصاراتهم باسم الهام آشور ولجده، ولكن لم يكن للكهنة إلا أثر قليل في استشاراتهم، وهم لم يضيفوا شيئا إلى الحضارة البابلية، لكنهم اشتركوا فيها، لقد تلقوها بقبول، وحفظوا شواهدا في حولياتهم ومكتباتهم، ونشروا نورها حتى الحدود الإغريقية والمصرية، وقد أسسوا الدين على مبادئ الإخلاص والخوف، فإلههم (آشور) الذي أسقط (ماردوك) عن عرشه، لم يطلق عليه اسم العطف إلا بقصد استمالته وتخفيف ظلمة، وهي طريقة تخفيف احتيالية بما كان للإله المخيف أن يطمع من أتباعه في إخلاص هادئ، فمنح التابع نفسه لإلهه، وذلك وإن كان مسببا عن الخوف، فإنه لا يمنع أن يكون واثقا به.

فالمثل الأعلى عند الآشوريين هو " المتوحش والمولع بالحروب "، في حين كان عند البابليين " الأخلاقي الإنساني الأبوي الصبغة " .

هذا، وقد دفعت الحاجة بالإنسان العراقي القدم إلى اكتشاف معارف هامة عن قوى الطبيعة، وأسرارها لتسخيرها لمصلحته، ولعل مبتكرات العلوم الرياضية

(١) " الفلسفة في الشرق "، ص ٨٠ .

والفلكية والجغرافية والطبية والموسيقية، والتي تجاوزت مرحلة "تراكم الخبرة" إلى أساليب البحث والتصنيف والتركيب والاستنتاج، بمعنى أن الإنسان الرافدي امتلك المعرفة النظرية لاكتشاف القواعد العامة في هذه العلوم، نقول لعل هذا يؤيد معرفة العراقي القديم لمناهج البحث العلمي^(١) وإليك بعض التفصيل لهذا الرأي.

بالنسبة للرياضيات، عرف الرافدي القدم العدد وخصائصه، وحل القضايا الهندسية بالطرق الجبرية، بواسطة الجمع بين الشكل والعدد، وكان الجبر الرياضي عنده ذا قواعد مقررة تسير بالطريقة الوصفية والتعويض والاختزال، ومبدأ الحذف^(٢)، كما ابتكر "معكوس العدد" الذي انفردت به الرياضيات البابلية، واستخدامه النظام الستين لمرونته وقلة الكسور فيه، وتقييم الدائرة وقياس الزمن مازال مستندا إلى هذه الطريقة^(٣)، كما استخدم العراقي القديم المثلثات وبشكل متقدم في علم الفلك، وإليها ترجع حسابات السنة والأشهر والأيام والدورة السنوية، والأبراج الاثني عشر^(٤).

أما علم الفلك، فهو من أكثر العلوم ارتباطا بالطبيعة، وانطلاقا من إدراك مبدأ العلة والمعلول، فسر العراقي القديم، كثيرا من الحوادث على هذه الأرض، وكأنها تحدث بتأثير حركة الكواكب والأفلاك، ومن بين هذه الظواهر، احتلت ظاهرة المد والجزر في جنوبي العراق، موقعا هاما في تفكير الإنسان الرافدي وحثته على النظر فيها والبحث عن تفسير معقول لها حتى ربطوها بحركة القمر، السذي احتل هو الآخر، دورا كبيرا في عقائد العراقي القديم^(٥) ولقد تراكت خبرتهم في الأرصاد الفلكية في المعابد وخارجها، ولعل الكاهن الأول على رأى "ويلز" - ليس في الحقيقة رجل دين قدر ما هو رجل علم تطبيقي، فعلمه على الجملة تجريبي، مع ذلك فإن وظيفته الأولى هي (المعرفة) وكان استخدامها عملياً لذلك تجلت في التقويم البابلي كشواهد علمية معتمدة على الحساب القمري

(١) الدكتور ياسين خليل : منطق البحث العلمي، بيروت، ١٩٧٤ م، ص ٣٤-٣٥، ٣٨، ٤٩.

(٢) راجع الدكتور ياسين خليل : التراث العلمي العربي، ص ٢٥ .

(٣) سارتون : تاريخ العلم ١/١٦٤، ١٦٥، ٢٢٠.

(٤) المصدر نفسه : ١/١٦٧-١٧٠، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٩ - ٢٧٠ .

(٥) نفسه ١/ ٢٧٠.

المسجل منذ أقدم العصور وحتى بعد الميلاد، وبالمصطلحات البابلية^(١)، وبذلك تكون الأرصاد البابلية، من أول الأرصاد المدونة في تاريخ الإنسان قبل إنشاء مرصد (كرنيش) ١٧٥٠ م، لقد استفاد منها جل المفكرين الذين درسوا في بابل^(٢) وعن علوم الطب والفيزياء والكيمياء والفنون الجميلة ومكانتها عند العراقي القديم، فقد ابتعد العراقي القديم عن السحر والشعوذة، والستزم منهج البحث العلمي، والتشخيص بواسطة طرق علمية متقدمة^(٣)، كما عرف أبحاثا في الطبيعة، وكانت له إبداعاته في العلوم العلمية والفنون المختلفة والصناعات المتنوعة، المعتمدة على معرفة دقيقة بالكيمياء وخواص العناصر، وبخاصة تلك التي تتصل بالصياغة والزخرفة والألوان^(٤)، إضافة إلى ذلك، يقدم تاريخ التراث العلمي العراقي العديد من العلماء الذين تنوعت اختصاصاتهم من الذين استخدموا الاستقراء المقترن بالملاحظة والتجربة في استنتاجاتهم المختلفة^(٥). ولم تخل منجزات العراقي القديم الفنية من مسحة التأثير بالمعتقدات الدينية وخصوصاً فكرة مزج عناصر من حيوانات مختلفة في شكل مركب^(٦)، كما احتلت الموسيقى في فنونه موقعا متقدما،

(١) ويلز : موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد الغريز جاويد، طبعة القاهرة ١٩٦٧، ص ٥١-٥٢، وأيضا الدكتور فوزي رشيد، قواعد اللغة السومرية، بغداد ١٩٧٣ م، ص ١٧.

(٢) سارتون : العلم القديم والمدينة الحديثة، ترجمة عبد الحميد صبرة، طبعة القاهرة، ١٩٦٠ م ص ٩٦ - ٩٧.

(٣) راجع بالتفصيل د. أمنة صبري مراد : لمحات من تاريخ الطب القديم، القاهرة ١٩٦٦ م، وكذلك د. عبد اللطيف البدرى : الطب الآشوري، بغداد ١٩٧٦ م، وله أيضا، الطب الأكدي، بغداد ١٩٧٦، راجع أيضا : ليفى مارتن : الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، ترجمة وتعليق د. فياض المياحي ود. جواد البدرى ود. جليل كمال الدين، بغداد ١٩٨٠ م.

(٤) راجع : د. وليد الجادر : بحث عن الأصداف، منشور في مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، العدد ٢٣ لسنة ١٩٧٨ م ص ٥٨١ - ٥٩٤.

(٥) سارتون: تاريخ العلم ٣٤٢/١، ٣٤٥، ٣٦١.

(٦) على حسين الجابري: الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، بغداد، ١٩٨٥ م، ص ٣٣.

ضمن مبتكرات الإنسان الرافدي، سواء أكان في باب "التراتيل" والطقوس، أم في باب الآلات الموسيقية^(١).

ثانيا "الفلسفة الكونية" وحيوية المادة:

إن المحاولات التأملية في تجريد الظواهر، عمليات عقلية معقدة، سجلها الإنسان الرافدي، منذ الألف الثالث ق.م.، فقد عثر في (نفر) على كتابة سحيقة في القدم تذكر اسم إمبراطورية مدينة (أرتيش) السومرية، امتد سلطانها من الخليج العربي إلى البحر الأحمر، كأول إمبراطورية يذكرها التاريخ القديم^(٢)، ولعل أول وأهم وأخطر إنجاز حققه بهذا الصدد هو اختراعهم "الكتابة" التي لا تخرج في مجملها عن عملية تجريد راقية^(٣) لأنها جعلت بالإمكان قيام وعي تاريخي عام، كان سببا مباشرا في النفقات الحضارية اللاحقة، حتى وجد (ويلز) أن جميع ما ظهر في العالم من أبحديات حقة مشتقة من خليط من الكتابة السومرية والهيروغليفية، ويحق لنا - والحديث لويلز - أن نقول أن هذه المنجزات، لم تكن لولا الجهود العظيمة التي بذلها المفكر الرافدي حتى سادت "الحياة السعيدة المشرقة الممدنة ما يقارب العشرين قرنا"، ولو استعرضنا بابل سنة ٢٠٠٠ ق.م. لوجدناها تعج بأناس مثقفين، لم يقف عطاؤهم الفكري عند جيل، حتى يوم الناس هذا، يشهد عليها أكثر من "مليون لوح طيني" موزعة الآن بين متاحف الدنيا^(٤).

وفي القدم كان لبيت الألواح (المكتبة) موقع هام في حياة الفرد والمجتمع، في حفظ التاج الفكري، وأقدم ما عرفناه جاءنا من مدينة (نفر) حيث احتوى هذا البيت على عشرات، بل مئات الألوف من الألواح، كما كان لمكتبات المعابد شأن يذكر في توسيع آفاق المعرفة وبخاصة تلك التي اقترنت بعبادة إله المعرفة والحكمة والتأمل "بنون"، ومع تقدم الزمن والمجتمع، وتوسع آفاق المعرفة، وجدنا في (نينوى) أوسع

(١) الدكتور صبحي رشيد: تاريخ الآلات الموسيقية، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٣٠-٣١، ٥٧.

(٢) ويلز: موجز تاريخ العالم، ص ٦١.

(٣) راجع الفصل الأول من هذا الكتاب وخاصة العقيد.

(٤) ويلز: موجز تاريخ العالم، ٦٢، ٧٠.

مكتبة تلك التي حملت اسم (آشوربانيبال)^(١)، حيث تفرد هذا الحاكم المفكر بحجب عجيب للحكمة والمعرفة.

وتكمن مصادر التراث في ميداني الفلسفة الكونية (الطبيعية)، والفلسفة الخلقية، في المأثورات والملاحم التي تعكس صورة واضحة عن الاتجاهات الفكرية لدى حكماء العراق القديم^(٢).

(١) سارتون: تاريخ العلم ٣٥٥/١ و ٣٨٨ و ٣٤٢، راجع أيضا ديورانت: قصة الحضارة ٢/٢٧٨-٢٨٥ وراجع أيضا:

- Delitzch (F.), Assurbanipal und die assyrische Kultur seiner zeit, Leipzig, 1909 (Der alte Orient).

(٢) نستطيع القول أن إجابات العراقي القديم على المشكلات الطبيعية والاجتماعية-، تمثل بدايات جيدة للتأمل الفلذفي، ومن الخطأ الحكم عليها بمنظور العصر، أو على ضوء نتائج البحث الفلسفي اليوناني، فتحفل حضارة وادي الرافدين بالعديد من المفكرين الذين دخلوا دائرة الحكماء، نذكر منهم:

- "سين-ليقي-أونني Sin-Lege-Uninni" الذي يرجح بأنه واضع الصيغة النهائية للمحمة جلجامش سنة ١٢٥٠ ق.م، وهي بـ ٣٠٠٠ مقطع،

- و"كيتي إيلاني-مردوخ"، وهو مؤل قصيدة إله الطاعون "إيرا" التي تلقاها عن "مردوخ" بواسطة الرؤيا.

- و"ساكل-كينام-أوب" الذي تحدث عن العدل الإلهي في قصيدته الفلسفية المسماة "لأمجدن رب الحكمة" [راجع عن كل هؤلاء: طه باقر، خواطر، آفاق عربية، بغداد، الأعداد ١٠ لسنة ١٩٧٧م، ٦، ٧ لسنة ١٩٧٨م].

- "اترا حاسس الحكيم"، لقب بمنقذ البشرية، والنهاي في الحكمة" [طه باقر: خواطر، آفاق عربية ٤٥/١ لسنة ١٩٧٧م].

- "أتانيا Etana"، الذي اقترن اسمه بالتساؤل عن سر الحياة ومعالجة مشكلة العقم، والبحث عن سر المولد [كريم، أساطير سومر، ترجمة يوسف داود عبد القادر، بغداد، ١٩٧١م، ص ١٠٤].

- "آدابا الحكيم": العارف المتصف برجاحة العقل، ولقب بالابن الأحكم لمدينة أريدو السومرية، وصف بأنه "نموذج للإنسان الكامل، وهو أحد الحكماء السبعة. [ديورانت، قصة الحضارة، ٢/٢٨٥، و فرانكفورت: ما قبل الفلسفة، الإنسان في مغامراته الفكرية الأولى، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٢٧، كريم: الأساطير السومرية، ص ١٠٢-١٠٢]. =

وتضمنت هذه المأثورات والملاحم أبرز المشكلات الفكرية الأساسية، والتي تدور حول الكون والحياة، وأصل الوجود والأشياء، والخلق والإنسان، وقصة الحضارة، والمجتمع الإنساني ومشكلاته، وسلوك الفرد، وقيم المجتمع وقضية العدل الإلهي، ومسألة الخير والشر، وماهية الصراع في الوجود وحدوده.

وتظهرنا هذه المأثورات والوثائق الأثرية - التي وصلتنا عن العراق القديم - على أن طبيعة الأشياء (العالم) المحددة، جاءت متأخرة، سبقها في فجر الزمن عالم الوعد (الوجود بالقوة) الذي كان سديما (هيولي) لم يتخذ له شكلا، ولا اسما "إنه في طور الإمكان"، ثم بدأت عملية "تسمية" الأشياء والخلق من مبادئ مركبة من عناصر متناقضة.

إن فكرة العراقيين القدماء - عن الكون - تعود إلى أكثر من أربعين قرنا خلت حيث رفضوا الاعتقاد بجمود الدنيا أو فراغها، بل نظروا إليها باعتبارها "حية" توحدت فيها الظواهر الطبيعية بالعلاقات الاجتماعية، بما يقربنا من وحدة الوجود المقترنة بالتشبيه والتجسيم^(١)، وتلك مسألة ترتقي إلى السومريين والأكديين، حيث جاءت آراؤهم حول الخلق وتنظيم الكون ومولد العناصر (الآلهة) بما ينم عن تناول عقلي ناضج يمكن التعرف من ورائه "على قدر من التأمل اللاهوتي والكوني"^(٢).

وقد عمق الإنسان الرافدي استنتاجاته الطبيعية، مستفيدا من الحرية التي تمتع بها في تعديل مجرى الأفكار الفلسفية عن الكون بفضل تطور معتقداته الدينية والجارية وفق مقتضيات الزمن، وكأن نظرية ديناميكية فيضية^(٣) تلك التي ورثها فيما بعد هرمس البابلي ثم أفلوطين.

= - "كوديا الحكيم"، الذي يمثل نزوع الإنسان إلى الإصلاح والتأمل، اسمه بالسومرية يعني "ذا فكر" - واسع" [ما قبل الفلسفة، ص ٢٥، ٢٨، ٢٢٤ - ٢٢٥].

(١)، (٢) كريم، أساطير سومر، ص ٧٧، ١٢١.

(٣) جاء في أحد الألواح "بعد خلق (آنو) السماء، خلقت السماء الأرض، وخلقت الأرض الأنهار، وخلقت الأنهار القنوات، وخلقت القنوات المستنقعات، وخلقت المستنقعات السدود..." [كريم، أساطير سومر ص ١٠١].

واعتقد العراقي القديم أن كل شيء في هذا الكون يحمل سر قوته بالأسم الذي يحمله، وليس هناك شيء دون اسم، أي أن الشيء بلا اسم لا وجود له، لأن وجود الشيء وسره أمران متلازمان، والأسم هو القوة الكامنة في الأشياء (والأشخاص) تدفعهم في اتجاه معين^(١)، فاسم الشيء مرادف لوجوده، ولذلك فهو "جوهر الشيء"^(٢).

وبالنسبة لنشأة الكون فقد أكدت التصورات السومرية (الكوزمولوجية) - إذا ما استخدمنا لغة العصر - على أن الآلهة وصفت البحر (الماء) بأنها الأم التي ولدت السماء والأرض على شكل (جبل كوني)، وعلى ذلك الجبل الكوني ولد (آن) زملاؤه (آلانو - ناكي) في قمة الجبل (السماء) أما القاعدة فكانت (الأرض-آيا). وإذا ما حللنا هذه التصورات، وجدناها تعترف بالخلق المادي، وذلك لأنه، في البدء ومنذ (الأزل) كان (البحر الأول) - الماء - ولم يكن غيره، وهذا قول صريح بقدم الهيولي الأولى لنشوء الكون، وأن المياه الأولى كانت سبباً لظهور (الجبل الكوني) ممثلاً بالأرض والسماء المتحدتين، وتولد من جراء ذلك الاتحاد الأرضي السماوي، عنصر (الهواء) الذي أصبح فيما بعد سبباً في انفصالهما؛ وبعد انفصال السماء عن الأرض كان (آنو) في الأعالي و (آيا) في القاعدة، وأنه من اتحاد الهواء بالأرض تعينت مراحل تنظيم الكون وخلق الإنسان وتأسيس الحضارة، ومعنى ذلك أن الماء والهواء، كانا سبباً للحياة والكثرة.

وبعد إزالة المسحة الأسطورية عن هذه الآراء وتحليلها تحليلاً موضوعياً، يتأكد لنا وجود تصورات عن نشأة الكون حرة بأن تسمى (فلسفة)، فقد تميزت، هذه التصورات السومرية، بالقول بالسرمدية والأزلية للمادة الأولى في الكون (الجوهر)، وبأن الماء هو (جوهر) الكون الذي كان سبباً في ظهور الأرض والسماء المتحدتين، أي تولد الحالة الصلبة، من أصل (سائل)؛ وتولد (الهواء) من اتحاد الشمس والأرض، ثم أصبح سبباً في انفصالهما، كما أن الهواء أصل لوجود الشمس والقمر وبقية الكواكب المعروفة.

(١) فرانكفورت: ماقبل الفلسفة، ص ٢٥.

(٢) باقر، خواطر، آفاق عربية، العدد ١٠ لسنة ٧٧، ص ٥١، ٨ لسنة ١٩٧٨، ص ٨٢.

وبعد انفصال اليابس، وانبعاث الحرارة من الشمس، ولوجود الرطوبة من الماء، أمكن وجود النبات والحيوان والإنسان على وجه الأرض، بصورة حاول محاكاتها الفيلسوف اليوناني أنبادوقليس^(١).

إن هذه الأفكار الفلسفية - عن الكون - كادت تشير إلى نظرية "الفيض" التي سنجدناها عند أفلوطين فيما بعد^(٢)، فالكون - الذي يضم كل ما في الوجود من الظواهر والأفكار المجردة - يأخذ شكلاً هرمياً، أعلاه (السما) مما فيها من كواكب وأفلاك ونجوم، ثم (الهواء) (فالأرض) (فالماء)، ومعنى ذلك أن حقيقة عملية الخلق، في الفكر الرافدي، تظهر على شكل ولادات تمخضت عن تجاذب "السالب والموجب" من أصل أزلي، ظهرت بعدها سلسلة الموجودات، وكل واحدة منها سر قوتها بذاتها (جوهرها)، وبذلك تكون عملية الصنع، هي عملية خلق وتنظيم "إنبثاقي" من مادة كانت تحكمها عناصر العوضى والظلام "حيث كان الخلق وفق رغبة عناصر التجريد.

ويلخص لنا (جاكوبسون) الخلق الإنبثاقي هذا بقوله:

(١) أساطير سومرية: ص ٦٤-٦٦، ٦٩-٧٨، ١١٤-١١٩. وأنبادوقليس، أحد فلاسفة اليونان الساتين على سقراط، ولد بمدينة أجراكاس بجنوب صقلية حول عام ٤٩٠ ق.م. وتوفي حول عام ٤٣٠ ق.م.، وقد اعتقد في نفسه قدرة تفوق الطبيعة، بل ادعى الألوهية، وقد ألهم الناس بعد موته الذي تحوطه الأساطير، وتقال بالعناصر الأربعة (النار والهواء والأرض والماء) مفسراً بها الطبيعة، وقال بفكرة وجود نفس كونية اعتبرها علة حركة الكون الذي نشأ - في رأيه - عن الإمتزاج والانفصال في العناصر الأربعة بفعل قوتين إلهيتين، الحب الذي يجمع، والكراهية التي تفرق. (راجع الدكتور أميرة حلمي مطر، الفلسفة عند اليونان، ص ٩٦ وما بعدها).

(٢) ولد -أفلوطين - حسب رواية تلميذه فورفريوس، بمدينة ليقوبوليس - أسوط بمصر، عام ٢٠٥ وتوفي عام ٢٧٨م، ذهب إلى القول أن لهذا العالم ظواهر حية، وهو دائم التغير، ولم يوجد نفسه، بل لا بد له من علة سابقة هي السبب في وجوده (الواحد المحض)، والأشياء كلها صدرت - فاضت أو انبجست - منه، وبه ثباتها وقوامها، وإليه مرجعها، وأول ما فاض عن الواحد، العقل، ثم النفس، ثم بقية المحسوسات.

(راجع: الدكتور عبد الرحمن بدوي: أفارطين عند العرب، ط ٢، دار النهضة العربية، ١٩٦٦م، ص ١٣٤ وما بعدها).

إننا نجد لدى سكان ما بين النهرين "إشارة إلى الخلق، وفصل السماء عن الأرض، ودور الهواء في ذلك، إنها دراسة لأصل معالم الكون الرئيسية، كما أنها تحوي كيفية تأسيس نظام العالم الحالي، فنجد مبادئ (الزمن الأول) والفلسفة الاسمية) و(المادة الأولى) - الهيولي - و(الكون بالقوة) - عالم الوعيد - بشكل واضح، مع استمرار القول (بالماء كمصدر أول للوجود)، لكنه مركب من عنصرين، وهما الماء العذب، والماء المالح، حيث كأن سبباً لظهور (السحب والسديم) والتي امتزجت في كتلة كبيرة، فكونت لنا (المادة الأولى) إنها (الكون بالقوة)، ثم بدأت عملية الخلق (الصنع) الثلاثية على شكل أزواج ثنائية متقابلة، تنتهي بمركب جديد"^(١)

ثالثاً: "الفلسفة الخلقية" بين "ملحمة جلجامش" و"تشريعات حمورابي":

(أ) "الطاعة" جوهر الحياة الفاضلة عند العراقي القديم:

آمن إنسان وادي الرافدين، بأن كل ما في الكون يسير حسب "خطة" إلهية تستند على قواعد ونواميس مقررّة "وما على الإنسان إلا أن ينقاد لها طائعاً مختاراً" لأن الآلهة استهدفت من ورائها خير الإنسان وعدالته، كما استهدفت تسيير الكون دونما اضطراب أو خلل فوضعت له نظاماً دقيقاً عادلاً من أجل الحفاظ على التوازن والأنسجام الكلي فيه، ما على الفاضل إلا طاعته.

واحتلت فضيلة "الطاعة" الراقية موقعاً مهماً في الأخلاق الراقية، تعضدها مفاهيم خلقية ظهرت في مجري التطور اللاحق لمدارك ووعي الإنسان الراقدي، أهمها "فضيلة الإنسجام والتوافق".

والحياة الفاضلة هي الحياة "المطبعة"، والعصر الذهبي، هو عصر الطاعة، حيث تتدرج فيه هذه الفضيلة من دائرة الأسرة، فالمجتمع، فالدولة، والنظام، وفق سلطة موجهة، إذ يستحيل في عُرف العراقيين القدماء وجود عالم منظم دون سلطة تكون دائماً على "حق" لأنها تطبق "القانون العام" و "النظام الإلهي"، وعلامة التنظيم في حياة الفرد هي الطاعة والتخطيط للمستقبل من أجل حياة أفضل، ومركب "الطاعة" و "التخطيط" هو الصحة والعمر الطويل والمركز المرموق، والأبناء الكثر، والمال.

(١) ما قبل الفلسفة، ص ١٥٦ - ١٧٢.

فنحن واجدون نشيداً يصف عصرًا ذهبياً قادمًا، يتميز بأنه عصر الطاعة؛

يوم يحجم المرء عن السفاهة إزاء غيره، ويكرم الابن أباه،

يوم يبين الاحترام جلياً في البلاد، ويبجل صغيرُ القدرِ الكبيرَ،

يوم يحترم الأخ الصغير .. أخاه الكبير،

ويرشد الولد الأكبرُ الولدَ الأصغر، ويتمسك الأخير بقراراته ^(١).

ويوصّي العراقي القديم دائماً بأن "اسمع كلمة أمك، كما تسمع كلمة إهلك"،

و"احترم أخاك الأكبر"، و"اسمع كلمة أخيك الأكبر كما تسمع كلمة أهلك"،

و"لا تغضب قلب اختك الكبرى".

وما طاعة المرء للأفراد الذين يكبرونه سنًا في العائلة إلاّ البداية، فوراء العائلة دوائر أخرى وسلطات أخرى: الدولة والمجتمع، فثمة المراقب حيث يعمل المرء، وثمة المشرف على الأعمال الزراعية التي يشترك فيها المرء، وثمة الملك، وكلهم يطالب بالطاعة المطلقة، والعراقي القديم ينظر إلى الجمهور الذي لا قائد له نظرة الاستياء والشفقة - ونظرة الخوف أيضاً. والجنود بلا ملك غنم بغير راعيها.

وإذا كان الجمهور بلا قائد ينظمه ويوجهه، ضائعاً حائراً كقطيع من الغنم دون راع، فإنه أيضاً شيء خطر، قد يكون مدمراً كالمياه التي تحطم سدودها، وتغرق الحقول والساتين إذا لم يتداركها مفتش الري بصيانة السدود. "العمل بلا مراقب كالمياه بلا مفتش ري".

ثم إن الجمهور الذي يعوزه القائد والتنظيم لا يجدي ولا ينتج، كحقل لا ينمو البرع فيه إذا لم يحرق "الفلاحون" بلا مشرف كحقل بلا حارث.

ولذا يستحيل وجود عالم منظم، إذا لم تفرض عليه سلطة عليا إرادتها، والفرد هنا يشعر بأن السلطة دائماً على حق، "أوامر القصر" كأوامر آنو، لا تتبدل، كلمة الملك حق، ونطقه كنطق الإله لا يغيره شيء ^(٢)، وفضلاً عن دوائر السلطة البشرية

^(١) راجع جاكوبسن، ما قبل الفلسفة، ص ٢٣٩.

^(٢) راجع: جيمس ريشارد: أساطير بابلية، ترجمة سلمان التكريتي ص ٥١، ١٢٢-١٢٧.

من عائلة ومجتمع ودولة للحد من حرية الفرد، هناك دوائر السلطة الإلهية التي لا يجوز له أن يتخطاها.

ويفسر النجاح - عند العراقي القديم - بأنه قوة خارجية تتغلغل في أفعال الفرد، وتتيح له إنتاج النتائج، فالنتائج لا تصدر عن قدرة الإنسان نفسه، لأنه أضعف من أن يؤثر على مجرى الكون تأثيراً يذكر، ولا يقوى على ذلك إلا الإله، ولذلك، إذا حققت الأشياء ما كان يأمله الفرد، بل فاقت كل ما يأمل، فلا ريب في أن إلهاً ما قد اهتم به وبأفعاله وأتاه بالنجاح، فهو على حد قول سكان ما بين النهرين، " قد حصل على إله"، واعتقادهم بأن الإله الشخصي هو القوة الكامنة وراء فلاح الإنسان ظاهراً بوضوح في أقوال مثل:

ليس بمقدور الإنسان، بلا إله (شخصي)،

أن يكسب خبره،

ولا بمقدور الفتى أن يحرك ذراعه ببطولة في المعركة.

ومثل:

عندما تخطط للمستقبل يكون إلهك إلهك،

وإذا لم تخطط للمستقبل، ليس إلهك بإلهك^(١)

أي أنك لن تحظى بالنجاح، إلا إذا اختططت للمستقبل، وعندئذ فقط، يكون إلهك معك.

ولذلك يعبد المرء، ويطيع هذا الإله الشخصي قبل غيره، وفي كل مكان للإله الشخصي حيث يصلي رب الدار ويأتي بالقرايين كل يوم.

على الإنسان أن يسبح بعظمة إلهه.

وعلى الشاب أن يطيع بكل جوارحه أمر إلهه.^(١)

^(١) ما قبل الفلسفة، ص ٢٤١، وأيضاً: Genouillac (H.de), Tablettes Sumeriennes - arcaique. Paris, 1909.

والآن، مالذي كان الإنسان يرجوه من خير بتمسكه بحياة الفضيلة التي تمثل الطاعة - للأسرة والحكام والآلهة - جوهرها، إن الإجابة على ذلك تتفق ونظرة البابلي القديم إلى الدنيا، وتتفق ومثلة الإنسان في الدولة التي يسيطر عليها الآلهة، فالإنسان قد خلق ليكون عبداً للآلهة، إنه خادهمهم، وللخادم المجتهد المطيع أن يلجأ إلى سيده في طلب الحماية، وأن يتوقع الترقية والمكافأة منه، أمّا الخادم الكسول اللامطيع فلا أمل له في شيء من ذلك، فطريق الطاعة والخدمة والعبادة هي طريق التمتع بالحماية، وهي كذلك الطريق إلى النجاح في الدنيا، وأسمى القيم في الحياة البابلية - وكما سبق - الصحة والعمر الطويل والمركز المرموق بين الجماعة، والأبناء الكثر، والشراء. (٢)

(ب) "ملحمة جُلجامش" ومشكلة الحياة والموت:

لقد بقيت فكرة الدولة الإلهية (٣) مستقرة نسبياً طوال الألف الثالث ق.م.، غير أن الدولة البشرية الفعلية تطورت في أثناء ذلك تطوراً كبيراً، فازدادت السلطة المركزية قوة، واشتد جهاز العدالة كفاءة، وجعل العقاب يتلو الجريمة بانتظام متزايد، وفكرة أن العدالة شيء من حق كل إنسان، أخذت تتبلور ببطء في الألف الثاني ق.م.، وهو الألف الذي ظهرت فيه شرائع حمورابي بحيث أضحت الناس يشعرون أن العدالة حق مشروع، لا مِنة شخصية. غير أن هذا الرأي كان لا بد له من أن يناقض نظرة الناس القائمة حينئذٍ إلى الدنيا فبرزت إلى الوجود مشكلات أساسية أهمها تبرير الموت والثورة عليه في صورة سخط مكتوم واحساس دفين بالظلم،

(١) - Dhorme, Edouard, Les Religio

1945 pp.

11-15.

(٢) جاكوبسن، ما قبل الفلسفة، ص ٢٤٢ وأيضاً

- Tablettes Summeriennes archaiques. Paris, 1909.

(٣) الدولة الوحيدة التي تتمتع بالسيادة الحقيقية المستقلة عن كل سيطرة خارجية، هي الدولة التي يتألف منها الكون، أي الدولة التي يحكمها مجمع الآلهة، وهذه الدولة إلى ذلك، هي التي تبسط سلطانها على نقاع الرافدين، والأراضي الفسيحة فيها هي ملك الآلهة، ولما كان الإنسان قد خلق لمنفعة الآلهة، بوجه خاص، فما غايته إذن إلا خدمة الآلهة، ولذلك لن تستطيع أية مؤسسة إنسانية أن تجعل هدفها الأول إسعاد أهلها من البشر، لأن هدفها الأول إنما هو السهر على خدمة الآلهة؛ وبالتالي فما نسميه بـ "دولة المدنية" ليس إلا منظمة خصوصية غرضها الأول إقتصادي، إنما مزرعة أحد كبار الآلهة.

وهذا الإحساس منشؤه الفكرة الجديدة عن حقوق الإنسان والمطالبة بالعدالة في الكون، فالموت شر، وهو في قسوته شر من كل عقاب، بل هو العقاب الأكبر ونجد معالجة له في ملحمة جلجامش^(١) التي يُعتقد أنها ألُفت في أوائل الألف الثاني ق.م، وهي ملحمة بنيت على أقصاصيص أقدم منها أُعيد كتابتها في قالب جديد، وجمعت حول موضوع جديد هو موضوع الموت.

(وجلجامش) شاب شديد العزيمة، وهو حاكم مدينة (أوروك) في بلاد سومر، إنه يسوق شعبه سوقاً عاتياً، فيلتمس الشعب إلى الآلهة بأن تخلق منافساً له يشغله، فيجد الشعب شيئاً من الراحة، فتستجيب الآلهة وتخلق (أنكيدو) ويصبح رفيق جلجامش، ويخرج الاثنان في طلب المغامرات والأخطار، ويشقان الطريق إلى "غابة الأرز" في الغرب، حيث يصرعان (حوأوا) - وهو وحش رهيب يحرس الغابة (لأنليل)، وقبل بدء المعركة مع (حوأوا) تقاعس (أنكيدو) برهة وقد خذلته شجاعته فراح (جلجامش) يؤنبه بقوله:

من الذي، يارفيقي أدرك من السمو (ما يمكنه من)

الصعود إلى السماء والإقامة مع شماش إلى الأبد؟

بمجرد انسان - أيامه معدودات،

ومهما فعل إن هو إلا هبة ريح.

أراك قد خشيت الموت.

أين بأسك وشجاعتك؟

دعني أقود،

وتخلف أنت لتصبح بي: "أطبق عليه، ولا تخف!"

وإذا سقطت مضرجاً، أكون قد بنيت أساساً لشهرتي.

فيقولون عني "قتل جلجامش وهو يصارع حواوا الرهيب.."

(١) راجع: طه باقر، ملحمة جلجامش، ط ٢ بغداد، ١٩٧٢م، وتعريبها للدكتور سامي الأحمد في مجلة

التراث الشعبي البغدادية، الأعداد ٦ لسنة ١٩٧٦م، ٨٧ لسنة ١٩٧٧م.

ويردف قائلاً أنه إذا سقط قتيلاً سيروي (أنكيدو) لابن جلعامش عن بأس أبيه وقوته، فليس في الموت هنا رهبة أو هول، والشهرة تُلطّف من حدثه، لأنّ إسم المرء يبقى حياً في الأجيال القادمة^(١).

لم يعن الموت حتى تلك الآونة، شيئاً لجلجامش، فهو قد قبل مقاييس البطولة المعهودة ومقاييس حضارته المعهودة، الموت لا بد منه، ومن العبث التخوف منه، فإذا كان على المرء أن يموت، فليمت ميتة المجد والفخار في مقاتلة خصم جدير به، لكي تعيش شهرته من بعده، إلى أن يموت (أنكيدو) - عقاباً له من الآلهة على صرعه حواوا - فيدرك (جلجامش) ما لم يدركه من قبل.

”أنكيدو، يارفيقي، يا أخي الأصغر، يامن كان معي في التلال.

يصطاد حمار الوحش، والفهد في السهول.

من كان برفقتي يفعل كل شيء: تسلق صخور التلاع

وأمسك بثور السماء وارداه قتيلاً،

وقذف أرضاً بحواوا الساكن في غابة الأرز.

ولكن - ما هذا النوم الذي غرقت فيه؟

لقد اعم وجهك وما عدت تسمعي.“

خسارته الفأذحة أفجع من أن يتحملها، فيرفض أن يعترف بها كامراً واقع، يقول:

ذاك الذي شاطرني في كل خطر،

حتف الإنسان المحتوم قد أحاق به.

بكيته طيلة النهار وطيلة الليل بكيته

ورفضت الاذن بدفنه

فلعل رفيقي أن ينهض لصراخي.

سبعة أيام وسبع ليال

(١) ما قبل الفلسفة، ص ٢٤٧-٢٤٨.

إلى أن سقطت من أنفه دودة.

لا عزاء لي منذ أن راح،

ورحت أنا كالصياد أطوف في الفيافي.

وتظل خواطر الموت تلاحق جلجامش، لم يبق له إلا نخاطر واحد، وهدف واحد،
هو العثور على الحياة الدائمة، فيخرج للبحث عنها، والكل يجيبه بأن يحشه لا أمل
يرجى منه

جلجامش، أين رحلت تحول؟

إن الحياة التي تبحث عنها، لن تجدها أبداً

لأن الآلهة عندما خلقت الإنسان، جعلت

الموت نصيبه، وأمسكت

بأيديها عنه الحياة.

جلجامش، املأ بطنك.

وأملأ أيامك باللذائذ،

وأرقص واعزف الألحان ليلاً ونهاراً.

والس القشيب من الثياب،

واغسل رأسك واستحم

وانظر إلى الطفل الممسك بيدك

ودع زوجتك تتمتع بعناقك

هذا وحده ما يبتغيه البشر.

ولكن (جلجامش) لا يستطيع أن ينصرف عن بحثه، ويستسلم لما هو من نصيب
الناس كلهم، إنه ليتحرق شوقاً إلى الحياة الدائمة، فيستمر في البحث الجاد والمضني
عنها، إلى أن يوفق في الحصول على نبتة تنمو في قاع البحر، تُعيد إلى من يأكل منها
شبابه، فينتعش (جلجامش) بعد اكتسابه، ويلقي بنفسه في بركة باردة، ويترك (نبتة)
العزيزة على الضفة، وفيما هي ملقاة هناك، تشم رائحتها إحدى الأفاعي، فتخرج

من جحرها، وتختطفها، وتأكل منها، فإذا ما طعنت في السن، ولدت فتية من جديد، أما الإنسان فتستحيل عليه العودة إلى الشباب، لأن نبتة جلجامش ضاعت عليه، ويمتلئ قلبه مرارة، ويتأمل في هذه النهاية الساخرة لبحثه الطويل.

”لمن أجهدت عضلاتي؟

لمن سكبت الدم من قلبي؟

لم آت لنفسي ببركة واحدة -

ولم احسن الصنيع إلا لأفعى الثرى“.

وهكذا نجد أن الموت في عرف العراقي القديم، ضرب من الحقيقة المجسدة ”حتف الإنسان المحتوم قد أحاق به“، والخلود محال ”إن الحياة التي تبحث عنها لن تجدها أبداً، والنتيجة (نعيش) نحن اللذة، ”املاً أيامك بالذائد“، ”هذا وحده ما يبتغيه البشر“، مع انصياعنا للأمر الواقع المفروض حسب القوانين الإلهية على الإنسان، إنها معادلة جدلية بين الحياة والموت، والأخير حتم ”يلغي“ ”الخلود“.

ولما كان لا بد من الموت طمأن الإنسان نفسه بالنظر إليه نظرة مادية، مع بقاء دنيانا هي الأجل مهما كانت صورة الحياة الثانية (أرض اللاعودة)، لذلك حاول (جلجامش) أن يتمرد على (القانون الإلهي) يبحث عن الخلود الحقيقي، وحينما فشل، استعاض عنه بالخلود المعنوي، ”لم آت لنفسي ببركة واحدة“، ”وإذا سقطت مخرجاً، أكون قد بنيت أساساً لشهرتي“.

لقد أجابت الملحمة عن مسألة أخلاقية كبرى شغلت فكر الإنسان طويلاً طرحتها كما يلي:

إذا كان الموت حتماً على الإنسان فماذا ينبغي على الفرد أن يسلك في هذه الحيلة؟ أينبذها ويفر منها متقشفاً؟ أم يسلك سبيل اللذة والتنعيم بالحياة تنغماً كلياً، أم يقبل قانون الحياة والطبيعة، ويدعن لما ليس منه بُد، فيضبط زمام النفس، ويقوم بتلك الأعمال الإنسانية التي تخلده؟

وهكذا تكون الملحمة قد عرضت لنا أبرز الاتجاهات الخلقية تتمثل في:

(أ) فلسفة اللذة، نحلاصتها اقتناص الفرص للتعيم بالحياة.

(ب) الفلسفة (الهروبية)، التي تسعى جاهدة للتنصل من مسؤولياتها في الحياة.

(جـ) الفلسفة التبريرية، التي يسعى الإنسان من ورائها إلى تبرير أفعاله حتى وإن كانت خاطئة.

(د) الفلسفة الواقعية، التي تسعى إلى تحقيق الإنسجام مع الطبيعة، والإتيان بالمفيد من الأفعال التي تخلد ذكرى صاحبها،

وبذلك نجحت الملحمة في مناقشة مشكلات خلقية مازالت تشغل بال الإنسان، وانتهت إلى موقف أخلاقي ملتزم، تمثل في تأكيد التفاؤل بالمأساة الإنسانية، منطلقاً من حكمة مفادها، حارب خوفك من الموت بالعمل الصالح، فأنتك تعيش أبداً، فذلك يجعل الحياة أسهل عليك وعلى الجميع^(١).

(هـ) "فلسفة التشريع" عند حمورابي:

احتلت الدولة في حياة العراقي القديم، منذ الألف الثاني ق.م.، موقعاً متقدماً، وكذلك "القانون"، ولا نغالي إذا قلنا أن فلسفة القانون والقاعدة الحقوقية والالتزام الخلقي من المبادئ الأساسية في المجتمع العراقي منذ ذلك الحين.

فقد تميز الإنسان الرافدي بوعي اجتماعي متطور وبخاصة في باب الحقوق والواجبات، حتى أنهم اعتادوا على ممارسة حقوقهم وحررياتهم في حدود "القلنون" باعتباره الأداة التي تحقق "الإنسجام" و"العدالة" والهادي للسلطة، فرفضوا على هذا الاعتبار كل محاولة للانتقاص من حريتهم الشخصية^(٢)، وتقدم لنا (بابل) في علاقتها بمواطنيها أنموذجاً للمدينة الفاضلة التي هيأت لهم أجواء العيش والإبداع العلمي المتقدم، واحتل حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م.) موقعاً هاماً في تاريخ هذه المدينة.

فقد نظم المذهب الإداري للإمبراطورية، وبسط سيادته حتى سواحل البحر المتوسط، وتقوم الأدلة على ثقافة عصره من الآثار الأدبية العظيمة التي تضم ألواح

(١) راجع: ملحمة جلجامش ص ١٩-٢٠، ص ٥١.

(٢) راجع ديورانت: قصة الحضارة ١٣/٢-٢٣، د. سامي الأحمد: المدخل إلى تاريخ العالم القديم، القسم الأول (العراق) بغداد ١٩٧٨م، ص ٢٧٤ - ٢٧٦.

عقود ورسائل ملكية، ولكن أهم أثر تذكاري لحكمه هو مدونة القوانين التي كشف عنها في السنوات الأولى من هذا القرن علماء الآثار الفرنسيون^(١).

وهذه المدونة - أحكام الاستقامة التي وضعها حمورابي، الملك العظيم - نظمت في دقة أحكام القانون المدني في بابل ويشمل الملكية والعقود والزراعة والتجارة وأعمال المصارف والزوج والتبني والارث، وكذلك سير المرافعات القضائية، وتشهد على المكانة الهامة التي كانت بابل قد وصلت إليها في تجارة الأمم، وهي تكون مذهباً محكماً لقانون الدولة، وتمثل تقدماً عظيماً بالقياس إلى قانون العادات في المجتمعات الأولى.

وقد حرّم - حمورابي - الانتقام بسفك الدم وقصر تطبيق شرعه المثل بالمثل على إجراءات المحاكم المقررة، والناس من كل الطبقات، الغريب والمولود في البلاد، على السواء تنظمهم حماية القانون، ومن الطرافة بمكان بالغ أن نقرأ كيف أن أمثال هذه المسائل الحديثة كالأعفاء من الخدمة العسكرية وثبات الملكية والتعويض عن التحسينات الزراعية ورقابة تجارة الخمر، وودائع المصارف، والمسئولية عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال، نظمها هذا الحاكم البابلي في ختام السنوات الألف الثالثة ق.م^(٢).

وبامتداد المدنية البابلية إلى سوريا وفلسطين، فإن مدونة قوانين حمورابي، والقانون الذي جاء بعد ذلك مستنداً إليها وضعاً طابعهما على تشريع هذه البلاد، لدرجة أنه أصبح في قدرة الإنسان أن يمتطي متن دابته في أمان من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط تحت حماية قوانين حمورابي؛ التي أسست نظاماً قابلاً للتطبيق على شعوب وبيئات مختلفة متباينة، من تجار أو زراع، وضعوا تحت سيطرة هيئة نظامية قوية، وجعلوا خاضعين في القضاء للأوامر الملكية.

استمع إليه يقول في مقدمة "مدونته":

"أنا حمورابي، الأمير، المطيع، خائف الله،

لإقامة العدل في البلاد،

^(١) - Scheil (r.), Trad. du code de Hammurabi (Mem. pub. par La Deleg. Ar.

enperse, t IV), Paris 1902.

^(٢) راجع بورج: تراث العالم القديم، جـ ١، ص ٤٠-٤١.

وتحطيم الأشرار والفاستدين، لكي

لا يؤذي القوي الضعيف،

وأطلع أنا كالشمس فوق الأناس

السود الرؤوس، وأنير البلاد“^(١)

وللمرة الأولى ذكر عندئذٍ المثل الأعلى الأسيوي للملك الكامل، الذي أخذت عنه الصين تعليق ملك العدالة، تقليد ملك الأب لشعبه، وهي فكرة لا يقل مداها الميتافيزيقي عن معناها الاجتماعي، ونشأ عن ذلك مصائر علم الإلهيات التوحيدى ومصائر السلام العالمى والحق، ومستقبل المذهب العقلى، فقبل أن يفكر الإغريق فى أن الرجل الحكيم سيكون سعيداً حتى فى تنورفالاريس^(٢) جاء حمورابى بعنصر حل مؤقت، وهو تخفيف المظالم الاجتماعية بالالتجاء إلى عدالة سيد أب رحيم يخفف شدة القانون بتطبيق قوانين غير مكتوبة^(٣).

وجاءت شريعة حمورابى اصلاً قانونياً شاملاً للتشريعات السابقة عليه، وهى غير قابلة للإجتهااد والتحوير، فلكل قضية عنده حكم هو الصواب، والحق لديه واحد لا يتغير، وعلى الإنسان أن يسعى دائماً إلى تحقيقه، وإذا ما فشل فى ذلك فعليه أن يدفع ثمن الخطأ^(٤)

ولكى ندرك حجم التقدم الحاصل فى وعى الانسانى الحقوقى - كما أظهرته مدونة حمورابى - فليس هناك أظهر من تفحص ”مكانة المرأة“ فى القوانين العراقية، فهى معيار الكشف عن مستوى النضج الحضارى، فى ذلك المجتمع، وفى أى مجتمع آخر، إن الأحوال الشخصية فى شريعة حمورابى مثلتها المواد (١٢٧ - ١٩٤)، التى عالجت مسألة الأولاد ورضاعتهم، وعدم شرعية الزواج بدون عقد شرعى،

^(١) جاكوبسون، ماقبل الفلسفة، ص ٢٢٨.

^(٢) فالاريس، طاغية صقلى عاش فى القرن السادس ق.م، وقد عرف بجهوده وتنوره النحاسى الذى كان يبيت به حرقاً من يريد.

^(٣) أورسيل، الفلسفة فى الشرق، ص ٧٧-٧٨.

^(٤) راجع : د/عامر سليمان، القانون فى العراق القديم جـ ١ الوصل ١٩٧٧ ص ١٣٢ وما بعدها،

والدكتور فوزى رشيد، الشرائع العراقية القديمة، ص ٥-٧، ٨١.

بالإضافة إلى نصيب المرأة بالتجارة، وتمتعها بالحرية في ممارسة مهنة التجارة، وحرية الفتاة الغنية في الزواج من عبد، وبروح المشرع المسؤول، تجاوز حمورابي في المادة (١٣٣) مسألة زواج المرأة التي يفقد زوجها في حرب أو ما شابه، في الزواج بأخر، إلى الإنتظار، في حالة وجود ما يكتفيها من الطعام، أما إذا ثبت عدم محافظتها على عفتها، مع تيسر سبل العيش لها، فتلقى في الماء (المادة ١٣٣ ب). أما إذا لم يترك ذلك الرجل الطعام الكافي لها (المادة ١٣٤) فلا جناح عليها، لأن هي دخلت بيت رجل ثان (تزوج)، وبذلك قرن المشرع سلوك الفرد بظروفه المعاشية والاجتماعية، أما إذا دخلت تلك الزوجة - التي لم تكن تمتلك الطعام الكافي - بيت رجل، قبل عودة زوجها، وانجبت منه أولاداً فتعود إلى زوجها عند عودته (تطلق) مع بقاء الأولاد مع أبيهم. وأكدت المادة (١٣٦) على عدم رجوع الزوجه التي دخلت بيت رجل ثان (تزوجها) بعد هروب زوجها من الحرب، إلى ذلك الزوج عند عودته في نهاية الحرب.

ولكى لا يخذل (حمورابي) كبرياء الرجل ومكانته الاجتماعية ساوى في المادة (١٧٠) بين أبناء الزوجه وأبناء (الأمه) وأبنائها، ولا يحق لزوجه أو أولادها التحكم بهم مطلقاً (المادة ١٧١) ؛ معنى ذلك أن حمورابي أقر عدم ديمومة العبودية على الأرقاء (من النساء والأولاد)، ويتحررون حال وفاة الأب، على خلاف ما لوحظ في بيئات أخرى.

ولم تميز شريعة حمورابي، في قسمة الأرض، بين الأولاد والبنات، مهما كانت درجاتهم، كما خصصت للزوجة، حصة مساوية لأبنائها في الميراث، فإذا أساء الأبناء معاملتها، وادوا إخراجها من البيت، فعلى القضاء معاقبة الأبناء، وابقاؤها في بيت زوجها (المادة ١٧٢) .

كما ضمنت المادة (١٨٠) حق الفتاة المتزوجة في المعبد من الارث، عند وفاة أبيها، حيث منحها حصة مساوية لبقية الورثة، ويعود ميراثها بعد وفاتها إلى أخوتها، أما (التبني) فنظمته المواد (١٨٥-١٩٣) حيث نصت الأولى على ما يلي:

إذا تبني رجل طفلاً (سمى) باسمه ورباه، فلا يطالب بذلك الطفل المتبني، ولهذا الأبن حقوق الآخرين.

أما حقوق الأبوه فضمنتها المادة (١٩٥) بنصها على ما يلي:

إذا ضرب الابن أباه فعلى القضاء أن يقطعوا يده ^(١).

وينزيد حمورابي على ما سبق، تأكيداً على أنه ليس بالضرورة أن يدفع الرجل مهرًا لزوجته، إذا اكتفت بمديته، لأنه قيمة الإنسان فوق كل شيء، وأن الوفاء الزوجي بين الطرفين عنوان العلاقة الزوجية الطاهرة، وأيضاً لا يحق للزوج أن يطلق زوجته إلا إذا كانت عقيماً أو زانية أو غير منسجمة معه أو سيئة التدبير للمزمل، وأن للمرأة حق ترك الزوج (مفارقتها) إذا كان قاسياً معها (دون الطلاق) إذا كان مخلصاً لها، ويعلق ديورانت على ذلك قائلاً.

" ولم تستمتع نساء انكلترا نفسها بهذه الحقوق إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي" ^(٢).

وبعد، فهل نغالي إذا قلنا - استنتاجاً من كل ما تقدم - أن "بدايات" فلسفية في "طبيعة" و "الأخلاق" ظهرت في وادي الرافدين، ثم انتقلت إلى بلاد اليونان، مع أفكار شرقية أخرى، لتتعمق وتتجسد على أيدي فلاسفتها، بما يواصل التقدم الفكري والفلسفي للإنسانية، ومن أبرز هذه "البدايات" :

١- أن الكلمة تساوي الاسم، والاسم يساوي الشيء، والشيء يساوي الوجود، بمعنى أن اسم الشيء يعني وجوده، ولا شيء في الوجود بلا اسم، ولا اسم بلا كلمة، ولا كلمة بدون وجود، فما لا اسم له، لا وجود له.

٢- كل ماهو موجود، هو جزء من (الكون) ولا شيء في الكون دون (قانون) يظمه، عليه تصبح جميع الموجودات، خاضعة للاتساق والنظام، ومن غير الممكن تصور وجود كون تحكمه الفوضى وتسوده العبثية.

٣- الكون كالإنسان، حي وعاقل ومنظم، ولا حياة دون نظام وعدل، لذلك أصبحت الحياة الإنسانية السعيدة، لاتستقيم إلا في ظل نظام عادل، ولما كانت الكائنات الحية محكومة بالنظام، فالإنسان قبل غيره - وبوصفه سيد المخلوقات - محكوم بالنظام والطاعة الواعية.

^(١) راجع تفصيلاً لهذا: شمار (جورج بويه) : المسؤولية الجزائية في الآداب الآشورية والبابلية، ترجمة

سليم الصويص، بغداد ١٩٨١ ص ٣٢-٣٥، ٢٧٨-٢٧٩، ٣٤٧-٣٤٩.

والدكتور محمد كاظم العطار : حمورابي ذلك العظيم، بغداد ١٩٨٣.

^(٢) قصة الحضارة ٢/٣٢-٣٣.

٤- ثم يرتقى منطق العراقي القديم إلى نسق أعلى في دائرة الواقع الاجتماعي والأخلاقي، متجاوزاً حدود الأفق الطبيعي، فالكون يساوي المجتمع، والمجتمع لا يستقيم إلا بالنظام، ولا يمكن تصور النظام بدون (قوة) السلطة، ولا سلطة بدون (عدالة) القانون، ولا عدالة بدون حاكم عادل، وشعب مطيع ومتعاون، عليه لا مسؤولية دون قانون عادل، إذن القانون هو الذي يحدد مسؤولية الإنسان العاقل، والعدالة هي قانون الحياة الفاضلة في المجتمع السعيد. وهكذا، نجد أنه كان لحضارة وادي الرافدين، منذ زمن باكر دورها المؤثر في تاريخ البشرية، وكان للفلسفة الخاصة فيما بين النهرين - طبيعية وأخلاقية- نصيب ملحوظ في تكوين الفكر العالمي.

الفصل الثامن

" الفلسفة الهندية "

ويشمل:

(أ) تمهيد.

(ب) السمات السائدة في الفلسفة الهندية.

(ج) الفيدا والأوبانيشاد وبدايات الفلسفة الهندية وأعماقها.

(د) اليوجا-الطريق إلى ضبط النفس في الفلسفة الهندية.

(أ) تمهيد:

للفلسفة الهندية تاريخ طويل، والشذرات التأملية الأولى التي يمكن أن توصف بأنها "فلسفية" تنتمي إلى الريح فيدا^(١)، التي ربما تم تأليفها في وقت مبكر يعود إلى ١٥٠٠ ق.م، ومنذ تلك البدايات التي أضفى عليها مرور الزمن هالة من الغموض والالتباس، أحرزت الهند ثروة طائلة من الرؤى والتأملات والمناقشات الفلسفية.

ويمكن تصنيف فترات تطور التراث الفلسفي في الهند كما يلي:

تمتد المرحلة الفيدي من نحو ١٥٠٠ ق.م، بينما شغلت المرحلة الملحمية الفترة من ٨٠٠ ق.م إلى ٢٠٠ ق.م، ودامت مرحلة السوترا^(٢) حتى نحو ٤٠٠ ق.م إلى ٥٠٠ م، وقد بدأت مرحلة الشرح على المتون في حوالي ٤٠٠ م، واستمرت حتى نحو عام ١٧٠٠ م، أما مرحلة النهضة التي مازالت مستمرة حتى اليوم، فقد بدأت نحو عام ١٨٠٠ م.

وقد بدأ العصر الفيدي عندما انتقلت الشعوب الآرية من آسيا الوسطى إلى وادي السند في نحو عام ١٥٠٠ ق.م، واختلط التراث الثقافي الذي حملوه معهم بتقاليد الشعوب التي التقوا بها وعاداتهم، وبدأ ما يمكن تسميته بالثقافة الهندية بالمعنى الصحيح في التشكل، وتمت تغذية نموها من خلال مناسخ وأوضاع الثقافتين السابقتين.

(١) الفيدا Veda: كلمة سنسكريتية مشتقة من الأصل فيد Vid بمعنى "يعرف"، والمقصود الكتب المقدسة الهندوسية الأقدم، والتي تضم أربعة أسفار هي: الريح فيدا، والسما فيدا، وهي ترايسم تصاحب تقديم القرابين، والياجور فيدا، وهي نصوص إضافية مرتبة حسب القرابين، وأخيراً الإنر فيدا الذي يُعرف بسفر الفقراء والذي يضم نصوصاً يفسرها البعض على أنها مادة للرقى السحرية. أما [الريح فيدا] فهو قسمان، أولهما أدعية وصلوات وترايل شعرية، والآخر يشتمل على تعاليم تتعلق بالعبادات والوجبات الدينية.

(٢) السوترا - Sutra - كلمة سنسكريتية، وتعني أصلاً الحيط أو القاعدة، والسوترا هي مرحلة التطوير، وفق المدارس المختلفة لنصوص الفيدا، والكلمة تعني كذلك تلخيصات لجانب من التعاليم الهندوسية أو مجموعة حكم أو محاورات.

وقد اندرجت الثمرة الفلسفية لهذه المرحلة المبكرة في مجموعة من الكتابات تُعرف باسم "الأوبانيشاد"^(١) التي تمثل ذروة التأمل الفلسفي لهذه المرحلة الأولى المبكرة؛ فقد طرح الهنود أسئلة عن أنفسهم وعن العالم من حولهم، وموضعهم فيه، مثل: ما الذي يجعل الريح تهب؟ من الذي وضع الشمس -مانحة الدفء والضياء- في السماء، وكيف تجلب الأرض الوافرة الصور هذه الأشكال التي لاتعد ولا تحصى من الحياة؟ تلك أسئلة نموذجية مما احتوتها التأملات الأولى في المرحلة الفيدية، وهي أسئلة تلقت في بداية الأمر ردوداً تعزو كل هذه الأشياء، الرائعة والرهيبية معاً إلى الآلهة.

والأسئلة التي تدور حول "كيف" و"لماذا" هي جذور التأمل الفلسفي، ولقد حاول المفكرون في البداية الإجابة عن هذه الأسئلة بمفاهيم الشخصية الإنسانية، وعزّوا الأحداث التي تقع في الطبيعة إلى أشخاص فائقة للإنسان، أو إلى آلهة.

وبحلول عام ٤٠٠ ق.م، كان قد تم بالفعل إرساء بدايات العديد من التفسيرات الفلسفية النسقية للعالم وللطبيعة الإنسانية، وتمثل هذه المذاهب أول جهدٍ فلسفي خالص في الهند، فهي لم تحاول أن تفسر أساسيات الحياة والعالم فحسب، وإنما قامت بذلك بوعي ذاتي وبانتقاد ذاتي، من أجل صحة الإجابات المقترحة على أساس العقل.

ونتيجة للمؤثرات الخارجية، لا سيما الاحتكاك بالغرب، بدأ الفلاسفة الهنود في إعادة تدريس تراثهم الفلسفي، وازدهر هذا التجديد للتراث القديم في القرن التاسع عشر، ويعد غاندي وطاقور، وراماكرشنا، وراد أكريشنا، من بين مفكرى النهضة الأكثر تأثيراً في الهند.

(ب) السمات السائدة في الفلسفة الهندية:

لعل أكثر السمات إثارة في الفكر الفلسفي الهندي، بعد ثرائه وشموله، تتمثل في طابعه العملي، فقد نشأت تأملات حكماء الهند، منذ البداية، من محاولاتهم

(١) الأوبانيشاد-Upanishad- كلمة سنسكريتية، تتألف من مقطعين أوبا Upa: بمعنى قريب من، ونيشاد ni-shad بمعنى يجلس والمراد "يجلس قرب العلم" ويقصد بها محاورات تأملية ميتافيزيقية، تضم مائة وثمانين محاوراً صيغت فيما بين ٨٠٠، ٥٠٠ ق.م.

تحسين الحياة، فقد واجه الفلاسفة الهنود العذاب الجسدى، والذهنى، والروحى، وسعوا لفهم مبرراته وأسبابه، وحاولوا تحسين فهمهم لطبيعة الإنسان والكون، كما أرادوا استئصال أسباب المعاناة وتحقيق أفضل حياة ممكنة^(١) وتشكل الحلول التى وصلوا إليها، ومبررات النتائج الكامنة وراء هذه الحلول، فلسفات هؤلاء الحكماء الأوائل.

ولقد استجابت فلسفات الهند لدوافع عملية وتأملية، فقد كان هناك على الصعيد العلمى التعرف على الأشكال المألوفة من المعاناة-المرض، والجوع، والوحدة، والعلم بأن الموت سيحل فى نهاية المطاف بمن حلت المعاناة بساحته، وكان هناك، على الصعيد النظرى حب الاستطلاع الإنسانى الفطرى لفهم التجربة وتنظيمها، ودفعت اعتبارات عملية إلى البحث عن سبل التغلب على أشكال المعاناة المختلفة، وأدت اعتبارات تأملية إلى بناء وصف تفسيرى لطبيعة الواقع والوجود الإنسانى، ولكن هذه الاعتبارات لم تؤخذ بصورة منفصلة، فقد استخدم الفهم والمعرفة المستمدان من الفضول التأملية فى محاولة للتغلب على العذاب والمعاناة.

والمعاناة نتيجة هوة بين ما يكونه المرء وما يملكه، أو بين ما يريد أن يكونه وما يريد أن يملكه، فالإنسان الفقير إذ يرغب فى الثروة التى يفتقر إليها، يعاني، والإنسان الذى يرغب فى الخلود، على الرغم من أنه يعلم أن الموت حتمى، يعاني من هذه الحتمية، ولو لم يكن هناك فارق بين ما يكون عليه الإنسان وما يملكه، وبين ما يريد أن يكون عليه وأن يملكه، لما كانت هناك معاناة، وعندما يكون هناك فارق فالمعاناة حتمية، وإذا كان الأمر كذلك، ف إن حل المشكلة واضح وهو: ينبغى أن يتطابق ما هو كائن وما هو مرغوب فيه.

ولكن كيف يمكن هذا التطابق؟ يعتمد أحد مناهج الحل على مواءمة ما يكون عليه المرء، وما يملكه، مع ما يرغب فيه، فإذا كان الإنسان فقيراً، ولكنه يرغب فى الثروة، فإنه ينبغى أن يجتهد فى جمعها، ويتمثل المنهاج الآخر فى مواءمة رغبات المرء مع ما يمكنه، فإذا كان المرء فقيراً ويرغب فى الثروة، فإن المشكلة الناجمة عن ذلك يمكن التغلب عليها من خلال هذه الرغبة.

(١) جون كولر: الفكر الشرقى القديم، ص ٢٧.

وقد تبنت الفلسفة الهندية بصفة أساسية المنظور الثاني، واختارت الهند التشديد على ضبط الرغبات، ونتيجة لذلك فإن فلسفات الهند تميل إلى التشديد على الانضباط الذاتى والسيطرة على النفس، كشرط مسبق للسعادة والحياة الخيرة، فالسيطرة على الذات، لا إشباع الرغبات هى الطريق الأساسى للقضاء على المعاناة.

وهذه الحاجة إلى كبح جماح الرغبات والسيطرة عليها أكدت على نحو غير عادى أهمية معرفة الذات، فمعرفة الذات والسيطرة على النفس يمكن أن تؤدى إلى تخفيف المعاناة على نحو يفوق بكثير ما يقوم به علم الطبيعة، ومن هنا أصبحت الممارسة العملية للفلسفة الهندية، فى أحسن صورها، هى فن العيش فى إطار سيطرة المرء الكاملة على ذاته.

ويتجلى الطابع العملى للفلسفة الهندية بأشكال عدة، فالكلمة ذاتها التى تترجم عادة بـ " الفلسفة " تشير إلى ذلك، وكلمة دارشانا^(١) -Darshana- تعنى حرفيا " رؤية Vision " ، إنها ما تتم رؤيته، وهى تعنى فى معناها الفنى الدقيق ما تتم رؤيته عندما يجرى بحث الواقع المطلق.

وقد بحث حكماء، فى غمار سعيهم وراء حل لعذابات الحياة، ظروف المعاناة، وفحصوا طبيعة الحياة الإنسانية والعلم، للوصول إلى أسباب المعاناة وسبل القضاء عليها، وما وصلوا إليه بشكل رؤيتهم، أو فلسفتهم.

ومن الممكن، بالطبع، أن يخطئ أحدهم فى رؤيته، فهو قد لا يرى الأمور على نحو ما هى عليه بالفعل، ومن هنا، فإن رؤية الفيلسوف ينبغى تبريرها بتقاسم دليل على صحتها.

(١) دارشانا: تعنى حرفيا " يرى " أو " ينظر " ، وهى تنصرف إلى تصنيف محدد لنسق أو رؤية أو تصور لم تتم مناقضته، ولم تجر الإضافة إليه، وهنا نلاحظ أن هناك اعتراضا، ضمنا، قوامه أنه لا يمكن للفرد الذهاب إلى أنه قد أدرك الحقيقة للمرة الأولى، وإنما بمقدوره أن يطرح. أو يفسر. أو يدافع عن شكل جديد للحقيقة، سبقت رؤيته من قبل، أو طرحه آخرون، أو دافعوا عنه ومن هنا يجهى ما درج عليه المفكرون الهنود من بدء طرح أفكارهم الخاصة الجديدة بالإشارة إلى أنها تابعة أو لاحقة أو امتداد (لدارشانا) سابقة.

والتوحيد بين الطريق إلى الحياة الخيرة، ورؤية هذه الحياة الخيرة، هو ذاته عند التامل بين الدين والفلسفة في الهند، وعندما يُنظر إلى الفلسفة باعتبارها لا تتم إلا بـ "نظرية" الحياة الخيرة فحسب، فإن الاهتمام بالوسائل العملية لتحقيق الحياة الخيرة لا يُعد اهتماماً فلسفياً، وقد يُنظر إلى وسائل الحياة عندئذٍ على أنها تنسب إلى المجالات الدينية أو الاقتصادية، ولكن ليس إلى المجال الفلسفي.

وعندما يُنظر إلى الحياة الخيرة باعتبارها "في مستوى أسمى" من هذه الحياة العادية، فإن وسائل تحقيقها يُنظر إليها عادة باعتبارها سبلاً دينية؛ وعندما تسود وجهة نظر مادية عن الحياة الخيرة، فإنه غالباً ما يُنظر إلى وسائل تحقيقها على أنها وسائل اقتصادية، وفي جميع هذه الحالات لا يقع الموضوع في مجال الفيلسوف.

وإذا كان الدين والاقتصاد مجالين عمليين، والفلسفة مجالاً نظرياً، فإن الخلافات المترتبة على ذلك من حيث النطاق والهدف، والمنهج ستحدد، في حسم، منظور كل منهما، ولكن في الهند يتعين اختبار نظرية الفيلسوف عن الحياة الخيرة من خلال التطبيق أو الممارسة، كما أنه ينبغي على الفيلسوف أن يتوصل إلى وسيلة لتحقيق الحياة الخيرة، لكي يكون فيلسوفاً، فليس تحديد حاسم يفصل بين النظرية والتطبيق، فالفلسفة والدين لا يُعتبران نشاطان منفصلان.

ولتشديد الفكر الهندي على التطبيق العملي، كمحرك لاختبار الحقيقة الفلسفية أثر آخر، هو التأكيد على أهمية منظور التأمل الذاتي أو الاستبطان، إذ ينبغي على المرء لكي يتغلب على المعاناة أن ينغمس في فحص الذات، التي يمكن خلالها فهم الأوضاع الداخلية للحياة، وهذا يقتضي وعياً عميقاً متواصلاً.

وتهتم الفلسفة الهندية، قبل كل شيء، بالبحث عن طريق لتحرير النفس من التقيد بأنماط هي شذرات محدودة من الوجود، وهي عبودية تسبب المعاناة، وبحسب الأوبانيشاد، فإن القوة العظمى (براهمان^(١) Brahman) التي تمنح الكون طاقة،

^(١) براهمان : كلمة سنسكريتية، ويُقصد بها الاسم الذي أطلقت عليه معلمو وحكماء الأوبانيشاد على الوجود الأسمى، وهم يجسدونه في الإله الخالق براهما، ويصفونه طرفاً في ثلاث مقدس [براهما-الخالق-ولشنو(الحافظ)-وشيفا(المدمر)].

والطاقة الروحية للذات (أتمان^(١) Atman) هما شيء واحد، في نهاية المطاف، وهذه الرؤية التي توحد بين الذات والحقيقة النهائية تقدم الأساس لمنهج التحرير، التي تُشكل المحور العلمى للفلسفة الهندية.

وبالإضافة إلى سمات الفلسفة الهندية هذه، التي تنبع من توجهها العملى، هناك ميل واسع الانتشار فى الفكر الهندى، لأن يفترض مقدماً وجود عدالة أخلاقية كلية، فالعالم يُنظر إليه على أنه مسرح أخلاقى كبير تديره العدالة، وكل شيء خير أو شرير، أو مُحايد، يُكتسب ويستحقه من يصل إليه، ومن شأن هذا الموقف أن يُلقى بالمسئولية عن الوضع الإنسانى على كاهل الموجودات البشرية ذاتها، فنحن مسئولون عما نحن فيه، وعما نؤول إليه، وقد قررنا بأنفسنا ماضينا، وسوف نقرر مستقبلنا، بحسب ما يذهب إليه الفكر الهندى، ونحن نجد فى الكتابات المقدسة، مثل الفيدا، أن مفهوم الريتا^(٢) -Rita- (القانون الأخلاقى) يشير إلى العدالة على أنها تحكم الكون، ومع التأكيد على أهمية الواجبات، الإنسانية استجابة للعدالة، أصبح مفهوم الدراما^(٣) -Dharama- على نحو ما تقرره البنية الأخلاقية للكون مفهوماً سائداً، وغداً مفهوم الكارما^(٤) -Karma- يشير "إلى العلاقة بين ما فعله المرء وما كانه، وإلى التأثير السببى لأفعال الإنسان، التي تنهض كمبدأ لتقرير المصير:

وهناك-أخيراً- إجماع واسع الانتشار فى الفكر الفلسفى الهندى بصدد "اللاتعلق"، فالمعاناة تنشأ من تعلق المرء بما لا يملك، بل وحتى لا يمكنه أن يملك، ثم

(١) أتمان: كلمة سنسكريتية، يُراد بها فى الآيات الهندوسية روح العالم، أو مبدأ الحياة، أو الروح المطلقة، أو نفس الكون الفعلية التي تتخلل كل شيء.

(٢) الريتا: النظام الطبيعى والأخلاقى للكون، ووفقاً للهندوسية، فإن الإله (فارونا) هو الذى يقوم على حراسة هذا النظام

(٣) كلمة سنسكريتية، تعنى فى أبسط معانيها، فى تراث الهندوسية والبوذية، الشريعة الدينية، أو العمل بأحكامها، أو الدين، أو القانون، أو الفضلية، أو صفة جوهرية.

(٤) كلمة سنسكريتية، تعنى حرفياً "الفعل" و "المصير" وتُعد مصطلحاً مهماً فى التراث الهندى حيث تُشير إلى مجمل أفعال الشخص فى واحدة من حالات الوجود المتوالية، وهى تقرّر ما سيكون عليه فى الحالة التي تعقب ذلك بعد أن تحددت بالحالة التي سبقتها.

تصبح هذه الموضوعات التي تتعلق بها سبباً للمعاناة، مادام لم يحصل عليها أو فقدت منه، ومن هنا فإنه إذا ما أمكن غرس روح "اللاتعلق" بموضوعات المعاناة، فإن هذه الأخيرة يمكن القضاء عليها، وهكذا فإن "اللاتعلق" يتم إقراره كوسيلة جوهرية لتحقيق الحياة الخيرة.

وبسبب سمات الفكر الهندي التي أشرنا إليها، فإن شعب الهند يُقدر الفلاسفة، عادة، أسمى تقدير، كما أنه ينظر إلى الفلسفة باعتبارها أسمى معرفة، وأرفع حكمة.

(ج) الفيدا والأوبانيشاد وبدايات الفلسفة الهندية وأعماقها:

تكمّن بدايات الفلسفة الهندية في التأمّلات المسجّلة في نصوص الفيدا، وهي نصوص الحكمة التي تعود في أجزاءها الأقدم إلى المرحلة التي تبدأ بعام ١٥٠٠ ق.م، وقد شكّلت هذه النصوص مصدر إلهام للفلاسفة الهنود على امتداد العصور، واستمرت كتابة الشروح على متونها حتى العصر الحالي، وأقدم نص هو نص الريج فيدا الذي يعنى "أشعار الحكمة"، ويعد المصدر الأدبي الأكثر أهمية في الديانة والثقافة الهندية، وقد ألحقت بنصوص الفيدا كأجزاء ختامية لها مجموعة من النصوص، تعرف بـ "الأوبانيشاد"، وهذه النصوص التي جرى تأليفها فيما بين ٨٠٠ ق.م و ٥٠٠ ق.م، تحفل بالفكر التأملّي والتصوري فيما يتعلق بطبيعة النفس والواقع، وتقدم الأسس التي قام عليها التفكير الفلسفي فيما بعد، غير أنه لا بد أن يكون مفهوماً أنه رغم قدم نصوص الفيدا، فإنها ليست تعبيرات صادرة عن شعب بدائي، فالأفكار المعبر عنها في نصوص الفيدا والأوبانيشاد تجمع بين العمق والصقل، وهي نتيجة لقرون من الفكر التأملّي فيما يتعلق بأعمال أسرار الحياة، وهي تقدم استبصارات حول مسار الحياة، تشكّل شهادة تتجاوز كل الأزمان على الحكمة الإنسانية، الأمر الذي مكّن هذه النصوص من أن تُلهم الثقافة الهندية وتغذيها حتى العصر الحالي.

(١) الفكر الفيدي:

نصوص الفيدا هي أشعار حكمة، تشكّل جوهر طقوس الهند المقدسة، وتحدثنا الفيدا ذاتها بأن هذه الأشعار عندما تُرتل، وتنشد، ويُتغنّى بها، فإنها تمكّن الخلق جميعاً من المشاركة في حكمة الواقع الإلهي وطاقته، وينظر إليها على أنها نوع

من المعرفة المرتبطة بالعمل القادر على قهر التجزئة والاغتراب في إطار عملية توحيد كل الكائنات، وملء الحياة بطاقة مقدسة.

أمّا التراث فهو ينظر إلى الحكمة الفيدية على أنّها تتجاوز الزمن وليس لها مؤلف بعينه، وهذه الحكمة تتجلى لأفئدة أشخاص عظام، امتدت تجربتهم إلى الجوهى الداخلى للوجود، وهى تتجاوز الزمن لأنها تجلت للبشر الأوائل أنفسهم كما تتجلى اليوم لكل من تغوص تجربتهم في أغوار الحياة، وليس لها مؤلف بعينه، لأنها لا يكشف عنها أشخاص، وإنما الواقع ذاته، وينظر إلى الريح فيدا، على أنّها أقدم مجموعة من أشعار تلك الحكمة، على أنّها منبع التّعة الروحية الهندية، فعلى امتداد ما يزيد على سبعة آلاف عام شكّلت مصدر إلهام للتراث الهندى.

ومعظم الأشعار الفيدية موجهة إلى الآلهة، ولها وظيفة مركزية في تأدية الطقوس، لكن ذلك لا يعنى أنّها مجرد ترانيم للعبادة، أو تراتيل للطقوس، فبعضها أعمق من ذلك بكثير، فهو يقدم رؤية عميقة ودقيقة للواقع، بل إن الآلهة الذين تتم مخاطبتهم في هذه الأشعار ليسوا موجودات ذات سمات بشرية، بل هى رموز للقوى الأساسية للوجود، أى تمثل القوى التى تخلق الحياة وتدمرها، التى تسيطر على فيض الوجود.

وعلى الرغم من أن الآلهة الفيدية ترمز لقوى الوجود، فإنها لا تنظر إليها عادة باعتبارها خالقة الوجود، بل إن فكرة خالق منفصل عن الكون ذاته هى، في الواقع، فكرة غريبة عن الريح فيدا، فكل من العقل ومادة الكون ينظر إليهما على أنّهما متضمنان في الوجود ذاته، ولا سبيل إلى فصل أحدهما عن الآخر؛ ولأن الوجود كان ينظر على أنه عاقل، بحكم ما في مضمونه، فإن الكون قد نظر إليه باعتباره كلا منظما، والنظام الكامن في ضروب الانتظام العضوية يمضى إلى عمق أكبر ليصل إلى قلب الوجود، وهذا النظام العميق، الذى يقدم قواعد للتعبير عن الوجود، قواعد أخلاقية، نفسية، جمالية، دينية عضوية، يعرف بالريتا-Rita- والريتا باعتبارها الإيقاع الجوهري للوجود، وهيكّل هذا الوجود أكثر أساسية من الآلهة، فهذه الأخيرة بدورها خاضعة للمطالب.

أصل الوجود في الفكر الفيدى:

وفي ترنيمة الخلق الشهيرة الموجودة في الكتاب العاشر من الريح فيدا، يكافح الحكيم لتعرف أصول الوجود، وبعد أن تشير إلى، ماهو موجود، وماهو غير موجود، فإن الوجود والعدم ينبغي تركهما وراءنا، وهو ينتهي من ذلك إلى أن المصدر الأصلي، للوجود، ربما لا يمكن معرفته.

تقول أبيات الترنيمة:

١- في البدء لم يكن هناك وجود ولاعدم،

لا وجود للعالم ولا للسماء فيما وراءه.

ما الذي أسدل عليه الستار؟ أين؟ من الذي منحه الحماية؟

٢- آنذاك لم يكن هناك موت ولا خلود،

وما من أثر لليل أو نهار،

لم يكن هناك سوى الواحد الذي يتنفس، دوغما نفس، بدافع من ذاته،

وعدا ذلك لم يكن ثمة شيء على الإطلاق.

٣- كان هناك ظلام، يلتف بالظلام،

وكل هذا كان طاقة لا تمايز فيها،

وذلك الواحد الذي حجبته الخواء،

كشف النقاب عنه من خلال قوة الحرارة-الطاقة.

٤- في البدء كان الحب،

الذي كان البذرة الأولى للعقل.

وفي سعي الحكماء، الحكمة في أفئدتهم،

اكتشفوا الصلة بين الوجود والعدم.

٥- من ذا الذي يعرف حقاً؟ من ذا الذي يمكنه أن يقول هنا؟

متى ولد هذا الخلق؟ ومن أين جاء؟

لقد جاءت الآلهة بعد خلق هذا العالم،

فمن ذا الذى يعرف من أين جاء؟

٦- ذك الذى من رحابه جاء الخلق،

سواء كان يضمه معا أم لا،

هو الذى يراه فى السماء العلا،

هو وحده الذى يعرف-أوربما حتى لا يعرف^(١)

تكشف لنا هذه الأشعار، عن إلمام بالمحاولات السابقة لتحديد أصول الوجود، ويحاول الحكيم هنا الوصول إلى ما هو بصورة مطلقة، ولما كان الوجود والعدم يعارض أحدهما الآخر، فإن الحكيم يفترض وجود حقيقة واثقة أسبق هي مصدر هذا الزوج من الأضداد، ونجده يتساءل: ما الذى كان هناك قبل الوجود والعدم؟ وفى غمار جهوده للمضى إلى ما يتجاوز الثنائيات التى تفصل الموت عن الخلود، والليل عن النهار، والنفس عن المتنفس، لا يجد مجالا للنفى أو الإثبات، فالعقل الذى يبحث فيما وراء الكينونة واللاكينونة لا يجد إلا ظلاما.. (ظلاما يلتف فى ظلام).

وربما فى الحب، الذى يمضى إلى ما وراء العقل، يمكن العثور على الواقع الأول، ف جذور الوجود إنما توجد فى الحب، وهو-الحب- قوة توحد الأضداد فى كل جديد خلاق، وهكذا، فإن الشاعر، فى المقطوعة الشعرية الرابعة، يشير إلى أنه فى الحب تلتقى قوى الوجود والعدم، لتلد كل أشياء هذا العالم، لكنه يدرك أن ذلك لا يفسر أصول الوجود والعدم، وإنما يوضح انتاجها المشترك للعالم.

إذن من ذا الذى يعرف هذا السر؟ من ذا الذى يستطيع اختراق لغز الحياة الأساسى؟ إن الترنيمة تختتم بالإشارة إلى أنه حتى " هو الذى يراه فى السماوات العلا" لا يستطيع أن يصل إلى هذه المعرفة، والفكرة التى تتضمنها هي أن الموجودات البشرية يتعين عليها أن تظل منفتحة على هذا السر، مشاركة فى عملية التجدد الذاتى، التى من خلالها يتحقق الكل غير المنقسم فى الحياة اليومية.

(١) راجع كولر: الفكر الشرقى القديم، ص ٤٩-٥٠.

واكتشاف الواقع الأساسى الذى يجاوز المنطق واللغة، هو أحد الاستبصارات العظيمة، للفيديا، ف" ذلك الواحد غير المقسم، والذى لا سبيل إلى تسميته، يشكل الأساس والطاقة لكل وجود.

(٢) "الأوبانيشاد" والطابع الفلسفى:

الأقسام الأخيرة من الفيديا، التى تعرف بالأوبانيشاد، ذات طابع فلسفى أكثر من الأجزاء المتقدمة، ذلك لأنها تخلو من قيود الحقيقة المقررة سلفا، وهى تتضمن اعترافا بالحاجة إلى تقديم دليل على دعواها، كما أنها تعنى بالمبادئ الأساسية للوجود.

وتتل [الأوبانيشاد] إلى تأكيد أهمية مضمون رؤية الحكيم أكثر من ميلها إلى التشديد على الوسائل التى يمكن عن طريقها تبرير هذه الرؤية، والسؤال الرئيسى الذى تطرحه نصوص الأوبانيشاد هو:

" ما الطبيعة الحقة للواقع النهائى؟"

وهذا السؤال يفترض مقدما أن هناك اختلافا بين ما " يظهر " أنه واقع، وما هو واقع حقا، فالمظهر لا ينظر إليه على أنه يكفى لتبرير وجوده الخاص، وإنما يعتمد على واقع أسمى، ولم يكن البحث منصبا على عالم المكان والزمان، الملىء بالأصوات، والروائح والألوان.. الخ، أو ما " يظهر " لنا على أنه عالمنا، وإنما هى "الشروط" التى تجعل هذا العلم الظاهر أمرا ممكنا.

ولم يبحث حكماء [الأوبانيشاد] الشروط الخاصة بمظاهر بعينها، وإنما كلنوا يسعون إلى معرفة ذلك الذى فرض الشروط، أو الذى جعل الوجود نفسه أمرا ممكنا؛ ولم يكن لدى هؤلاء الحكماء تصور واضح عما يبحثون عنه، فقد كانوا يعرفون أنه لا بد من وجود ذلك الذى عن طريقه وجدت كل الأشياء الأخرى، والذى جعلها عظيمة، والأسم المعطى لهذا "الشيء" هو براهمان " Brahman " وهو يعنى "ذلك الذى يضيفى العظمة"، وقد كان اسما غير وصفى، فهو لا يسمى أى شيء محدد، مجردا كان أم متعينا.

وقد سجلت [الأوبانيشاد] البحث عن "براهمان" باعتباره بحثا عن الواقع الخارجى النهائى، وقد كانت هناك فى البداية محاولة لتعرف ذلك "الشيء" عن

طريق الرموز، والطقوس الدينية، وعن طريق الأشياء الطبيعية، مثل الشمس والقمر، وعن طريق وظائف سيكولوجية معينة للموجودات البشرية، وكل هذه المحاولات لتحديد ماهية "براهمان"، من خلال شيء آخر، تفترض مقدما حدودا لتلك القوة، ولكن إذا كان "براهمان" مطلقا فمن المستحيل أن يكون مقيدا، ذلك أنه ليس من الممكن أن يكون هناك شيء فيما وراءه ليقيده، وعندما بدأ الحكماء يدركون، بصورة أكثر وضوحا، أن "براهمان" لا يمكن وصفه على نحو مناسب، بالالتجاء إلى خبرتهم بعالم الظاهر، حاولوا تحديد هذا الواقع بالسلب.

فيصفه أحدهم قائلا:

"إن براهمان لا سبيل إلى تصوره، فهو لا يتغير، ولا يناله أذى، ولا يمكن إدراكه، ولا سبيل إلى سماعه، ولا مجال لرؤيته أو تذوقه، وليس بالوسع شمه، وهو بلا بداية ولا نهاية، وأعظم من العظيم"^(١)

ويصفه آخر بقوله:

"لا سبيل إلى رؤيته، أو الإحاطة به، لانسل له، ولا لون، بلا عين ولا أذن، وبلا أيد ولا أقدام، يتخلل كل شيء، وهو كل الوجود، إنه الواحد، الذي لا يتغير، الذي ينظر إليه الحكماء باعتباره مصدرا للموجودات"^(٢)

وهناك اهتمام آخر لحكماء [الأوبانيشاد]، تركز حول [الذات المطلقة]، ماهي؟ وذهبوا إلى أنه إذا كان من المعتقد أن الذات هي الجسد، فإنها تكون الطعم بصفة جوهرية، ذلك أن الجسد هو طعام مهضوم، ولكن من المؤكد أن الذات لا يمكن أن تتحد مع الجسد فحسب، لأنها شيء يفوق ذلك، فهي حية ومتحركة، وإذا لم تكن الذات طعاما، فرمما كانت الحياة المستمدة من الطعام، ولكنهم أدركوا أنه بينما يفيد ذلك في تمييز المادة الحية من المادة الجامدة، فهي ليست ذات الشخص المطلقة، ذلك أن الشخص يزيد على كونه طعاما حيا، والذات ترى، وتسمع، وتحس، الخ، وبمعنى هذا التأمل ليقول إنه ربما كان ينبغي النظر إلى الذات من خلال مفاهيم العقل أو الإدراك، ولكن هذا بدوره بدا غير مناسب، ذلك أن التفكير والفهم يتعلقان على نحو أكثر ملائمة بالذات منهما بالإدراك، غير أن هذا الطرح

(١)، (٢) راجع توملين: فلاسفة الشرق، ص ١٨٢ وما بعدها

رفض بدورده، باعتباره طرحا غير مناسب، ذلك أنه لابد أن يكون هناك من يمنح الوجود للتفكير والفهم، وكما تقول الأوبانيشاد:

"مختلفة عن ذلك الذى يتألف من الفهم، وقائمة فى أغواره، هى الذات المباركة"^(١)

كان هذا البحث عن الذات المطلقة، هو بصفة جوهرية، مسألة تسير على نحو أعمق وأعمق فى أسس الوجود الإنسانى، وهى مسألة نظر إليها باعتبارها تناول الحياة، وتلك بدورها تناول الذات التى تحس؛ وكان النشاط العقلى أعمق من الإحساس، ولكن ماهو أكثر عمقا يتمثل فى نعيم الوعى الكلى، وعلى ذلك فينبغى ألا تتحد الذات مع أى من الصور الأدنى للشخص على وجه الحصر، وإنما يتعين النظر إليها باعتبارها موجودة فى صميم الطبقات المختلفة للوجود، تضيفى عليها الحياة، بينما تظل متميزة عنها.

وهكذا يتخذ البحث عن الذات المطلقة، صورة السعى وراء الفاعل النهائى أو القائم بالنشاط الإنسانى، وتطرح الاسئلة التالية:

"ممشيئة من وتوجيهه، يشرق العقل على موضوعاته؟ بأمر من تتحرك الحيلة الأولى؟، ممشيئة من يتفوه البشر بهذا الحديث؟ وأى إله ذلك الذى يستحث العين والأذن؟"

وبمعنى آخر: من ذلك الذى يوجه كل الأنشطة الإنسانية؟ والجواب عن هذه الأسئلة هو أنه مجهول، ذلك أنه "حيث لا تعمل العين، ولا يعمل الكلام، ولا الذهن، نحن لا نعرف، ولا نفهم كيف يمكن للمرء أن يعلم"

وهكذا، فعلى الرغم من أن الذات المطلقة، بمعنى من المعانى لا يمكن معرفتها، فإنها بمعنى آخر، متصلة بالتجربة المباشرة، ويمكن معرفتها على نحو حميم وكامل من تجربة الوعى الذاتى الكلى، وبهذا المعنى فإنها تعرف على نحو أكثر يقينية واكتمالا من أى موضوع للمعرفة، وبهذا هو يقين وجود المرء، الذى يتجاوز أى شك أو تساؤل.

الحب و " وحدة أتمان وبراهمان "

(١) كولر، الفكر الشرقى القديم، ص ٥٥

ويصل حكماء [الأوبانيشاد] إلى أنه يمكن معرفة النفس المطلقة - أتمان - مباشرة، وفي الحال، باعتبارها مسألة تجربة مباشرة، ذلك أنه هاهنا لا يمكن أن توجد شكوك، أو تأرجح لليقين، وهذه إجابة تتيح لدى إدراكها الرضا التام للفرد. ولاكتشاف "أتمان" أهميته من وجه آخر، فحكماء نصوص [الأوبانيشاد] الذين كانوا يسعون وراء كل من الواقع الخارجى المطلق (براهمان)، والواقع الداخلى المطلق (أتمان)، وصلوا إلى الاستفسار عن العلاقات والصلات بين هذين الواقعيين.

والاكتشاف المثير الذى وصلوا إليه الآن هو أن "أتمان" ليس إلا "براهمان"، فهناك واقع مطلق واحد يمكن الدنو منه، إما من خلال النظر إلى خارج نفس المرء، أو بالنظر فى أعماق نفسه.

وتعد وحدة [أتمان وبراهمان] أعظم اكتشاف فى الأوبانيشاد، وهذه الوحدة هى قبل كل شيء السر والتعاليم المقدسة (أوبانيشات) التى يرعاها حكماء [الأوبانيشاد] بمزيد من الحرص، والتى تشكل الرسالة الأساسية لدراستهم.

ومن أجمل وأعرق ما انتهى إليه حكماء [الأوبانيشاد]، أن معرفة أتمان تماثل معرفة الحب، فأولئك الذين يجربون الحب، هم وحدهم الذين يعرفون طبيعته، وقد يطرح آخرون مزاعم شتى عن الحب، ولكنهم يفتقرون بجلاء إلى التجربة المناسبة، أما بالنسبة للشخص صاحب التجربة، فإنه ما من شيء يمكن أن يكون أكثر يقينية من وجوده، رغم أن الشخص الذى يفتقر إلى التجربة، يحتمل إلى حد كبير أن يتشكك فى وجود الحب، وبطريقة مماثلة، فإن من يفتقرون إلى الإيمان أو التجربة قد يتشككون فى وجود "أتمان" وفى إمكان إدراكه، ولكن من جربوا نعيم أتمان يعرفون النشوة المطلقة، فقد تحققوا منه تمام التحقق.

وكان من الممكن أن توجد ثلاثة مواقف أساسية حيال معرفة "أتمان" وذلك بسبب الطبيعة التجريبية لهذه المعرفة، فقد نفى المتشككون وجود أى ذات مطلقة من هذا النوع، على أساس أنهم لم يجربوها، وكان آخرون على استعداد لقبول وجود "أتمان" وطبيعته كافتراض فلسفى يتعين إثباته على أساس العقل، وكان هناك آخرون، وربما شكلوا الغالبية العظمى من شعب الهند، على استعداد لقبول شهادة الحكماء والعرافين، باعتبارها دليلاً مقنعاً على إيمانهم بوجود أتمان، وإمكان الدخول معه فى تجربة، فقد كان موضع الاهتمام الكبير بالنسبة لهؤلاء الناس هو الوصول إلى سبيل لهذا التحقق المدهش.

لم يكن هذا الاهتمام ميزة يتمتع بها القلة، وإنما يشترك فيه أعضاء المجتمع كافة، ونمت بصورة تدريجية أقاصيص خرافية، وحكايات، وقصائد، وقوانين قدمت للعامّة في الهند إرشادات ومثلاً علياً لنوعية الحياة التي من شأنها أن تجعل تحقيق أتملن أمراً ممكناً.

وتقدم هذه الكتابات الوسيلة الأساسية لتحويل التعاليم المقدسة التي قال بها كهنة الفيدا وحكماء الأوبانيشاد، إلى طريقة لحياة الناس، وقد ارتبط التأكيد الفيدي المبكر على أهمية الطقوس الدينية مع التعاليم الفلسفية الواردة في نصوص الأوبانيشاد، بتشديدها على الانضباط الذاتي والمعرفة، وذلك بطريقة خفضت كلاً من الطقوس والتجريد الفلسفي.

(د) اليوجا - الطريق إلى ضبط النفس في الفلسفة الهندية:

تعتبر اليوجا - yoga - أمراً مطلوباً لتحقيق الحكمة، التي من خلالها يمكن القضاء على الجهل، وضبط النفس، وبالتالي معرفة "أتمان" في الفلسفة الهندية، ونلتقي في الفلسفة الهندية، بقوى خمس، تعوق الوعي الخالص ورؤية الروح: - أولها الجهل، وهو الافتقار إلى إدراك أن الذات تنتمي في نهاية المطاف إلى طبيعة الروح، وليس إلى طبيعة المادة، ولأن الذات تظن، على نحو خاطيء، أنها مجرد كيان نفسي - عضوي، فإنه ينظر إليها، خطأ على أنها متحدة تماماً مع المادة، ونتيجة لذلك فإن هذه النفس المتجسدة تكافح للحفاظ على وجودها باعتبارها كيانا مادياً، ناسية أن طبيعتها النهائية هي من طبيعة الوعي الخالص.

والقوة الثانية، التي تقيد نشاطات النفس المتجسدة هي الإلحاح الدائم لخلق الأنا ودعمه، هي تحول كل شيء إلى "ملكى".

والقوة الثالثة، هي الافتتان بالأشياء، ويعبر عن نفسه من خلال التشبث والتعلق، فالذات الجاهلة تقوم، للحفاظ على وجودها المادى، بالتشبث بموضوعات التجربة، رابطة ذاتها بوجود هذه الموضوعات الهامشية، وتتعلق الذات المتجسدة، على نحو يائس، في غمار خوفها من أن يفلت ما تمسك به - لكل خبرة أو تجربة تبعث على الشعور باللذة.

والقوة المقيدة الرابعة، هي الكراهية والخوف، وهي المقابل للقوة الثالثة، إنها كره كل شيء يهدد الذات المادية ومقته، وتقوم القوتان معاً، قوة التشبث وقوة

المقت بدفع الشخص، وإذ تدفع كل منهما وتجذب على نحو مضاد للأخرى، فإنهما تتركان الفرد في حالة من حالات الوجود مترعة بالعذاب على نحو مستمر.

والقوة الخامسة، هي إرادة الحياة للأبد، وهي قوة أكثر عمقا من المقت، ومن الارتباطات، وتكتسحها معا، عندما تتهدد الحياة بالخطر، وهذه القوة تحكم الفرد بحيث يخاف الموت، وكل ما يرتبط به، وهي إذ تضرب جذورها في الجهل، فإنها تدعم دافع الأنا الخاص بالنفس المتجسدة، متشبهة بوعد زائف بالخلود النفسى-العضوى.

ولأن هذه القوى الخمس تحكم الكيفية التي تسلك بها الذات المتجسدة، وتفكر، فإنه لابد من فهمها بوضوح، والتصدى لها، فهي القوة الأساسية التي تؤكد "تذبذبات وتقلبات مادة الذهن" التي تسعى اليوجا إلى إيقافها، ومن خلال وقف هذه التحركات، والقضاء على القوى الدافعة التي تكمن وراءها، فإن الوعي يغدو صافيا، ويمكن التمييز بينه وبين المادى، وهكذا فإن اليوجا هي على نحو جوهري عملية "إنهاء تقييد" النفس ذات الوعي المتجسد.

وتبدأ الأساليب المتبعة لإنهاء التقييد من خلال اليوجا، بمجموعة من الضوابط الأخلاقية، ويقصد بها إعادة توجيه إرادة الشخص وأعماله، فبدلا من التصرف انطلاقا من الشعور بالارتباط أو بالمقت، بدافع قوى من الأنا العمياء، يتوقع من الشخص أن يتصرف انطلاقا من الإشفاق المفعم بالتعاطف حيال رضاء الآخرين، ويتمثل الضابط الأول في "اللا أذى" أى استبعاد كافة التصرفات التي تؤذى الكائنات الأخرى، وكل الأعمال التي تقوم على أساس الكراهية، وسوء النية، وتعبر عن الحب المفعم بالتعاطف حيال كل المخلوقات الحية، وتطوير هذا الحب الشامل يتم إقراره كوسيلة فعالة للتخلص من النوازع الأنانية للأنا.

ويتعلق الضابط الأخلاقى الثانى بالكلام، ذلك أن الكلام ينبغى أن يسهم فى رضاء الآخرين، ويتعين تجنب النوايا السيئة، والكلمات التي تؤذيهم، وهذا يشمل الحديث الأجوف، والثرثرة الخرقاء، والكذب، وحيث إن المبدأ هو أن الكلام ينبغى أن يدفع خير الآخرين قدما، فإن أية نوايا أو كلمات تؤذى الآخرين تعتبر زائفة، ويتعين تجنبها.

"وعدم السرقة"، هو الضابط الأخلاقي الثالث، وهو استبعاد أخذ ما هو ملك الآخر، ويهدف، إلى القضاء على الحالة الذهنية التي ترغب فيما يملكه شخص آخر، وينظر إلى التشوق إلى ممتلكات شخص آخر، في حد ذاته، باعتباره نوعاً من إيذاء هذا الشخص، ومن ثم فإنه يتعين محوه من الذهن.

والضابط الأخلاقي الرابع، هو "عدم التشبث" ويعني القضاء على الرغبة بأسرها في امتلاك الخيرات، حتى ما يُدعى بـ "الملكية المشروعة"، فإن مبدأ الملكية نفسه هو تعبير عن الطمع.

والضابط الأخلاقي الخامس، موجه ضدّ "النشاط الجنسي"، وبقدر ما ينطلق هذا النشاط من الأنا، ويغذيها، فإنه يُشكّل عائقاً أمام الوعي بالذات، ينبغى القضاء عليه، وعلى الرغم من أن النشاط الجنسي له موضعه المشروع في حياة الناس العاديين، فإنه بالنسبة لمن يمارس "اليوجا" يُمثل لونا من القيد أو العبودية، ولهذا يجب على الممارس التزام العفة.

وهذه الضوابط الأخلاقية الخمس، لا تستهدف في مجملها، القضاء على النشاط المحرّم فحسب، وإنما هي أيضاً قضاء على الدافع الذي يثير هذا النشاط.

وإضافة إلى هذه الضوابط الأخلاقية الخمس، يلتزم ممارس اليوجا بأساليب الانضباط الروحية، مثل النقاء في الفعل والتفكير والكلمة، ولا بد من إبقاء الجسم نظيفاً، ويتعين تجنب كل أشكال التلوث الاجتماعي والشعائري، وينبغي للمرء أن يرضى بما لديه كائناً ما كان، دون أن تقلقه الأحداث والظروف، والرضا بما لدى المرء يساعده كذلك على أن يستشعر إحساساً باستقلال الذات الحقة.

ويجب عليه أيضاً أن يترع إلى الزهد أو التقشف، وهنا يقوم المرء بالعديد من الأنشطة، التي تستهدف نكران الذات، وكبح جماح شهواتها، من أجل تحرير المرء نفسه من تجاذب وضغوط ما يحب وما يكره، من خلال توليد شعور بالاستقلال عن الجسد، والزهد، على خلاف الشخص العادي، لا تحكمه الرغبات، وإنما هو سيدها المسيطر عليها.

وهناك أيضاً الدراسة، وضرورة الانفتاح على التعليم، وضرورة الإجلال للمُعلم.

وإذ يستقر الدارس في انضباطه الأخلاقي والروحي، فإنه يغدو مستعداً للقيام بالتدريبات، أو لأداء الأوضاع التي يُراد بها تحقيق انضباط الجسد والسيطرة عليه، وأوضاع اليوجا، التي لا يمكن تعلمها على نحو سليم، إلا من معلم مؤهل لذلك، ينبغي أن تتم ممارستها إلى أن تصبح شيئاً بلا مجهود.

وتُعَد السيطرة على التنفس أمراً جوهرياً بالنسبة لممارس اليوجا، ذلك أن التنفس يتيح الطاقة الحيوية التي تدم الحياة وتغذيها، وهذه الطاقة الحيوية تعطى لكل شخص عند الميلاد، ويتم تغذيتها وتطهيرها من خلال التنفس، وبالإضافة لذلك، فإن السيطرة على التنفس مهمة للتأمل، فاضطلاع المرء بوظائفه النفسية-العضوية يعتمد بكامله على إيقاع طاقة التنفس وتدفقها.

ويستطيع مَنْ يمارس اليوجا، عقب السيطرة على الجسم والحواس، أن يركز على وضع العقل تحت السيطرة بحيث يمكن إيقاف أنشطته، ونحسن بحاجة إلى أن نتذكر أن العقل مختلفٌ عن الوعي الخالص، بل إن العقل ينظر إليه، في الواقع، على أنه نوعٌ من التدخل الذي يُشوِّش الوعي الخالص، وهكذا فإنه لا بد من السيطرة على العقل من خلال عمليات ممارسة التركيز، وينبغي تسكين حركاته وتفريغ مخدباته، وذلك للكشف عن الوعي الأكبر عمقا.

الفصل التاسع

"البوذية.. منهجٌ لتجاوز المعاناة وتحقيق الاستنارة"

ويشمل على:

(أ) تمهيد.

(ب) البوذية والمعاناة

(١) الحقائق الأربع النبيلة.

(٢) الطريق الأوسط والفلسفة العملية للبوذية.

(جـ) تعقيب.

(أ) تمهيد:

تحتل "البوذية" بنصيب موفور من الدراسات المتصلة بالتراث الروحي الشرقي، لاستناد مبادئها* على الرحمة والأخلاق الكريمة والمساواة، والبوذية في الواقع، مجموعة من الأديان والفلسفات، ذلك أن "بوذا" لم يخلف كتاباً مقدساً، ولم يدون تعاليمه، ولم تُسجّل آراؤه إلا بعد إنقضاء أربعمئة سنة على وفاته، وبالتالي تنقسم البوذية إلى أربع مدارس أساسية، تنقسم بدورها إلى فرق وشيع:

الأولى: مدرسة تيرافادا Theravada (أى مذهب الراشدين)، وهى أقدم المدارس البوذية، ولعلها أقربها إلى تعاليم "بوذا" الأصلية، وتعتنقها غالبية سكان سيلان، وبنورما، وتايلاند، وكمبوديا، وتعرف كذلك باسم "بوذية هينايانا" (أى المركبة الصغرى).

الثانية: يطلق عليها "ماهايانا" (أى المركبة الكبرى)، والهدف فى "الماهيانا" هو أن يصبح المرء كائناً مناط اهتمامه الوحيد مساعدة الآخرين على القضاء على المعاناة.

الثالثة: بوذية التبت، وتعتنقها - بالإضافة إلى التبت - البلاد المجاورة لهذه المقاطعة وهى: بوتان، وسيكيم، ونيبال.

الرابعة: بوذية زن "zen"^(١)، وتفرق تماماً عن جميع فروع البوذية، سواء بالنسبة للاتجاهات الدينية أو الفلسفية، ويعتنقها معظم بوذيين اليابان.

ويرجع العهد بالبوذية إلى أكثر من ٢٥٠٠ سنة، وقد نشأت أصلاً فى الهند، ويُعتبر

(١) زن هذا هو الرسم الصحيح للكلمة على الرغم من أن البعض يؤثر كتابتها "زين"، فاليابانيون ينطقون الكلمة خطفاً، وبما لا يدع مجالاً لكتابتها على النحو الثانى، و "زن" شكل من أشكال البوذية المهابانية، يوجد أساساً فى اليابان، وإن كان قد ترك أثراً قوياً أخيراً فى الغرب، وبصفة خاصة فى الولايات المتحدة، ويُقدّر عدد أتباع زن بحوالى تسعة ملايين شخص، والكلمة تعنى حرفياً "التأمل" وهى مستمدة من الكلمة الصينية chan وهذه بدورها تعود إلى الكلمة السنسكريتية Dhyana ولغة بالى Thana وتشدد زن على نوع معين من الانضباط الروحي، يُساعد على تحقيق استنارة مفاجئة، هى بدورها مرحلة على طريق الاستنارة الكاملة.

(جوتا ما سدهارتا - بوذا^(١)) مؤسس البوذية، وُلِدَ جوتاماسدهارتا في حوالي العام ٥٦٣ ق.م، في كابيلافاستو Kapilavastu ، فيما يعرف اليوم باسم نيبال Nepal، وقد حاول والده وقايته من مشاهد المعاناة البشعة التي تنتشر من حوله، وتزوج زيجة سعيدة من فتاة جميلة، وعاش حياة مرفهة، مليئة بالملذات، إلى أن بلغ التاسعة والعشرين من العمر، ثم بعد أن تعرّض لمشاهد الشيخوخة. والمرض، والموت، وبعد أن فكّر في أنّه سيكون من الخير اكتشاف بعض وسائل قهر المعاناة، غادر مموره وعائلته ولزم حياة الزهد.

وعلى امتداد ستة أعوام مارس - جوتاماسدهارتا - أشد أشكال ضبط النفس وإنكارها تطرفاً، بلا طائل، وأخيراً، وبينما هو على حافة الموت، توصل إلى أن الحقيقة الخاصة بسبب المعاناة ووقفها لن يتم الوصول إليها بالتزام أقصى درجات الزهد، ومن هنا فقد عقد العزم على سلوك الطريق الأوسط بين الانغماس في الملذات والتنسك، وسرعان ما حقق الإستنارة، التي كان ينسدها، وطوال الأربعين عاماً التالية من حياته ضرب بوذا في أرجاء الهند، معلماً للحقائق الأربع النبيلة والطريق ذي الشعاب الثماني - والتي سيأتي الحديث عنها تفصيلاً - وخلال سنوات التعليم هذه، اجتذب بوذا العديد من الاتباع، وعندما مات بوذا حوالي عام ٤٨٣ ق.م، كان سلك الرهبان البوذيين يضم عدداً كبيراً بالفعل.

ويستهجن البوذا الطقوس والمراسم الخرافية، ويحط من شأن آلاعب الكهان، ويُحذره بالذات جهاده لتقويض صرح الفوارق الطبقية، فإنه القائل: "لا يصبح الإنسان عضواً في طائفة البراهمة أو المبنوذيين لأنه وُلِدَ كذلك، لكن أفعاله وحدها هي التي تحدد وضعه، سواء بين البراهمة أو بين المبنوذيين!".

ويبتدء باستخدام العنف في أية صورة من الصور، ويدين القرايين، بشرية وحيوانية، ويستقبح سفك الدماء، ومن رأيه أن الرفق فصيحة أسمى من ممارسة الطقوس الروحية، ولقد هفت نفسه إلى أن يلتزم كل إنسان بالفضائل ويتصف بالحكمة، لا

(١) بوذا - Buddha - الكلمة تعني حرفياً المستنير أو "المتنور" أو "المستيقظ" وهي لقب واحد من ألقاب عديدة تُطلق على سدهارتا جوتاما، مؤسس البوذية (٥٦٣-٤٨٣ ق.م)، وأبرز ألقابه إلى جوار بوذا، لقب شاكيا موني، أي حكيم قبيلة شاكيا التي ينحدر منها سدهارتا، وكذلك لقب تاجاجاتا، وهو لقب غامض، ولكنه ربما كان يعني الذي مضى على هذا النحو " أي ذلك الذي يمكن أن يُشار إلى حياته العملية دونما سبيل إلى وضعها"، وهناك كذلك لقب جيتا أي المنتصر، وغيره من الألقاب.

أنَّ يعزَّى نفسه بالانتساب إلى قلة مميزة، وكان يستعين في عظاته بلغة القوم الذين يتحدث إليهم، عوضاً عن استعمال لغة لا تفهمها سوى قلة من مستمعيه المتعلمين. وليست عقيدة البوذا الدينية نظاماً تحكيمياً من الطقوس السرية، والرسوم الخفية، والصلوات الجوفاء، لكنها منهاجٌ للحياة وأسلوبٌ للتفكير الصافي والحوار المسترن والفعل السديد.

وفي الواقع، يُعتبر البوذا أول مفكر أنجبهته البشرية يُعلى من شأن العقل، ويؤكد سلطان الإنسان على أفعاله، وأنَّ بيده وحده توجيه مصيره.

(ب) البوذية والمعاناة

لسي من الممكن لمن يعيش في هذا العالم أن يظل بعيداً عن المعاناة الإنسانية، فلا بد لكل حياة أن تعاني من الظلم، أو المرض أو البؤس أو القلق أو الموت، أو أى شكل آخر من أشكال النقص والشر، فالوجود الإنساني بعيدٌ عن الكمال، وحتى أسعد الناس، وأوفرهم حظاً، يتعين عليه التسليم بقدرٍ من البؤس أو التعاسة.

ونادراً ما يكون هناك شخصٌ يوجه الانتباه، بعناية، وبصورة منتظمة، إلى "سبب" الأساسية للمعاناة وسبل القضاء على هذه الأسباب، وقد كان جوتاما سسندرتا، بوذا، شخصياً من هذه النوعية، والفلسفة الدينية التي نبعت من تعاليمه تمثل تحليلاً نسقياً لطبيعة المعاناة وأسبابها، وتقدم العديد من الوسائل لقهر المعاناة أو التغلب عليها.

والبوذية طريقٌ للحكمة، يتم تعليمها وممارستها من أجل تحسين نوعية الحياة من خلال إزالة منابع المعاناة؛ ويشكل مضمون هذه الاستنارة، الرسالة الأساسية للبوذية، وتمثل هذه الرسالة، في أبسط صورة في الحقائق الأربع النبيلة، والطريق النبيل ذى الشعاب الثماني.

(١) الحقائق الأربع النبيلة:

وهذه الحقائق هي:

١- هناك معاناة.

٢- للمعاناة أسبابها.

٣- المعاناة يمكن القضاء عليها من خلال التخلص من أسبابها.

٤- السبيل إلى القضاء على أسباب المعاناة هو اتباع الطريق الوسط، الذى يشكله الطريق ذو الشعاب الثمانى.

وفيما يتعلق بالحقيقة النبيلة الأولى، فقد علمها جوتاما على النحو الآتى:

" تلك ، أيها الرهبان، هى الحقيقة النبيلة للمعاناة فالميلاد معاناة، والملل معاناة، والمرض معاناة، والموت معاناة، ووجود الأشياء التى نكرهها معاناة، والانفصال عن الأشياء التى نحبها معاناة، وعدم الحصول على ما نرغب فيه معاناة".

ويقول (جوتاما سدهارتا، بوذا) مفسراً الحقيقة النبيلة الثانية، إنَّ المعاناة:

"تضرب جذورها فى تلك الرغبة الملحة Craving (أو الشهوة) التى تسبب تجديد الصيرورة أو الميلاد من جديد، وتصحبها اللذة الحسية، وتسعى إلى الإشباع فى التو واللحظة (هنا ، والآن)، أى التوق إلى الم لذات، التوق إلى الصيرورة، التوق إلى اللاصيرورة".

فالمعاناة يمتد أصلها إلى الرغبة الملحة أو الشهوة، وبمعنى من المعانى فإنَّ المعاناة يسببها توق المرء إلى ما لا يستطيع حيازته، أو الرغبة الملحة فى تجنب ما لا سبيل لتجنبه، وهكذا فإنَّ الرغبة الشديدة فى المال عندما يكون المرء فقيراً، تُفضى إلى المعاناة، والرغبة الشديدة فى الصحة، حينما يكون المرء مريضاً، تقود إلى المعاناة، والتوق إلى الخلود، فى مواجهة حتمية الموت، يؤدى إلى المعاناة، والتوق إلى الفناء، الذى تواجهه استمرارية المادة التى صيغت منها الحياة، يؤدى إلى المعاناة... ولكن هناك معنى أكثر عمقا للتوق، وهذا المعنى هو التوق بمعنى "الإكراه الأعمى على أن يكون المرء ذاتا أو أن تكون له ذات".

وفى تناوله للحقيقة النبيلة الثالثة، أوضحها - بوذا - على النحو التالى:

" هذه، أيها الرهبان، هى الحقيقة النبيلة الثالثة المتعلقة بتوقف المعاناة، إنها حقاً، التجرد من الانفعال، التوقف دونما أثر لهذا التوق ذاته، تنحية هذه الرغبة الملحة، والتخلّى عنها، والتحرر منها، وعدم التعلق بها".

فإذا تم تحليل الأشكال الواضحة للمعاناة، فسوف نجد أنها تشمل عاملين أساسيين، فهناك أولاً ما يمكن تسميته بوجود عوامل موضوعية معينة فى العالم، وهناك ثانياً النفس التى تعانى، فلا وجود للمعاناة، إلا إذا ارتبطت العوامل الموضوعية فى العالم بنفس ما، وعندما ترتبط هذه العوامل الموضوعية بنفس ما، فإنَّ هذه النفس قد

نشأت إلى تلك العوامل، أو تتوق إلى تجنبها، وعندما لا يتم الحصول على ما نشأت إليه تنشأ المعاناة.

وعلى هذا تنبئ الحقيقة الثالثة، حقيقة أن المعاناة يمكن القضاء عليها، على تحليل أسباب المعاناة، فإذا كان التوق الأناني هو سبب المعاناة، فإن توقف المعاناة يكمن في انقطاع ذلك التوق، وذلك هو، على وجه الدقة، ما أوصى به بوذا، والواقع إن الهدف الحقيقي للرجل البوذي هو النرفانا وهو يحمل معنى "الإخماد أو الانطفاء" - وما يتم إطفاءه كالمصباح - أو إخماده هو الرغبة الملحة أو التوق الأناني، وعندما يتم إطفاء هذا التوق الأناني تحت المعاناة من جذورها، وهكذا فإن حقيقة المعاناة هي الحقيقة القائلة إن انقطاع التوق من شأنه أن يجلب توقف المعاناة.

غير أن الطريق يمتد طويلاً ما بين تعرف ما يجلب المعاناة وبين الإنجاز الفعلي لذلك التوقف، ولم يتوقف - بوذا - لحكم كونه ذلك الطبيب البارع، عند تحليل المرض وتشخيصه، ولا عند تعرف ما هو مطلوب لتحقيق الشفاء، وإنما وصف طريقة للعلاج، من شأنها القضاء على المرض، وتتألف الوصفة العلاجية من الحقيقة النبيلة الرابعة، التي تعلم الناس "طريق البوذية الأوسط" الشهير.

يقول بوذا عن هذه الحقيقة النبيلة الرابعة:

"إنها الطريق ذو الشعاب الثماني، أعني أنها سلامة الرأي، وسلامة النية، وسلامة القول، وسلامة الفعل، وسلامة العيش، وسلامة الجهد، وسلامة ماتعني به، وسلامة التركيز.."

(٢) الطريق الأوسط والفلسفة العملية للبوذية:

تلخص الحقيقة النبيلة الرابعة، الطريق الأوسط، الذي يركز على مبادئ ثمانية هي: سلامة الرأي، سلامة النية، سلامة القول، سلامة الفعل، سلامة العيش، سلامة الجهد، سلامة الوعي أو الانتباه العقلي، وسلامة التركيز.

وينبغي لألوان السلوك المختلفة في الحياة، التي تعمل بهذه المبادئ الثمانية، وتعبير عنها، أن تمضي بشكل متزامن على نحو أو آخر، حيث إن الهدف هو تحقيق حياة مستقيمة من أسمى طراز، والعلاقات بين التصرفات الحياتية والمبادئ التي تشكل أساس هذه التصرفات يمكن إدراكها من خلال تأمل الحقائق الثلاث الخاصة

بالسلوك الأخلاقي، والانضباط الذهني والحكمة، التي تشكل أساس المبادئ والتصرفات كافة.

وتشمل حقيقة السلوك الأخلاقي: سلامة القول، وسلامة الفعل، وسلامة العيش، وتشمل حقيقة الانضباط الذهني، سلامة الجهد، وسلامة الانتباه العقلي، وسلامة التركيز، وتشمل حقيقة الحكمة، وسلامة الرأي، وسلامة النية.

ويقوم السلوك الأخلاقي - في رأي بوذا - على أساس الحب والحنان، وينبع من الحكمة أو من عقل مستنير، ولكن لتحقيق الحكمة ولمراعاة الحب والحنان، فإن انضباط النفس يعد أمراً مطلوباً، وهكذا فإن السلوك الأخلاقي والانضباط والحكمة هي الحقائق الثلاث للحياة الخيرة.

وتكشف الحكمة عن طبيعة الأشياء وأسباب المعاناة، ولكنها لا تتوقف عند هذا الحد، وإنما هي تعبر كذلك عن نفسها في التصميم على قهر المعاناة، من خلال تنحية كل ضروب الرغبة الأنانية، ويتضمن هذا التصميم غرس حب شامل في عمقه ومداه، يكشف عن نفسه في الشفقة واللا أذى، حيث يتم التخلي كلية عن الرغبات الأنانية، وسوء النية والكراهية والعنف، عندما تبلغ الحكمة.

وتتعلق سلامة التركيز - في رأي البوذا - بإعادة خلق ذات المرء بوصفه شخصاً مستنيراً، فالجهل والاستنارة والمعاناة والسعادة تضرب جذورها في نشاطات المرء العقلية، وقد ورد في أقوال بوذا أن:

"العقل يسبق كل حالات القصور، وهو عمادها، فهي جميعاً مفعمة بالعقل، وإذا ما تحدث شخص ما أو تصرف بعقل دنس، فإن الشقاء سيلاحقه، كما تلاحق عجالات العربة قدم الثور، والعقل يسبق حالات الكمال، وهو عمادها، فهي جميعاً مفعمة بالعقل، وإذا ما تحدث شخص أو تصرف بعقل نقي، فإن السعادة ستتبعه، كظله الذي لا يفارقه".

وإذا كان الأمر كذلك، فإن من الممكن التركيز على تطهير أنشطة المرء العقلية كوسيلة لتحقيق السعادة.

وعادة ما يتم التمييز بين أربع مراحل من التركيز، في المرحلة الأولى يركز المرء على التخلص من الشهوة، وسوء النية، والكسل والهم، والقلق، والشك، وهذه الأنشطة الذهنية القاصرة وغير الصحيحة، تحل محلها مشاعر البهجة والسعادة، وفي المرحلة

الثانية يركز المرء على النفاذ ببصيرته عبر الأنشطة الذهنية ، والوصول إلى ماوراءها، على الرغم من احتفاظه بالوعي بالبهجة والسعادة، وفي المرحلة الثالثة يمضى المرء إلى ماوراء النشاط الذهني المسئول عن البهجة، ويحقق اتزاناً تتخلله السعادة، وفي المرحلة الرابعة والأخيرة من مراحل التركيز هناك اتزان كامل ووعى كلى يتجاوز السعادة والتعاسة في آن معا.

والسلوك الأخلاقي هو، في آن واحد، انعكاس للحكمة والانضباط وشرط لهما، فالشخص الحكيم هو وحده الذى يمكن أن يكون خيراً، والشخص الخير هو وحده الذى يمكن أن يكون حكيماً، وكل من الحكمة والخير يقتضى الانضباط، وبناءً على هذا فإن المرء يبدأ وينتهى بالأمر الثلاثة بصورة متزامنة، والسلوك على نحو أخلاقي يعنى سلامة القول، وسلامة الفعل، ووسائل كسب العيش.

وسلامة القول تعنى، بصفة عامة، تجنب كل قول يفضى إلى التعاسة، واستخدام العبارات التى تجلب السعادة.

وتعنى سلامة السلوك، تجنب القتل أو الإيذاء، والتعفف عن السرقة والغش، والنشاط الجنسى غير الأخلاقي، وهو على الصعيد الإيجابي يعنى أن سلوكيات المرء ينبغى أن تهدف إلى دعم السلام والسعادة للآخرين، واحترام خير الكائنات الحية جميعاً.

أما سلامة العيش فهى تمد نطاق مبدأ السلوك الحق إلى المهنة التى يختارها المرء على امتداد حياته، وبناءً على هذا، فإنها تستبعد المهن التى من شأنها أن تؤذى الآخرين، مثل الأتجار فى الأسلحة النارية، والخمور، والمخدرات، والسموم، والقتل، والدعارة، الخ، وسبل كسب العيش التى تنشر السلام والخير هى وحدها التى تتفق مع هذا المبدأ؛ وهكذا يتضح كيف تقوم قاعدة السلوك الأخلاقي على الشفقة على الآخرين وحبهم.

وهكذا نجد أن تعاليم الطريق الأوسط "هى التى تفضى إلى البصيرة، وهى التى تفضى إلى الحكمة، وهى التى توصل إلى الهدوء، وإلى المعرفة، وإلى الاستنارة، الكاملة، وإلى النرفانا"^(١)

(١) النرفانا - Nirvana - كلمة سنسكريتية، وهى تتألف أصلاً من المقامين: نر - Nir - (يطفى أو يمتد) وانا - بمعنى ينفخ، الأمر الذى يجعل الكلمة تعنى "الانطفاء" أو "الإخاد"، أى الهدف البوذى المتمثل -

(جـ) تعقيب:

هذه هى التعاليم الأخلاقية - الدينية التى تُشكّل الجوهر الأساس للبوذية كطريقة حياة، والتى تعكس التعاليم الأساسية لبوذا التاريخي، وهذه التعاليم، التى تستهدف تكريس الانضباط والشفقة، اللذين يميّزان حياة الإنسان البوذي وموافقة، لا تختلف اليوم بصورة أساسية عما كانت عليه قبل خمسة وعشرين قرناً خلت، ومن ناحية أخرى، فإن فلسفات البوذية، التى تعكس المحاولات لتنظيم طريقة الحياة البوذية، ولتقدم أساس عقلي لهذه التعاليم الأخلاقية - الدينية قد تعرضت لتغير وتطور هائلين.

والتمييز بين البوذية كطريقة حياة، وبين الفلسفات البوذية هو تمييز بين أسلوب في العيش، وبين المحاولات التى يتم القيام بها لتبرير ذلك الأسلوب، وهكذا فإنه على الرغم من أن البوذيين كان بمقدورهم على امتداد العصور، الاتفاق على كيفية الحياة، فإنهم كان باستطاعتهم كذلك الاختلاف حول السؤال المتعلق بلماذا ينبغي أن يعيشوا بتلك الطريقة، وإذا كان المرء بوذياً، فإنه يترتب على ذلك قبول الطريقة البوذية باعتبارها أفضل طريقة للحياة، ولكن مسألة تبرير هذا القبول تظل مطروحة.

وقد تركت التعاليم الدينية - الفلسفية الخاصة بالبوذية، أثرها في جانب كبير من الحضارة الآسيوية، فقد تغلغت البوذية، في الثقافات التى ارتبطت بها في سريلانكا وبورما وكمبوديا وتايلاند ولاوس والتبت والصين وكوريا واليابان وفيتنام.

ونستطيع أن نُجمل الخصائص الأساسية للثقافة البوذية في التالى:

١ - التأكيد على الكرامة الإنسانية: فلم يتم في الثقافات البوذية إخضاع البشر للأشياء والآلات، فالبشر ينظر إليهم على أنهم مبدعون لأنفسهم وقادرون على تحديد مصيرهم من خلال جهودهم، وأى كرامة أعظم يمكن إضافتها على الأشخاص من الاعتراف بأنهم يسيطرون على حياتهم ومصيرهم؟

٢ - موقف اللائع:

= فى الوجود الخالى من المعاناة، حيث تسعى البوذية إلى الوصول إلى حالة سامية من التحرر عن طريق إخماد رغبات الفرد ووعيه.

لا يربط البوذيين أنفسهم إلى الذات أو الأشياء في هذا العالم، وذلك بسبب اقتناعهم بأنه ليست هناك نفوس أو أشياء تبقى للأبد، وإذا يدركون إن الزوال هو سمة العالم الذي توجد فيه المعاناة، فإنهم يرفضون التشبث بمفاهيم الدوام العيشية، وكنتيجه لهذا، فإن التغيير لا يزعجهم، وهم يواجهون المستقبل برباطة جأش، ولا يحزنون كثيراً على ما مضى، وتتميز معظم الثقافات البوذية بروح تقبل الحياة عن طواعية.

٣- التسامح:

البوذية هي طريقة للإدراك العملي لحقيقة اللامعاناة، التي يمكن الوصول إليها عن طريق الانضباط الذاتي والنقاء العقلي؛ ولا ينظر البوذيون إلى غير البوذيين باعتبارهم أدنى منهم، ودون أمل في السعادة، ويستحيل الخلاص بالنسبة إليهم، لأنهم يعيشون خارج إطار البوذية؛ والمرض والمعاناة اللذان يطاردان البشر يحدثان للشخص الفرد، والشخص الفرد هو الذي ينبغي أن يقطع الطريق من المعاناة إلى السلام والسعادة، وهذا الإدراك يكمن في قرار احترام الخلافات الفردية في المجالات المختلفة في الحياة.

٤- روح الشفقة واللاعنف:

واللاعنف مناقض لتعاليم البوذية ولممارستها، ويشيع بين البوذيين في كل مكان، أن الغضب والعنف لا سبيل إلى تهدئتهما والتخلص منهما إلا بالطيبة والشفقة اللتين أبادهما - جوتاما سد هارتا- وهو يجوب أرجاء البلاد معلماً أسباب المعاناة، وكيفية وقفها.

٥- الميل إلى التأمل:

نتيجة للتأكيد البوذي على الانضباط الذاتي وتنقية النفس، فإن من الممارسات الشائعة بين البوذيين في كل مكان، التركيز على إفراغ أنفسهم من كل ما هو غير نقي ومؤد إلى المعاناة، رغم التنوع الكبير في الأشكال أو الدرجات، فإن الأساليب التأملية المتضمنة في هذه الممارسات هي أساساً متعلقة بتنمية النفس، وتحقيق الانضباط الذاتي، والهدف منها هو تمكين الشخص من المشاركة بصورة مباشرة في الواقع دون وسائط من الأنفس الزائفة والرغبات والطموحات التي تؤدي إلى اغتراب المرء عن الواقع.

٦- التوجه العلمى:

وعندما يكون المرء فى سلام مع نفسه، ولاتتجاذبه الرغبة، ولا يعذبه الشك، فإنه من الممكن أن ينغمس بحرية وبصورة كاملة فى الأنشطة المطروحة أمامه، ويُعد التعلم من الماضى والتخطيط للمستقبل - فى البوذية - من الأمور الأساسية لتحسين مستوى الحياة فى كل المجالات، ولكن هذين الأمرين هما فى ذاتهما نشاطان ينتميان إلى اللحظة الراهنة، ولا ينبغى الخلط بينهما، وبين العيش فى الماضى أو المستقبل، فلا يمكن أن تكون هناك سعادة حقيقية فى التفكير فى المستقبل الذى لم يأت بعد، كما لا يمكن أن توجد السعادة فى البكاء على الماضى، ويؤدى إدراك البوذيين لهذه الحقيقة - وبالتالى أهمّاهم وانغماسهم النسبى فى أنشطة الحاضر الفردى - إلى موقف عملى إلى أقصى حد.

الفصل العاشر

[بدايات الفلسفة الصينية بين كونفوشيوس ولاوتسو]

ويشمل:

(أ) تمهيد.

(ب) كونج - فو - تزي (كونفوشيوس) مؤسس الكونفوشية.

(ج) لاو - تزر (لاوتو) مؤسس الطاوية

(د) الكونفوشية فلسفة إنسانية اجتماعية:

(١) الطريق الكونفوشي طريق "جين" أو "طية القلب الإنسانية"

(٢) ضرورة احترام "آداب المجتمع" في فلسفة كونفوشيوس.

(٣) دور "العائلة" في فلسفة كونفوشيوس.

(٤) دور "الاستقامة" في فلسفة كونفوشيوس.

(هـ) الطاوية.. والتأكيد على الأسس الميتافيزيقية للطبيعة.

(أ) تمهيد:

يبدأ التاريخ الفعلى المسجل للصين بأسرة شانج^(١) shang فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهذا يدل على وجود حضارة متقدمة فى الصين، فالفن الذى يعود إلى هذه الفترة هو فن مصقول ومركب حتى وفقاً للمعايير الحديثة، وقد انتهت هذه الأسرة بالغزو على يد شعب تشو chou الأكثر بدائية، والذى يفيد التراث أنه قد أسس أسرة تشو فى عام ١١٢٢ ق.م.

وعلى الرغم من أن "التشو" كانوا أكثر بدائية على الصعيدين الفنى والثقافى، فإنهم كانوا شعباً قوياً ذا عزم وتصميم، وقد قاموا بغزو أجزاء كبيرة من الصين، معتمدين على القوة والعنفوان وحدهما، وإذا لم تتوافر لهم السبل التى تمكنهم من إدارة كل الأراضى التى قاموا بغزوها كدولة مركزية واحدة، فقد فوضوا سلطة إدارية لزعماء القبائل والنبلاء، الذين تربطهم بهم علاقات طيبة، وقدموا مساحات من الأرض مقابل الصداقة والتعاون من جانب هؤلاء الملوك الجدد الذين منحوا الأرض، ويبدو أن هذا النظام الإقطاعى قد ساد بشكل جيد خلال صدر عهد التشو، وكانت قوة ملوك التشو هى وحدها التى منعت الأتباع من الإقطاعيين من التمرد، وبمرور الوقت تبين أن الملوك لا يقدرّون على السيطرة على كل الأراضى المفتوحة، حتى ولو من خلال النظام الإقطاعى، حيث وقع المزيد من القلاقل، وانقلب الحكام الإقطاعيون أحدهم على الآخر.

وبحلول عام ٧٧٠ ق.م، كانت الأمور قد تردت إلى حد تمكن معه تحالف من الحكام الإقطاعيين من شن هجوم ناجح على عاصمة التشو فى الغرب، وقتل الملك واغتصاب سلطته، ومنذ ذلك الوقت أصبح الصراع والحرب يفرضان حضورهما خلال القرنين اللذين سبقا كونفوشيوس، وشكّل العنف والتآمر الطابع السائد للساحة السياسية، وتغلبت النفعية على الأخلاق، وشكّل الغش والخداع أساس المؤامرات التى حلت محل الحكم السياسى، وكانت عواقب هذه المؤامرات

(١) شانج - shang - الأسرة المالكة التى يبدأ بها التاريخ المسجل للصين، وقد استمر حكمها من القرن

الرابع عشر حتى القرن الحادى عشر ق.م، وقد تم إلقاء أضواء قوية على الحياة فى حكم هذه الأسرة وذلك لدى اكتشاف مجموعة من العظام نُقشت عليها بعض النصوص، قرب نهاية القرن التاسع عشر.

والحروب التي نجمت عنها مما يتجاوز القدرة على التخيل، مما تمثل في الفقر والمعاناة والموت.

وغالباً ما كان ينظر إلى حكماء أمثال "لاو - تزي" و "كونفوشيوس" على أنهم قد علموا الناس طريقاً جديداً للحياة، فعملهم كان العودة بالناس إلى الحكمة القديمة، و "كونفوشيوس" بصورة خاصة، فيما يتصل بآرائه، لم يدع أنها تحمل أي ابتكار، لقد أعرب عن أسفه فقط أنه نتيجة للإهمال والجهل صار الكثير من الطقوس الدينية في حالة عدم استعمال، إضافة إلى فقدان الحقائق التي كانت ترمز إليها^(١).

وعلى شاكلة "لاو-تزي" أكبر الاثنين سناً، شرع في أن يوضح للناس الطريق إلى الفضيلة والقناعة، وهذا المسلك أطلق عليه على الوجه السليم جداً اسم "الطريق" أو "الطاو" - Tao - ، أما كيف يمكن اكتشاف هذا الطريق، فقد اختلف فيه، مع ذلك، "لو-تزي" و "كونفوشيوس" اختلافاً واضحاً، أحدهما عن الآخر.

وترجمة "الطاو" بـ "الطريق" ترجمة معقولة، وهي تعني أيضاً أساس الكون، ذلك الذي يحفظه ويمنحه الحركة والنظام، وتتماً كما أن النجوم قد جددت مسارها، فهناك أيضاً طريق للإنسان، وسيلة قد يستطيع بها أن يربط وجوده بالواقع، واقع قد صار بعيداً عنه إلى حدٍ ما، و "الطاو" هي أصل كل معنى في الكون، وهي مسئولة أيضاً عن كل الأشياء المخلوقة.

ويتعين في سياق هذه الأزمة القاسية التي تردت فيها الصين في القرنين السابقين على ميلاد كونفوشيوس ولاوتو، دراسة هذين الفيلسوفين.

(ب) كونج-فو-تزي (كونفوشيوس) مؤسس الكونفوشية

واسم "كونفوشيوس" هو أحسن الأسماء التي أمكن لأوربا، بثقافتها اللاتينية، أن تعيه من اسم "كونج-فو-تزي" kung-fu-tze - الذي يعني حرفياً "كونج، المعلم" كان اسمه الحقيقي هو "كونج-تشيو kung-chiu"، وعلى شاكلة غيره من زعماء البشرية الروحانيين، خطر "كونفوشيوس". نولد اعجازي، مصحوباً بمعجزات سماوية، ولد في سنة ٥٥١ ق.م في مملكة لو-Lu- ، شانتونج shantung الحالية،

(١) توملين، فلاسفة الشرق، ص ٢٨٠

ولقد وصفوه، ولربما كان على سبيل التورية، بأن كانت له شفتا ثور وفم أشبه بالبحر، ولعل أكثر الأوصاف صدقاً هو أنه كانت له جبهة ضخمة، ومن ثم أطلق عليه اسم تشيو chin، وبعد وفاة والده اضطر لأن يعول أمه، فكان يؤدي أعمالاً إضافية بعد ساعات الدراسة، ولا شك أنه كان دائماً يكبر عمره.

ولم يكن - كونفوشيوس - انطوائياً، وكانت الرياضة التي يحبها بصورة خاصة، هي رماية السهام وصيد السمك، وكان منذ نعومة أظفاره شديد الولع بالموسيقى بالرغم من أن تذوقه لها، كان متحفظاً، ولقد تزوج في سن التاسعة عشرة.

ومارس حكيمنا رسالته معلماً أو حكيماً أكثر تبكيراً في حياته من معظم زعماء البشرية الروحانيين، وما أن بلغ سن الثانية والعشرين حتى ذاع صيته فعلاً حكمته وحياته المستقيمة معاً، وفضلاً عن هذا، كانت له موهبة عظيمة في الفصاحة، ولما شجعه نفرٌ من عشيرته المتحمسين، قرر أن يفتح مدرسة، ففتح داره لأي شخص يريد العلم، بيد أنه لم يبدأ بتقديم نوع من الحكمة المجردة، لقد أخذ على نفسه تعليم "موضوعات معينة" أهمها التاريخ والشعر ومبادئ ما أسماه بالسلوك العام - Decorum-، وكان على إيمان كبير بفاعلية وتأثير الموسيقى في الصقل الأخير لشخصية الإنسان.

وفي سنة ٥٠١ ق.م، صار كونفوشيوس، رئيساً للقضاة أو حاكم مدينة "تشونج-تو chung-Tu"، ثم رقى إلى منصب وزير الأشغال العمومية، ثم وظيفة وزير العدل، وأسندت إليه أخيراً وظيفة رئيس الوزراء.

وقد أحسن حكيمنا استخدام السلطات التي مارسها، فنقرأ مثلاً:

"كان الغش والفساد خجلين وأخفيا رأسيهما، وصار الولاء والإيمان الصادق خصال الرجال، والطهر ودمائة الأخلاق صفات النساء، ووفد الأغراب في حشود، من الولايات الأخرى، وصار كونفوشيوس معبود الناس"

وهذا القول فيه مبالغة ولاريب، ولكن إذا ما عيّن حاكمٌ له شخصية قوية، فإن مثل هذه التغيرات ليست بالمستحيلة، والمستحيل هو أن تستمر وتبقى.

فقد كان من الواضح بالنسبة لكونفوشيوس، أن مشكلات الشعب تنبع من السلطة الحاكمة، التي تمارس بغير مبدأ أخلاقي، ولجورد تحقيق مصلحة الحاكم، ورفاهيته فحسب، ومن هنا كانت دعوة حكيمنا إلى الإصلاحات الاجتماعية،

التي من شأنها أن تسمح بأن تدار الحكومة لمصلحة الناس جميعاً، وقد شدد على أن ذلك يمكن القيام به، إذا كان أعضاء الحكومة ممن يتميزون بأقصى قدر من الاستقامة الشخصية، ويتفهمون احتياجات الناس، ويهتمون بمصالحهم وسعادتهم قدر اهتمامهم بأنفسهم.

ولم يبحث كونفوشيوس عن أساس الطيبة والأخلاق خارج البشر، فداخل الإنسانية ذاتها يوجد مصدر الطيبة والسعادة الإنسائيتين وبنيتهما؛ وهذا الموقف نفسه هو الذى يجعل الكونفوشية نزعة إنسانية أكثر منها نزعة طبيعية.

وجوهر تعاليم كونفوشيوس، يُعبر عنه بالقول بأن الشخص من خلال تطويره لإنسانيته الداخلية يمكن أن يصبح عظيماً فى السلوك الشخصى، والحياة الخاصة، وكذلك فى العلاقات مع الآخرين، وعندما يقوم كل الأفراد بذلك فإن الخير سيتشر، والسعادة ستتحقق.

(ج) لاو-تزي Lao-Tze (لاوتو) مؤسس الطاوية:

ولاو-تزي، شخصية غامضة، والواقع أن هناك بعض الشك فيما إذا كان له وجود بالمرّة، واسمه قد يوحي بشخصية أسطورية، لأنه يعنى ببساطة، "المعلم العجوز"، ولكن من الواضح أن كان له إسم آخر هو "لى-Li" ومعناه، البرقوق؛ ومن ناحية أخرى يُقال إن كونفوشيوس التقى به، كما ذكر اسمه عند فلاسفة آخرين.

وُلد (لاو-تزي) فى سنة ٦٠٤ ق.م، فى هونان Honan فى الصين الوسطى، وبرغم أنه نشأ فى بيت فقير، فقد ارتقى حتى صار أميناً للمكتبة الملكية فى تشو-chou وعاش حتى سن متقدمة، وذاع صيته كحكيم، وقرب نهاية حياته، إيماناً منه بأن مآل وطنه الفوضى، عزم على مغادرته، وعند الحدود، صُرح له بمغادرة البلاد بكل مامعه من أمتعة بشرط أن يخلف وراءه شيئاً لصالح بلاده، أعنى حكمته، ولما لم يكن (لاو-تزي) قد دوّن أفكاره حتى ذلك الوقت، وافق على هذا الشرط، وهكذا دوّن كتاب "طاو-تى-تشنج" وهو سجل لأفكار (لاو-تزي)، والتي يجب أن تسجل - لأهميتها وطرافتها- فى سجلات الفلسفة؛ أما ما حدث له بعد ذلك، فلم تذكر أى رواية عنه شيئاً، اللهم إلا تسجيل تاريخ وفاته الذى حُدّد بعام ٥١٧ ق.م.

ونعتبر فلسفة [لاو-تزي-تشنج] واحدة من أكثر الفلسفات ثورية في صياغتها، فهي تمثل هجوماً على كل شيء اتجه إلى تشكيل ما يدعى حضارة، فينصحننا (لاو-تزي) "بألا تتدخل في أمر من الأمور" وهو يطالب الحكومات بصورة خاصة بألا تتدخل في أمر من الأمور، ولا يرى شيئاً سوى الشر في فكرة الحكومات، وعلى غير شأكلة جل الفلاسفة الآخرين، هو لا يمجّد المعرفة، ولا يصفها بالفضيلة، كما فعل سقراط، بعد ذلك بزمان يسير، ويرى أنه ليس أخطر من تلقين الاستقامة ذاتها، مادام أنّ كل المحاولات في بث الخير من خلال التشريع سينتج عكس ما هو مقصود.

ويتلخص جوهر رسالته في:

"لو تخلصت من العلم، لما عرفت الحزن، تخلص من الحكماء ولا تقبل الحكمة، وسيستفيد الناس مائة مرة، لا تركز إلى الإحسان، وانبذ الاستقامة، وسيعود الناس إلى واجبه الأخوي، وإلى الحب الأبوي، تخلص من الحيل وانبذ المكاسب يختفي السالبون واللصوص، كن صريحاً وتمسك بالبساطة."

ومثلما ينصح "لاو-تزي" مواطنيه بألا يتدخلوا في أمر من الأمور، فهو ينصحهم كذلك بأن يبقوا حيث هم، وفي ذلك يقول:

"دون أن يغادر المرء بلاده، يستطيع أن يعرف كل شيء عن العالم، وبدون التلصص من النافذة، يستطيع المرء أن يرى طاو السماء، وكلما طالت أسفار الإنسان، كلما قلت معرفته، ولذلك فإن الحكماء يعرفون كل شيء دون أن يسافروا، وهو يُسمى كل شيء دون أن يراه، وينجز كل شيء دون أن يؤديه."

لذلك فالمجتمع المثالي هو "دولة صغيرة بها قلة من الناس"، هذه القلة يجب أن تكون راضية بما عندها، وستكون راضية بما عندها ما لم تكن تسعى لتوسيع أفقها، "وبرغم أنّ الدول المجاورة داخل نطاق الرؤية، ويُسمع صياح ديكتها ونباح كلابها، فلن يقترب أهالي (تلك الدولة الصغيرة) منها طوال حياتهم."

لا شك أنّ هذا المبدأ كان غريباً، أن يصدر عن شخص هو، في الوقت الذي كان يدونه على ورق، كان يُعد نفسه فعلاً لمغادرة وطنه، ولكن وجهة نظره كانت طريفة في أنها كانت حلاً بالنسبة للكائنات البشرية، التي لم تجربها قط.

وقد اكدت (تاوية) لاوتو على الحاجة إلى النظر فيما يتجاوز وعود البشر والمعاهدات التي يرمونها، وذلك للوصول إلى نبع السلام والرضا، وقد دعا (لاوتو) إلى حياة بسيطة ومتناسقة، حياة يتم التخلي فيها عن دافع الربح، وتنحية الحذق جانباً، والتخلص من الأنانية، وتقليل الرغبات.

وقد شعر (لاوتو) بأنه مادام الطمع وحب اكتساب المال يشكلان دوافع الأفعال الإنسانية، فليس هناك أمل في تحقيق السلام والرضا، وبناءً على هذا فقد دعا إلى المبدأ القائل بأنه لا ينبغي القيام إلا بتلك الأفعال التي تتسق مع الطبيعة.

(د) الكونفوشية.. فلسفة إنسانية اجتماعية:

أشرنا إلى أنَّ العصر الذي عاش فيه كونفوشيوس، اتسم بالتفكك السياسي والاجتماعي، والتردى الواسع النطاق للأخلاق، وقد كان من الطبيعي في ضوء هذه الأوضاع أن يتجه حكيمنا إلى إصلاح حال المجتمع، وتركزت إشكاليته في (كيف يمكن تحقيق رفاهية المجتمع؟).

وكان رده على هذا السؤال هو فلسفته، وهي فلسفة إنسانية اجتماعية، تدور حول البشر ومجتمعهم، وليس حول الطبيعة أو معرفة الطبيعة، ووصف الكونفوشية بأنها نزعة إنسانية هو إشارة إلى أنها فلسفة ترد على هذا السؤال:

”كيف يمكن تحقيق الخير والسعادة؟“ بالإشارة إلى مبادئ الفعل التي يتم العثور عليها في الإنسانية ذاتها، ومصدر هذه المبادئ هو ما يجعل من البشر مخلوقات إنسانية.

(١) الطريق الكونفوشي طريق ”جين“ أو طيبة القلب الإنسانية:

يقول كونفوشيوس إنَّ ما يجعل إنساين على نحو فريد هو ”جين“ Jen - أو طيبة القلب الإنسانية، ولقد ترجمت كلمة ”جين“ بطرق شتى، ومن هذه الترجمات: الفضيلة، الإنسانية، الإحسان، الرجولة الحقة، الطابع الأخلاقي، الحب، الخير الإنساني، وطيبة القلب الإنسانية؛ والتعبير الإنجليزي - Human Heartedness - يوحى بأنَّ ”جين“ هي ما يجعلنا إنساين، وأنها أمرٌ متعلق بالشعور، وكذلك بالتفكير، وأنها أساس العلاقات الإنسانية كافة، وتكشف ترجمة كلمة ”جين“

بطيبة القلب الإنسانية كذلك عن التشديد الصينى على القلب، وليس على العقل، باعتباره السمة المحددة للطبيعة الإنسانية.

وعندما سُئل - كونفوشيوس - عما هي "جين" رد قائلاً:

"إنها حب البشر" موحياً بأنَّ قدرتنا على الحب تشكل جوهر إنسانيتنا.

غير أنَّ قدرتنا على حب الآخرين لها تبعات أخلاقية مهمة، الأمر الذي يقتضى التفكير في الـ "جين" من منظور أخلاقى، يقول كونفوشيوس:

"يرغب كل إنسان فى الثروة والشرف، ولكنهما إذا تم تحقيقهما عن طريق مخالف لمبادئ الأخلاق، فإنه لا ينبغى الإبقاء عليهما؛ ويكره كل إنسان الفقر وتواضع المرتبة، ولكن إذا لم يكن بالإمكان تجنبهما إلا بمخالفة المبادئ الأخلاقية، فإنه لا ينبغى تجنبهما، وإذا ما نأى شخصٌ رفيع المكانة عن الإنسانية (الجين) فكيف يمكن أن يحقق تلك المكانة؟ ذلك أنَّ الإنسان الرفيع المكانة لا يمكنه قط التخلي عن الإنسانية (الجين)، حتى ولو من أجل وجبة طعام واحدة، فهو فى لحظات التعجل وهو مسرع يعمل وفقاً لها، وهو فى أوقات الشدة والاضطراب يعمل وفقاً لها".

وتشير هذه العبارة بوضوح إلى أنَّ (جين) كونفوشيوس، هى المبدأ المطلق للفعل الإنسانى، والكائن البشرى الحق لا ينحرف عن طريق "الجين" قط ومن ينحرف عن هذا الطريق لا يعبر عن كمال الإنسانية، والكلمة التى تترجم بالمبادئ الأخلاقية فى هذه الفقرة هى "التاو" أو "الطريق" الأمر الذى يعنى ضمناً أنَّ الطريق السليم للعقل الإنسانى ليس طريق تحقيق ما يحبه المرء وتجنب ما يكرهه، وإنما هو طريق العمل وفق مبدأ أعمق، هو مبدأ [الجين].

ويرى كونفوشيوس إن الجين بالغة الأهمية، بحيث إنَّ الحياة من دونها ليست جديرة بأنَّ يحياها الإنسان، ومن يتسم بالحكمة، ويعد مثقفاً حقيقياً، لا يقترف ما من شأنه الإضرار بـ [الجين]، وفى هذا يقول حكيمنا:

"إنَّ المثقف الحازم، ورجل الإنسانية (الجين) لا يسعى قط للحياة على حساب الإضرار بالإنسانية (الجين)، وهو يؤثر التضحية بحياته، لكى يحقق الإنسانية (الجين)".

لأنَّ الجين، هى على وجه الدقة ما يجعلنا إنساين حقاً، فإنَّ التخلّى عنها هو تخلّى عن الحياة الإنسانية بصورة كاملة؛ والجين، جديرة بأنَّ يضحي المرء بحياته من أجلها، فهى أساس لكل قيمة وجدارة إنسايتين، والجين، هى فى نهاية المطاف، ما يجعل الحياة جديرة بأنَّ تعاش.

(٢) ضرورة احترام " آداب المجتمع " فى فلسفة كونفوشيوس:

وفى رأى كونفوشيوس، أنَّ السيطرة على النفس، تقهر الأنانية، وتغرس الخواص الداخلية للإنسانية، التى تشمل الإخلاص والاستقامة الشخصية.

وانصت إلى إجابته، عندما سُئل عن الجين، قال:

"أنَّ يسيطر المرء على نفسه، وأنَّ يعود إلى آداب المجتمع، تلك هى الإنسانية (الجين)".

ويضيف حكينا قائلاً:

"إذا كان بمقدور إنسان (الحاكم) أن يسيطر على نفسه ليوم واحد، وأنَّ يعود إلى اللياقة، فإنَّ كل ماتحت السماء سيعود إلى الإنسانية (جين)، وممارسة الإنسانية تعتمد على المرء نفسه".

ويتعين علينا لفهم الأهمية التى يعلقها كونفوشيوس على "آداب المجتمع" أن نرى ماذا يعنى هذا التعبير عنده، يعنى الدين، ويعنى المبدأ العام للنظام الاجتماعى، ويعنى كيان الممارسات الاجتماعية والأخلاقية بأسره والذى علمه كونفوشيوس، وأضفى عليه طابعاً عقلائياً، ويعنى أيضاً الطقوس والاحتفالات، ويعنى نظاماً من العلاقات الاجتماعية المحددة بوضوح، مع مواقف نهائية من جانب كل طرف تجاه الطرف الآخر، الحب فى حالة الآباء، الولاء البنوى فى حالة الأبناء، الاحترام فى حالة الإخوة الأكبر، الولاء بين الأصدقاء، الاحترام للسلطة بين الرعايا، والنزوع إلى الخير فى حالة الحكام، ويعنى الانضباط الأخلاقى فى السلوك الشخصى، والآداب العامة فى كل شىء.

وبهذا المعنى، فإن [آداب المجتمع] هى القانون العرفى، أو الأخلاقى السائدة وتحل محل القانون المكتوب، على الرغم من أنها تختلف عن القانون المكتوب فى أنها

إيجابية، وليست سلبية بمعنى أنها يقول "افعل هذا" بدلاً من "لا تفعل هذا"، وهى لا تجلب معها العقاب، التلقائى، ويفرض بشكل عام أنها تشير إلى سلوك الارستقراطية، وليس العامة.

(٣) دور "العائلة" فى فلسفة كونفوشيوس:

ويؤكد كونفوشيوس أهمية العائلة فى تطوير (الجين)، لأنَّ العائلة تشكّل البيئة الاجتماعية المباشرة للطفل، وفى العائلة يتعلم الطفل احترام الآخرين وحبهم، حيث يأتى الآباء أولاً، فالإخوة والأخوات والأقارب، ثم باتساع النطاق التدريجى، الإنسانية كافة، ويقول أحد أتباع كونفوشيوس - توتسو Tutzu - إنَّ "الولاء البنوى، والاحترام الأخوى هما جذر الإنسانية".

فالولاء البنوى، هو فضيلة توقير العائلة واحترامها، فأولاً وقبل كل شىء، يتم توقير الأبوين، لأنَّ الحياة نفسها متولدة عنهما، وفى غمار إظهار التوقير للوالدين، من المهم حماية الجسم من أن يلحق به أذى، حيث الجسم من الأبوين، ومن هنا فإنَّ حماية الجسم هى تكريم للأبوين، بل أكثر من ذلك، فإنَّ التوقير ينبغى إظهاره للأبوين من خلال حسن السلوك فى الحياة، وجعل إسهامهما معروفاً ومبجلاً، وإذا لم يكن بمقدور المرء أن يُشرف إسم أبويه، فعليه ألا يجلب لهما الخزي والعار، على الأقل، وهكذا، فإنَّ (الولاء البنوى) لا يتمثل فى الرعاية البدنية من جانب المرء بوالديه فحسب، وإنما كذلك فى جلب الثراء العاطفى والروحى، (والولاء البنوى) ليس فضيلة عائلية فقط، فهذه الفضيلة التى تنشأ فى العائلة تؤثر فى الأفعال خارج المحيط العائلى، وتصبح من خلال اتساع نطاقها فضيلة أخلاقية واجتماعية، وعندما يتعلم الأطفال احترام أبويهم وتوقيرهم، فإنَّ بمقدورهم أنَّ يحبوا إخوتهم وأنَّ يحترمهم، وعندما يحققون ذلك، فإنَّ بإمكانهم أنَّ يحبوا الإنسانية بأسرها، وأنَّ يحترموها وبالتالي يتصرفون وفقاً لإنسانيتهم، أو وفقاً للجين، وهكذا فإنَّ بدايات "جين" إنما توجد فى الولاء البنوى.

(٤) دور "الاستقامة" فى فلسفة كونفوشيوس:

وهناك فضيلة أخرى شدّد عليها كونفوشيوس، باعتبارها ضرورية لتطوير "جين"، هى الاستقامة، يقول:

" إنَّ الاستقامة تدلنا على الطريق الصحيح للتصرف في مواقف محددة، بحيث إننا نكون على توافق مع (جين)، وهكذا فإن الاستقامة، هي الاستعداد الأخلاقي للقيام بالسلوك، والقدرة على إدراك ما هو صحيح في آنٍ معاً" وهي قدرة تعمل كنوع من الحس أو الحدس الأخلاقي.

وهو يقول أيضاً:

" ينظر الرجل الأسمى إلى الاستقامة، باعتبارها جوهر كل شيء، وهو يلتزم بها بحسب مبدأ آداب المجتمع، ويبرزها في تواضع، ويمضي بها إلى نهايتها في إخلاص، إنه حقاً الرجل الأسمى!".

ويتحدث حكيمنا في بعض الأحيان عن هذه القدرة من خلال شخصية المرء أو استقامته الأخلاقية، ذلك أنَّ الشخص ذا الشخصية الأخلاقية القوية، الذي يرى فرصة للكسب يفكر أولاً فيما إذا كان القيام بذلك من شأنه أن يكون صواباً على الصعيد الأخلاقي (الاستقامة)، ومثل هذا الشخص على استعداد للتضحية بحياته من أجل شخص يتعرض للخطر.

فالشخص ينبغي أن يحترم أبويه ويطيعهما، لأنَّ ذلك صوابٌ على الصعيد الأخلاقي والتزامٌ ينبغي القيام به، وليس لأي سببٍ آخر.

وعلى هذا، تكون الاستقامة، والولاء البنوي، وطيبة القلب الإنسانية، هي خصائص الشخص الأسمى، الشخص الذي طورت إنسانيته، والذي تفتحت مداركه ونضج وعيه، وهذا الشخص الأسمى، هو نقيض الشخص الضئيل أو المنحط، الذي لم تنضج مداركه أخلاقياً، والذي يتصرف بوحى الغريزة، ومن أجل النفع.

وقد كان كونفوشيوس مقتنعاً بأنَّ العناية بالإنسانية من خلال احترام آداب المجتمع، والولاء البنوي، والاستقامة، سوف تفضي بالشخص إلى تجسيد شخصي للفضيلة، الأمر الذي سيسفر عن مجتمع منظم خير تنظيم، وليس هناك تمييز حاد هنا بين الأخلاق والسياسة، فإذا كان الناس صادقين مع أنفسهم، ويتسمون بالإخلاص، فإنهم سيُجسدون الفضائل المختلفة، وإذا ما قام كل شخص بهذا، فمن المؤكد أنه ستكون هناك حكومة جيدة، ونظام اجتماعي تُمه السعادة.

(هـ) التاوية.. والتأكيد على الأسس الميتافيزيقية للطبيعة:

ترجع بدايات التاوية، شأن بدايات الكونفوشية، إلى الاحتجاج الفلسفى على الظروف التى كانت سائدة فى عصرها، وعصر لاوتو هو نفسه على وجه التقريب عصر كونفوشوس، وتكشف الاتهامات التى وجهها لاوتو - والقائلة بأن الفقر والجوع سببها الحكام السيئون، وأن الطمع والجشع تسببا فى الحروب والمجازر، وأن الرغبات فى الثروة والسلطة، والمجد، تجلب دمار المجتمع - عن أن فلسفته قد استمدت الهاما من القلق إزاء الأوضاع الاجتماعية الجديرة بالإدانة التى كانت سائدة فى ذلك العصر.

وقد أكد التاويون على تناسق الطبيعة، وكمالها، وقوام الموقف التاوى هو أن حيل البشر وأفاعليهم تفضى إلى الشر والتعاسة، ويتعين عليهم للعشور على السلام والرضا أن يتبعوا طريق الكون، أو "تاو" الكون، وأن يحققوا التوحد مع هذا التاو.

ويرى لاوتو أن الحياة المثالية، هى الحياة البسيطة والمتناسقة، والحياة البسيطة هى الحياة العادية، التى فيها تجاهل الربح، والتخلّى عن الحذق، وتقليل الأنانية إلى حدها الأدنى، وكبح الرغبات، وهذه السمة الأخيرة من سمات الحياة البسيطة تفيد فى إيضاح التباين بين "لاوتو" و"كونفوشوس"، فقد دعا الأخير - كونفوشوس - إلى الطقوس والموسيقى، بحيث يمكن إعلاء الرغبات والانفعالات وتنظيمها، أما بالنسبة لـ "لاوتو" فإن الجهود المبذولة لتطوير الرغبات والانفعالات وتنظيمها قد بدت مصطنعة، وتميل إلى التدخل فى تناسق الطبيعة، وبدلاً من تنظيم الأشياء وضبطها لتحقيق الكمال، فإن لاوتو سيرك الأشياء تعمل وصولاً إلى كمالها على نحو طبيعى، فالتباين بين كونفوشوس ولاوتو تباين بين الاعتقاد بأن البشر هم معيار كل الأشياء ومصيرها، وبين الاعتقاد بأن الطبيعة هى معيار كل الأشياء ومصدرها.

وتنظر التاوية إلى الإنسانية والطبيعة باعتبارها وحدة واحدة، ولا تميز بينهما، وفقاً لهذه الفلسفة، فإن أساس الإنسانية ليس من صنعنا، وإنما هو متضمن فى شمول الكون وعمله، وبناءً على هذا فإن التاوية فى جوانبها النقدية والسلبية تحلل العيوب والشرور التى تواجه المجتمع البشرى، وتصل إلى أنها تنبع فى المقام الأول من وجهة النظر الخاطئة للإنسان والكون.

ومهمة الفلسفة هي أن تقود البشر إلى الوحدة مع الكون من خلال إضاءة "تاو" هذا الكون، وتشير كلمة "تاو" إلى الدرب أو الطريق، وهي تعني في التاوية، المصدر والمبدأ الذي يعمل على أساسه كل ما هو موجود، وعندما يتوجد تاو الانسانية وتاو الكون، فإنَّ البشر سيدركون طبيعتهم اللا متناهية، وعندئذٍ سيسود السلام والتناسق.

والوظيفة الأولى للقواعد الأخلاقية والمؤسسات الاجتماعية - في رأى لاوتو - هي تنظيم أفعال الناس، لكي يتحقق الحد الأقصى من الإشباع للجميع، وينتهي لاوتو، إلى ضرورة التخلي عن الرغبات كمصادر للفعل، وأنَّ الناس ينبغي أن يتبنوا طريق التاو السهل، وألا يفرضوا رغباتهم على الطبيعة، بل يتبعوا مبادئ الطبيعة، وقد دعا فيما يتعلق بالمجتمع، إلى حكومة للشعب تتفق مع الطريق السهل والطبيعي للتاو، الذي يعزِّر الطريق الطبيعي في حياة الناس.

ذلك أنَّ وضع المعايير الأخلاقية لا يحل المشكلات، فالتنافس والصراع - بين الناس - يبقيان على حالهما، والقواعد تنتهك، ويتم إقرار قواعد جديدة لحماية القواعد القديمة، ولكن القواعد القديمة والجديدة تنتهك، وتظل الرغبات دوغماً إشباع بينما يتدعم الشر واقتراف الخطأ، وبما أنَّ التوصل إلى معايير أخلاقية لا يحل المشكلة، فإنَّ الحل يمكن في التخلي عن هذه المعايير.

والطريق السهل للفعل في رأى لاوتو يفترض مقدماً التناغم مع الكون والترف وفقاً للتاو الكوني الشامل.

ونتيجة لذلك، فقد نظر "لاوتو" إلى فشل الأخلاق الكونفوشية في تحقيق الأوضاع الاجتماعية المثالية على أنه مؤشرٌ على عدم كفاية المنظور الأخلاقي، فالأخلاق لا تدرس المشكلة في جذورها، ومن خلال السماح للرغبات بأن تعمل كمصادر شرعية للفعل الإنساني، لهذا فإنَّ الأخلاق تعجز عن القضاء على التنافس، والنزاع، وأقصى ماتستطيع عمله هو تنظيم التنافس والتقليل من النزاع، ولكن هذا يؤدي، ببساطة إلى تعقيد مسألة إشباع الرغبات على نحو يتفق مع القواعد الأخلاقية، ويؤدي إلى تحطيم القاعدة، وبذلك يظهر السلوك اللاأخلاقي، فهي لا تقضى على التنافس، ولا تتيح المجال للإشباع الكامل للرغبات، ومن هنا فقد قال لاوتو:

"عندما يضيع التاو، عندئذٍ فقط ينشأ مذهب الفضيلة، وعندما تضيع الفضيلة، عندئذٍ ينشأ مبدأ الإنسانية"

ونصيحة "لاوتو" للحكام هي أنهم ينبغي أن يحكموا في إطار أدنى حد ممكن، وأن يتمسكوا بالطريق الطبيعي، وأن يتركوا الناس يمشون في طريقهم، وهو يشير إلى أن الناس يصعب حكمهم، لأن الحاكم يقوم بأكثر مما ينبغي من الأمور.

وما ينبغي أن يضعه الحاكم في ذهنه هو أن "حكم بلد كبير يشبه طهو سمكة صغيرة" وفي القيام بطهو سمكة صغيرة يتعين على المرء ألا يعالج أمرها بخشونة وقوة، لأن المبالغة في المعالجة ستفسدها؛ وفي إطار حكم بلد يتعين الحرص على عدم دفع الناس دفعا، وإجبارهم على التمرد، وعندما يتم إرضاء الناس فلن يكون هناك تمرد أو حروب، وبالتالي فإن الطريق السهل في الحكم إعطاء الناس ما يرغبون فيه، وجعل الحكومة تتوافق مع إرادة الناس، وليس محاولة إجبار الناس على التوافق مع إرادة الحكومة.

الملاحق

نصوص مصرية قديمة، من كتاب:

" نصوص مقدسة، ونصوص دنيوية من مصر القديمة " - المجلد الأول والثاني، نقلا عن الترجمة الفرنسية بقلم: كلير لالويت، الترجمة العربية، ماهر جويجاتي، مراجعة: د. طاهر عبد الحكيم، الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦م.

وتشمل:

أولاً: التكوين أو كيف خلقت الآلهة العالم

١- " بتاح " الإله الخالق في "منف".

٢- بزوغ الشمس في فجر البداية الأولى في " هليوبوليس".

٣- الآلهة الثمانية فوق التل في " هرموبوليس".

ثانياً: ترنيمة من عصر أمنحوتب الرابع.

ثالثاً: تعاليم الملك امنمحات الأول إلى ابنه " مري - كا - رع".

رابعاً: تعاليم الملك امنمحات الأول إلى ابنه " سنوسرت".

خامساً: الإستقبالات الرسمية للوزير " رخ - مى - رع".

سادساً: الفلاح الذى تعرض للسطو، وعرائضه التسع (شكاوى الفلاح الفصيح).

سابعاً: مرثيات "إيبو-ور".

ثامناً: أناشيد اليائس.

تاسعاً: فن الحياة للوزير " بتاح حوتب".

أولا ١ التكوين أو كيف خلقت الآلهة العالم

١- "بتاح الإله الخالق فى "منف".

من التفسيرات التى طرحت لتفسير وجود العالم، ما ورد فى نص مترابط قام بصياغته فى مدينة "منف" كهنة الإله "بتاح".

وبالفعل فقد عثر على لوحة جراتينية ضخمة^(١) كان الملك "شاباكا" من ملوك الأسرة الخامسة والعشرين (حوالى عام ٧١٠ ق.م) قد أمر بحفر نص على سطحها وهو - بشهادة الوثيقة ذاتها - نسخة من مخطوط محفوظ فى أرشيف معبد "منف" وكان مخطوطا شديد التلف، قرضته الديدان. إن لغة النص وأسلوبه القديمان تشهدان على هذه الحقيقة. ولسوء الحظ اصاب التلف الشديد بعض أجزاء اللوحة، فقامت استخدمت فى العصور الحديثة كقاعدة لحجر طاحونة.

فنيحى "حورم": "ذاك الذى يعمل على ازدهار القطرين" -

"السيدتان": "ذاك الذى يعمل على ازدهار القطرين" -

"حورس الذهبى": "ذاك الذى يعمل على ازدهار القطرين" -

ملك الوجهين القبلى والبحرى: "نفر- كا- رع" -

ابن "رع": "شباكا" - محبوب "بتاح" - إلى - الجنوب - من - جداره "الحى مثل
"رع" للزمن اللاتهنائى.^(٢)

لقد كرس جلالته هذا النص من جديد، فى معبد أبيه "بتاح- الذى - يوجد - إلى - الجنوب - من - جداره". وبالفعل فقد اكتشف جلالته أن الأمر يرتبط بمؤلف من مؤلفات الأجداد، كانت الديدان قد قرضته، فبات من الصعب على الناس أن يلموا بمعناه "المما كاملا" من مطلعه وحتى نهايته. فكرسه جلالته من جديد "فنسخه" ليصل أيضا إلى مستوى رفيع من الكمال أكثر من ذى قبل - وذلك من أجل بقاء اسم "الملك" وليدوم أثره طويلا فلى معبد أبيه "بتاح-الذى - يوجد- إلى - الجنوب -من- جداره" على امتداد كل الآماد للزمن اللانهائى، وهو ما صنعه ابن "رع": "شباكا" من أجل أبيه "بتاح-تاتن"^(٣) لكى ينشط بعد أن وهب حياة لانهائية.

بتاح الإله الملكى.

تان ملك الوجهين القبلى والبحرى | هو "بتاح"^(٤) الذى يشار إليه بالاسم العظيم [تات]نن - [الذى - يوجد -على- الجنوب من-جداره] ٠٠٠٠ [جامع شمال] الوجهين القبلى والبحرى، إنه هو، هذا الموحد الذى ظهر متألقا كملك الوجه القبلى(ثم) ظهر متألقا كملك الوجه البحرى ٠٠٠٠ ذاك الذى انجب نفسه بنفسه حسب أقوال "أتوم" الذى أنجب التاسوع الإلهى.^(٥) [لقد أمر "جب" رب الالهة أن تتجمع إلى جواره الآلهة التسعة، حتى يتم الفصل بين "حورس" وبين "ست"^(٦)، ولوضع حد لخصومتهم. ونصب "ست" ملكا على أرض الوجه القبلى، حتى المكان الذى ولد فيه، فى مدينة "سسو".^(٧) ثم قام "جب" بتنصيب "حورس" ملكا على الوجه البحرى فى بلاد مستنقعات(النيل) حتى المكان الذى غرق فيه والده، أى "تقسيم الأرضين".^(٨) وعلى هذا النحو سيشرف "حورس" على منطقة

و"ست" على منطقة (أخرى). وسوف يعملان على إقرار السلام فى القطرين فى "عيان"^(٩) وعلى هذا النحو إذن سيتم تقسيم الأرضين.

وقال "جب" لـ "ست": اذهب إلى المكان الذى ولدت فيه. (فأردف) "ست" "الوجه القبلى". ثم قال "جب" لـ "حورس": "اذهب إلى المكان الذى غرق فيه والدك". (فأردف) "حورس": "الوجه البحرى". عندئذ قال "جب" لـ "حورس" و"ست": "لقد فصلت بينكما" - الوجه البحرى والوجه القبلى^(١٠).

عندئذ بدا أن قلب "جب" مستاء، لأن نصيب "حورس" كان مماثلاً لنصيب "ست". ولذا فقد أعطى ميراثه الخاص لـ "حورس" فهذا الأخير كان ابن ابنه البكر^(١١). ثم قال "جب" للتاسوع: "الميراث هو من نصيب "حورس" وحده. (وقال) "جب" للتاسوع: "حورس" هذا الوريث، له ميراثى (وقال) "جب" للتاسوع: لابن ابنى "حورس"، ابن آوى، الوجه القبلى". (وقال) "جب" للتاسوع: "المولود البكر "حورس" الذى يفتح "الدروب". (وقال) "جب" للتاسوع: لقد ولد ابن هو "حورس" يوم ولد فاتح الدروب"^(١٢).

هكذا تولى "حورس" أمر البلاد (بأسرها). فهو الذى لم شملها^(١٣) والذى يشار إليه بالاسم العظيم "تاتنن - الذى - يوجد - على - الجنوب من - جداره" رب الزمن اللاتهاى^(١٤). عندئذ ازدهرت على جبينه "صاحبة - السحر - العظيم"^(١٥). إنه "حورس" الذى يتجلى متألقاً بصفته ملك الوجهين القبلى والبحرى، موحد القطرين فى إقليم "الجدار" (الأبيض)^(١٦) وهو نفس المكان الذى كانا قد اجتمعنا فيه.

والآن يظهر البوص والبردى^(١٧) على الباب العظيم المزدوج لمعبد "بتاح" وذلك يعنى أن "حورس" و"ست" فى سلام وهما متحدان. سوف يتآخيان من الآن

ويضعان حدا لنزاعهما في كل مكان يتوجهان إليه، نظرًا لالتحادهما في معبد "بتاح"، "ميزان القطرين" حيث جرى فيه وزن الوجهين القبلي والبحري. إلى ذلك نص طويل إلى حد ما، شديد التشويه، ومستلهم من أصول أوزيرية واضحة [١].

الخلق

الآلهة التي جاءت إلى الوجود على هيئة "بتاح":^(١٨)

"بتاح-على-العرش-العظيم..."

"بتاح-ننوت"، الأب، الذي أنجب "آتوم"

"بتاح-ننوت"، الأم التي ولدت "آتوم"

"بتاح-العظيم"، قلب ولسان التاسوع.

"بتاح" [١]... الذي أنجب الآلهة

"بتاح" [١]... الذي أنجب الآلهة

"بتاح" [١]...

"بتاح" [١]... "نفرتم"، يوميا، من أجل أنف "رع".^(١٩)

عندئذ، وفي قلب ("بتاح") و(على) لسان ("بتاح")، ظهرت إلى الوجود صورة "آتوم"^(٢٠) العظيم جدا هو "بتاح" الذي ينظم (حياة) الآلهة جمعاء و"كائناتها".^(٢١) وفي قلبه، وفي نفس الوقت، ظهر "حورس" إلى الوجود، ك(شكل من أشكال) "بتاح"- وظهر "تحوت" إلى الوجود على لسانه، ك(شكل من أشكال) "بتاح".^(٢٢) وهكذا تجلت هيمنة القلب واللسان على سائر الكائنات

حسب التعليم (الذى يرى)، أن القلب هو العنصر المسيطر على كل جسد، واللسان هو العنصر المسيطر على كل فم، (فالقلب واللسان هما) من نصيب الآلهة جمعاء، والبشر أجمعون والماشية جمعاء والكائنات الزاحفة جمعاء وكل ما يحيا. إن الأول يتصور كل ما يتغيه "بتاح"، والآخر يأمر به.

تاسوع "بتاح" هو فى حضرته، على هيئة أسنان وشفيتين. (إنها المقابل) لنطفة "آتوم" ويديه. وفى الحقيقة فقد ظهر تاسوع "آتوم" إلى الوجود بواسطة نطفته أنامله. (٢٣) إن تاسوع "بتاح" هو الأسنان وشفاه فمه التى نطقت اسم كل الأشياء ومنه انبثق "شو" و "تفوت" (٢٤).

لقد خلق تاسوع ("بتاح") الإبصار، بفضل العينين، والسمع بواسطة الأذنين، والتنفس بالأنف. وكل هذه ترفع بعد ذلك إلى القلب (ما تستقبله من أحاسيس). والقلب هو الذى يسمح بظهور كل معرفة، واللسان هو ما يردد ما يتصوره القلب. وعلى هذا النحو، ولدت الآلهة جمعاء (ومن بينها) "آتوم" وتاسوعه. لأن كل كلمة إلهية تظهر إلى الوجود حسبما فكر فيه القلب أمر به اللسان.

وهذا خلقت بفضل هذه الكلمة منابع الطاقة الحيوية وتحددت صفات الكائن، كما خلقت كل الأطعمة وكل المأكولات النافعة. كذلك أيضا (خلق الثواب العادل) من أجل مناعتنا أن يفعل ما يحبه الناس و (العقاب) لمن يرتكب الأفعال المكروهة. ووهبت الحياة للكائن المسالم، والموت للمجرم وهكذا تم خلق الأعمال كلها وجميع الحرفيين وعمل الأيدي وسير السيقان، وحركة كل عضو، حسب الأمر الذى تصوره القلب وافصح عنه اللسان، والذى ما زال يشكل دلالة كل شيء. حدث إذن أن قيل عن "بتاح": "ذاك الذى خلق كل شيء وأتى بالآلهة إلى الوجود. إنه "تاتن" الذى أنجب الآلهة وانبثقت منه كل الخيرات والمأكولات النافعة

والأطعمة والقرايين الآلهية وكل ما هو طيب وجميل. "هكذا يعترف الناس أن قدرته عظيمة، وأعظم من قدرة (غيره من) الآلهة. وكان "بتاح" راضيا بعد أن خلق كل هذه الأشياء وكل الألفاظ الآلهية.

لقد أنجب الآلهة وأسس المدن وأنشأ الأقاليم. وأقام الآلهة فى معابدها. وزاد من قرايينها ونماها. وأسس هياكلها وصنع أجسادها التى صنعت من شتى أصناف الخشب، ومن مختلف أنواع الحجر ومن الصلصال ومن مختلف الأشياء (الأخرى) التى تنمو عليه "بتاح" والتى تتحلى من خلالها.^(٢٥) وهكذا تجمعت كل الآلهة وكاءاتها إلى جواره راضية، متحدة مع رب القطرين.^(٢٦)

منف العظيمة

مخزن غلال الإله "تاتن" العرش، العظيم، (المدينة) التى تفرح الآلهة الموجودة فى معبد "بتاح"، (إنها) "سيدة الحياة. لقد أغرق "أوزيريس على صفحة مياهها، واستطاعت "إيزيس" و"نفتيس" أن ترياها. وعندما محتاه، أعانتاه أمرهما "حورس" أن تمسكاً بـ "أوزيريس" بلا إبطاء، لتحوّلا بالتالى دون غرقه، وأسرعنا ووضعناه على اليابسة: عندئذ دخل من الأبواب الخلفية: إلى أبحاد رب الأبدية، مقتفيا خطى ذاك الذى يتألق فى الأفق، عبر دروب "رع"، كالمترجع على العرش العظيم. ودخل القصر وتآخى مع الآلهة ومع "تاتن-بتاح" سيد السنين. وهكذا ظهر "أوزيريس على الأرض، فى القصر الملكى، شمال هذا البلد الذى جاء إليه. وظهر ابنه "حورس" ساطعا بصفته ملك الوجه القبلى، ثم ظهر ساطعا بصفته ملك الوجه البحرى، بين ذراعى أبيه "أوزيريس"، وسط الآلهة التى تتقدمه وتتبعه.

هذا النص مترابط ولكنه متشعب ومركب، وينطوى على دالتين عظيمتين. فهو يستعرض من ناحية، الأساليب الذهنية والروحية التى يعتمدها "بتاح" (معبود)

مدينة "منف" عند خلق العالم. فبعد أن تصور في البداية عناصر الكون في قلبه - وهو مركز كل وجدان وكل ذكاء- تخرج هذه العناصر بعد ذلك إلى الوجود بواسطة الكلم الخلاقة. إن الإقرار بالقدرة السحرية لنفث هي حقيقة منتشرة كل الانتشار في الحضارات السامية والإفريقية على حد سواء. ولكن "ترتيب" الخليفة كما تظهر على هذا النحو ليس بالأمر العديم الأهمية: وبالطبع فالآلهة هي التي تظهر أولاً، الآلهة التي امتزجت شخصيتها إلى حد ما مع شخصية الإله الخالق المنفى الذي كان يحتويها جميعاً. ثم أعطى -للمخلوقات- من بشر وحيوانات على السواء- القلب واللسان، وهما ضروريان لكل كائن عاقل، فلا يوجد تمييز جوهري بين مملكتي الحيوان والإنسان. ثم خلقت المقومات الروحية والأخلاقية الضرورية لدوام الكون وتأسيس جماعة بشرية إلى مغالبة الأيام.

ثم تأتي الأعمال وجماعة الحرفيين حسب ترتيب الخلق: فعندما ينحت الحرفيون أو يرسمون أو يشكلون أو يكتبون، فإنهم يخلقون على هيئة تماثيل أو نقوش أو تصاوير -أغلفة، هي كتل أو مجرد ملامح، في الإمكان أن تدب فيها الحياة عند النطق بالكلمات. وعلى كل حال فإنهم يعرفون بعبارة "سى عنخ" أى "ذلك الذى يحى (بضم الياء)". وفضلاً عن ذلك فهي طريقة لإسباغ الخلود على الخلق الجديد، من خلال إيجاد أشكال تغالب الأيام، فتحيتها عناصر الكائن اللامادية. ولإنتهاء من عمله يلجأ الخالق إلى الأسس الفيزيائية للحياة ولا سيما إمانات الفعل والحركة. وأخيراً، فإنه يدبر شئون العالم دينياً وإدارياً. لقد تصور الإله الخالق "بتاح" مهمته وتفكرها أنجزها على خير وجه بلا أى تدخل فيزيقي. أما الدلالة الأخرى لهذا النص فهو إقراره الواضح منذ هذا العصر القديم بهيمنة الآلهة الثلاثة: "بتاح" (إله عاصمة المملكة) و "رع" (القوة الكونية الشمسية) و "أوزيريس" (إله الإنبات والتربة الخصبة الذى سيعث حياً). وإلى ما عرف ثلاثتهم من تبجيل على

المستوى المحلي، فإنهم سيظلون آلهة مصر العظمى طوال التاريخ الفرعوني. إذن فمنذ قديم الزمان كان الوعي يدركهم على هذا النحو ورفعههم إلى هذا المقام، بعد أن أدبجهم في أساطير معتدة.

كان "بتاح" إلها ملكيا وعادلا، في مدينة كبرى وأيضا إله خلق رئيسي، وإذا يلجأ إل مختلف الأساليب، فإنه لا يعطى الوجود فحسب، بل إنه يسبغ على عمله النظام والأبدية فيعطى "للروح" دورا بارزا.

٢- بزوغ الشمس في فجر البداية الأولى، في "هليوبوليس".

لا يوجد عرض مترابط للاهوت "هليوبوليس" ولكن في الإمكان تحليل وفهم المنظومة التي صاغها كهنة الشمس بفضل ما ورد عنها من إشارات في مختلف النصوص ولا سيما كبرى أسفار الطقوس الجنازية: متون الأهرام، ومتون التوابيت، وكتاب الموتى -والأناشيد.

قبل أي خلق، كان إله -الشمس القديم، بمدينة "هليوبوليس" ("آتوم" أو "آتوم-رع") مغمورا في المحيط الأزلى مع الآلهة، في حالة كمون.

قال "آتوم" "...كنت" وحيدا في ال "نور" وكنت خاملا. كنت لا أجد موطنًا أستطيع أن أقف فيه، كنت لا أجد مكانا أستطيع أن أجلس فيه. ومدينة "هليوبوليس" التي كان مقررا أن أقيم فيها (في المستقبل)، لم تكن قد تأسست بعد، والعرش الذي كان مقدرًا أن أتربع عيه، لم يكن قد تشكل بعد. لم أكن بعد قد خلقت "نوت" من فوقى. وجماعة (الآلهة) الأولى لم تكن قد جاءت إلى العالم. وتاسوع الآلهة الأولية، لم يكن موجودا. كانت (الآلهة) لاتزال معى. "عندئذ

قال "آتوم" لـ "نوو": كنت طافيا، حاملا كل الخمول، وكانت الـ "بعث" بلا حركة. إن ابني، الحياة، هو الذي أعادني إلى الوعي وبعث في قلبي الحياة، بعد أن جمع أعضائي التي كانت إاي الآن بلا حركة".^(٢٧) وقال "نوو" لـ "آتوم": فلتنفس (يا "آتوم") ابتتك "ماعت" (الحقيقة والعدالة)، ارفعها إلى أنفك ليحيا قلبك. ليت ابتتك "ماعت" وابنتك "شو" الذين يطلق عليهما أيضا اسم الحياة، لا يتعدان عنك".^(٢٨)

وعلى هيئة صورة أسطورة أكثر إستعلاء، إذ يمتزج الخالق بمفرده مع المحيط الأزلي، متواجدا وجودا فريدا، فإنه يبعث حياته الخاصة: "أنا" "نوو"، أنا الواحد الأوحد، ليس كمثلي شيء... لقد جلبت جسدي إلى الوجود بفضل قدرتي السحرية، لقد خلقت نفسي بنفسي وشكلت نفسي حسبما كنت أتمنى، حسب رغبتى"^(٢٩).
تماما، كما أن الحياة كامنة في القدرات الإلهية الغارقة في الخواء السائل، كذلك فإن هذا المحيط اللاعضوي هو بأبعاده صورة مسبقة للكون، إن العالم ونظامه المحكم المرتب (الكوزموس) هو على قد الإله الخالق:

...الـ "نوو" الذي يحمل "آتوم" والذي يبلغ اتساع السماء وعرض الأرض.^(٣٠)
عندئذ ينبثق "الشمس" (لفظ مذكر في المصرية القديمة م.) خارج الكتلة السائلة، بإرادته الخاصة، على هيئة انبعاث وضاء:

"أنا السرمدي، أنا "رع" الذي خرج من الـ "نوو" ... أنا سيد النور"^(٣١)

كل فهر جديد سيكون تكرارا لهذا الإنبعاث الأول للنور، إذ خلط علماء اللاهوت، من خلال صورة أسطورية أكثر تعقيدا، بين البزوغ الأول للنجم واليلاد اليومي للرة الوضاءة التي تلد "نوت" إلهة السماء كل يوم، في دورة ثابتة

لا تتغير، وهكذا تتداخل الأزمنة السابقة على الخلق واللاحقة عليه لتضفى على نشاط الشمس الحيوى سرمدية لا تفارقها.

السماء حبلى بـ"رع" وعندما ستلده "نوت" ترتفع الأيدي ويلتف من حوله الأتباع . . . رب الأفق "رع" السرمدى. إنه ييزغ خارج الـ"نور" و"التألقة"^(٣٢) من حوله. إن تاسوعه يتحرق من حوله، وقدرته تخيف الآلهة التى أتت من بعده إلى الوجود. إن ملايين "ك"ءاته، هى فى فمه، فهو السحر، ذاك الذى ولد من ذاته. والآلهة عندما تراه يغمرها الفرح، وهى تعيش من عرقه العطر. إنه ذاك الذى خلق الجبال وشكل السماء.^(٣٣)

لا ينبغي أن نبحث فى هذه الأساطير عن هياكل عقلانية أو أطر نظامية، فهى تراكب وتسعى إلى الوقوف على أحوال من الوعى الدينى ولحظات متنوعة منه.

فى اليوم الأول، و"آتوم" خارج الـ"نور"، فإنه يجسد فى الوجود الإلهين التوأمين: الإله "شو" والآلهة "تفنوت" وهما أول زوجين مخلوقين. واستنادا إلى تقليد قديم، ظل قائما منذ عصر متون الأهرام، فإن الإله الخالق قد شكلهما بلعابه أو بتفاله:

"لقد تفلت "آتوم" من فمه، باسمك هذا، الذى هو "شو".^(٣٤)

"يا"آتوم". . . لقد تفلت "شو" و "نفثت "تفنوت".^(٣٥)

"تفالك ولعابك، أى "شو" و "تفنوت".^(٣٦)

وحسب تصور آخر، فقد شكل "آتوم" الأعزل "فرخيه" بفعل يده النشطة عن طريق الإستنماء:

فما أن خرج "آتوم" إلى الوجود، مارس الإستئمان في "هليوبوليس". فوضع ذكره في قبضة يده. فأوجد اللذة لنفسه. عندئذ ولد في آن واحد التوأمان: "شو" و "تفنوت".^(٣٧)

في عالم الثلاثة هذا، ظهر المشهد الأسطوري الأول:

يقول "آتوم": "–"تفنوت"، تلك التي هي الحياة، هي ابنتي. إنها في صحبة أخيها "شو" الذي يدعى أيضا ذاك الذي هو الحياة. وهي تدعى أيضا "ماعت" إنني أحيا مع فرخي. إنني وسطهما، أحدهما خلفي والآخر أمامي. لقد نهضت فوقهما، بينما كانت سواعدهما تطوقني."^(٣٨) (إنه ثالوث مقدس، لازال غير منقسم تقريبا).

هكذا كانت النسمات الهوائية والرطوبة اللازمة للحياة قد تشكلت في نفس الوقت الذي كان يكتسب فيه الكون أبعاده الزمنية بصورة كامنة:

"شو" هو الزمان السرمدى و "تفنوت" هي الزمان اللانهائى.^(٣٩)

وحيث أن "شو" و "تفنوت" قد شكلا إذن أول زوجين في العالم، فقد أنجبا بعد ذلك عن طريق وسائل الإنجاب الطبيعية عناصر الفضاء في الكون: "جب" إله الأرض، و "نوت" إله السماء. فكانت الأرض هي العنصر المذكر والسماء هي العنصر المؤنث – نظرا لأن السماء هي مباءة الخصوبة في العالم المصرى لأنها تحتوى على النور واهب الحياة. لذا تصور السماء في الغالب على هيئة امرأة أو بقرة، وهي أيضا حيوان ولود ومصدر غذاء. ونظرا لأن "جب" قد صار "ثور" نوت"، فقد رزق الزوجان الثانيان أربعة أولاد وبعد النظام الكونى، استقر النظام الأرضى مع "أوزيريس" (ملك الأرض الذى سيخلف أبيه "جب" و "إيزيس" – و "ست" و "نفتيس" وهما زوجان جديدان على أساس إقتراح الأخ بأخته) وهو ترتيب إلهى

سوف يحاكيه الملوك) حيث يرمز الزوجان الأولاد لقوى خصوبة التربة وتوازن الحياة. أما الزوجان الثانيان فيرمزان إلى الجذب والتقلبات البائسة. إنه تعبير عن التعارض الملموس بين وادى النهر والصحارى والتضاد الأخلاقي بين الخير والشر. وهكذا يكتمل التاسوع:

أيها التاسوع العظيم الذى يقيم فى "هليوبوليس" أيا "آتوم" أيا "شو" و"تفنوت"، أيا "جب" و"نوت"، أيا "أوزيريس" و"إيزيس"، أيا "ست" و"نفتيس"، الذين أنجبهم "آتوم" بينما قلبه مفعم بالسعادة بسبب أولاده.^(٤٠)

وتتواصل عملية الخلق المتبقية، جنباً إلى جنب مع خلق البشرية:

كلمات نطق بها . . . سيد الكون . . . "لقد أتيت أربعة أعمال صالحة عند باب الأفق، لقد خلقت الرياح الأربع. ليستطيع كل امرئ أن يتنفس حيثما يوجد: وذلك أحد أعمالى، لقد خلقت الأمواه الدافعة (الفيضان) لتزدهر أحوال الصغير والكبير، ولم أسمح أن يرتكبوا الشر، ولكن قلبهم خالف ما قلته فكان (عملاً آخر) من أعمالى، وتصرفت بحيث لا تفكر قلوبهم فى الغرب^(٤١) وتوفر القرابين الإلهية لآلهة الأقاليم، فكان (عملاً آخر) من أعمالى، لقد خلقت من عرقى (بفتح العين) والبشر من دموع عيني^(٤٢)

وتمتدح جميع الطقوس قدرة "أوزيريس" الإله الخامس من الهة تاسوع "هليوبوليس".

إن قلب "جب" و"نوت" مفعم بالسعادة، ويتردد الاسم الجديد: طونن-نقر^(٤٣) قوى الجانب كالنبات "رع" هو إشعاعه وسوف يدوم ما يقال له: أنت الفيضان، أنت أعظم الآلهة، الذى يعمم ما يتذوقه البشر، الحلو على القلب. لا وجود لما

يجعله. إنه صاحب القدرة المهرب الجانب، عداء التاسوع.^(٤٤) ذاك الذى يبجل
"با"ؤه، الأكثر فطنة من آلهة الجنوب والشمال.^(٤٥)

هذا النسق تمت صياغته بكل دقة لعرض نشأة الكون وأصل مكوناته الأساسية،
وأيضاً لرسم صورة لتاريخ الشعائر. لقد رأى كهنة "هليوبوليس" أنه من "الكياسة"
بمكان، إذا لاحظوا صعود نجم الشعائر المكرسة لـ "أوزيريس" (إله القدرات النباتية
والبعث والذى ترجع أصوله إلى الدلتا)، أن يضموه إلى نسقهم، الذى نشأ حول
الإله -الشمس، فأضافوا للاهوتهم مزيداً من الفاعلية الإلهية والقدرة السحرية. لقد
تأكد اضعاء صبغة شمسية مقصودة على "أوزيريس" من خلال ما أختص به من
أوصاف وصفات تعود فى المعتاد إلى "رع".

هذه الصورة وهذا الإيمان اللذان ولدا فى وعى البشر، قبل أربعة آلاف سنة من
الميلاد، كانت ما تزال قائمة قبل قرون معدودات من ميلاد المسيح. إنه مثال لا
يضاهيه مثل، على عقيدة راسخة ودائمة. إن سفر طقسياً يرجع إلى القرن الرابع
قبل الميلاد^(٤٦) يعرض على النحو التالى قصة الخلق فى "هليوبوليس":

يقول سيد الكون: "عندما جئت إلى الوجود، تجلّى عندئذ الوجود، لقد
جئت إلى الوجود على هيئة "خيرى"^(٤٧) هكذا جئت إلى الوجود للمرة الأولى.
جئت إذن إلى الوجود على هيئة "خيرى" فكنت موجوداً. هكذا إذن تجلّى
الوجود لأننى كنت سابقاً على الآلهة السابقة، التى تكفلت بخلقها. كنت سابقاً
على الآلهة السابقة، وكان اسمى سابقاً على اسمها. لقد صنعت (الزمن) السبق والآلهة
السابقة. لقد فعلت كل ما كنت أتمنى (أن أفعله) على سطح هذه الأرض وانتشرت
فيها. وعقدت يدي، أنا الأعزل، قبل أن تولد، حيث لم أكن قد تفلت "شو" أو
نفثت "تفنوت". ودربت فمى، إذ كان اسمى "السحر"، وكنت "ذاك" -الذى -

ينمث". وجئت إلى الوجود على هيئتي، جئت إلى الوجود على هيئة "خيري" جئت إلى الوجود في (الزمن) السابق، ثم جاءت إلى الوجود العديد من الأشكال في "الزمن الأول" والتي لم يسبق أن تجلى أى منها على هذه الأرض. لقد أنجزت كل عملي في عزلتي، دون وجود أحد غيري يستطيع أن يعمل معي في هذا المكان. لقد خلقت الأشكال بفضل هذه القوة العليا (التي بداخلي). لقد جمعت (الأشياء) بينما كنت في الـ "نور". أشبه بكائن ما زال غافيل، لأنني لم أكن قد وجدت بعد مكانا أنهض فيه. ثم (ولدت) الفاعلية في قلبي، وبدأت خطة (الخلق) أمام بصري. ومن ثم حققت عملي كله وأنا في عزلة. لقد صغت خطة في قلبي، فخلقت عندئذ أشكالاً أخرى، وكانت الأشكال التي عملت على ظهورها لا حصر لها. وبعد ذلك جاء أبنائها إلى الوجود في أشكالها كأبناء. وأنا الذي تفلت "شو" ونفشت "تفنوت". كنت قد جئت إلى الوجود، إلهاً أعزل، والآن يخصني ثلاثة آلهة، بعد أن جاء إلى الوجود، على هذه الأرض الإلهان (التوأمان). كان "شو" و "تفنوت" ينشطان الـ "نور" في السعادة، وهما ما يزالان بداخله . . . وبالفعل فقد اتحدت بجسدي ذاته، بحيث خرجا مني بعد أن أوجدت الإثارة بقبضتي المضمومة، فنبعت الشهوة من ياي وسالت النطفة من فمي. وهكذا تفلت "شو" ونفشت "تفنوت". هكذا إذن جئت إلى الوجود، إلهاً أعزل، والآن يخصني ثلاثة آلهة، بعد أن جاء إلى الوجود على هذا الأرض الإلهان (التوأمان). وهكذا كان "شو" و "تفنوت" ينشطان الـ "نور" في سعادة، (ومرة أخرى يكرر نص الفقرة السابقة) لقد كان أبي الغافي^(٤٨) هو الذي (?). وكانت عيني هي التي طاردتهما (وأعدتهما) بعد زمن لانهائي، بقيا خلاله بعيداً عني . . . وبكيت عليهما (هما) بالدمع، وبعد أن بكيت عيني على هذا النحو، جاء البشر إلى الوجود^(٤٩). . . . وبعد ذلك قام "شو" و "تفنوت" وأنجبا "جب" و "نوت". وهذان

أنجبا من جسديهما "أوزيريس" و"حورس-مختى-إرتى"^(٥٠) وست و"إيزيس" و"نفتيس". وهؤلاء أنجبوا وشكلوا (بدورهم) عددا غفيرا من الأشكال على هذه الأرض، أى أبناءهم وأحفادهم . . .

إنه نص متشعب، يجمع بين تقاليد مختلفة فى ترتيب أسطورى تلفيقى عن قصد. إنه نص تعزيمى يذكر باستمرار كلمة "خير": ومعناها "جاء إلى الوجود يتجلى" واشتقاقها "خيرو" ومعناه الأشكال. إنها تراثيل حقيقية، تدور حول عمل الإله الخالق. والتكرار مقصود، وكأنه تكرار لإبتهالات سحرية من أجل الوجود الجديد الذى انبثق فى اليوم الأول من سطح السائل السابق. ويكاد يكون نصا مفرحا، يسوده شعور بالعرفان تجاه عمل الآلهة. إنه نص ترجع أصوله الروحية إلى الأزمنة الغابرة عندما بدأ الإنسان يعيش على ضفاف وادى النيل.

فى هذا العالم الأول، كان البشر والآلهة يشكلون شيئا واحدا. فلم يكن البشر قد استحقوا من جراء وجودهم أن يفرق بينهم وبين الآلهة. كان العصر الذهبى للكون.

٣- الآلهة الثمانية فوق التل، فى "هرموبوليس".

اللاهوت الذى صيغ أصلا فى "هرموبوليس"-عاصمة الأقليم الخامس عشر من أقاليم الوجه القبلى والمدينة المقدسة للإله "تحوت"- لم نعرفه من خلال أى نص مترابط. ولكن يدل اسم المدينة فى اللغة المصرية القديمة وهو "لمنو" أى "مدينة الثمانية"^(٥١) (الأشمونين، حاليا) -يدل على أن هذا النسق الفكرى قد صيغ منذ زمن سحيق ويمكن أن نفهم جوهر هذا النسق بفضل نصوص ترجع إلى عصور متأخرة، ولا سيما العصر البطلمى. وبالفعل، نرى أن لاهوتيسى "منف" ولاهوتيسى

طيبة على وجه الخصوص، قد خصوا مفاهيم "هرموبوليس" بمكانة بارزة في أبحاثهم المتأخرة، التي تنحى منحى تلفيقيا في عرضها لقصص الخلق.

في الأصل، كانت ثمانية آلهة أولية موجودة فوق تل انبثق في "هرموبوليس" من المحيط الأزلى. إنها أربعة أزواج إلهية، يتكون كل زوج منها من عنصر ذكر وعنصر أنثوى، وكانت تتخذ هيئة الضفادع (من سكان المياه المعتادة) والأفاعى (وهى رمز قديم للحيلة المتجددة أبدا). وقائمة اسمائهما موجودة في المعابد الطيبية، لا سيما في مدينة هابو حيث جرى تكريس معبد لهذا الثامون، في الأزمنة المتأخرة.

وتستعيد هذ الأسماء إلى الأذهان "المشهد الطبيعي" الأول للعلم. أسماء الثمانية هي: "نون و"نوت" (⁵²) وهما يشخصان العنصر السائل الذى كان يغطى "المكان" غير العضوى واللانهايى. - "ححو" و "ححت" رمزا سرمدية "الزمان - "كيكو" و "كيكت" اللذان يشخصان "الظلام" فى عالم بلا نور وهى الظلمات التى كان الخواء غارقا فيها. - ركان "آمون" و "آمونت" هما "القدرة الإلهية الخفية" التى يضمها العنصر السائل. - إنه مشهد لانهايى أزلى، حالك الظلمة، ستدب فيه الحياة.

وذاذ يوم شرعت الآلهة السابقة فى العمل. وتقول رواية متواترة أنها شكلت بيضة فوق تلها. وحطم النجم الساطع غلافها لينبثق منها. وتصور رواية أخرى الثمانية وهى تخلق من نطفتها، زهرة لوتس، زهرة الأمواه، التى تنفتح بتلاتها مع شروق الطفل الشمس الذى سطع بنوره على العالم.

(زهرة) اللوتس التى جاءت فى البدء إلى الوجود وطردت الغمامة المعتمة، دون أن يتمكن أحد بعد، أن يتعرف عليها (الزهرة). (لقد صنعتهم) أنتم (الآلهة الثمانية) نطفة من سائل خرج منكم وسكبتم هذه النطفة على زهرة اللوتس، بأن أرقتم سائلا

نطفيا. لقد وضعتموه فى الـ"نور" وكثفتموه فى شكل واحد، وجاءت ولادة وريثكم الوضاعة على هيئة طفل.^(٥٣)

(زهرة) اللوتس . . . هذا الإله الذى فى قلب حوض الماء الخاص به الذى أنبعث من جسدكم (أيها الثمانية)، زهرة اللوتس الضخمة المبتقة من البركة الكبرى التى كانت فاتحة النور، عند "المرّة الأولى" . . . إنكم تبصرون نورها، وتستنشتون عيرها، وأنفكم ملآن بها إنه ابنكم الذى يظهر على هيئة طفل، ليثير البلاد بعينه.^(٥٤) . . . لقد جئت إليكم بزهرة اللوتس الواردة من المستنقعات، (فهى)، عين "رع" شخصيا.^(٥٥) ذاك الذى يحقق (فى ذاته) حصيلة الأقدمين، الذى خلق الآلهة السابقة وصنع كل ما يوجد فى هذا البلد . . . وإذا يفتح عينيه، فإنه ينير الأرضين، ويفصل الليل عن النهار. لقد خرجت الآلهة من فمه والبشر من عينيه، فكل شىء ولد منه، هذا الطفل (الذى يتألق) فى زهرة اللوتس، والذى تحى أشعته كل الكائنات.^(٥٦)

وهناك نص أحدث، ويرجع إلى ما قبل بداية التقويم الميلادى بقليل، يقدم ثمانية شركاء فى أشكال مختلفة. ولكن تظل أسطورة "الطفل-الشمس" المنبعث من اللوتس باقية بمعل أندفاع تكاثرى.

نزل الثمانية إلى "هرموبوليس" . . . بينما إكانوا يتحولون إلى أبقار وثيران حسب طبيعتهم.^(٥٧) كان الأسود والأخضر . . . لوني الثيران والأبقار،^(٥٨) عن هؤلاء الذين نادى^(٥٩) عليهم قائلا: فلتتحد [الثيران الأربعة] فلتتحد الأبقار الأربع! فل[تتحد] على الفور! وصارت الذكور ثورا أسودا، والإناث بقرة سوداء. وأطلق عليهما اسماء "آمون" و "آمونت" - وأنقض الثور على البقرة [بسرعة حتى] أنه أراق نطفته على الماء فى "البركة العظمى" فى "هرموبوليس" التى كانت قد

أزهرت [زهرة اللوتس] ووبرعم اللوتس . . . كانت زهرة لوتس على هيئة جعران، برأس [كبش]^(٦٠) واتخذت شكل طفل، [يضع] أصبعه [على فمه. ويحمل] إنتاجا عليه صل.^(٦١)

إن شعيرة مقدمة زهرة اللوتس هي مظهر دائم وثابت لعقيدة "هرموبوليس" هذه وسواء تسمى زهرة اللوتس الزرقاء أو زهرة اللوتس البيضاء، الموجودة على صنعة المياه، أو هي زهرة اللوتس اللازوردية أو زهرة اللوتس الفضية، فإن رفع الزهرة حتى الأنف الإلهي، أثناء الخدمة الإلهية، داخل المعبد، يعتبر رمزا للحياة الشمسية.

وانتظم الكون. وكان رجال "هرموبوليس"، يتطلعون أيضا إلى هذا العصر الذهبي الذي عرفته أزمنة العالم الأولى.

* لقد خلقت (الآلهة) "السابقة" إله الأفق. وفي زمانها أيضا خلق الجمال والرفق والسعادة. وفي عصرها جاء إلى السماء ناموس الحقيقة والعدالة ("ماعت"). واتحد مع أهل الأرض. وفي زمن الآلهة السابقة، كانت الأرض تفيض (بالخيرات) والبطون متخمة والمجاعة لا وجود لها في القطرين والجدران لا تهدم والشوكة لا تنخر.

* لقد خلقت (الآلهة) الدائمة قرص الشمس، نن والبشر وجميع الأبرار، في عصرهم. وهبط ناموس الحقيقة والعدالة على الأرض، وتآخى مع الآلهة - وفي زمن الآلهة السابقة، كان الطعام واقفا في جسد البشر لا وجود له على سطح الأرض والتمساح لا يخطف (فريسته) والثعابين لا تلدغ.^(٦٢)

هوامش

(١) لوحة حجرية تبلغ ١٣٧ سم ارتفاعا و ٩٢ سم عرضا - وهي محفوظة حاليا بالمتحف البريطاني British Museum. وتضم نصا من سطرين أفقيين و ٧٢ عامودا رأسيا.

النص المصرى

K. Sethe, Denkmal Memphitische

Der Shabako Sten des Britischen Museums.

Leipzig , 1928(2e ed : 1964) , pp.20-80

(٢) الملوك الأجانب ومنهم الملك " شاباكا " على سبيل المثال، كانوا عندما يتربعون على عرش مصر، يتخذون لأنفسهم الألقاب الفرعونيه المكونة من خمسة اسماء والتي تربط الملك بآلهه الوادى المشهوره. وإذا كان الاسم الشخصى ("شاباكا") يلزمه كالمعتاد لقب " ابن رع " فإن صيغة اسم التويج الذى اختاره (والذى يلى لقب " ملك الوجهين القبلى والبحرى ") - هى صيغة مصرية صرفه ويعنى " كاملا - هو - كا - رع ". وقد سبق لأحد ملوك الأسرة العاشرة ان حمل هذا الاسم.

و " ذاك - الذى - يوجد - جنوبي - جداره " - هى صفة قديمة جداً يوصف بها إله " منف " وربما يرجع تاريخها إلى زمن تشييد المدينة، عندما كان بتاح إلهاً محلياً وله معبد جنوب سور المدينة الجديد.

(٣) شكل آخر من أشكال الإله " بتاح " ومرتبطة بإله محلى آخر هو " تا - تنن " ومعناه حرفيا " الأرض التى ترتفع " وأصبح هذا الاسم من الناحية العملية صفة لإله " منف " على اعتباره بمثابة إشارة إلى عمله الخلاق، عند بروز الأرض من المحيط الأزل.

(٤) يروى التقليد ان الآلهة قد حكمت الأرض فى بداية المراحل الملوك على ما يبدو وتوجد اشارات كثيرة إلى هذه الأسرار الإلهية الأولى فى العديد من الوثائق: كما أوردت إحدى البرديات المحفوظة فى متحف مدينة تورين اسم " بتاح " بصفته اسم أول ملوك الوجهين القبلى والبحرى واعتمد " مانتون " على هذا المصدر.

ومن ثم فإنه " شاباكا " يسير على خطى " اقدم الملوك والآلهة. وقد سعى مؤسسو الأسرات الأجنبية إلى أن " يتمصروا " بشتى الوسائل.

(٥) " آتوم " الإله الشمسى فى هليوبوليس. راجع فى هذا الفصل: " بزوغ الشمس فى فجر البداية الأولى فى هليوبوليس "

(٦) هذا النص الذى لا يلزم بالترتيب الزمنى لعملية الخلق على وجه التحديد يبدأ بتأكيد قيام الآلهة بتنظيم شئون المملكة بزعامة الإله "جب" إله الأرض. إن احاد " حورس " و "ست" ابن وشقيق " أوزيريس " المتخاصمين سيقف شاهدا إلهيا على اتحاد القسمين الطبيعيين للملكة. وبداية، يبدو الخلق عملية تنظيم لمجمع الآلهة، ونزعة تلفيقية كبرى، تصدرها شخصيتا " جب " و "بتاح " أيضا على نحو خاص، والآخر سيندمج فى " حورس " رمز الخير. ويتشكل تاسوع هليوبوليس على هيئة محكمة.

(٧) شمال الوجه القبلى فى منطقته الفيوم.

(٨) ان " أوزيريس " الذى ترى فيه بعض بعض المصادر الأخرى أول ملك يحكم الأرض هو رمز اتحاد المملكة وهو الإتحاد الذى يسعى إلى " جب " إلى إعادة تحقيقه من خلال اتحاد " حورس " و " ست " اللذين على ميراث أبيهما

(٩) موقع على مقربة من رأس الدلتا.

(١٠) إذا كان الوجه القبلى - الذى انطلقت منه حركة الوحدة التاريخية - يتصدر دائما الألقاب والشعار بالمقارنه مع الوجه البحرى فإننا نرى هنا وبصفة استثنائية أن الشمال قد ورد قبل الجنوب وذلك إعلاء من شأن الإله " حورس " على الإله " ست " وربما تكريما للإله " أوزيريس " الذى وافته هنا المنية.

(١١) وفقا لما جاء فى لاهوت " هليوبوليس " فإن " أوزيريس " والد " حورس " كان فى الواقع هو المولود البكر للإله " جب " (الأرض) والآلهة " نوت " (السماء) اذ تمتزج الأفكار والأساطير لتشكّل من جديد مجموعات روحية ضخمة. ومن ثم تصبح بأكملها، ميراث " جب ".

(١٢) " أوب - واوات " ذاك الذى يفتح الطريق هو إله على هيئة ابن أوى ورب مدينة " أسيوط " وفى الغالب كان يحدث الخلط بينه وبين " حورس "

واذ تم تقسيم ميراث " جب " أو " أوزيريس " فى بداية الأمر على " حورس " و " ست " فقد آل هذا الميراث فى النهاية إلى " حورس " كما يخلط أيضا تقليدان فى هذا السياق: فمن ناحية كانت رواية التقليد التاريخى، تضع الملكتين الأوليين اعصر فجر التاريخ تحت رعاية " ست " فى الجنوب و " حورس " فى الشمال - ومن ناحية أخرى كان التقليد الأسطورى يجعل من " حورس " الوريث القانونى لوالده " أوزيريس " الذى قطه " ست " ولكنه أى " أوزيريس " - بعث حيا من جديد.

(١٣) إشارة محتملة أيضا إلى وقائع تاريخية فقد كان " نعرمر " الملك الذى وحد البلاد ينحدر أصلا من الجنوب ومن ومن مدينة هيراكنبوليس " حيث كان يعبد " حورس " (ونظرا لان لفظ "حور" هو الـ " حور" الملكى حقا، الذى تسبق صورته الاسم من مجموعة ألقاب ملوك مصر.

(١٤) يشهد كل ذلك على الصفة الملكية للإله " بتاح " فقد آل إليه ميراث البلاد بصفته " حورس "

(١٥) الصل.

(١٦) كانت " منف " عاصمة إقليم " الجدار الأبيض " .

(١٧) الشارتان الشعاريثان للجنوب والشمال وتتصدران الاسم الرابع من أسماء الملوك وهو اسم التويج " نسوت - بيتى " الذى نترجمه بـ " ملك الوجهين القبلى والبحرى " ولكنه يعنى حرفيا: ذاك الذى ينتسب الى البوص والنحلة

(١٨) يلى ذلك قائمة بأقانيم إله "منف" التى كانت أول ما جاء إلى الوجود.

(١٩) إن الإله "بتاح" يتكون إذن من ثمانية أقانيم: ويؤكد الأقتوم الأول على صفته الملكية كما سبق أن تحدثت. ثم يمتزج بعد ذلك الإله "بتاح" مع المحيط الأزلى ("نوو") ونقيضه الأنشوى ("نسوت") اللذين ينجبا "آتوم" الإله الشمسى الأولى فى هليوبوليس. وبتاح هو أيضا الذكاء وقدرة التصور الذهنى والإرادة للتاسوع المعبود فى هذه المدينة. ومن خلال علاقته المستمرة بالشمس (العنصر الأساسى فى الكون المخلوق) فهو "نفرتوم" "الإله-اللوتس" الذى ينبثق النجم منه ابثاقا مقدسا مع فجر اليوم الأول والذى يرضى عطره الذى يرضى عطره الذكى الرائحة الأنف الإلهية. ومن المؤسف جدا وجود فجوات فى النص على إمتداد ثلاثة أسطر.

(٢٠) إن "بتاح" -الإله الأساسى -يتصور شكل آتوم ذهنيا، ويخرجه إلى الوجود. وآتوم "هو الشمس" هليوبوليس ، الذى كان يعتبر خالقا فى هذه المدينة. كل عاصمة إقليم كانت تنظر إلى إلهها بصفته مبدع الكون.

(٢١) الـ "كا" هى الطاقة الحركية للكائن، حيويته الكامنة.

(٢٢) جميع الآلهة الموحدة من "بتاح" هى أيضا صورة مختلفة. وقد صاغت "منف" وكهنتها أيضا نظرية تلفيقية كبرى من أجل إلهها.

(٢٣) راجع بزوغ الشمس فى "هليوبوليس".

(١٩) إن الإله "بتاح" يتكون إذن من ثمانية أقانيم: ويؤكد الأقتوم الأول على صفته الملكية كما سبق أن تحدثت. ثم يمتزج بعد ذلك الإله "بتاح" مع المحيط الأزلى ("نوو") ونقيضه الأنشوى ("ننوت") اللذين ينجبا "آتوم" الإله الشمسى الأولى فى هليوبوليس. وبتاح هو أيضا الذكاء وقدرة التصور ذهنى والإرادة للتاسوع المعبود فى هذه المدينة. ومن خلال علاقته المستمرة بالشمس (العنصر الأساسى فى الكون المخلوق) فهو "نفرتوم" "الإله-اللوتس" الذى ينبثق النجم منه انبثاقا مقدسا مع فجر اليوم الأول والذى يرضى عطره الذى يرضى عطره الذكى الرائحة الأنف الإلهية. ومن المؤسف جدا وجود فجوات فى النص على إمتداد ثلاثة أسطر.

(٢٠) إن "بتاح" -الإله الأساسى- يتصور شكل آتوم ذهنيا، ويخرجه إلى الوجود. وآتوم "هو الشمس" هليوبوليس، الذى كان يعتبر خالقا فى هذه المدينة. كل عاصمة إقليم كانت تنظر إلى إلهها بصفته مبدع الكون.

(٢١) ال "كا" هى الطاقة الحركية للكائن، حيويته الكامنة.

(٢٢) جميع الآلهة الموجودة من "بتاح" هى أيضا صورة مختلفة. وقد صاغت "منف" وكهنتها أيضا نظرية تلفيقية كبرى من أجل إلهها.

(٢٣) راجع بزوغ الشمس فى "هليوبوليس".

(٢٤) دليل جديد على الإهتمام "بتجميع" نظريات الخلق اللاهوتية. و "شو" و "تفنوت" هما إلهان "توءمان" خلقهما آتوم أولا، عند انبثاقه من المحيط الأولى. كما أن "شو" إله الهواء، و "تفنوت" العنصر الإلهى للرطوبة، هما وجهان للزمان والأزل.

(٢٥) المقصود به هنا التماثيل التى تم تشكيلها كأغلفة جسدية وأوعية للحياة الكامنة. إنه أحد المبادئ الكبرى للفن المصرى، فجعله سحرا عظيما باعنا للحياة، وقد أقيم للأمد اللاتهاى فتدوم إمكانات الكائن إلى الأبد.

(٢٧) هنا الابن الملازم لشخصية الإله الخالق والذى سيحى هذا الأخير - فيجمع أعضاء جسده ويدفع روحه ووعيه إلى الوجود - هذا الابن هو الإله "شو" مبدأ الحياة الأصلى الذى يشخص "فراغ" الكون غير المخلوق ("شو" هو فى اللغة المصرية "الفراغ أو الخلاء") والهواء الذى لا غنى عنه لكل حياة. إن "إحياء" الأب هذا بفضل الابن هو صورة متأثرة بأسطورة أوزيريس. راجع السفر الأول من العهد القديم (وهو سفر التكوين، من الكتاب المقدس -م) فإن النور يرتبط أيضا "بنسمة الحياة التى ترزف فوق الأمواه". ولا ريب أن فى استطاعة وعلى السامعين الوصول إلى صور مماثلة فى أوساط مختلفة، ولكن تأثير مصر الروحى على الشعوب القديمة ظل عظيم الشأن.

٢٨) إن العنصرين الأساسيين الضروريين للعالم في حالة تكونه هما الهواء (المبدأ الفيزيقي) والحقيقة والعدالة (وهما مبدأ أخلاقيان لا غنى عنهما لكل حياة) 80 BIC Textes des sarcophages, متون التوابيت.

٢٩) نفس المرجع 741 B3L.

٣٠) نفس المرجع 78 BIC.

٣١) كتاب الموتى.

.Livre des Morts, chapitre 159 B. Budge, B.D. III, P. 8, 1.13.14

٣٢) الصل - الثعبان الشمسي الحامي.

Textes des sarcophages, 648 GIT ٣٣)

٣٤) T.P.S 1652C, (N 663) (متون الأهرام). وذلك مطابق للمفكرة القائلة بأن في إمكان الفم، بواسطة الكلام، أن يخلق الأشكال ويمنحها الوجود. ولكن ينطوي الأمر أيضا على السعي وراء التجانس الصوتي بين الجذر الإشتقائي "إشش" أي "يصق" والكلمة "شو" وهي مباحث شكلية كان المصريون مغرمين بها وهي ليست تلاعبا لا نفع منه، ولكنه اهتمام يريد إضفاء فاعلية سحرية أكبر على الكلمة. ٣٥) متون الأهرام T.P.S 1652 c, (N 663). نفس النزعة الشكلية بحثا عن التجانس الصوتي بين الجذر الإشتقائي "تفن" "ينفث" والإسم "تفت" (حرفيا: "تلك التي تمت")

Textes des sarcophages, 331 GIT ٣٦)

T.P.S 1248 a-d (9465-466) ٣٧)

Textes des sarcophages, 80 BIC. ٣٨)

٣٩) نفس المرجع 80 Bic.

T.P.S 1655 a-c (M 205) ٤٠)

٤١) مملكة الأموات.

٤٢) تجانس صوتي جديد بين كلمة "رمت" (البشر) وكلمة "رमित" (الدموع)

Livre des deux Chemins, 1130 B3c.

٤٣) من أسماء "أوزيريس" ويعنى "ذاك الذي يظل كاملا"

(٤٤) من الصفات المعتادة المنسوبة للإله "رع" تبعاً لدورته.

(٤٥) Livre des morts ,chapitre 136 A-Budge, B.D. P182,1. 6-8

(٤٦) بردية "برمنر رند"

British Museum, (n10188) Bremmer -Rhind.

النص المصرى:

R.O. FAULKNER, The papyrus Bremmer-Rhind Bruxelles 1933,
pp.69-72(1.28/20-29/6)

(٤٧) الإله الجعران، الشمس عند الفجر.

(٤٨) الإله الخالق، ولم يكن بعد فاعلاً حيث كان هو ذاته فى وضعه السابق.

(٤٩) راجع الهامش رقم ٤٢.

(٥٠) الهيئة الشمسية.

(٥١) هرموبوليس هو الاسم الذى أطلقه الإغريق على المدينة بعد أن اندمج الإله الإغريقى "هرمس" مع الإله المصرى "نحوت".

(٥٢) "نونت" كلمة مؤنثة من المذكر "نون" سوف تتكون الأسماء الأخرى على نفس الوتيرة: أن هذا الخلق المستند إلى قواعد النحر يضمن تألف الزوجين الأسطوريين.

(٥٣) معبد إدفو. Sauneron, Naissance du monde, pp58-59

(٥٤) ينظر إلى الشمس والقمر فى الغالب على أنهما عينا الطفل البدنى -أو عينا الصقر الذى يعانقه بجناحيه ويندمج معه، عندما يخلق فى السماء، وذلك وفقاً لصورة أسطورية قديمة جداً وثابتة.

(٥٥) تتجمع الصور وتندمج فى وعى دينى على درجة كبيرة من الورك، والزهرة هى التى تندمج هنا مع عين "رع" وسوف تكون بعد بضعة أسطر، ذات عيين على شاكلة الشمس التى ترمز إليها.

(٥٦) معبد إدفو. Sauneron, Naissance du monde, pp-59

(٥٧) تسمى الأشكال إلى تأكيد القدرة الولادة والجوهر المخصب لكل ماهو أولى وبدنى.

(٥٨) إصرار مماثل، على التجديد الأبدى لهذا الفجر الأول، و "الأسود" هو لون الطمى الذى يخصب تربة مصر ويعطيه إمكانات وجوده، والأخضر: هو لون النبات، بدورته التى لا تتبدل.

(٥٩) ينظر إلى "بتاح" في هذا النص باعتباره خالق الثمانية. إنها نظرة تلفيقية، بتأثير عقيدة "منف".

(٦٠) شكل آخر ذو نبرة تلفيقية. الجعران هو أحد أشكال الشمس عند الفجر، عندما يهب الحياة من جديد كالיום الأول من أيام الخلق. والكبش هو الحيوان المقدس للإله الشمسي "آمون-رع" إنها صورة أسطورية ودلالاتها المؤكدة تشير إلى الوجود الكامن للإله في الزهرة.

(٦١) بردية P.13603 في متحف برلين

Sauneron, Naissance du monde, pp-58

(٦٢)

Sethe, Amun und die acht Urgotter, Tafel IV

S.Sauneron, Le temple d'Esna, 5vol., le Caire, 1959-1962.

(publication de l' Institut francais d'arche'ologie orientale du Caire

[ثانيا]

ترويسة من عصر أمنحوتب الرابع^(١)

التعبد لـ " رع - حور - أختي " الذى يتهج فى الفق باسمه النور الذى يوجد فى
القرص (آتون)^(٢)، الحى للزمن اللانهائى والزمن الأبدى. (التعبد) لـ " آتون "
الحى العظيم (الملك)^(٣) فى أعياد يوبيله سيد كل ما يحيط به القرص، رب السماء
ورب الأرض سيد معبد " آتون " فى " اخت آتون " ^(٤)، ملك الوجهين القبلى
والبحرى الذى يحيا فى الحقيقة والعدالة، رب القطرين " جميلة - هى صيرورات -
رع - انه الوحيد - الذى - ينسب إلى - رع " ابن رع الذى يحيا فى الحقيقة
والعدالة سيد التحليات المتألقه " اخناتون " ^(٥) صاحب الحياه المديدة

(التعبد) للزوجة الملكية العظمى، محبوبته سيدة القطرين " جميل - هو - جمال آتون
- نفرتيتى " فلتحى وتزدهر فى شباب دائم للزمن اللانهائى والزمن الأبدى حامل
المروحة عن يمين الملك المسئول عن كافة جياد جلالة الذى يرضى البلاد بأسرها،
أثير الإله الكامل الأب " آى " - إنه يقول:

" إنك تشرق برفق فى أفق السماء أيها القرص الحى الذى يدبر الحياه وبينما
تنجلي فى الأفق الشرقى بعد أن ملأت بكمالك البلاد بأسرها فأنت جميل وعظيم
ومتألق وعلى فوق الارض فى جميع أرجائها إن أشعتك تحيط البلاد حتى حدود
كل ما خلقتة إنك " رع " وتقرب بين أطرافها وتربطها من أجل ابنك المحبوب
أنك قصى ولكن أشعتك على الارض انك فى النظرات ويمكن للمرء أن يتأمل

رحلتك ولكن حين تغيب فى أفق الغرب (تبيت) البلاد فى ظلام وكأنها ميتة والناس ممددون فى حجراتهم تكسوهم أغطية وكل عين لا ترى حتى رفيقها ولو تم الإستلاء على كل ثروتهم وإن وضعت تحت رؤسهم لما تنبهوا إلى ذلك كل أسد يخرج عرينه والثعابين كلها تلدغ لأن الليل هو (بالنسبة لها) زمن النور والأرض (يعمها السكون لأن خالقها موجود فى أفقه).

وعندما تبيض الأرض (من جديد) عند ظهورك متألقا فى الأفق فإنك تتألقين^(١) (هكذا ! فى المؤنت - م.) أيا " آتون " مثل النهار. إنك تطردين الليل وتهين أشعتك والقطران يهللون فرحا (ومن كانوا نائمين) يستيقظون وينتصبون على أقدامهم، إنك تساعدهم على النهوض ويغسلون أجسادهم ويتناولون ثيابهم فى حين يقدمون بأيديهم الثناء والتهليل لتجليك الساطع والبلاد بأسرها تنجز أعمالها والحيوانات من شتى الأنواع ترقد فوق كالأها والأشجار والنبات تعود إليها النظرة والعصافير تطير هنا وهناك فى أعشاشها، فى حين تبسط أجنحتها ثناء وتهليل " كا " لك. والأغنام تقفز على أقدامها وكل ما يطير ويحيط عندما تتجلى متألقا والسفن تصعد (ضد) التيار وتهبط معه أيضا وكل طريق ينفتح عندما تتجلى. وأسماك النهر تقفز صوب وجهك. وتنفذ أشعتك إلى أعماق " الشديدة الأخضرار " أنك تجعل لنساء ولودة وتخلق النطفة فى الرجال فتحي الابن فى أحشاء أمه وتسكن من روعه، وتجفف دموعه، (فأنت) مرضعه وهو لا يزال فى بطن (المرأة) واهبا الهواء لتحي المخلوقات كلها عندما ينزل (الطفل) من بطن أمه يوم ميلاده فإنك تفتح فمه وترزقه باحتياجاته، الفرخ فى العش يزقزق داخل غلاف بيضته لأنك تعطيه النسمات لتنشطه وتشكل هيئته بالكامل بحيث يتمكن من كسر البيضة وعند خروجه معها يزقزق زقزقة قوية ويسير على قدميه.

ما اكثر أعمالك ! (إنك) تتوارى (أحيانا) عن النظر أيها الإله الوحيد فلا وجود
بجوارك لآخر سواك^(٧) لقد جلبت الأرض حسب رغبتك - فى حين كنت بمفردك
- والبشر أيا والأنعام كلها من ماشية وأغنام وكل ما يمشى على الأرض وكل ما
يخلق فيطير بأجنحته وبلاد سوريا وبلاد كوش^(٨) ومصر ونعطى إنسان مكانته
وترزقه باحتياجاته هكذا (ينال) كل امرئ قوته ويقدر له زمن حياته
ولغات (البشر) متعددة وأشكالهم أيضا وألوان (بشرتهم) مختلفة لأنك ميزت
الاجانب^(٩).

وتخلق النيل فى العالم السفلى للعلم الآخر وتأتى به جسما ترغب لتحيى
الناس فى مصر كل الحماية كما صنعت هؤلاء من أجلك إنك سيدهم أجمعين
فتعبت بسببهم (أنت) سيد البلد الذى يسطع من اجلهم يا " آتون " النهار صاحب
الهية العظمى كما تحى ايضا أبعد البلدان الأجنبية لأنك تعطيها نيلًا يهبط إليها من
السماء^(١٠) محدثا أمواجًا فوق الجبال على غرار (أمواج) " الشديدة الإخضرار "
ويفيض على حقولها فى مدنها^(١١) فما أروع مقاصدك ياسيد الزمن الأبدى !

النيل فى السماء هو من أجل الاجانب وسائر حيوانات كل بلد أجنبى (الحيوانات
التي تسير على أقدامها. النيل القادم من العالم السفلى ينتمى إلى البلد المحبوب.
ولكن أشعتك هى مرضعه جميع الحقول فالحياء تعود إليها حينما تشرق وهى
خصبة بفضلك لقد وضعت فصول (السنة) ليوحد كل ما خلقت ففصل
الإنبات^(١٢) لتلطيف الجو والجو الحار حتى يمكن التمتع بك لقد فطرت السماء
البعيدة لتسطع فيها ولمشاهدة جميع الخلائق. أنت الواحد الحد بينما تتألق فى
اشكالك (المتنوعة) مثل الـ " آتون " الحى الذى يتجلى متألقا الذى ينير، الذى يتعد
ثم يقترب (من جديد). إنك تصنع ملايين الأشكال الصادرة عنك وحدك (تصنع)

مدنا وقرى وحقولا ودروبا وأنهارا. كل عين تشاهدك أمامها. أنت " آتون " النهار الأسمى إنك ترحل^(١٣) لضمان وجود كل (كائن) من الكائنات التي خلقتها أنت الذى فوقها ولا تنفك ترى غبطتها.

أنت فى قلبى ولا يعرفك أحد سوى ابنك " كاملة - هى صيرورات - رع - إنه - الوحيد - الذى - ينتمى - إلى - رع "^(١٤) وقد أذنت أن يدرك مقاصدك ومقدرتك. على يدك أتت الأرض إلى الوجود كما أنك صنعت البشر وحالما تشرق يحيون من جديد ولكنهم يموتون عندما تغرب. أنت أمد النهار بسبب جسدك ذاته وبك يحيا الناس وتظل العيون تمنع النظر فى جمالك إلى أن تختفى وعندما تستريح فى الغرب ويهجر الناس الأعمال وجميع من يسعون على أقدامهم منذ أن أسست الأرض، فإنك ترتقى بهم من أجل ابنك المولود من صلبك، ملك الوجهين القبلى والبحرى... ابن " رع.. " اخناتون " المديد اخياه ومن أجل زوجته الملكيه العظمى، محبوبته، سيدة القطرين نفرتيتى "

هوامش

(١) نص هذه "الترجمة العظمى " مدون فى مقبرة "أى" فى تل العمارنة، حوالى عام ١٣٦٥ ق.م.

النص المصرى:

DAVIES, Amarna, VI, Pl. XXXVII = SANDAM, Texts From the time of Akhenaten , pp 93-96

(٢) كلمة "آتون " كانت الاصل هى الاسم الذى يدل على قرص الشمس.

(٣) كان المنحوتب الرابع يعتبر نفسه أحد أقانيم الشمس وشكلا للإله الحى على الأرض والأمير الشاب الصوفى النزعة كان أيضا يعانى من جنون العظمة.

(٤) حرفيا " أفق آتون " - وهو اسم العاصمة العابرة التي حاول امنحوتب الرابع إقامتها على بعد ٣٢٥ كم إلى الشمال من طيبة - وهي تل العمارنة حاليا.

(٥) حرفيا " ذلك الذى يكون مفيدا لآتون " من أسماء امنحوتب الرابع الأخرى

(٦) الضمير المستخدم هنا هو ضمير المؤنث - للتأكيد على ان " الشمس " يعتبر أبا وأم الخليفة بأسرها.

(نذكر مجددا ان الشمس مذكور فى المصرية القديمة، المرحوم)

(٧) تستخدم هذه الصيغة مع آلهة أخرى من قبل المؤمنين بها.

(٨) منطقة تابعة للسودان فى الوقت الراهن وتقع بين الجندل الثانى والجندل الرابع من نهر النيل

(٩) يظل الكبرياء المصرى العتيق باقيا.

(١٠) إشارة إلى أمطار بلدان آسيا التى تساعد على خصوبة التربة - على غرار نهر النيل المصرى، الذى خلقه الإله تحت الأرض ليتفجر من بين صخور جزيرة إلفنتين فيجلب الحياة للبلاد.

(١١) تندرج هذه الفقرة فى التطور التاريخى للحظة الأنية. لقد فتح أسلاف امنحوتب الرابع قبل قرنين من الزمن إمبراطورية شاسعة امتدت من الجندل الرابع على نهر النيل وحتى نهر الفرات. وكانت طيبة العاصمة مركز عالميا واسعا متعدد الأجناس. ولكن امنحوتب الرابع بنزعه كأمير متصوف أهمل الشئون السياسية هو وخلفاؤه الضعاف. وتخلّى عن هذه الإمبراطورية التى كانت مصدر ثراء لمصر. لتفتت هذه الإمبراطورية إلى أن جاء الملوك الرعامسة المظفرين.

(١٢) من ١٩ نوفمبر إلى ١٩ مارس.

(١٣) طلت الأساطير القديمة دون تغيير.

(١٤) كبرياء الملك الذى يعانى من جنون العظمة. وتعبر بقية النص عن نفس هذا الشعور.

[ثالثاً]

تعاليم الملك خيتى الثالث^(١) إلى ابنه "مرى-كا-رع"^(٢)

[التعاليم التى وضعها الملك "خيتى" من أجل ابنه "مرى-كا-رع" . . .

[بداية النص مهشمة جداً]

[السطر ٢١: إذا [التقيت برجل] كان أنصاره كثيرين إذا ما تجمعوا، وكان محبباً فى أعين رجاله . . . (رجل) هو خطيب مسهب فاطرده، واقض [عليه]، وامح اسمه . . . أزل ذكره وذكرى أنصاره أيضاً.

أن رجلاً عنيف القلب، هو أيضاً مصدر قلق بين المواطنين. إنه يشير الفرقة بين الشباب. وإذا لاحظت أن المواطنين يخضعون لتأثيره . . . فحقر من شأنه فى حضرة رجال البلاط، واطرد^(٣). إنه عدو أيضاً. والثرثار هو أيضاً مشير للفتن فى المدينة. اخضع الجموع وادراً عنها الإثارات . . .

[الأسطر من ٢٧ إلى ٣٠ مهشمة جداً . . . تكون أفعالك مبررة^(٤) إلى جوار الإله. وسوف يقول الشعب . . . فى غيابك، إنك تنزل العقاب حسب . . . إن طبيعة صالحة وسعيدة هى سماء للإنسان.^(٥) ولكن لعنة رجل ذى قلب [سئ] هى شئ مؤلم.

• كن صانعاً ماهراً للكلام^(٥) لتكون قوياً، قدرة الإنسان فى لسانه. الكلمات أقوى من أى قتال^(٦). أنه لا يمكن مباغطة رجل ذكى الفؤاد . . .

إن الإنسان الحكيم مدرسة للعظماء. هؤلاء الذين يعرفون علمه لا يهاجمونه، ولا يقع [الشر] أبداً في محيطه. الحقيقة والعدالة تأتيان إليه وقد "عجنتا"^(٧)، طبقاً للنصائح التي أعطها الأجداد.

اسع إلى أن تكون صنواً لآبائك، الذين عاشوا من قبلك... أنظر، إن أقوالهم تظل باقية في الكتب... افتح (ها) وأقرأ وانسخ معارف (ها). هكذا يصبح الإنسان الماهر إنساناً متعلماً.

لا تكن شريراً. يحسن إن يكون المرء صبوراً. فليدم عملك بفضل الحب الذي يحمله لك الناس... يعبد الإله من أجل فضائله وسوف يعبد (ك) الناس من أجل كمالك، ويصلون من أجل رفاهك.

• اظهر الاحترام للكبار، واسع إلى أن يزدهر شعبك. عزز حدودك، ومراكز الحدودية^(٨). إنه لأمر طيب أن يعمل الإنسان من أجل الزمن القادم. احترم... حياة الرجل الذكي^(٩). ولكن الثقة تقود إلى الشر. تصرف بحيث يأتي الناس إليك، بفضل طبيعتك الطيبة السعيدة. الإنسان الخسيس هو ذلك الذي يشتهي لنفسه أرض [جاره]، إنه إنسان فاقد العقل ذلك الذي يشتهي ما يملكه الآخرون. لأن الحياة على الأرض تنقضي وحسب، فهي لن تطول... إن مليون رجل، لا يمكنهم أن يعادلوا "سيد القطرين". هل هناك إنسان يستطيع أن يحيا إلى الأبد؟ فذلك الذي يأتي مع "أوزيريس" يذهب، كما يتحلل^(١٠) كل ما كان يروق له.

• وقر عظماءك ليطبقوا قوانينك. الإنسان الثرى في داره لن يكون منحازاً، لأنه يمتلك الخيرات وليس له احتياجات. أما الإنسان المعوز فلن يتحدث طبقاً للحقيقة، ولن يستطيع أن يكون عادلاً ذلك الذي يقول: "آه - لو

كان عندي. "ولسوف يميل ناحية من يرضيه، ويحايى من يقدم له المكافآت "عظيم" هو "العظيم" الذى يكون "عظماؤه" عظماء. قدير^(١١) هو الملك صاحب الحاشية الملكية، ورفيع الشأن هو الإنسان الغنى "بعظمائه" قل الحقيقة فى قصرك، وليخشاك عظماء الأرض. عدالة القلب شيء يليق بالملك. ومقدمة قصرك هى التى تثير الرهبة فى مؤخرته^(١٢)

أقم العدالة مادمت تعيش على الأرض. هدىء من روع من ينتحب. لا تقهر الأرملة. لا تطرد إنسان من ممتلكات أبيه. لا توقع ضررا بالعظماء وهم يمارسون وظائفهم تجنب أن توقع عقوبة بالباطل. لا تقض على من هو غير ذى فائدة لك. وإذا وقعت عقوبة، فليكن بالضرب أو بالسجن. ومن ثم تستقر أحوال البلاد، فيما عدا المتمرد الذى تنكشف مخططاته، لأن الله يعرف الإنسان صاحب القلب الخسيس والله يعاقب بالدم العمل السيء . . . لا تقض على إنسان طالما تعرف فائدته. (وهو) الإنسان الذى أنشدت معه الأسفار^(١٣) فيما مضى. ذلك الذى يستطيع أن يقرأ فى كتاب "سيو"^(١٤) تسير قدما(ه) بحرية فى الأماكن السرية وتنتقل بأو(ه) إلى المكان الذى تعرفه، ولا تنقصه الدروب التى تقود إلى "الغد" ولا يستطيع أى إفتنان سحرى أن يرده على أعقابيه، ويلقى بأولئك الذين سيقدمون له الماء.

القضاة الالهيون الذين يحاكمون الأشقياء، أنت تعلم أنهم لا يعرفون الرحمة، فى هذا اليوم العظيم عند محاكمة البائس، ساعة النطق بالحكم. ويكون الأمر مؤلما عندما يكون الحكيم (= "تحت") هو ممثل الإتهام. لا تركز إلى طول السنين (التي عشتها) لأنهم يعتبرون زمن الحياة كما لو

كان ساعة زمن. يبقى الإنسان بعد وفاته^(١٥) وتوضع أفعاله فى كومة بجواره. إنها الأبدية هنا، إنه لاحق ذلك الذى ارتكب ما يأخذه عليه (=القضاة). ولكن ذلك الذى وصل إلى هذا المكان دون أن يرتكب سيئات، سيبقى هنا مثل الإله، يسير بحرية، شأنه شأن (الأخريين) أصحاب الزمن الأبدى.^(١٦)

جند الفرق الشابة التى ستكون تابعة لك، حتى يحبك المقر الملكى،^(١٧) وأكثر ممن انصارك بين المجندين.^(١٨) انظر، إن أهل مدنك يضمون العديد من "البراعم الشابة" فى العشرين من عمرهم. وهؤلاء، الشباب سعداء لأنهم يتصرفون حسب رغبتهم.^(١٩) وعندما يخرج مجندون جدد، يعود الجنود القدامى إلى ذويهم.^(٢٠) وهل يجوز أن يقوم القدماء بخوض المعارك من أجلنا؟ وحال تتويجى توليت أنا شخصيا تجنيد (فرق) من صفوفهم (=الشباب).

اعط أهمية لعظمائك، ضع فى المقدمة . . . أكثر من الشباب المنتمين لحاشيتك، وخصص لهم الخيرات، ووفر لهم الحقول، وكافتهم [بهبات] من القطعان.

لا تفضل ابن إنسان (ثرى) على ابن إنسان فقير. قرب منك^(٢١) الرجل حسب أفعاله، لأن كل مهنة تؤدى . . . من أجل رب القوة.^(٢٢) أحم حدودك، وأربط بين قلاعك،^(٢٣) فالقوات مفيدة لسيدها.

شيد العمائر . . من أجل الإله، إنها تخلد اسم صانعها. وعلى الإنسان أن يفعل ما هو مفيد لـ "بأ"ته^(٢٤)، (خلال) خدمة الكاهن الشهرية،^(٢٥) البس نعلا بيضاء وتردد على المعبد، وادخل إلى قدس الأقداس، وكل من خبز

”قصر-الإله“. حدد مائدة الماء الظاهر وأكثر من المؤن الغذائية وضاعف من القرايين اليومية، حافظ على مبانيك، حسب ثرائك. إن يوما واحدا يمكن أن يفضي إلى الأبدية، وساعة واحدة قد تكون فعالة بالسبة للمستقبل، فالإله يعرف ذلك الذي يعمل من أجله. وسوف تذهب تماثيلك إلى بلد قصي دون أن يكون في وسع أحد أن يجمعها كلها.^(٢٦)

الإنسان المريض، وحده هو الذي لا أعداء له، وفي داخل مصر ذاتها لا يهدأ العدو وتقاتل القوات بعضها البعض^(٢٧) مثلما تنبأ به القدماء. إن مصر تقاتل في الجبانة ذاتها، منتهكة حرمة^(٢٨) المقابر ومنتهكة حرمة الرفات لقد ارتكبت مثل هذه الأمور، ونفس الشيء يحدث الآن، حسبما يحدث لذلك الذي يرتكب على نحو مشابه، جريمة في حق الإله^(٢٩)

لاتكن علاقاتك سيئة مع الجنوب. أنت تعرف ما أعلنه المقر الملكي في هذا الصدد... ولكنهم لم يعبروا (حدودنا) كما يقولون. لقد اقتربت من مدينة ”ثنى“ ومدينة ”معقى“ عند الحدود الجنوبية ل”تاوت“.^(٣٠) واطبقت عليهم كسحابة تهطل مطرا.^(٣١) والملك ”مرى إيب رع“^(٣٢) ”صادق-القول“ لم يستطع أن يفعل ذلك. كن رحيما في هذا الصدد لتستطيع إعادة النظام... تحديد المعاهدات. وما من عمليات تطهير يمكن أن تظل خافية. ومن الأفضل أن يعمل المرء من أجل المستقبل.

• فلتسر الأمور على مايرام مع الجنوب من أجلك، حتى يأتي إليك حاملوا الجزية محملين بالعطايا. لقد فعلت أنا، في هذا الصدد نفس الشيء على غرار السلف.

كن رقيقا مع من لا يملك شعيرا ليعطيك إياه، لأن (البشر) يجوارك، هم كائنات ضعيفة. واكف بخبزك وجمعتك. إن الجرائيت يصلك دون معوقات،^(٣٣) لذلك لا تلحق الضرر بآثار الآخرين^(٣٤). واستخرج الحجر من محاجر طرة. ولا تشيد مقبرتك مستعملا مواد سبق استخدامها، أو مستخدما ماسبق تشييده من أجل ماسوف يشيد. انظر، على الملك أن يكون رب السعادة. إذا كنت عادلا، تستطيع أن تنام بفضل قوتك. لذلك اتبع رغبتك مثلما فعلت أنا. ولن يكون هناك أعداء بعد ذلك داخل حدودك.

(أنا) أنهض، سيدا على المدينة، ولكنى جريح القلب بسبب الوجه البحرى. من "حوت شنو" وحتى "سمباقا"^(٣٥)، وفى الجنوب حتى قناة السمكتين^(٣٦)، لقد أعدت السلام إلى كل ربوع الغرب حتى - ساحل البحر^(٣٧). وهكذا يستطيعون أن يعملوا وأن يقدموا الخشب "ميرو"^(٣٨)، كما يمكن مشاهدة الخشب "عن"^(٣٩) الذى يعطونه لنا. أما الشرق فهو يغص بالقبائل الأجنبية...^(٤٠) والجزر الداخلية تتجه (إلى)، وكذلك سكانها تقول الأقسام الإدارية الحضرية: "العظيم"^(٤١) يبجل أكثر منى.

انظر، البلد الذى أعملوا فيه السلب والنهب، أصبح الآن منظما فى أقاليم ومختلف أنواع المدن الكبيرة... إن حكومة الفرد الواحد، هى الآن فى إيدى عشرة رجال. والكاهن أيضا قد منح الحقول (والجميع) يعملون من أجلك كفريق واحد. ولن يظهر بينهم متمرّد واحد، ولن يؤذيك النيل بعدم عودته^(٤٢)، ومنتجات الوجه البحرى ملك يديك.

انظر، إن وتد الرسو الذى صنعتّه أنا فى الشرق من أجلك، قد ضرب^(٤٣). (والأراضى الممتدة) من حدود "جنو" وحتى طريق

"حورس"^(٤٥) قد انتظمت على هيئة مدن امتلأت بالرجال والنساء، بنخبة من ربوع البلاد جميعها، من أجل صد (العبد الذي قد يوجد) عند هذه الحدود.

ليتني أرى رجلا جسورا سيحاكى ذلك^(٤٦)، ويفعل لنفسه أكثر مما فعلته. وليتعد عني وريث سىء.

والآن، فما يلى من قول يخص الأجانب. إن البلاد التى يقيم فيها الأسيرى الخسيس وعرة: مأوها شحيح، والوصول إليها عبر الغابات الكثيرة صعب، وشرقها سيئة بسبب الجبال. إنه لا يقيم فى مكان واحد ويطلق لسيفانه العنان. إنه يحارب منذ زمن "حورس"^(٤٧)، وهو لا يغزو ولكنه لا يغزى، ولا يعد التقارير يوم المعركة، مثله مثل لص رفض الحياة فى مجتمع^(٤٨). وفى الحقيقة، سوف أضل كما أنا ما حييت. كان هؤلاء الأجانب أشبه بجدار مصمت ففتحته . . . وعملت على أن يوجه الوجه البحرى لهم الضربات، وسلبت ممتلكاتهم وأستوليت على قطعانهم، حتى ضح الأسيريون من مصر. لاتعر إذن هذا الموضوع أى اهتمام، لأن الأسيرى قد صار من الآن فسادا أشبه بتمساح على شاطئ (مصر)، فى إمكانه أن يسرق شخصا واحدا، ولكنه عاجز عن الاستيلاء على أرض به مدن عديدة.

لقد أعيد بناء مدينة "مدنيت"^(٤٩) والبحيرات المرة تروى أحد جوانبها^(٥٠) انظر، إنها الحبل السرى للأجانب. لقد سيدت أسوارها من أجل القتال وجنودها الكثيرون وسكانها يعرفون حمل السلاح بإستثناء الإنسان آخر داخل المدينة ؟ (بالنسبة) لمنطقة مدينة "جدوسوت"^(٥١) (يصبح) المجموع ١٠،٠٠٠ رجل، بما فى ذلك الناس العاديون والأحرار المعفون من

الضرائب. كما تضم المدينة أيضا العظماء منذ أن كانت المقر الملكي (=العاصمة). حدودها القائمة ثابتة ورجال حاميتها صناديد. ويتولى ربيها العديد من رجال الشمال حتى حدود الوجه البحرى، وتفرض عليهم ضرائب الحبوب شأنهم شأن الرجال الأحرار... انظر إنها بوابة الوجه البحرى. بل إنهم أقاموا سدا حتى مدينة "ننى نسوت".^(٥٢) وتلك فكرة صائبة من جانب العديد من المواطنين ليتجنبوا أن يضرب خدام العدو من حولهم الحصار زان الحذر يجذب السنين.

إذا هوجمت حدودك الجنوبية، عندئذ سوف يشد أجناب الشمال السير المصنوع من الجلد^(٥٣)، شيد إذن المعابد فى الوجه البحرى، فسمعة الإنسان لاتضعف وذلك بفضل ما فعله. والمواطنون المستقرون لن يكونوا مصدر إزعاج لك... (وعلى العكس) فإن العدو يجب الضرر والأفعال الخسيسة. لقد أعلن الملك "خيتى" "الصادق-القول" فى تعاليمه^(٥٤) إن الذى يقف صامتا فى وجه العنف يحطم (فى الواقع) موائد الماء الطاهر والإله يهاجم من يتمرد على معبده.

- احم موائد الماء الطاهر، بجل الإله ولا تقل: إنه لأمر شاق، ولا تحول يدك فى اتجاه الأرض.^(٥٥) من يتمرد عليك يدمر السماء. هذا العمل يمكن أن يجلب الرخاء لمائة سنة^(٥٦). وإن كان العدو على علم بالأمر لما دمره، وهكذا فإن مافعله ملك، يصبح (أكثر) فاعلية على يد من يأتى بعده (=ابنه)، وعلى كل ليس هناك شخص لأعداء له.

من ينتسب إلى "الضفتين"^(٥٧) فهو عالم. إن ملكا سيدا لرجال البرط، لا يمكن أن يكون جاهلا، فقد كان حكيما منذ أن خرج من رحم (أمه) وقد

اصطفاه الإله أمام مليون رجل. إن الملك وظيفته جميلة وطيبة، لا ابن لها ولا أخ يعملان على تخليد آثارها. إن شخصا واحدا يحيل شخصا آخر إلى إنسان فعال.^(٥٨) (كل) رجل يعمل وفقا للذى سبقه، بحيث أن مافعله هذا الأخير سوف يحافظ عليه من سيأتى بعده.

انظر، لقد وقع عمل خسيس فى زمنى. لقد سلبت ونهضت نواحي مدينة "تنى" حدث ذلك من جراء خطأ منى. ولم أخط به علما إلا بعد أن حدث ما حدث. انظر، فالخطأ الرئيسى الذى ارتكبته مؤلم دون ريب.^(٥٩) ولكن لن يفيد فى شيء إن نعيد الحياة إلى ماسبق أن دمر، أن نهدم ماسبق تشييده أو ترميم وزخرفة مالحق به الضرر. فلتراع ذلك. إن الضربة تستدعى ضربة أخرى. هذه هى خلاصة الأفعال جميعا.

بين البشر ثمر الأجيال وراء الأجيال. والإله الذى يعرف مخلوقاته محتجب، ولكن أحدا لا يستطيع أن يقاوم رب القدرة الذى يحيط بكل ماتراه عيناه.

علينا أن نسبح للإله فوق دربه، سواء كان مصنوعا من الأحجار الكريمة أو من النحاس، كما يحل فيضان محل فيضان آخر.^(٦١) فليس هناك نهر يمكن أن يخفيه لأن الأمواه تطلق ذلك الذى يختفى فيها.^(٦٢) ومن ثم تستطيع الـ"با" أن تذهب إلى المكان الذى تعرفه ولن تخرج عن الطريق الذى سارت فيه بالأمس.

فلتر دارك فى الغرب (=مقبرتك). واجعل مكانك فى الجبانة قابلا للدوام بوصفك إنسانا عادلا يقيم العدالة، ويستطيع البشر أن يعتمدوا على قلبه. إن الأفعال الحميدة للإنسان العادل أكثر نفعا من ثور ذلك الذى يرتكب الشر^(٦٣). اعمل من أجل الإله - وسوف يعمل بالمثل من أجلك - (اعمل) عن طريق القرابين التى ستجدد مذبحه، وأيضا عن طريق مدونة منقوشة،

تكون ذكرى لإسمك. إن الإله يرضى عمن يعمل من أجله. لقد أنعم الإله بالكثير على البشر فهم قطيعه، وقد شكل السماء والأرض حسب رغبتهم، وردع مخلوق الماء الشرير (=التمساح)، لقد خلق نسمة الحياة من أجل أنوفهم، إنهم صوره المنبثقة من جسده. إنه يتألق في السماء حسب رغبتهم، ومن أجلهم خلق النبات والماشية والطيور والأسماك غذاء لهم. ويقتل أعدائهم ويقضى على أعداء أبنائه الذين كانوا يعتزمون القيام بتمرد.^(٦٤) وخلق النور حسب رغبتهم، ويحرق ليشاهدهم.^(٦٥) لقد أقام معبد(ه) من حولهم وعندما يكون فإنه يسمعهم. لقد خلق لهم زعماء منذ البويضة، و(جعل) منهم قادة ليكونوا سنداً لظهر الرجل الضعيف. ومن أجلهم خلق الإفتان السحري ليكون سلاحاً لصدا ما يمكن أن يحدث، ساهرا عليهم طوال النهار وطوال الليل. وقتل الرجال الأذنياء الذين كانوا بينهم، مثلما يستطيع رجل أن يضرب ابنه وأخاه، فالإله يعرف كل الأسماء.^(٦٦) لا تسبب أى ألم لى، أنا الذى منحتك القوانين الخاصة بالملك، حتى ينفتح وجهك وتنهض كرجل، وحتى لا يكون هناك من يوجه لك الاتهام عندما تلحق بى (فى العالم الآخر). لا تقتل أياً من المقربين إليك بعد أن تكون قد منحتهم الخطوة، فالله يعرفه وهو واحد من ذوى الميسرة على الأرض، لأن رفات الملك كائنات إلهية.

امنح حبك لشعب البلاد أجمعين: فالناس يتذكرون الكائن الجميل الطيب، عندما ينقضى (زمنه). ذلك أن المقربين من قصر خيتى "الصادق-القول"^(٦٧) سيقولون عنك. وهم يفكرون فيما يحدث اليوم: "ذلك الذى قضى على فترة المعاناة".

انظر، لقد أخبرتك بما يمكن أن يكون مفيداً، وبما هو لدى. اعمل الآن وفقاً لما ثبت صحته أمامك.

ارابعا |

تعاليم الملك امنمحات الأول إلى ابنه سنوسرت^(٦٨)

بداية التعاليم التي صاغها ملك الوجهين القبلى والبحرى: "ستحب -إيب-رع" "ابن رع": "امنمحات" - "صادق القول" ويوجه رسالة حق إلى ابنه، سيد الكون قائلا: "أنت يا من ظهرت بجلال كإله، اصغ لما سأقوله لك، حتى تصبح ملك البلاد، وتدير شئون "الضفتين"^(٦٩) وتحقق الخير الوفير. احذر مرؤوسيك، حتى لا يقع (حادث) خطير لم يكن أحد قد تنبه له. لا تقترب منهم، ولا تبقى بمفردك. لاتضع ثقتك فى أخ. لاتعرف أصدقاء ولا تخلق صداقات حميمة، فلا فائدة ترجى من ذلك. وإذا خلدت إلى النوم فليكن قلبك هو ذاته الذى يتولى حراستك، فالإنسان لا يجد الأصدقاء فى يوم الشدة. لقد أعطيت المعوز، لقد نشأت اليتيم، لقد سعت بحيث يرتقى من كان لا يملك شيئا بنفس مستوى من يملك. ولكن ذلك الذى كان يأكل من طعامى، هو نفسه الذى كان يوجه اللوم (لى)، والذى مددت له يدى، هو نفسه الذى كان يثير الرعب بسبب ذلك. ومن كان يرتدى من أرق كتانى، كان ينظر إلى على نحو ما كان يفعل أولئك الذين كانوا محرومين منه. والذين كانوا يتضمخون بطيب المر (الخاص بى) كانوا يصقون على تعطفى.

أيا صورى الحية، (أيا) عناصر ذاتى بين البشر،^(٧٠) نوحى من أجلى، كما لو كنت تنوحين على من لم يعد مسموعا. المعركة لم يعد يدرك خطورتها أحد، لأن الناس يتقاتلون فى الساحة، بعد أن نسوا الأمس. فلا وجود للسعادة الكاملة، بالنسبة لمن يجهل ما كان ينبغى أن يعرفه.^(٧١)

كان ذلك بعد وجبة المساء، كان الليل قد حل. وأخذت ساعة راحة،^(٧٢) فتمددت فوق سريري، وأنا في غاية التعب، وبأقل قلبى، بالنسبة لى، يسعى وراء نعاسى.^(٧٣) عندئذ شهرت أسلحة كان ينتظر منها على العكس، أن تسهر على. وفعلت مثل أفعى الصحراء.^(٧٤) واستيقظت على (ضوضاء) القتال، إذ كنت بمفردى. واكتشفت إنه كان هناك اشتباك عنيف بين الجند. ولو كنت أمسكت على الفور بسلاحى لأستطعت أن اشتت شمل هولاء الجبناء، شذر مذر، ولكن لا وجود لإنسان جسور فى الليل، ولا يمكن إنسان أن يحارب بمفرده. إن النصر لا يتحقق بدون حماية. انظر، لقد وقعت محاولة الإغتيال هذه، بينما كنت بدونك، بينما لم يكن البلاط، قد عرف أننى قد نقلت السلطة إليك^(٧٥) حيث لم أكن قد جلست بعد على العرش فى صحبتك.^(٧٦) ليت (الوقت يتسع معى) لأقوم بترتيبات من أجلك - لأننى لم أكن قد توقعت ذلك، لم أكن قد فكرت فى ذلك، وما كان ينبغي لـ (قلبي) أن يؤدى^(٧٧) إلى عداوة خدمى. هل حدث أبدا أن تجمعت النساء فى تشكيل معركة؟ وهل تربي مثيرو الشغب داخل البيت؟ وهل حدث أبدا أن الماء الذى يحفر التربة قد شق بحيث ينصرف الناس البسطاء عن أعمالهم؟^(٧٧) إلا أنه لم يحدث قط أن حاصرتنى المصائب، منذ أن جئت إلى العالم ولم يحدث أبدا أن كشف أحد عن عمل جسور مماثل لأعمالى.

لقد مشيت حتى إلفنتين ووصلت حتى مستنقعات الدلتا^(٧٨) ووقفت عند حدود البلاد وشاهدت ما كان بها. ودفعت حدود السلطة إلى الخلف^(٧٩) بفضل ساعدى وبفضل هيئتي فأنا الذى ينتح الحبوب (أ:!) صديق "نيرى"^(٨٠) والنيل يكرمنى فى كل طلعة من طلعاته.^(٨١) ولم يكن هناك جوعى طوال سنوات (حكى) ولم يعرف الناس العطش بفضلى وبسبب ما فعلته كان الناس يجلسون^(٨٢) ويحكون عنه وكل ما أمرت به كان فى مكانه (السليم) لقد روضت الأسود وأبعدت التماسيح

واخضعت أهل بلاد " واوات " واصططجت " المجاى " ^(٨٤) وعملت على أن يمشى
الأسيريون كالكلاب. وشيدت قصرا مزخرفا بالذهب سقفه من اللازورد وارضيته
من الفضة وأبوابه من النحاس ومزاليجه من البرونز. كان قد صنع من أجله الابدية
واعد للزمن اللانهائى. والآن هناك اعترافاً بى بصفتى ذلك الذى ينتسب إلى الصقر
فأنا سيد الكون.

الشبان والجموع فى الشوارع. الانسان الذى يعرف يقول: نعم أما الجاهل
فيقول: لا. لأنه لايعرف ذلك وهو محروم من وجهك. الانسان ينتسب إلى ابنى
سنوسرت ^(٨٥)

قدماى تسيران لتقربانى من قلبى ^(٨٦) فى حين أن عينى سوف تشاهدانك
وسيحصل الشباب على ساعة سعادة بجوار الشعب بينما هم يمتدحونك ويهللون
لك.

انظر لقد حققت البداية واجمع الخاتمة من اجلك أنا بالنسبة لك المرفأ الذى فى
قلبى. صورتى وهى بذرة الله ^(٨٧) سوف ترتدى التاج الابيض ^(٨٨) طويلا وسوف
تظل القلاع فى مكانها كما امرت من أجلك ^(٨٩).

الفرح فى قارب " رع " لأن ملكك قد تجلى منذ بداية ملكى لأنك تتصرف بحب
وتحقق أعمالا جسورة ^(٩٠) شيد المبانى حتى تدوم طويلا وتكون قويا. لقد قاتلت
لكى يعرف القوم أنك رجل فطن.

هوامش

(١) من أظهر النصوص القديمة التى تكشف " مثالية العلاقة بين الحاكم والمحكوم "

(٢) وصلنا هذا النص مدونا على عدد من البرديات Pap 1116 A بلنينجراد والبردية ٤٦٥٨ Pap بمسكو والبردية Garlsberg VI.Pap . بكوبنهاجن و " خيتى " الثالث هو من أواخر ملوك الأسرة العاشرة التى حكمت مصر وكانت عاصمتها " هرقلويوليس فى الفيوم ولكن ظل جزء من الوجه القبلى بعيدا عن سيطرتها(وكان جنوب الوجه القبلى قد توحيد سيطرة أمراء طيبة الذين سرعان ماعادوا توحيد البلاد لحسابهم) بينما عانى الوجه البحرى من مشاكل كثيرة نتيجة تسلل الشعوب الاسيوية (لاسيما فى قسم الشرقى) وتمدنا هذه التعاليم بايضاحات عظيمة الفائدة حول الأوضاع السياسية لذلك الزمن وحول مبادئ الحكومة الملكية ذاتها و " واجبات " الملك تجاه الآلهة وتجاه البشر على حد سواء.

النص المصرى:

.Aksel Volten, Zwei altgyptische Schriften Copenhagen , 1945,p.1a. 81

(٣) بعد محاكمة الإله " أوزيريس " التى " تزن " أفعال المتوفين.

(٤) ضمان الحياة الأبدية

(٥) تعنى كلمة " حمو " الشخص الذى يشكل المادة أى يعطيها شكلا هو غلاف محتمل للحياه وهنا تعتبر الكلمات ماثلة للمادة التشكيلية فعندما " تتخذ تصبح ايضا قادرة على الخلق الحيوى ويمتلك الخطيب والنحات نفس الموهبة القادرة على بث الحياة فى العالم

(٦) تفوق قوة " الكلمة " وحدها أى فعل ماضى عنيف

(٧) على غرار الحبوب التى تم إعدادها لصنع الشعير وهى صورة عينية تؤكد كيف أن الحقيقة والعدالة هما تحت تصرف الانسان الحكيم

(٨) اشارة إلى أعمال تسلل الاسويين الى مناطق الدلتا الشرقية

(٩) حرفيا " المفتوح الوجه " كان المصرى يلجا فى الغالب عند التعبير عن الصفات المجردة إلى وصف ملاحظها العينية. والصفة المقصودة هنا هى سمة " التقبل " * لدى الأذكىاء

(١٠) مثل فك الرباط

(١١) إن ترديد كلمة واحدة ككلازمة متكررة هو من الصيغ التى شاع استخدامها فى الاساليب الخطابية

(١٢) أى أن الرهبة التى تثيرها علنا هى التى تدفع المقربين وأفراد البلاط إلى الخذر.

(١٣) ربما " يرتل " حسبا هو متبع فى مدارس تحفيظ القرآن فى الوقت الحالى.

(١٤) غير معروف ويرجع من سياق النص أنه كتاب مرشد لرحلة العالم الاخر

(١٥) حرفيا " الرسو أو الإرساء " يشبه الموت بوصول الملاح إلى بلد آخر ليرسو بسفينة

(١٦) إنهم بلا شك الموتى " البرينو الساحة "

(١٧) محل الإقامة الرسمية للملك - عاصمة المملكة

(١٨) حرفيا " اصحاب الريشة " جرى العرف على ان يضع الجندى ريشة فوق رأسه

راجع أيضاً: Posener , Annuaire du College de France , 1964 , vol 64 p. 305

(١٩) ربما شملت عمليات التجنيد الشباب الذين فى العشرين من عمرهم.

(٢٠) معنى " الجنود القدماء " هذا نقلا عن Volten , op. cit. et Posener , op . cit.

(٢١) حرفيا " احضره لمحك "

(٢٢) الملك

(٢٣) كانت القلاع الحدودية لاتزال قليلة جدا وعلى اتصال فيما بينها عن طريق اشارات دخان

(٢٤) الـ "با" من الاجزاء المكونة لكل كاتن وهو يصور على هيئة طائر آدمى وتنتهى رجلاه بيدين انه العنصر المتحرك للفرد ويستطيع الـ "با" بعد الوفاة ان يتحرك الميماء ليتجول على الارض سعيا وراء نسائم الحياة النعشة واحصارها الى المتوفى فى "دار الابدية" ويصور احيانا على الميماء وقد وضع رجليه على القلب دلافة على الحماية وتنشيطا للحياة.

(٢٥) كان الملك وحده من الناحية النظرية هو الذى يقيم ويصور دائما على النقوش وهو يؤدى الطقوس الخاصة بالالهة أما فى الواقع فقد كان يخول سلطاته للكهنة ولكن لا يعفيه من خدمة دينية شخصية.

(٢٦) كان فى امكان الآلهة ان تقوم برحلات "كشاهد على الهيمنة المصرية على البلدان المجاورة والتشديد منه على عددها الكبير

(٢٧) من المرجح أنها اشارة الى المعارك التى احدثت بين الملك "نسى نسوت" (هرقليوبوليس) وقوات حكام اقاليم مصر العليا (راجع الهامش رقم)

(٢٨) حرفيا: "بالخفر بمعرفة" وهى صورة عينية "للهدم"

(٢٩) من الواضح أنها اشارة إلى انتهاك حرمة جبانة ثنى.

(٣٠) "ثنى" من مدن الوجه القبلى (على مقربة من أبيدوس - العرابة المدفونة حاليا) - وكانت عاصمة المملكة فى ظل الأسرتين الأولى والثانية. وكانت توجد جبانة هامة على مقربة من المدينة، وكانت تشكل آنذاك الحدود بين مملكة هرقليوبوليس ومجموع الأقاليم التى كانت تعترف بسيادة أمراء طيبة، ومن هنا جاءت أهمية المعارك الضارية التى دارت فى هذا المكان.

(٣١) بقوة ومباغنة السحابة التى تتأثر مطرا. وتسمى الصورة أيضا إلى التأكيد على تأثير مفاجأة الهجوم.

(٣٢) اسم الملك "ختى" الأول وهو أول ملوك الأسرة التاسعة التى حكمت قبل "ختى" الثالث بقرن من الزمن.

(٣٣) محاجر الجرانيت كثيرة فى مصر ولاسيما فى الجنوب عند منطقة أسوان. وكانت طرة الواقعة على الضفة اليمنى من النيل فى مواجهة مدينة "منف" تضم محاجر هامة من الحجر الجيرى الأبيض.

(٣٤) إشارة إلى "عادة" مصرية، كان الملك يستخدم بمقتضاها مواد البانى التى شيدها أسلافه لتشييد مبانيه بعكالف أقل.

(٣٥) "حوت شنو" مدينة تقع إلى جوار "هليوبوليس".

(٣٦) اسم فرع النيل في الدلتا الذى يخترق "ليتوبوليس". والمقصود به هنا الحدود الجنوبية للقسم الغربى من الدلتا.

(٣٧) من الدلتا.

(٣٨) أخشاب من العائلة الصنوبرية، تميل إلى الأحمرار، كانت تستورد من لبنان ومن الراجع أنه خشب الأرز. (راجع

Helek, Maerialen- zur Wirtschaftsgeschichte des neuen Reiches, Mainz, 1961-1970, pt. V, p.906)

(٣٩) نوع آخر من الأشجار الآسيوية وهى شجرة العرعر على ما يظن. إن وجود هذه الأخشاب، رغم المشاكل التى عانى منها النظام الملكى فى "هرقليوبوليس" يؤكد أن المواصلات قد ظلت قائمة بين سواحل البحر المتوسط الآسيوية (وعلى رأسها فينيقيا) وهرقليوبوليس.

(٤٠) القبائل البدوية الآسيوية التى كانت تسكن أرض كنعان.

(٤١) القسم الأوسط من الدلتا (ويتكون من أراض تحيطها أفرع النيل وتفرعاتها الهادرة).

(٤٢) الملك.

(٤٣) فيضان النيل الذى يعود فى مياعده جالبا على مصر الخصب والحياة.

(٤٤) إن الحدود الشرقية "قد رست رسوا".

(٤٥) إشارة محتملة إلى انشاء شبكة من القلاع هدفها صد الغزوات الآسيوية. وسوف يقيم امنمحات الأول هذه المجموعة ("جدران الأمير") على كل حال بعد أكثر من قرن من الزمن. وربما كانت هذه المجموعة تمتد هنا ابتداء من مدينة "حنكو" (عاصمة الإقليم السادس عشر من أقاليم الوجه البحرى - زاوية الميتين - حاليا) وحتى طريق "حورس" وهو الطريق الحربى القديم الذى يخترق غزة ليصعد بمحاذاة ساحل البحر المتوسط والذى يبدأ من قلعة "سيلا".

(٤٦) أى الأمير الوراثة شخصياً.

(٤٧) اشارة إلى الإلهية التي سبقت على ما يعتقد حكم الفراعنة. ومن ثم يتم التأكيد على قدم هذه المصراعات العسكرية.

(٤٨) لا توجد سجلات ولا حياة اجتماعية لهؤلاء البدو.

(٤٩) عند الحدود الشرقية للدلتا.

(٥٠) منخفضات بحرية تقع عند رأس خليج السويس الحالى وهى من بقايا أزمنة سابقة عندما كان النيل يتصل بالبحر الأحمر عبر إحدى تفرعات النهر.

(٥١) ربما كان اسما من اسماء "منف".

(٥٢) ترمى هذه الجملة إلى تأكيد العلاقات القائمة بين الفيوم والدلتا.

(٥٣) اللجام ؟

(٥٤) يبدو أن خيتى الأول كان قد ألف تعاليم لم تصلنا.

(٥٥) "لا تهمل الله" كانت شعيرة العبادة تعنى رفع الساعدين مع اتجاه الراحين ناحية الإله.

(٥٦) "مائة سنة" حسب قراءة

G.Posener, Annuaire du Collège de France, 1965, Vol 65 P.345.

(٥٧) كتابة عن ملك مصر.

(٥٨) تعبير يفسر تواصل الملكية أبا عن جد

(٥٩) يعرف " خيتى " الثالث بأنه ارتكب خطأ

(٦٠) حرفيا: " تستبدل الضريبة بميلتها "

(٦١) يمكن لاي شكل أن يكون بديلا لشكل آخر تماما كما تحمل مياه غيرها ويسكن الله مختلف هذه الاشكال.

(٦٢) اشارة إلى الخلق الأول عندما انبعثت القدرة الإلهية بفضل ارادتها الخاصة من أمواه الخواء بعد أن ظلت محتجة حتى الآن في المحيط البدني.

(٦٣) راجع سفرى العهد القديم من الكتاب المقدس: سفر صموئيل ٢٢:١٥ وسفر الأمثال ١٧:١٥ وهي حكمة قديمة شاعت في فكر الشعوب السامية.

(٦٤) اشارة الى تمرد البشر الاسطوري ضد الاله الخالق " آتوم "

(٦٥) تصور البشر " الشمس " مبحرا(اسم مذكور في المصرية القديم - المزمج) في سفينة على صفحة النيل السماوى اثناء النهار وعلى صفحة النيل السفلى تحت الارض اثناء الليل.

(٦٦) كان الاسم محملا بقدرة سحرية(بفضل قوة الكلمة الخلاقة) وهو عنصر هام من عناصر الشخصية اذا عرف المرء اسم أى شخص فمعنى ذلك انه اكتسب سلطانا عليه.

(٦٧) خبثى الأول(وقد برئت ساحته أمام محكمة "أوزيريس")

(٦٨) نص مدون على عدد من البرديات(بردية " ميللينجن " Millingen - بردية ساليه رقم ١, Sallier وساليه رقم ٢ Salier11 بالمتحف البريطانى British Museum - بردية برلين رقم ٣٠١٩ Berlin 3019 ولقافة من الجلد(فى متحف اللوفر Le Louvre) ولوحات خشبية صغيرة(فى بروكلن Brooklyn) والعديد من الأسواكا.

تعبيرية " خية الأمل " السائدة فى التعاليم عن وجود مصاعب سياسية كان يعاني منها النظام الملكى إبان الامرة الثانية عشرة منذ بدايتها(حول عام ٢٠٠٠ ق.م) وتعيد بخاصة إلى الازهان قيام مؤامرة ضد الملك " امنمحات " الأول بتحريض من المقربين إليه فى حين ان ابنه الذى سيحمل فيما بعد لقب " سنوسرت الأول " لم يكن قد اختير بعد وريثا للعرش(إن احتمال وجود مؤامرة ثانية ضد نفس هذا الملك عندما كان الأمير " سنوسرت " يقاتل فى ليبيا تظهر من قصة " مغامرات سنوهى " وربما لم يخرج الامر عن كونه احتدام التنافس بين أمراء البيت الملكى) تقدم التعاليم نصائح واقعية.

إن النبرة العامة وهى على قدر من التشاؤم هى نبرة رجل كان قد مر لعمره بتجربة شخصية قاسية وهوك العنان لما يضره من ضغينه ضد خيانة غير عادله إن النصائح التى أورثها " امنمحات " الأول لابنه هدفها اساس أن تعلمه الرية والحذر حتى يستطيع أن يحافظ على الملك.

النص المصرى:

Wolfgang HELCK , Der text der " Lehre Amenehats 1 Fur seinen Sohn" ,
Wiesbaden , 1969.

(٦٩) ضفتا نهر النيل - مصر

(٧٠) اشارة محتملة إلى الفراعنة اللاحقين(؟) من نسل الملك(فهم بالتالى على صورته " وجزء " منه)

راجع: Gardiner , in Melanges Maspero 1 , p 484

(٧١) اشارة إلى جحود الناس الذين اغدق عليهم الملك من نعمه.

(٧٢) حرفيا " فرح - القلب "

(٧٣) الاغفاءة البطينة - للانسان المتعب.

(٧٤) بمفردى وتحت التهديد.

(٧٥) حرفيا " سوف اخضوضر ثانية أو سوف اتجدد(على غرار النبات) من أجلك " إن الأب يعيش ثانية
فى الابن.

(٧٦) كان الامير " سنوسرت " مشاركا فى السلطة خلال السنوات الأخيرة من حكم ابيه

(٧٧) جميع الامور التى لا تختظر على بال كجحود الذين استفادو من نعم الملك

(٧٨) أى أرجاء المملكة المصرية التى كان " امنمحات " الاول قد اخضعها على هذا النحو

(٧٩) قام بالتوسع فى أراضيه بان نقل حدوده إلى الورااء

(٨٠) إله القمح والحصاد.

(٨١) مع حلول كل فيضان. يسهر الملك على رفاهية البلاد المادية

(٨٢). من علامات اسوخاء الجسد وراحة القلب والفكر فى بلد يعمه الرخاء.

(٨٣) منطقة فى النوبة تمتد من الجندل على النيل وحتى الجندل الثانى.

(٨٤) الفرق النوبية المساندة التى كانت تخدم فى الشرطة والجيش.

(٨٥) جمل مبهمه وهى الواقع " تكرارا " لنص " مراثى ايورور " وقد وردت فى سياق غاب عنا معناه.

(٨٦) أى " أيا ابنى المحجوب "

(٨٧) إنه ابنه الإلهى مثله شخصيا.

(٨٨) حرفيا " سوف يدوم طويلا من حيث التاج الابيض "

(٨٩) كان " امنمحات " الاول قد أقام على وجه التحديد شبكة من القلاع على الحدود الشمالية الشرقية للدلتا ربما كانت تشير هذه الجملة إلى " أسوار الأمير " المعروفة.

(٩٠) حرفيا " بصفته رجلا يحب ورجلا ينجز افعالا جسورة "

[خامساً] الاستقبالات الرسمية

للوزير " رخ. مى. رع " ^(١)

(عام ١٤٧٠ ق.م تقريباً)

التعاليم الملقاة على الوزير " رخ. مى. رع "

بداية يتم إدخال كبار موظفي المجلس إلى قاعة المقابلات الرسمية لفرعون " له الحياة - والصحة - والقوة " ثم يتم إحضار الوزير " رخ. مى. رع " الذي عُين حديثاً (في هذا المنصب).

قال له جلالتة : " عليك من الآن فصاعداً أن تسهر على قاعة المقابلات الرسمية للوزير وان تراقب كل ما يحدث بها فتلك هي دعامة البلاد بأسرها. فلاحظ أن شغل منصب وزير ليس بالأمر الهين أو المحبب، بل ينطوى الأمر أحياناً على مرارة كـ " مرارة " العلقم.

انظر ! إن الوزير هو النحاس الذي يحمى ذهب بيت سيده ^(٢) انه لا يخفض وجهه أمام كبار الموظفين والقضاة. ولا يقبل أن يكون كائناً من كان من عملائه. إذا أقام إنسان في صحبة سيده، فعليه أن يبذل ما في وسعه من أجله، ولكن عليه ألا يفعل نفس الشيء من أجل (شخص) آخر.

سوف يحضر أصحاب الشكاوى من الجنوب ومن الشمال، ومن جميع أرجاء البلاد. ... وأنت، سوف تسهر على أن تكون جميع الإجراءات وفقاً لما هو القانون، ووفقاً أيضاً لحقوقهم، مع كفالة العدالة لكل إنسان. ينبغي أن يكون القاضى صاحب

وجه سافر، فالماء والرياح تنقل كل ما فعل، ولا يجهل أحد أفعاله. إذا وقع خطأ فيما يفعله قاضي آخر ولا يتم إعلانه من فم قاض التحقيق فلسوف يعرفه الناس من فم (الشخص) الذي يحاكم : وبالفعل فسوف يقول هذا الأخير الذي يقف بجوار هذا القاضي : " ليس في ذلك تعضيد لصوتي " (= أنصاف لي).

لاحظ، أنه عندما يستجيب القاضي لطلب الشاكي، فيتصرف بمقتضى القاعدة، فهذا هو الملاذ الأمين. ومن ثم لن يستطيع من يقدم للمحاكمة أن يقول : " لم ينصفني أحد ". أمعن النظر في هذه الحكمة التي وردت في "سفر منف" والتي تقول : " الملك وقور، وزيره إذن يراعى القوانين. .. " [تجنب أيضا] ما كان يقال عن الوزير " خيتى " ومفاده انه كان يغبن أقرباءه لصالح الآخرين. .. ^(٣) وإذا استأنف إنسان (من أقرباء خيتى) حكماً كان الوزير قد فكر في إصداره ضده، ولو تهادى هذا الأخير في رفضه، بدافع المغالاة في العدالة. ... ولكن المحاباة أمر بمقتة الإله.

هذا التوجيه هو من أجلك، وعليك الالتزام به. عليك أن تراعى من لاتعرفه كما (تراعى) من تعرفه، من هو قريب منك لأنه من أقربائك كمن هو بعيد عن دارك.

القاضي الذي سيتصرف على هذا النحو سينال الفلاح هنا في منصبه. لاتصرف أى شاك دون أن تحفل بما يقول. وإذا جاء أحدهم يشتكى إليك، فلا ترفض ما يقوله على اعتبار انه سبق قوله. يمكنك أن تصرفه ولكن بعد أن تفهمه لماذا ترده. انظر لقد جرت العادة على القول : " أن الشاكي يفضل أن يلقي خطابه حسن الالتفات عن أن يستجاب لشكواه. لا تغضب على رجل بلا وجه حق. اغضب على الذي يستحقه فحسب. ابعث الرهبة حتى يخشاك الناس. انه قاضى (حق) هذا (القاضى) المرهوب

الجانب. ولكن لاحظ أن كرامة القاضى هي في أن يقيم العدل. إذا كان أحد الرجال مرهوب الجانب "للملايين المرات" (=للغاية)، فسوف يرى الناس أنه به بعض الأمور السيئة. ولن يقال عنه أبداً : " هذا رجل " [إذا] تحدث [قاض] زوراً وبهتاناً فسوف يخرج حسب حقيقته (=فسوف يمضى إلى حاله كما يستحق).

انظر سوف تحقق النجاح، في أداء الوظيفة، بإقامة العدل، فما يتطلع إليه المرء، في المقام الأول، هو ضمان العدالة فيما يتخذه الوزير من إجراءات. انه الساهر المدقق على القوانين منذ زمن الإله. ^(٤) انظر إذن فرئيس كتبة الوزير يسمى، كاتب " الحقيقة - العدالة " هكذا يطلق عليه. أما القاعة التي سوف تخصصها لمقابلاتك، فيها "حجرة فسيحة" معروفة باسم الـ "ماعتين" (مثنى: "ماعت" م.) ^(٥) حيث ستخذ قراراتك.

الوزير هو من يحكم بالعدل في حضرة الشعب كله. ولكن لاحظ، أن الإنسان يظل في وظيفته طالما يتصرف وفقاً لما يشار به عليه. كل شئ يسير على ما يرام بالنسبة له، إذا فعل حسبما قيل له. لا تكف في أية لحظة عن إقامة العدل الذي تعرف قوانينه. لا تنضم إلى الإنسان المتعجرف، لان "السيد" الملكى يفضل الخائف على المعتد بنفسه. تصرف إذن بمقتضى التوجيهات التي قدمت لك. انظر، إن ذلك "موضوع أمامك" لكى تحققه.

هوامش:

(١) ملونة منحوتة على الجدار الغربي لإحدى قاعات مقبرة "رخ - مى - رع" على البر الغربي بطنية تضم هذه المقبرة العديد من الدونات خلاف خطاب العربة الذى ألقاه تحوتمس الثالث. (١٤٨٠ - ١٤٥٠ ق.م) يوم أن خلع منصب الوزير على "رخ - مى - رع" (الخطاب المرحوم هنا) وقام هذا الأخير بتدوينه على أحد جدران مقبرته. وهذه الدونات هى من ناحية، عبارة عن "سيرة ذاتية" (والنص للأسف مهشم تهشيماً بالها). ومن ناحية أخرى، فإنها تقدم صورة مفصلة وتوضح الأساليب الفنية لأعباء منصب الوزير (من قضائية ومالية وعسكرية وإدارية وزراعية).

النص المصرى:

Urkunden, IV, pp. 1086- 1093

راجع أيضاً النص الذى نشره

R. FAULKNER in Journal of Egyptian Archaeology, 1955, vol. 14, pp 18 sq

- (٢) اللهب هو مادة جسد الآلهة ومادة الشمس على نحو خاص ويصور ابن رع.
- أما النحاس ذو الإشعاع الأقل حدة فهو مادة النجوم (التي تصور أحياناً على أنها أجساد البشر المبجلين المؤلفين) ويصور الوزير الذى يبدو أنه كان مشاركاً فى الوهبة سيده منذ زمن حياته.
- (٣) إمعاناً فى الحيدة - وحتى لا يظهر بمظهر الذى يحاى أقرباءه.
- (٤) منذ يوم خلق العالم، وهى جملة شكلية محض.
- (٥) "ماعت" هى إلهة الحقيقة - العدالة، وكانت قاعة "الماعتين" تضم جنوب وشمال البلاد.



[سادما]

الفلاح الذي تعرض للسطو وعرائضة التسع^(١)

(شكاوى الفلاح الفصح)

ذات مرة، كان هناك رجل يدعى "خو - أن - أنبو"^(٢) وهو فلاح من "واحة الملح"^(٣) وكانت زوجته تدعى "مريت"^(٤) وذات يوم، قال "خو - أن - أنبو" لزوجته: "انظري سوف أنزل إلى مصر لأحضر منها طعاما لأولادي. هيا إذن كيلى لي هذا الشعير الذي لا يزال في مخزن الفلال، وما يتبقى.. فكيلى ثمانية مكاييل من الشعير عندئذ قال الفلاح لزوجته: "سأترك لك مكيالين لطعامك أنت والأولاد واعدى لي بالسته الأخرى خبزا وجعة (لوجباتى) اليومية..".

هبط "خو - أن - أنبو" إذن إلى مصر، بعد أن حمل حميره بوصاً ونبات "ردعيت" ونظرونا وملحا وخشبا، وعلى نحو خاص خشب "عائوت" من واحة الفرافرة، وجلود الفهود، وفراء الذئب، ونبات "نيشا" وحجر "عائو" ونبات "تينم" ونبات "خبرور".." "ساهوت" وحبوب "ساكسوت" ونبات "ميسوت" وحجر "سنت" وحجر "عبا" ونبات "إيسا" ونبات "إينبى" وجماما وعصافير "تعرو" وعصافير "أوجس" ونبات "أوبن" ونبات "تييس" وحبوب "جنجنت" و "شعر - الأرض" وحبوب "اينست" ومجموعة مما لا ذ وطاب، من متحات واحة الملح^(٥)

مغامرة الفلاح

هبط "حو - أن - أنبور" النهر متجهاً إلى "هيراكليوبوليس" ^(٦) وعندما وصل إلى منطقة "برقفى" إلى الشمال من "مدنى" ^(٧) التقى برجل كان يقف عند الشاطئ وكان يدعى "جحوتى نخت" ^(٨) وهو ابن ل "إنسى"، وخادم رئيس الحجاب "رنسى" بن "ميرو".

وعندما رأى "جحوتى - نخت" حمير الفلاح (وهو مشهد) أمتع قلبه، خطر على باله : " آه ! لو كان عندى صورة لها قدرة (سحرية) فاعلة، لاستطعت بفضلها أن أسرق ممتلكات هذا الفلاح ! " غير أن منزل " جحوتى - نخت " كان قائما على الطريق المحاذى للشاطئ كان هذا الطريق ضيقاً، ولا يزيد عرضه على قطعة قماش إضافة إلى ذلك كان أحد جانبيه مغموراً بالماء والآخر مغطى بالشعير. عندئذ قال " جحوتى - نخت " لخدمه : " انصرف واحضر لى من المنزل قطعة من نسيج الكتان " فجاءوا بها له على الفور وفرشها على الطريق بحيث تصل حاشيتها إلى الماء وأهلبها إلى الشعير.

على أن الفلاح كان قادماً على الطريق الذي يخص الجميع. عندئذ قال له " جحوتى - نخت " : توقف ^(٩) أيها الفلاح ! هل ستدوس على ثيابى ؟ قال الفلاح : " سوف افعل ما تريد، ولكن طريقى هو (الطريق) الصحيح وصعد إلى أعلى الجسر (الذي يحجز مياه الفيضان) عندئذ (قال) جحوتى - نخت : " هل سيصبح الآن شعيرى طريقاً لك أيها الفلاح ؟ " فيقول هذا الأخير : " طريقى هو (الطريق) الصحيح. ولكن حيث أن الجسر مرتفع والطريق مغطى بالشعير وأنت تشغل أيضاً

الطريق بملايسك ألا يمكنك أن تسمح لنا بالمرور على هذا الطريق ؟ " وبينما كان ينتهي من النطق بهذه الكلمات ملأ أحد الحمير فمه بحزمة من الشعير، عندئذ قال جحوتى - نخت " : انتبه أيها الفلاح سوف استولى على حمارك لأنه يأكل شعيرى، فيشارك من الآن في أعمال الحرث ^(١٠) لأنه يبدو قويا " . (وقال) الفلاح : "طريقى هو (الطريق) الصحيح . وبكل بساطة، أن (المياه) قد ضيقت أحد جانبيه وسقت حمارى على الجزء الذي تشعله (ثيابك) . فهل تستولى على حمارى لأنه ملأ فمه بحزمة شعير ! ولكننى اعرف سيد هذه الأملاك فهي ملك رئيس الحجاب " رنسى " بن " ميرو " فهو الذي (ذاعت شهرته) بأنه يعاقب كل لص في هذه البلاد! فهل يتفق أن أسرق فوق أرضه ؟ " حيثئذ قال " جحوتى - نخت " أليست هذه حكمة (من الحكم) الجارية على ألسنة الناس ؟ : " يمكن النطق باسم الرجل الفقير في حضرة سيده " ولكننى أنا الذي أتحدث إليك في هذا المقام، وأنت تذكر رئيس الحجاب " . وتناول غصنا من شجرة إثل نضرة وضربه به على جميع (أجزاء) جسده وسلب حميره التي ادخلها القوم إلى أملاكه .

عندئذ بكى الفلاح بكاء حارا، نظرا لما تعرض له من معاناة . وقال " جحوتى - نخت " : " لاتصيح هكذا، أيها الفلاح، لأنك قريب من مقر " سيد الصمت " ^(١١) . (قال) الفلاح : " واعجبا، أتضربني، وتسرق ممتلكاتى وتريد أيضا أن تخرس الشكوى في فمى أيا " سيد الصمت " رد لى ما امتلكه حتى أتوقف عن الصراخ، فاسبب لك الفزع ! " .

طوال عشرة أيام، ظل الفلاح هنا يتوسل إلى " جحوتى - نخت ". ولكن هذا لم يعر
توسلاته مجرد إذن.

عندئذ هبط الفلاح إلى الجنوب حتى (وصل) " هيراقليوبوليس " ليلتقى برئيس
الحجاب " رنسى " بن " ميرو " فصادفه وهو يغادر باب منزله ويتأهب للنزول إلى
سفينة^(١٢) الرسمية فقال الفلاح : " واه ! ليتنى أسعد قلبك بشأن هذه المشكلة (التي
حدثت لى). أنها لفرصة، لتأمر بان يحضر إلى رجلك الموثوق فيه ^(١٣) وسوف أبعثه
إليك فيما بعد، (مزودا بمعلومات) عن قضيتى. وسمح رئيس الديوان " رنسى " بن "
ميرو " أن يحضر رجله الموثوق فيه لدى " خو - أن - انبو " فصرف هذا الأخير في
أعقاب خطاب كامل وشامل.

وأستفسر رئيس الحجاب " رنسى " بن " ميرو " عن " جحوتى - نخت " عند
الأعيان الذين في معيته. " فقالوا له : يا سيدى، لاشك انه واحد من هؤلاء الفلاحين
الذي ذهب (ليسلم بضاعته) إلى آخر، من جيرانه. لاحظ فهذا ما يفعلونه ضد
فلاحهم من مرتكبى هذه الجريمة. ^(١٤) أهى واقعة جديدة بان تقضى إلى عقاب "
جحوتى - نخت " هذا، بسبب القليل من النظرون والقليل من الملح ؟ فليؤمر بكل
بساطة بان يقدم تعويضاً وسوف يمثل ^(١٥) " والتزم رئيس الحجاب " رنسى " بن "
ميرو " الصمت، ولم يرد على أعيانه وعلى الفلاح، على حد سواء.

الشكاوى التسع

عندئذ تقدم الفلاح ليستعطف رئيس الحجاب " رنسى " بن " ميرو " وقال : " أيا
رئيس الحجاب، ياسيدى يا أعظم المظماء يا مرشد ما هو غير موجود وما هو

موجود. إذا نزلت إلى بحيرة العدالة : من المؤكد أنك ستبحر فيها مر ربح مواتية. ولن يقتلع شراعك، ولن تتقدم سفينتك ببطء، ولن يصيب ساريتك ضرر، ولن تنكسر عوارض السوارى ... ولن تجرقك المياه، ولن تعاني من مشاق النهر، ولن تشاهد وجوها مرعوبة^(١٦) بيد أن الأسماك ستجده إليك وقد فزعت بسرعة، وسوف تصطاد الطيور السمينة، لأنك أب لليتيم، وزوج للأرملة، وأخ للمطلقة، ومتر لمفقد أمه. ليتك تسمح لي، أن أجعل لك في هذه البلاد شهرة تفوق تلك التي يعرفها كل قانون مفيد، أيها المرشد الخالي من كل حسد، الرجل العظيم المجرد من الشراسة الذي يقضي على الكذب ويوقف الحقيقة. تعال على صوت من يتحدث إليك، وأجهز على نعم أنى أتكلم لكى تسمع. أقم العدالة، أيها الرجل الممدوح الذي يمتدحه الذين يمدحون، اطرده ضيقى. لاحظ، إنني أرزح تحت وطأة حزنى لقد وهنت بسببه. أعزني انتباهك، فإنني، كما ترى، أعاني الفاقة".

ألقي الفلاح خطابه هذا فى زمن جلالة ملك الوجهين القبلى والبحرى "نب - كاو - رع"^(١٧) صادق - القول ومثل رئيس الحجاب "رنسى" بن "ميرو" بين يدي جلالاته وقال "أيا سيدى لقد التقيت بأحد هؤلاء الفلاحين، وهو يتحدث فى حقيقة الأمر بطلاوة، وقد سلبت ممتلكاته من جانب رجل يعمل فى خدمتى"^(١٨) وجاء ليتقدم بشكواه بشأن هذه القضية "وقال جلالاته : "كما أنك لا تنفك تمنى أن ترانى مزدهرا (كذلك) استبقه هنا دون أن ترد على ما يقوله"^(١٩) فالزم الصمت حتى يستمر فى حديثه، وبحيث يكون فى الإمكان إبلاغنا^(٢٠) نحن بخطاباته كتابة فنستمع إليها، ومع ذلك أمن سبل العيش لزوجته وأولاده، ولهذا الفلاح شخصياً، لأنه عندما يشد أحد هؤلاء الفلاحين الرحال، فما ذلك إلا لأن منزله خاو حتى الأرض.

وسوف تعمل على أن يقدم له الطعام، دون أن يعرف أنك أنت الذي تقدمه له. ومن ثم كان يسلم يومياً لـ "خو - أن - انبو" عشرة أرغفة وإبريقان من الجعة. فكان رئيس الحجاب "رنسي" بن "ميرو" يعطيها إلى أحد أصدقائه، وهذا الأخير يسلمها لـ "خو - أن - انبو". ثم أوفد (رسولاً) إلى حاكم "واحة الملح" ليمنع حصصاً غذائية لزوجات الفلاح أي : ثلاثة مكابيل شعير يومياً.

* عندئذ جاء الفلاح يستعطف رئيس الحجاب للمرة الثانية وقال "أيا رئيس الحجاب، يا سيدى يا أعظم العظماء، يا أغنى الأغنياء، الذي هو أعظم من العظماء المحيطين به،^(٢١) الذي هو أغنى الأغنياء المحيطين به، يا سكان (سفينة) السماء يا وتد الأرض أيها المطمار، أيها الثقل أيها السكان لا تغير اتجاهك، أيها الوتد لا تميل، أيها المطمار لا تمنح إلى عدم الدقة وهل يستطيع سيد عظيم أن يستولى على كل شيء لا يملكه، أو أن يسطر على شخص وحيد؟ ولكن الممتلكات التي تخصك موجودة في دارك، إبريق جعة وثلاثة أرغفة، انظر يمكنك أن تحصل عليها بسهولة ليشبع من هم تحت وصايتك. وسوف يموت مخلوق في نفس الوقت الذي يموت فيه من يتبعونه، فهل ستكون مخلد إذن؟

أليس من الأمور السيئة أن يميل الميزان، وإن تنحرف وزنة الرصاص، وإن يصبح الرجل الدقيق العادل شخصاً مشوشاً؟ انظر، أن الحقيقة والعدالة قد طردتا (؟) من مكانها في ظلك. والشخصيات البارزة ترتكب الإثم، واستقامة القول طرحت جانباً، والقضاة يسرقون، ومن كان عليه أن يمسك من يخادع، يرتكب المخالفات التي من واجبه الوقوف ضدها. من كان عليه أن يمنح النعمة هو ذاته

محروم منها. ومن كان عليه أن ينعش يجعل القوم يلهثون. ومن كان عليه أن يقسم قسمة (عادلة) هو لص، ومن كان عليه أن يطرد الحاجة، هو الذي يتسبب في وجودها والمدينة (محاصرة) بأمواجها. ومن كان عليه أن يطرد الأفعال السيئة هو الذي يرتكب الشر."

عندئذ قال رئيس الحجاب "رنسى" بن "ميرو": "هل ما يجثم على قلبك هو بالنسبة لك أهم من (المجازفة) بأن يمسك بك أحد خدامي؟".

وأردف الفلاح: "إن من يكيل أكوام الحبوب يغش لصاحبه. ومن يملأ (مخزن غلال) الغير لا يكيل بالقسطاس أملاك هذا الأخير. من كان عليه أن يشرف على (تطبيق) القوانين يأمر بالسرقة. من إذن سيعاقب الأعمال الشائنة أن كان الذي عليه أن يدرأ الظلم يرتكب هو ذاته المخالفات؟ فأحدهم وهو عادل، عليه أن ينحني على الدوام، والآخر يبارك الشر.

ما عساك (تقول) بشأنك؟ العقاب لا يدوم سوى لحظة، ولكن الشر يدوم طويلاً، فما يكون عليه (الرجل) من حال، يعود (دائماً) إلى ما كان عليه بالأمس^(٢٢). إليك هذه الحكمة: اعمل حيل من عليه أن يعمل، بحيث يعمل (عملاً طيباً). إنه (مثلاً) التضرع إلى الإله لصاحبه بسبب ما يفعل، وهو أيضاً (معرفة) تفادي ضربة قبل أن تنطلق، وكذلك إصدار أمر إلى من عليه أن يؤمن تنفيذه^(٢٣). وآه! (فلتحل) لحظة خراب، تقلب كرمتك، وتنقص من (إعداد) طيورك، وتقلل من صيد الماء. لان الإنسان الذي كان يبصر صار كفيفاً، والذي كان يسمع صار الآن أصماً، والمرشد بات الآن هو الذي يضللنا. .. انك رجل

قوى وشديد البأس، ساعدك متفوق ولكن قلبك طماع. وتمر الرحمة من فوقك. وكم يستحق الرثاء ذلك الشخص المسكين الذي تدمره ! انك أشبه بمبعوث الإله - التمساح، بل انك تتفوق على "سيدة الطاعون" ^(٢٤) إذا كان لا يوجد شيء من أجلك، فلا يوجد أيضا شيء من أجلها. إذا لم يكن هناك شيء (ضد)ها، فلن يكون هناك أيضا شيء ضدك، وعندما لا تفعل شيئا فهي لا تفعله.

من عنده ممتلكات، عليه أن يكون حليماً. السرقة أمر طبيعي بالنسبة لمن لا يملك شيئا و(أيضاً) سلب الممتلكات بالنسبة لسجين. وهو أمر يستوجب العقاب لمن لا ينقصه شيء ولكن لا ينبغي أن نأخذ الفقير على ذلك، فهو يبحث (فحسب) عما يسد به رمقه. انك تستطيع أن تشبع بخبزك وتستطيع أن تشمل يجمعك، فأنت ثرى. ..

ولكن عندما يولى المتحكم في الدقة وجهه شطر المقدمة، تسير السفينة على غير هدى كما يحلو لها. وعندما يتواجد الملك في جناحه الخاص ويكون السكان في يدك يستتر الشر في محيطك. الشكوى يطول بها الزمن " وعزق " (الشر) أمر شاق.

ويتساءل الناس. ولكن من هو إذن الذي يوجد هناك ؟ ^(٢٥) كن إذن مأوى وليكن شاطئك سالماً، لان المدينة محاطة الآن بالتماسيح. وليكن لسانك صارماً، ولا تفضل فقد يكون جزء من جسد الإنسان ثعباناً له ^(٢٦) لا تنفوه بالكذب.

تجنب الأعيان وربما يتحول القضاة (أحياناً إلى مجرد) سلة فواكه. لان قول الكذب مراهمهم. ولذلك فهو (أى المرعى) خفيف على قلوبهم.

أنت العالم من أجل جميع البشر، هل تظل تتجاهل قضيتي ؟ أنت الذي يقضى على أى نقص في الماء، انتبه، إنى أقف اسفل الطريق، شاكيا. أنت الذي يسمح لجميع من يغرقون أن ينزلوا إلى الشاطئ، أنت يا منقذ الطريق، أغثني (?) قدر إمكانك (٢٧)

* وجاء الفلاح أيضا ليتوسل إلى رئيس الحجاب للمرة الثالثة قائلا : "أيا رئيس الحجاب ياسيدى، أنت "رع" "سيد السماء" في صحبة المحيطين بك (٢٨) أنت قوت البشر أجمعين، أنت المياه الهاردة، أنت إله النيل الذي يعيد الاخضرار إلى المروج ويخصب الحقول المحروث، (٢٩)

عاقب اللص، ساعد الرجل المسكين، لا تصبح الموجة (التي تقف) في وجه من يتوسل. أخطر حقيقة أن الأبدية تقترب. ولتكن أمنيتك أن تحيا طويلاً عملاً بهذه الحكمة : "إقامة العدالة هي نسمة فتحة الأنف". عاقب من يستحق العقاب، فلن يستطيع أحد أن يتفوق على استقامتك. هل يخدعنا ميزان اليد ؟ وهل يميل الميزان إلى جنب ؟ و"تحوت" أهو لين الجانب ؟ (وإذا كان الأمر على هذا النحو) عندئذ ستمكن من اقتراف الشر وتستقر كرفيق "لهؤلاء الثلاثة". فلو كان هؤلاء الآخرون مجاملين في نظرك، فلتكن أنت أيضا كذلك. لا تقابل الخير بالشر، لا تضع شيئا مكان شيء آخر. ولكن خطايبى ينمو أكثر من نبات "سميت" (٣٠) [مقطع غامض جدا]

وإذا أدركت السكان حسب الشراع، عندئذ ستسحبك الأمواه صوب تحقيق العدالة. ولكن تجنب القيام بعبور معاكس لك، بسبب جبل السكان. أن توازن

البلاذ قائم على تحقيق العدالة، لا تتفوه بالكذب لأنك شخص له شأنه. لا تكن خفيفاً، لأنك إنسان ثقيل (في مسلكه). كلا، لا تتفوه بالكذب، لان عليك أن تكون ميزانا. ولا تكن مشوشاً، لان عليك أن تلتزم بالاستقامة.

انتبه، ليس عليك في الحقيقة أن تكون سوى شئ واحد أنت والميزان. إذا مال، ستميل أنت. لا تنحرف على غير هدى عندما تدير السكان. فاجذب الحبل. لا تأخذ شيئاً عندما تعمل ضد الذي أخذ. ليس عظيماً بالطبع هذا العظيم صاحب القلب الشره. على لسانك أن يكون ثقالة (الميزان)، وقلبك هو وزنته، وشفتك هما ذراعاه. إذا أشحت بوجهك عن الرجل العنيف، فمن إذن سيعاقب الشر؟ انظر، أنت أشبه بالبائس، بعسال ذى قلب جشع، الذي يضر صديقاً ويتخلى عن القريب من أجل زبون، لان شقيقه هو الذي "يشى" له.

انظر، أنت أشبه بالمعدي الذي يسمح فقط بعبور من معه الأجر - أنت عادل (تمزق مفهومه من) العدالة، أرباً أرباً.

انظر، أنت أشبه بمدير متجر^(٣١) لا يسمح للمعوز أن يمر بسهولة^(٣٢).

انظر، أنت صقر للشعب، (صقر) يحيا على أضعف الطيور.

انظر، أنت طاه، (يجد) سعادته في ذبح (الحيوانات)، دون أن يحاسب على التمثيل بها.

انظر، أنت أشبه بالراعى.. أنت لم تحص (قطيعك) وسوف تتكبد (بعض) الخسائر بسبب التمساح الشره، حيث أن (شتى) الملاذات قد اختفت من (كل) مدينة في جميع أرجاء البلاد.

أيها السامع، أنت لا تسمع. لماذا إذن لا تسمع؟ لقد وقفت اليوم ضد رجل عدواني، ولكن (هذا) التمساح قد انسحب^(٣٣) وأى نجاح يعود عليك من ذلك؟ اجل سوف تكتشف سر الحقيقة، وإذا أجهزنا على الكذب، فلسوف نعرض عنه. لاتسعى في تدبير شئون الغد قبل أن يأتى، إذ لا تعرف مابه من شر".

كان الفلاح يلقي هذا الخطاب على رئيس الحجاب "رنسى" بن "ميرو" عند مدخل قاعة الاجتماعات. فأمر هذا الأخير اثنين من الحراس بالنهوض حاملين سوطين وأوسعاه ضربا على كل جسده. وقال "خو- أن - انبو" : " ما فتى بن "ميرو" في ضلال. (لازال) وجهه يتعمى عما يرى، وأصم لما يسمع، (بل) نساها لما نذكره به.

انظر، انك أشبه بمدينة بلا حاكم، أشبه بفرقة بلا قائد، أشبه بسفينة بلا ربان، أشبه بجماعة من الناس بلا مرشد.

انظر، انك أشبه بشرطي يسرق، بحاكم يسلب، بمدير منطقة إدارية عليه أن يعاقب أعمال السلب، وسار نموذجاً لمن يعمل (الشر) ". .

* وجاء الفلاح أيضاً ليتوسل إلى رئيس الحجاب للمرة الرابعة.

والتقى به في هذه المرة بينما كان يهيم بالخروج من باب معبد "حريشف" (٣٤) وقال: "أيها الرجل الطيب الذكر، ليت "حريشف" يثنى عليك أيضاً، بينما أنت قادم من معبده ! الخير مغبون الآن ولا يستطيع أحد أن يدعى انه قد طرح الكذب أرضاً على ظهره.

وكيف سنستطيع العبور إذا كانت المعديّة قد عادت ؟ بيد أن العبور لا بد وان يتم ولو على مضض. وهل يكون عبور النهر وراء نعاله، عبوراً سعيداً ؟ لا من ذا ينال الآن حتى مطلع النهار ؟ (بل انه) لم يعد من الممكن أن يسير المرء ليلاً، أو يتجول أثناء النهار أو يسمح للمرء بأن ينهض (مدافعاً) عن قضية عادلة، باحق.

انظر، إن الافصاح لك عن كل هذا يظل بلا جدوى وتمر الرحمة من فوقك. وما أكثر الرثاء الذي يستحقه الرجل المسكين الذي حطمته !

انظر، انك أشبه بالصياد الذي يلهو ويهتم على الدوام بأن يفعل ما يحبه : ضعن أفراس النهر بالخطاف، تسديد السهام إلى الثيران الوحشية، وإصابة الأسماك واصطياد العصافير بالشباك.

لا يوجد إنسان مندفع في كلامه يكون معصوماً من التهور، ولا يوجد إنسان خفيف القلب لا يكون أسلوب وجوده الجسدي ثقيلاً. فليكن قلبك رحيماً إذن، وتعلم كيف تعرف الحقيقة. امح. .. [فجوة] لا يوجد إنسان عنيف يمكنه أن يبلغ الكمال. ولا يوجد إنسان مندفع القلب تطلب مساعدته. ولكن عندما تبصر العينان، يسعد القلب. لا تكن فظاً بقدر ما تكون شديد البأس، حتى لا تصيبك التعاسة شخصياً ذات يوم. تغاضى عن مشكلة، وسوف تصبح اثنتين. (٣٥) أن

الذي يأكل هو الذي يتذوق، والذي يوجه إليه الكلام هو الذي يجيب، والنائم هو الذي يرى في منامه الأحلام. أما القاضى الذي يستحق العقاب، فهو مثال للذى يتصرف (تصرفا شريرا).

انظر، أيها الأرعن، فقد أصبت. انتبه أيها الجاهل فقد استجوبت. أنت، يا من يفرغ الماء، انتبه، فقد نجحوا في الوصول على مقربة منك^(٣٦). أيها النوتى لا تترك سفينتك تنحرف مع التيار أيا موزع الحياة، لا تسمح بان نموت. أيا مخرب، لا تتصرف بحيث يحل بنا الخراب. أيها الظل، لا تتصرف كالشمس. أيها المأوى لا تسمح للتمساح أن يقبض (على فريسته).

تلك هي المرة الرابعة التي أتوسل إليك. فهل أقضي أيامي في ذلك ؟

* وجاء الفلاح مرة أخرى ليتوسل إلى رئيس الحجاب للمرة الخامسة قائلا: "أيها رئيس الحجاب، ياسيدى الصياد" خودو". ... [فجوة] الصياد. .. "يو" يجهز على السمكة "إى" والصياد حامل الحربة الثلاثية يطعن الأسماك "عاويب" في لمح البصر"، والصياد "جانبجو" [يعمل] ضد الأسماك "أكر". أما صياد الشباك فإنه يعكر النهر.

انظر، انك تفعل نفس الشيء.

لا تجرد فقيرا من (القليل) الذي يملكه، لا تجرده بأكثر مما جردت إنسانا ضعيفا أنت تعرفه.^(٣٧) لان ممتلكات البائس هي نسمة (الحياة) بالنسبة له، ومن يسلبها منه كمن سد انفه.

لقد وظفت لكى تستمتع إلى الخطابات، والفصل بين شخصين، ولإبعاد قاطع الطريق، ولكن انظر، أن ما تفعله هو تقديم العون للسارق. والناس قلبهم مفعم بك (=يثقون فيك)، في حين أنك أصبحت مجرماً. كما أنك وظفت لتكون سداً للبائس فإياك أن يغرق فأنت بالنسبة له في واقع الأمر سطح مائي شديد (التيار).

* وجاء الفلاح أيضاً ليتوسل إلى رئيس الحجاب، للمرة السادسة قائلاً "أيا رئيس الحجاب، ياسيدى.. [مقطع غامض] استدع إلى الوجود الحقيقة والعدالة، اعمل على ظهور الخير، اقض على الشر مثلما يحل الشيع عندما يزول الجوع، أو تضع الثياب حداً للعرى، مثلما تهدأ السماء بعد عاصفة هوجاء، وتمنع الدفء إلى جميع من كانوا يشعرون بالبرد، ومثل اللهب أيضاً الذي ينضج النبات الطازج، ومثل الماء أيضاً الذي يروى العطش.

انظر بعينيك ذاتها : من كان من المنتظر أن يتولى القسمة (بالعدل) هو لص ومن كان من المنتظر أن يمنع السلام هو الذي يثير الاضطراب. ومن كان من المنتظر أن يخفف (من المشاكل) هو الذي يجلب الألم. أجل، أن الغشاش ينتقض من قدر العدالة. املاً بالقسطاس المستقيم، بحيث لا تكون الحقيقة والعدالة غير كافيتين، ولكن بحيث لا تطفحان أيضاً، وإذا أعطيت فأعط الغير. لان الفكين يفتقران إلى الإحساس بالعدالة^(٣٨). أجل، قد يقود حزنى إلى الفراق،^(٣٩) فربان السفينة (أيضاً) يصدر إليه (الأمر) بالإبحار. يستحيل معرفة مافي القلب. لاتكن إذن بطيئاً إلى هذا الحد، تصرف إذن بشأن ما سرده لك. وإذا قطعت فمن الذي يوصل؟ العود الاعمق بين يديك أشبه بعضى طويل يفتح الطريق، عندما يحتاج الأمر إلى

(سير غور) الماء. وإذا حاولت السفينة دخول الميناء بينما يجرفها التيار، فسوف تضيع حمولتها على البلاد، فوق الشيطان^(٤٠).

أنت متعلم، أنت ماهر، أنت كفء، وأنت غير شره بالطبع. ومع ذلك، فإنك تتصرف على الدوام، على غرار جميع الناس، وشئونك مضطربة. أن (الأكثر) مخادعة في البلاد بأسرها (يبدو) مستقيماً. وبستاني التعاسة يروى روضته أفعالاً رديه، محولاً إياها إلى روضة أكاذيب ليروى شرور رعاياه.

وجاء الفلاح أيضاً ليتوسل إلى رئيس الحجاب للمرة السابعة قائلاً: "أيا رئيس الحجاب، ياسيدى، أنت دفعة البلاد بأسرها، فتبحر البلاد حسب ما تأمر به. انك رفيق "تحوت" الذي يصدر أحكامه دون أن يميل إلى أحد الجانبين. أيا سيدى كن رؤوفاً عندما يناشدك أحد الرجال أن تقف إلى جانب قضيته العادلة. ليت قلبك لا يقف موقفاً عدائياً، فالأمر لا يليق بك. الإنسان صاحب الوجه العريض هو أيضاً إنسان ضيق القلب (= ذلك الذي يتطلع إلى ما وراء الحاضر يصبح قلقاً). لا تشغل بالك بما لم يحدث بعد. ولا تفرح بالمثل بما لم يحدث بعد. الرأفة تسعدنا كالصداقة، ولا تأخذ الماضى بعين الاعتبار، ولكن لا يعرف المرء بما في القلب. من يكسر القانون ومن يخل بالقاعدة، لا يوجد معوز قام هو بسرقة وأمكنه أن يظل على قيد الحياة. والعدالة على ما يظن لن تتمكن من محاسبته!

كان جسدى ملاناً وكان قلبى ثقيلاً، فخرج ذلك من جسدى بسبب ما كنت عليه من أحوال. كان الأمر (أشبه) بشجرة في سد تسربت منها المياه، فانفتح فمى

لأتكلم، عندئذ، حركت العود الاعقف، أفرغت مائي وصرفت كل ما كان في جسدي، وغسلت ثيابي القذرة.

لقد توقفت الآن عن الكلام، لان بؤسي بأكمله، أمام وجهك. ماذا تحتاج أكثر من ذلك ؟ إن همولك يضللك، وطموحك يفقدك الارشد، وشراهتك تخلق لك الأعداء.

ولكن هل في إمكانك أن تجد فلاحا يكون مساويا لي ؟ وهل وجد (آخر غيري) (جاء) إليك متوسلا بعد أن ترك عمله ^(٤١) ليقف عند باب منزلك ؟ (لا)، لا يوجد إنسان صامت دفعته إلى الكلام، لا يوجد إنسان نائم ايقظته أنت، ولا إنسان اخرق جعلته فطنا، لا يوجد إنسان اخرس فتحت فمه، ولا جاهل سمحت له ان يصبح عالما، ولا أحمق علمته. .. ومع ذلك فالاعيان عليهم طرد الشر واستحواذ الخير، وعليهم ان يكونوا فنانيين يبعثون إلى الوجود كل ماهو كائن، ويربطون الرؤوس المقطوعة ^(٤٢)

* عندئذ جاء هذا الفلاح جاء هذا الفلاح ليتوسل إلى رئيس الحجاب للمرة الثامنة قائلا : "أيا رئيس الحجاب، يا سيدي، يمكن للمرء أن يسقط بعيدا بسبب الشراشه، لان الإنسان الطماع يفتقر إلى أفعال (سعيدة)، فالفشل هو فعله الوحيد، بيد أن قلبك طماع وهذا لا يليق بك. انك تسرق، وهذا لا يفيدك في شيء، أنت الذي من واجبك (على العكس) أن تسمح للرجل أن ينهض للدفاع عن قضيته العادلة والمشروعة. إن ما تحتاج إليه موجود في منزلك، وبطنك ممتلئة، ومكيال الخبوب يفيض، وإذا اهتز (?) يتم جمع ما تبعثر منه على الأرض.

الأعيان سلابون ولصوص ونهابون، وهم الذين أنيط بهم (في الحقيقة) درأ الشر، الأعيان ملاذ الرجال العدوانى وهم الذين أنيط بهم درأ الكذب. والخوف الذي تبعته في النفس كان قميتاً بالأى يسمح لى بأن أتوسل إليك (على هذا النحو)، ولكنك لا تعرف قلبي، الصامت عادة، ولكنه الآن يتجه (إليك) ليقدم إليك شكواه. انه لا يخشى ذلك الذي في إمكانه أن يؤول الأمر تأويلاً خاطئاً، ومن المؤكد انه يستحيل إحضار أخيه إليك^(٤٣)

لك أراض في الريف، وعندك المخصصات (العقارية) في الأملاك الملكية^(٤٤) وطعامك في المتجر، والأعيان يعطونك، ومع ذلك فإنك تأخذ المزيد ! ترى أ تكون لصاً ؟ ويقدم الناس لك المزيد، عندما تكون وسط جنودك عند تقسيم الأراضي.

أقم العدل إذن من أجل سيد العدالة الذي يقيم عدالته الخاصة. انك أنت القلم، وقرطاس البردي ولوحة (الكتابة)، أنت "تحت" فتجنب اقتراف الشر. الخير طيب عندما يكون سعيداً، العدالة تدوم إلى الأبد. إنها تهبط آلى الجبانة مع من يقيمها.

عندما يدفن، تتحد الأرض معه، ولكن لن يمحي اسمه من على وجه الأرض، سوف تدوم ذكراه بسبب (ما قدمه) من خير : تلك هي القاعدة الخاصة بكلام الإله. وإذا كان هذا ميزان يد فلن يميل. وإذا كان ميزانا بركيزة فإنه لن يميل إلى أحد الجوانب.

وسواء جئت أنا أو غيري، انقله بالرد، باستجواب ذلك الذي يلتزم الصمت، بالاقتراب من ذلك الذي لا (يجرؤ) على الاقتراب. أنت لست رعوفاً، ولكنك لا

(تبدو) متضايقاً. أنت لا تدمر، ولكنك لا تقدم لي أي عوض على هذا الخطاب الجميل الذي (يبدو) خارجاً من فم "رع" ذاته، انطق العدالة، أقم العدالة، لأنها هامة، لأنها عظيمة، لأنها تدوم، وعندما يتعرف المرء على هيئتها فإنها تسمح بالانتقال إلى وضع "إمماخو".

إذا مال ميزان اليد نظراً لأن الكفتين محملتين بالأشياء فلن تكون هناك نتيجة سليمة. (كذلك) لا تستطيع فعلة خسيصة أن تقود إلى الميناء، في حين يصل الإنسان الحكيم إلى اليابسة".

* ثم جاء هذا الفلاح أيضاً ليتوصل إلى رئيس الحجاب للمرة التاسعة قائلاً : "أيا رئيس الحجاب، يا سيدي، أن ميزان الرجل هو لسانه، والميزان هو الذي يسعى وراء ما تأخر من جزاء (=الذي ما زال مستحقاً). فلتوقع الجزاء على من يستحقه، ولن يكون أحد أكثر منك مماثلاً للاستقامة. [..فجوة].. وإذا شد الكذب الرحال، فسيضل الطريق، ولن يعبر على متن المعديّة. ..أما من يثرى بفضله، فلن يرق بنوناً، ولا ورثة على الأرض. ومن يبحر معه لن يصل إلى اليابسة، ألن ترسو سفينة في مينائه.

لا تكون ثقيلاً، فأنت لست خفيفاً. ولا تكون بطيئاً، فأنت سريعاً. لا تسلكن سلوكاً منحازاً، لا تستمتع إلى قلبك. لا تخف وجهك، ممن يعرفك، لا تشع بوجهك عنم وقع نظرك عليه. لا ترد من يتوصل إليك. اعدل عن هذا التباطؤ في

إصدار حكمك، اعمل لصالح من يعمل لصالحك. لا تستمع إلى جميع الناس عندما يستغيث رجل (دفاعاً) عن قضية العدالة.

لا وجود للبارحة بالنسبة لإنسان لا عمل له ولا صديق للإنسان الذي يصمم اذنيه عن العدالة، ولا أيام سعيدة هناك للإنسان الشره. من يندد (يعمل سيئاً) يصبح بائساً، وبائس من فرض عليه التوسل. عندئذ يصبح العدو قاتلاً.

انظر، إنني أتوسل إليك وأنت لا تستمع إلي. وسوف انصرف إذن لرفع التماس إلى آله "ابو" (انوبيس) ^(٤٥)

عندئذ أرسل رئيس الحجاب "رنسي" بن "ميرو" اثنين من الحرس ليطلبوا منه أن يعود. وخاف الفلاح. إذ ظن أن ذلك يعني معاقبته بسبب ما ألقاه من خطب. وقال "إن يقترب رجل ظمآن من الماء. أن يمد الرضيع فمه، هو (أشبه) برؤية الموت، لمن يرغب أن يراه انه لم يأت بعد، بكل تأكيد، ولكن سيأتي أن عاجلاً أو آجلاً..

عندئذ قال رئيس الحجاب "رنسي" بن "ميرو" لا تخف أيها الفلاح، انظر، إذا كنت قد عوملت على هذا النحو، فإنما كان ذلك من أجل أن تبقى معي، (فأردف) الفلاح "هل سأظل إذن أعيش على أكل خبزك وشرب [جعتك] إلى الأمد اللانهائي وإلى الأبد؟" وقال رئيس الحجاب "رنسي" بن "ميرو" هيا، انتظر هنا، حتى تتمكن من الاستماع إلى عرائضك". وأمر بان [يعاد قراءتها] على لفافة من البردي الجديد، كل عريضة على حدة [حسب مضمونها] ثم قام رئيس الحجاب "رنسي" بن "ميرو" بإرسال هذه اللقافة إلى جلالة ملك الوجهين القبلي

والبحري " نب - كاو - رع " صادق - القول . وكان ذلك شيئا محببا إلى قلب جلالته، اكثر من أي شيء آخر في هذه البلاد بأسرها وقال إذن جلالته : " احكم بنفسك، يا ابن "ميرو" !.

عندئذ أمر [رئيس الحجاب] "رنسي" بن "ميرو" اثنين من الحرس أن يتوجها لإحضار ["جحوتى- نخت"] واحضروه إذن ثم جرى تجريدته وتجريد رجاله من أملاكهم [أي [ستة أفراد، خلافا [لمؤنة(?)] وشعيه في الوجه القبلي وقمحه وحمير[ه] [والماشية [وخنازيره وأغنام -[سه] وسلم "جحوتى-نخت" هذا، [كنخادم في خدمة] هذا الفلاح [إلى جانب] تسليم كل أملاك[ه] للفلاح.

وقال [رئيس الحجاب] إلى "جحوتى - نخت" [هذا]...

[الجميل الأخيرة حسب التصحيحات التي اقترحها جوستاف ليفيفر

G. Lefebvre]

[سابعاً]

مرثيات "إيبو-ور" (٤٦)

من المؤسف أن هذا النص شديد التشويه وبدايته ونهايته مفقودتان حالياً، كما تعاني بعض المقاطع من فجوات خطيرة.

انه يصف حالة الفوضى التي عمت مصر في أعقاب اضطرابات الثورة الاجتماعية التي شهدتها البلاد مع نهاية الدولة القديمة وإبان مرحلة الانتقال الأولى (حول ٢١٩٠-٢٠٧٠ ق.م) ويشدد المؤلف بإسهاب على انقلاب الأوضاع. إن بعض التكرار أو الإطناب لا يحول دون أن يأسرنا جمال بعض الصور الأخاذة.

ويشتمل هذا النص، على ما يبدو، على ستة أجزاء أو "أدوار" تعرفنا بها كلمة أولى تتكرر كإلزام في مستهل كل مقطع شعري أو كل مقطع أكثر طولاً. وننتقل من اليأس، الذي يسهب النص في التعبير عنه، إلى التحسر على التوازن المفقود للملكة المستقرة، ثم الأمل في مستقبل يكفل العودة إلى الحياة المعتادة والمحبوبة على شيطان النيل.

وعلينا أن نستوعب روح النص (إذ أن الشعب المصري بعادته شعب مولع بالنظام والاعتدال) أكثر من محاولة استخلاص درس تأريخي حربي فالنص رسالة "شعرية" برهفة الحس، حول موضوع الثورة الاجتماعية التي قلب الأوضاع وتدمر.

...[فجوة طويلة]... يقول البوابون: "إننا راحلون للنهب"... ولم يعد الحمال يفكر في حمل حملة... واصطف صيادو العصافير في وضع المعركة... ويحمل أهل الدلتا

التروس... وينظر المرء إلى أبنه على أنه عدوه... تعال واستول... الإنسان القوى
الشكيمة^(٤٧) يسير مغموما بسبب ماحل بالبلاد.. وفي كل مكان يختلط الأجانب
بشعب مصر بحيث يصعب التمييز بينهم.

الدور الأول

انظروا إذن، فالوجه شاحب... لقد وصلنا إلى ما تنبأ به الأجداد... لقد ابتليت
البلاد بعصابات اللصوص، وعلى المرء أن يذهب للحرث ومعه ترسه...
انظروا إذن فالوجه شاحب والقواس مجهز، فالجريمة في كل مكان. ورجل البارحة لا
وجود له.

انظروا إذن، فالسلاّب... في كل مكان والخادم محمل بما استولى عليه.
انظروا إذن فالنيل يضرب (ضفاه)، ومع ذلك فليس هناك من يحترث. وكل واحد
يقول "لا تدري ماذا حدث في أرجاء البلاد"

انظروا إذن، فالنساء عواقر ولا يحملن. و"خنوم" لم يعد يخلق، من جراء أحوال
البلاد^(٤٨)

انظروا إذن فالرجال المفلسون صاروا أصحاب ثروات. ومن كان يتعذر عليه أن يصنع
لنفسه زوج تعال يملك منها أكواما.

انظروا إذن، أن خدمهم^(٤٩) مهمومو القلب. وعظماء (الأمس) لم يعودوا يختلطون
برجالهم ليفرحوا.

انظروا إذن القلوب عنيفة، والشقاء يعم البلاد بأسرها، والدماء في كل مكان ولا ينحسر الموت. وتظن أشرطة المومياء أن المرء لم يعد يقترب منها^(٥٠)

انظروا إذن، فكثير من الموتى يلقي بهم في النهر. المياه هي القبر و "المكان الطاهر"^(٥١) موجود الآن في النهر.

انظروا إذن، الأغنياء يتتخبون، والمعوزون في فرح. وكل مدينة تقول : "دعونا نطرد الأقوياء من دارنا".

انظروا إذن، الشعب شبيه بأبي منجل^(٥٢) والنجاسات تعم البلاد بأسرها ولا يوجد في الوقت الراهن من يرتدى الملابس البيضاء.

انظروا إذن، فالبلاد تدور كما تدور عجلة الفخاري. واللص صاحب ثروات...

انظروا إذن، النهر صار نهراً من دم. وإن شرب منه أحد فسيصقه لأن هذا (الدم) دم بشري، والناس ظمأى للماء.

انظروا إذن، إن الأبواب والأساطين والقواطع مشتعلة. ولكن جدران القصر الملكي - "له الحياة-والصحة-والقوة" - (ما زالت) سليمة وثابتة.

انظروا إذن، إن سفينة الجنوب^(٥٣) تفرق، إن مدينة(?) الجنوب تسلب و[البلاد] باتت مقفرة.

انظروا إذن، التماسيح استولت على "الأسماك" من شباكها : فالرجال هم الذين يحضرون من تلقاء ذاتهم. .. لقد قالوا بالفعل : "لا تذهب هناك، تب، هناك فخ".

ولكنهم يهتزون كالأسماك. والإنسان المذعور لم يعد يميز شيئاً، من جراء ما يشعر به من خوف.

انظروا إذن، الرجال اقل عدداً ومن يضع أخاه في التراب (نلتقي به) في كل مكان.
...

انظروا إذن، لم يعد المرء يميز ابن الإنسان الطيب المنبت. .. لان ابن سيدة الدار هو الآن ابن الخادمة (٤٤)

انظروا إذن، الصحراء تعم البلاد، الأقاليم سلبت ونهبت، وآسيويو الخارج جاءوا إلى مصر (٥٥)

انظروا إذن، .. لم يعد أحد في كل مكان.

انظروا إذن، الذهب واللازورد، الفضة والفيروز، العقيق الأحمر والبرونز، وحجر النوبة تحيط بمجيد الخادومات، بينما تهيم السيدات الكريمات الأصل في طول البلاد وعرضها، وتقول من كانت (في الماضي) سيدة بيت: "واه ليتنا نحصل على بعض ما يسد الرمق!".

انظروا إذن، إن جسد هذه السيدات النيلات، يعاني من الأسماك التي يرتدينها، وقلوبهن مغمومة عندما يقوم المرء بتحيتهن...

انظروا إذن، لقد حطمت الصناديق الصغيرة المصنوعة من الأبنوس، ونقر خشب سوريا النفيس....

انظروا إذن، من كانوا يشيدون المنازل باتوا الآن يعملون في الحقول. من كانوا في قارب الإله، باتوا الآن يساقون للعمل على متنه.

لا ييحر أحد إلى بيلوس^(٤٦) هذه الأيام. كيف ستتصرف للحصول على خشب الأرز من أجل مومياواتنا؟ إن الكهنة يدفنون مع منتجاتهم فحسب، والأثرياء يدفنون مع زيت، ورد من أماكن قصية، مثل جزيرة كريت، ولكنهم لا يعودون أبدا^(٤٧) إننا نفتقر إلى الذهب، وأيضا إلى المواد (اللازمة) لمختلف الأعمال، وما كان يمتلكه القصر الملكي "له الحياة- والصحة- والقوة" قد تم نهبه. ومن ثم فانه لأمر هام عندما يحضر أهل الواحات محملين، بقرايينهم وحصرهم وجلودهم ونباتاتهم الطازجة وشرابهم (؟) وطيورهم. ..

انظروا إذن، إن الفنتين و"ثنى" و... في الوجه القبلي لم تعد تدفع الضرائب بسبب التمرد. إننا نفتقر إلى الفاكهة وفحم الخشب ومختلف أنواع الخشب : "ارتيو" و "ماعاو" و "نوت" و "شيتاو" فقد أحرقت أعمال الحرفيين (؟). ..

ما نفع خزانة بدون عوائد؟ (فيما مضى) كان قلب جلالتة سعيدا عندما كان (حملة) القرايين يتقدمون نحوه، وعندما تأتي البلدان الأجنبية : هذه كانت إمبراطوريتنا،^(٤٨) هذا كان رخاءنا. ماذا سنفعل في هذا الصدد؟ كل شيء تهدم.

انظروا إذن، لقد اختفت البسمة، فلا أحد يبتسم، إن الشكوى هي التي تعم البلاد مختلطة بالنحيب.

انظروا إذن، فمن كان لا يملك شيئاً، هو الآن الذي يمتلك. ومن يشكلون شعب مصر هم منذ الآن قوم آخرون، يد لهم الناس على الطريق.

انظروا إذن،.. لا يمكن التمييز بين ابن الرجل الطيب المولد من البائس..

انظروا إذن، الكبار والصغار يتمنون الموت، ويقول الصبية الصغار: "ما كان ينبغي لـ"أبي" أن يمنحني الحياة".

انظروا إذن، أبناء العظماء يدفعون دفعا إلى الجدران، في حين أن الرضع الذين لازالوا (متعلقين) برقبة (أمهم) (يعرضون) فوق مرتفع. ^(٤٩)

انظروا إذن، إن الذين كانوا في "المكان الطاهر" يوضعون فوق المرتفع ^(٥٠) لأن أسرار التحنيط قد ضاعت.

انظروا إذن، ما كنا لا نزال نراه بالأمس، قد هلك. والبلاد ضاعت (تحت وضأة) ضعفها، مثلما تكون عند اقتلاع الكتان. ^(٥١)

انظروا إذن، الدلتا بأسرها لم تعد متوارية، فقلب الوجه البحري يعج الآن بالدروب المطروقة، ^(٥٢) فما العمل؟... ويقال "اللجنة على "مكان الأسرار" ^(٥٣) انظر، انه الآن بين يدي الذي لا يعرفه مثله مثل ذلك الذي كان يعرف أن الأجانب هم منذ الآن الحرفيون الذين يقومون بأعمال الوجه البحري.

انظروا إذن، إن مواطني (الأمس) ينحنون الآن فوق حجر الرحي، والذين كانوا يرتدون أرق أنواع الكتان يضربون الآن ب.. ولكن الذين لم يروا النور أبدا يخرجون. وأولئك اللاتي كن على سرير أزواجهن، يردد الناس القول عنهن: "إنهن

يقضين الآن الليل على لوح خشبي" وإذا قالت (إحداهن) : " اللوح المحمل بالمر ثقیل جدا بالنسبة لي " عندئذ سوف یحمل بجرار مملوءة . (٦٤) واصبحن لا يتعاملن مع المحفات واختفي ساقی الخمرور . ولا علاج لكل ذلك . ومن الآن ستتألم سيدات (الزمن العابر) ذات الحسب والنسب كما كانت الخادومات يتألمن (فيما مضى) . والموسیقیات فی حجراتهن ، داخل بیوتهن وأغانی الحب هی عبارة عن مرثی (٦٥) والرواة (ینحون) على حجر الرحی .

انظروا إذن ، إن الخادومات صرن الآن سيدات بقدرة ألسنتهن (يتحدثن حسبما يحلو لهن) . (وفي الماضي) عندما كانت السيدة تتحدث ، كان الأمر قاسيا على الخدم .

انظروا إذن ، الأشجار أتلفت ، الأغصان تجردت ، والخدم يهجرون منازلهم . ويقول الناس عندما يبلغهم ذلك : " لم تعد هناك مكافآت طائلة للأطفال بل ولم يعد هناك طعام فبماذا إذن نشبه مذاق اليوم ؟

انظروا إذن ، العظماء جوعى ويتألمون ، ولكن الخدم أصبح لهم من یخدمهم . ..

انظروا إذن ، الرأس الساخن (٦٦) "لو .. كنت أعرف أين هو الإله لعملت من أجله . . .

انظروا إذن ، الناس یركضون ویتصارعون للتزود بالطعام . [الرجل الثرى] يسرق ويتم الاستيلاء على جميع ما یملك .

انظروا إذن ، فقلب الحيوانات یكى أيضا ، والقطعان غارقة فی النواحي بسبب أحوال البلاد .

انظروا إذن، أطفال العظماء يدفعون دفعا إلى الجدران، في حين أن الرضع الذين مازالوا (متعلقين) برقبة (أمهم) (يعرضون) فوق مرتفع، أن الإله "خنوم" بان من التعب... (٦٧)

انظروا إذن، فبعد أن تأكدت القدرة للجميع يضرب الإنسان شقيقه المولود من أمه فيقول الناس ماذا يحدث ؟

انظروا إذن، الدروب والطرق محروسة، ويجلس المرء في الأدغال حتى يصل أحد مسافري الليل فيستولي على أمتعته. ويجرده من كل ما معه، ويمتعه بضربات من عصاه ثم يقتله بإجرام.

انظروا إذن، ما كنا لا نزال نراه بالأمس قد هلك، والبلاد ضاعت (تحت وطأة) ضعفها مثلما هو الحال عند اقتلاع الكتان. ومواطنو (الأمس) يروحون ويؤوبون وهم "واها ! لو كان هذا هو نهاية البشرية، لما حملت النساء ولما انجبن قط، ولغرت الأرض في السكون، ولن تكن هناك بعد ذلك عواصف".

انظروا إذن [البشر يتغذون] على الأعشاب ويشربون الماء، فالقواكه والنباتات بل والطيور ذاتها، لم تعد موجودة. وينتزع المرء.. حتى من قم الخدير، دون أن يقول أحد (كما في الماضي): "ذلك يطيب لك أكثر مما يطيب لي" "سبب الجوع".

انظروا إذن، لقد تلفت الحبوب على جميع الدروب. إننا محرمون من الثياب والعطور والزيوت. وكل واحد يقول: "لم يعد يوجد شيء" الخناوت خاوا، وحارسه ممدد على الأرض وسط العشب: إن النباتات هي ما يرغبها المرء الآن وهي كثيرة. واها !

لو أن صوتي كان من الممكن أن ينطلق في تلك اللحظة، لأنقذني من الأسى الذي أعانيه !

انظروا إذن، إن قاعة المحفوظات الكبرى قد سلبت مدوناتها، إن مكان الأسرار قد جرد الآن (من محتويات).

انظروا إذن، إن الأدوار السحرية قد أميط اللثام عنها وشاعت وانتشرت. فبات مضمونها منذ الآن، غير فعال، لأن الشعب (ذاته) يحفظها في ذاكرته،

انظروا إذن، المكاتب الإدارية مفتوحة، واختفت منها السجلات، بحيث أن من كان قنأً يمكن أن يصبح سيد أقنان^(٦٨)

انظروا إذن، لقد قتل [الكتبة]، واختفت مدونتهم. كم أنا تعس من يؤس هذا الزمان! انظروا إذن، إن كتبة مكتب الحبوب قد انتزعت أيضا دفاترهم. إن حبوب مصر التي يعيش منها الناس في الوقت الراهن هي: "إنني احضر واخطف".

انظروا إذن، إن قوانين القاعة الخاصة قد طرحت خارجا،^(٦٩) بحيث يدوسها الناس في الشوارع ويمزقها المعوزون في الطرقات.

انظروا إذن، إن الإنسان البائس يقترب من مقام آلهة التاسوع، وأميط اللثام عن الإجراءات القانونية الشهرية "لمجلس الثلاثين".^(٧٠)

انظروا إذن، المجلس الخاص العظيم قد تم اجتياحه^(٧١) والمعوزون يروحون ويحيثون في "البيوت العظيمة".^(٧٢)

انظروا إذن، إن أبناء الأعيان قد ألقى بهم فى الطرقات. ومن هو على علم يقول :
نعم، ومن يجهل يقول : لا. ويبدو كل شئ جميلا فى عيني ذلك الذي لا يعرف^(٧٣)
انظروا إذن، إن الذين كانوا فى المكان الطاهر، يوضعون فوق المرتفع، لان أسرار
التحنيط قد ضاعت.

الدور الثاني

انظروا فى الحقيقة، سوف تتجه النار صوب المرتفعات ويتصاعد لهبها ضد أعداء
البلاد.

انظروا فى الحقيقة، لقد حدث شئ لم يكن قد حدث قط من قبل : لقد انحدر الناس
إلى أسفل سافلين حتى إن بعض الأشقياء اختطفوا الملك^(٧٤)

انظروا، ذلك الذي كان قد دفن بصفته "صقرا" إلهيا (=الملك) هو الآن فوق محفة،
والهرم بعدما كان يضمه أصبح من الآن خاويا.

انظروا، فى الحقيقة، لقد انحدر الناس إلى أسفل سافلين حتى أن السلاطنة حرمت من
الملكية على أيدي عدد محدد من الناس الذين فقدوا رشدهم.

انظروا، فى الحقيقة، لقد انحدرنا إلى أسفل ساملين حتى حدث تمرد ضد أخية -
الصل[ابنة(?) "رع" التي كانت قد أحلت السلام فى الأرضين.

انظروا، إن أسرار البلاد التي كان يجهل الناس حدودها^(٧٥) كشف عنها الحجاب الآن.
لقد دمر المقر الملكي فى ظرف ساعة واحدة.

انظروا، إن مصر قد انحدرت من الآن إلى أسفل سافلين حتى إنها "تصب الماء" (تقوم بأعمال الخدمة المنزلية) لأن من كان يرش الماء (في الماضي) على الأرض قد قاد الإنسان الشديد البأس إلى البؤس.

انظروا، إن الثعبان "قرحت" ^(٧٦) قد خرج من جحره وتم إفشاء أسرار ملوك الوجهين القبلي والبحري.

انظروا، لقد روع المقر الملكي من جراء المجاعة. ويمكن للمرء أن يذكر نار الصراعات دون أن يصدده أحد.

انظروا، إن عصابات اللصوص منتشرة في البلاد ^(٧٧) والرجل الخسيس يستولي على أملاك الرجل القوى.

انظروا، ذلك الذي لم يكن في مكانه أن يصنع لنفسه تابوتا، بات يمتلك الآن مقبرة. ^(٧٨)

انظروا، لقد أقصى السادة المقدسون في "المكان الطاهر" إلى مرتفع. بينما ذلك الذي كان لا يستطيع أن يصنع لنفسه تابوتا بات الآن "في بيت الخزانة". ^(٩)

انظروا، في الحقيقة، إلى هذه التغيرات التي طرأت على الشعب المصري : فمن لم يكن في استطاعته أن يشيد لنفسه مجرد حجرة، بات يمتلك الآن صناديق حلي.

انظروا، إن قضاة مصر يطاردون في جميع أنحاء البلاد، وقد طردوا من بيوت الملكية (بفتح الميم).

انظروا، إن السيدات الكريمات الأصل يرقدن على الألواح والأعيان (الحقوا) بالخوانيت. ولكن الذي لم يكن في مقدوره أن ينام ولو على صندوق، يمتلك الآن سريرا.

انظروا، الرجل الثرى فيما مضى يبيت الآن ظمأنا، أما ذلك الذي كان في الماضي يستجدي رواسب الأقداح، فقد أصبحت الجعة عنده، من الآن تفيض عن الحاجة.^(٧٩)

انظروا، من كانوا يملكون في الماضي ملابس كتانية، يرتدون من الآن ملابس رثة، ومن كان لا يستطيع أن ينسج لنفسه صار مالكا لأرق أنواع الكتان.

انظروا، من لم يكن قد صنع أبدا لنفسه سفينة، يملك من الآن سفنا مالكاها القديم ينظر إليها بعد أن لم تعد ملكه.

انظروا، من كلن لا يعرف الظل، لديه الآن الظل، ومن كانوا في الماضي يعرفون الظل قذف بهم وسط العاصفة.

انظروا، من كان لا يملك مجرد القيثارة، عنده منذ الآن الجناك، وذلك الذي لم يكن أحد يغنى له، أصبح الآن يسبح لإلهة الموسيقى.

انظروا، من كانوا يمتلكون موائد نحاسية للمسكوبات، لم تعد هناك الآن جرة واحدة بين جرارهم تحاط بمجذائل الزهور.^(٨٠)

انظروا، من كان ينام بدون امرأة وكان محروما منها^(٨١) [قد وجد] سيدات كريمات الأصل.

انظروا، من كان لا يمتلك شيئا هو الآن رجل موسر، والعظيم يقدم له التكريم.

انظروا، الرجل المعوز في البلاد صار ثريا. والثرى صار فقيرا.

انظروا،.. من كان رسولا، يوفد الآن شخصا غيره.

انظروا، من كان لا يجد خبزا، يملك مستودع حصاد ولكن مخزنه مليء بممتلكات الغير.

انظروا، الرجل الذي بلا شعر الذي كان يفتقر إلى الزيت، يمتلك الآن جرارا من المر الطيب.

انظروا، من لم يكن عنده مجرد علبة، في حوزته صندوق حلى. ومن كانت ترى وجهها في الماء تمتلك الآن مرآة من النحاس.

انظروا، في الحقيقة، يكون الإنسان سعيدا عندما يأكل طعامه. "هنيئا لك. إذن وأنت تأكل من مالك، فلن يثنيك أحد، إذ يطيب للإنسان إن يتناول الطعام الذي خصصه الإله لمن يشمله برعايته..." من كان يجهل الإله يقدم له الآن القرابين بينخور الغير.

انظروا، النساء العظيمات وسيدات (الزمن الماضي) الكريزمات الأصل، يضعن الآن أطفالهن فوق الأسرة. ^(٨٢)

[نص كله فجوات]

انظروا، من كانوا يمتلكون الأسرة هم على الأرض، ومن كان يرقد في القاذورات يعد لنفسه منذ الآن وسادة من جلد.

انظروا، السيدات النبيلات جياع، في حين أن الخدم متخمون بما يعد من أجلهم.

انظروا، من الآن لا يوجد منصب في مكانه، مثل القطيع الذي يضل في غياب راعيه.

انظروا، الماشية شاردة دون أن يكثرث بها أحد. يجلب منها كل رجل ويسمها باسمه بالحديد المحمى.

انظروا، إذا قتل رجل بجوار أخيه، يتركه هذا الأخير لينجو بجلده.

انظروا، من لم يكن يمتلك مجرد ثورين مقرونين صار في حوزته الآن قطبعا. من لم يكن في استطاعته أن يجد ثيرانا للحرث يمتلك الآن المواشي.

انظروا، من لم تكن عنده بذور، يمتلك مخازن غلال، من كان يجلب لنفسه قمحا يقرضه، يقوم هو الآن بتوزيعه.

انظروا، من لم يكن له مجرد جيران، صار الآن صاحب خدم. ولكن [نبيل البارحة] ينجز بنفسه مهامه.

انظروا، رجال البلاد ذوو السلطان لم يعد أحد يقدم لهم تقارير عن ظروف (حياة) الشعب، لان كل شئ خراب. ^(٨٣)

انظروا، لم يعد الحرفيون يعملون، لان الأعداء حزموا البلاد منهم. ^(٨٤)

[نص كله فجوات]

الموران الثالث والرابع

مهشمان تهشما بالغا. ويؤكدان أيضا على أعمال التدمير الناجمة عن الثورة الاجتماعية.

الدور الخامس - الذكريات والحسرات

تذكر الطيور السمينة، والأوز والبط والقرايين المخصصة للآلهة.

تذكر النظرون الذي كان يمضغه الناس^(٨٥) والخبز الأبيض الذي كان يعده الإنسان.

تذكر السواري التي كانت تقام، وموائد القرايين التي كانت تقطع، والكهنة "وعب" وهم يطهرون الهياكل، والمعبد الأبيض كاللبن، ورائحة عطر الأفق الزكية، ووفرة القرايين.

تذكر مراعاة القواعد، والتتابع الصائب للأيام. ..

الدور السادس... الحنين إلى الملكة الهادئة

أنه لأمر طيب بالتأكيد، أن نهبط على النهر.

أنه لأمر طيب بالتأكيد، عندما تكون الشباك ممدودة والعصافير ممسوكة....

أنه لأمر طيب بالتأكيد، عندما تكون الطرقات معدة للنزهة.

أنه لأمر طيب بالتأكيد، عندما تشيد أيادي الرجال الأهرامات وتحفر البحيرات وتعد بساتين الفواكه للآلهة.

أنه لأمر طيب بالتأكيد، عندما يكون الناس سكارى ويشربون بقلب بهيج.

أنه لأمر طيب بالتأكيد، عندما تملأ صيحات الفرح جميع الأفواه، بينما رؤساء الأقاليم يقفون هنا يشاهدون من منازلهم الأفراح العامة، وقد ارتدوا الكتان الرقيق (وامسكوا) أمامهم عصى القيادة، بقلب أبيّ.

انه لأمر طيب بالتأكيد، عندما تكون الاسرة مرتبة ويكون مخدع كبار القوم محميا على (يوضع) أحسن وجه، وعندما تكون حاجة كل إنسان مكفولة بكل بساطة بمحصر في الظل، والباب موصد على من يرقد في الأدغال. ^(٨٦)

[ثامناً]

أناشيد الياس^(٨٧)

بداية المخطوطة مفقودة. ويستهل النص بأحاديث مناجاة الإنسان الياس، فهو شارد وسط عزلته، محاط بعالم مضطرب، هجر الناس فيه القيم الأخلاقية وتنكروا لها. إنسان يود الهروب من الحياة، ويتردد أحياناً. ولكنه يتمالك نفسه، وهو إنسان يتحاور مع "با"ته،^(٨٨) الرفيق الوحيد الذي بقي له. ويود هذا الأخير أن يستبقه على الأرض، إلى أن يحل أجل الوفاة المضروب له. ويكتنف الحوار الغموض في بعض المقاطع، ولكن أناشيد الشلق الأربعة التي تعقبه هي على قدر كبير من الجمال في معظمها، فهي تعبر تعبيراً أخاذاً عن وحدة الإنسان في الكون.

حوار بين الإنسان و"با"ته

.... عندئذ فتحت فمي لأتحدث إلى "با"ئي، كي أرد على ما قاله :

"اليوم قد يصبح الأمر جد خطير بالنسبة لي، لو أن "با"ئي لم يعد يتحدث إلي،^(٨٩) ولأصبح الأمر خطيراً، وبعيداً عن كل مبالغة، فسيكون الأمر أشبه بالهجران. ولكن "با"ئي لن يرحل، وسوف يقف إلى جانبي في مثل هذه الظروف. ولن يرتكب (هذه) الجريمة وسوف يسقط في جسدي كما يسقط في شبك من حبال^(٩٠) ؟). كلا، لن يكون هروبه في يوم الشقاء. انظر، إذا تركني "با"ئي، وإذا لم أعد اسمعه، فقد يجزني ذلك إلى الموت، قبل أن يحل أجله المضروب، ولكان معنى ذلك إلقائي في النار

لأحترق. ... كلا سوف يقترب منى في يوم الشقاء، وسوف يمكث بجواري كما يحدث لإنسان متوسل، انه هو الذي سيأتي ويكشف عن نفسه.

ولكن يا "با"نى انه من غير المعقول الإبقاء على ذلك الذي سئم الحياة. قدني إذن إلى الموت، قبل أن يحل أجله المضروب، فلتجعل الغرب لطيفاً من أجلى. هل هذا من سوء الطالع؟ إن الحياة دورة، وهكذا تسقط الأشجار. تغاض إذن عن خطاياي واستعرض شقائي. سوف يحاكمني "تحت" ذلك الذي يرضى الآلهة. وسوف يدافع عنى "خنسو" كاتب الحقيقة والعدالة. وسوف ينصت "رع" إلى حديثي، هو الذي يقود(?) قارب الشمس. وسيكون "إسدس" في القاعة المقدسة من أجلى^(٩١). لقد اصبح شقائي منذ الآن عبئاً ثقيلاً لا أقوى على حمله، ومن المستحسن أن تكون الآلهة قريبة من أسرار جسدي

وهاك ما قاله "با"نى إلى : "لا ريب انك لست إنسانا (كريم المولد) ولكن ألسن حيا؟ وتنهى شكواك من الحياة، كما لو كنت إنسانا موسرا!".^(٩٢)

وأقول : "لن أرحل إذا بقيت أنت^(٩٣) على الأرض. ولكن سوف يتسلطون عليك، إذا أنت ابتعدت، فلن يحملك أحد أبدا، وسوف يقول كل كائن شرير : سوف امسك بك. إن مصيرك هو الموت، اسمك فقط هو الذي سيبقى على قيد الحياة^(٩٤). وفيما وراء ذلك، يوجد المكان الشهير لراحة القلب، فالغرب هو المرفأ. .. ولكن إذا استمع "با"نى إلى دون (أن يشير) صعوبات، وإذا اتحد قلبه بقلبي، فسوف يكون ذلك مدعاة للسعادة. وسوف اعمل على أن يصل إلى الغرب مثل "باء" ذلك الذي يرقد في الهرم والذي من أجل دفنه مازال أحدهم باقياً على الأرض^(٩٥). سوف

أقيم مأوى فوق جسدك^(٩٦)، سوف يثير حسد "با" آخر، أصابه الإعياء. سوف أقيم مأوى رطباً، سوف يثير حسد "با" آخر أعياه الجو الحار. سوف ارتوى في موضع النهر حيث أقيمت الظلال لأثير حسد "با" آخر جوعان. ولكن إذا اقتدتني على هذا النحو إلى الموت^(٩٧) فإنك لن تجد في هذه الظروف مكاناً لراحتك في الغرب.

كن رحوماً، يا "با" ثى، يا أخى بحيث تصبح ورثى^(٩٨) الذى سيقدم القرابين (من أجلى) ويقف أمام قبرى يوم الدفن، بينما يعد أيضاً المرقد الجنائزى".

فتح "با" ثى فاه لأحلى وأجاب قائلاً : " إذا كنت تقصد الدفنة، فهي أمر محزن للقلب، إنها تثير الدموع وتصيب الإنسان بالحزن، إنها تنتزع هذا الأخير من داره لتلقى به فوق أكمة^(٩٩) ولن تستطيع أبداً أن تصعد إلى السماء لترى الشمس. الذين شادوا (المباني) من الجرانيت وأقاموا. .. أهرامات كاملة، وهي أعمال مكتملة، هؤلاء البنائون صاروا آلهة. وأما الآن، فموائد قرابينهم عارية، مثل موائد أولئك المنبوذين الذين ماتوا على الشاطئ بلا ذرية. لقد نالت منهم الامواه نصيبها ونال منهم وهج الشمس نصيبه. واسماك الشيطان (وحدها) هي التي لا تزال تتحدث إليهم.

انصت إلى إذن، لأنه كما ترى من المفيد للمرء أن يستمع : عث يوماً هائلاً وانسى الهموم^(١٠٠).

[عندئذ يروى الـ "با" قصتين]

* كان رجل (متواضع المولد) يفلح قطعة أرضه. وشحن محصوله داخل سفينة وسحبها. كان يوم عيده يقترب (=عندما وصل إلى غايته؟) فرأى رياح الشمال تكفهر. عندئذ أخذ يراعى سفينته، في حين كانت الشمس "عائدة" وخرج مع زوجته

وأولاده. ولكن هؤلاء لاقوا حتفهم عند البحيرة، بعد أن باتت خطرة أثناء الليل من جراء وجود التماسيح. وعندما جلس في النهاية وعندما استعاد صوته قال : " إني لا أبكى هذه الزوجة التي كانت على وشك أن تلد، والتي لن تخرج بعد الآن من الغرب، لتعود (زوجة) أخرى على الأرض، ولكن الذي يعتصر قلبي هو (مصير) أولادها، الذين انكسروا وهم لا يزالون في البيضة ورأوا وجه التمساح، في حين انهم لم يحيا بعد. "

* طلب رجل (متواضع المولد) طعام العشاء. فقالت له زوجته : " سوف يكون ذلك في وجبة المساء " عندئذ خرج. .. وعندما عاد إلى منزله كان أشبه برجل آخر ولم يسمع زوجته التي تتضرع إليه. .. " (١٠١)

عندئذ فتحت فاهي من أجل "با"ئي وأجبت على ما قاله لتوه :

النشيد الاول

انظر، إن اسمي ذو رائحة كريهة (=ممقوت). (١٠٢)

انظر، أكثر من رائحة الجيفة

في يوم صيف، والسماء محرقة.

انظر، إن اسمي ممقوت.

انظر، أكثر من صيد، يوم القنص

عندما تكون السماء محرقة

انظر، إن اتسمى ممقوت.

انظر، أكثر من رائحة الطيور

أكثر من (رائحة) أكمة بوص مغطاة بصيد الماء.

انظر، إن اسمي ممقوت.

انظر، أكثر من رائحة الصيادين

أكثر من (رائحة) المستنقعات عندما يصطادون.

انظر، إن اسمي ممقوت.

انظر، أكثر من رائحة التماسيح

أكثر من واقع الجلوس عند شاطئ مغطى بالتماسيح. (١٠٣)

انظر، إن اسمي ممقوت.

انظر، أكثر من زوجة،

عندما تقال الأكاذيب في حقها لزوج(ها).

انظر، إن اسمي ممقوت.

انظر، أكثر من (اسم) طفل قوى البنية،

عند الحديث في حقه بينما هو يتمنى لذلك الذي يكرهه. (١٠٤)

انظر، إن اسمي محقوت.

انظر، أكثر من (اسم) إحدى مدن الملك،

التي تعلن تمرد لها عندما يدير ظهره.

النشيد الثاني

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

الأشقاء (أنفسهم) أشرار

وأصدقاء اليوم لا يحبون البتة.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

القلوب جشعة

وكل واحد يستولي على ما يملكه الغير

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

الوداعة ماتت

وعادت السطوة للجميع

من عساي أتكلم اليوم ؟

الناس يرضيهم الشر

والخير ألقى به على الأرض، في كل مكان.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

فالإنسان الذي كان يثير الغضب بسبب أفعاله السيئة

يضحك الآن الجميع عندما تكون جريمته شنعاء.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

الناس ينهبون

وكل إنسان يسلب الغير،

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

فالمجرم شخص يحب الناس^(١٠٥)

ولكن الأخ الذي كان يعمل بالمشاركة "معي"^(١٠٦) أصبح عدواً.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

ولم يعد أحد يذكر البارحة

ولا أحد يساعد الآن ذلك الذي كان يساعد فيما مضى.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

الوجوه محجوبة

وكل شخص يخفض نظره إلى الأرض، ضد أشقائه،

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

الرغبات جشعة

ولم يعد يوجد قلب إنسان يمكن الركون إليه.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

لم يعد للأبرار وجود

والبلاد تحت رحمة مرتكبي المنكر،

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

إننا محرومون من الصديق

ونلجأ إلى الغريب لنطلق العنان لشكوانا بجواره.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

لم يعد للرجل المسالم وجود

وذلك الذي كنا نسير في صحبته، لا وجود له.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

البؤس يرهقني

وقد أحتاج إلى صديق.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

لقد ضرب الشر البلاد

ولا نهاية له.

النشيد الثالث

الموت اليوم أمامي

مثل الشفاء بعد المرض

مثل أول خروج بعد حادثة.

الموت اليوم أمامي

مثل رائحة المر

مثل الجلوس تحت الشراع، في يوم تشتد فيه الرياح.

الموت اليوم أمامي

كعطر زهرة اللوتس

مثل حقيقة الوقوف عند شاطئ السكارى.

الموت اليوم أمامي

كطريق مألوف

كعودة الإنسان العائد من الحرب إلى داره.

الموت اليوم أمامي

كالسماء التي تصفو

عندما يكتشف المرء ما لم يكن يعرف. (١٠٧)

الموت اليوم أمامي

مثل اشتياق المرء لرؤية داره

بعد قضاء سنوات طويلة في الأسر.

النشيد الرابع

نعم في الحقيقة، إن الذي يوجد هنا، سيصبح إلها حيا، (١٠٨)

موقعا العقاب على من يقتترف جريمة.

نعم في الحقيقة، إن الذي يوجد هنا، سيأخذ مكانه في قارب الشمس،

موزعا الأشياء المختارة في المعابد.

نعم في الحقيقة، إن الذي يوجد هنا، سيصبح رجلا عالما،

ولن يُردّ عندما يتضرع بخطبه إلى "رع".

كلمة الختام

إليكم ما قاله "با" نى : " أهجر المراثي، أنت يا من تتنسب إلى يا أخي! سواء قدمت قربانك على النار أو اختلطت بالحياة - حسبما تقول - فسوف تحبني هنا، بعد أن تكون قد نبذت فكرة "الغرب".

ولكن عندما تصل إلى الغرب (في الأجل المضروب)، عندما ينضم جسدك إلى الأرض، عندئذ سوف أطيّر، بعد أن يكون التعب قد أعياك وسوف نقيم سوياً .

هوامش

(١) نص هام (ما يقرب من ٤٣٠ سطرا) مسطور على عدة برديات : ثلاث منها موجودة حاليا في متحف برلين (وأرقامها (3023-3025-10499) وتعود البرديات الأوليان إلى مجموعة "اتنازي" Athanasi في حين عثر على البردية الثالثة في الرامسيوم ولم يرد من هذا النص سوى شذرات في بردية بتلر Butler (في المتحف البريطاني) وفي بردية امهرست Amherst.

حبكة القصة بسيطة : يتوجه فلاح صغير إلى المدينة لبيع منتجات صيغته وعبرها، وإذا سرق في الطريق، طلب الإنصاف من رئيس حجاب الأملاك التي كانت مسرحا للمسطور. وإذا تأثر رئيس الحجاب بطلاقه لسانه، تحدث في الأمر إلى الملك " خيتي الثالث (الأسرة العاشرة - ٢١٢٠ - ٢٠٧٠ ق. م تقريبا، راجع تعاليم الملك خيتي الثالث) الذي أمر بان يترك ليتحدث لفترة من الزمن وان يستدرج لإلقاء هذه الخطب التي سيرف عن نفسه بقراءتها. وهكذا دونت تسع عرائص، وتم إنصافه في آخر الأمر.

إن هذه النصوص هي التي تسمح لنا بالوقوف على ظروف حياة سواد الشعب، وهي أيضا نصوص تتجلى فيها الأخلاق والمشاعر الشعبية في شكل حكم أو تضرعات شجبة في الغالب. إن هذه النصوص تعرف بالأكيد الإطناب والتكرار، ولكنها تنطوي أيضا على قدرة فائقة على التعامل بالكلمات : أهو حشو لغوي ٢ كلا، بل ولع بالكلمة والحديث الطلي، وهو ما نجده على هذا النحو تقريبا في مصر المعاصرة : فهذه الخطب موشاة بالطباق والجناس والسجع وتقابل الأفكار والصور الشعرية، وهي لا تستسيغ أحيانا المنطق والوضوح، ولكنها تشد الانتباه بطبعها الشيق الذي لا يخلو من طرافة والذي يأمرنا أحيانا جماله المفاجئ.

النص المصري :

F. VOGELSANG

et A.H.GARDINER, Die Klagen des Bauern, Leipzig,1908,24pl,

وقد ادخل " جاردنير " بعض التصويحات على هذا النسخ المبروغليني

GARDINER, IN JEA, vol.9,1923, pp.22-25.

- (٢) حرفيا : "رجل حاه "ابو" ("نوبس") أو "ليت" "ابو" يحميك ".
- (٣) "وادي النطرون" حاليا. وهي واحة تقع في الصحراء. غرب الدلتا. وتضم في الوقت الراهن ١٢ أو ١٥ بحيرة (على امتداد ٢٥ كم) وتمدنا بملح الطعام والنطرون. وكانت هذه المادة الأخيرة مطلوبة جدا في العصور القديمة من أجل عمليات التحنيط وإقامة بعض الشعائر.
- (٤) حرفيا "محبوبة".
- (٥) من بين الأسماء الواردة في هذه القائمة الطويلة لم يتم التحقق سوى من بعض العناصر. ويمكننا أن نلاحظ فقط أن العديد من أسماء النباتات والحبوب هذه، قد ورد ذكرها أيضا في البرديات الطبية.
- (٦) عاصمة المملكة في ظل الأسرة العاشرة. راجع الهامش ٢ من الفصل الثاني من الباب الأول.
- (٧) لم يتم التحقق من هذه الأسماء.
- (٨) حرفيا "جحوتي" ("تحت") "القدير".
- (٩) حرفيا "النرم الهدوء".
- (١٠) كانت الحمير، على نحو خاص، تستخدم بعد الفراغ من أعمال البذر لدفن الحبوب في التربة بفضل دوسها، لتكرر.
- (١١) الإله "أوزيريس".
- (١٢) حرفيا : ان يقرب".
- (١٣) حرفيا : "خادمك المنتسب إلى ما هو قريب من قلبك".
- (١٤) حرفيا : "عندما يلهبون (لتسلم بضائعهم) إلى آخر في منطقة مجاورة".
- (١٥) حرفيا : "ان يستبدل ذلك، وسوف يستبدله".
- (١٦) إن اليقين بأنه محمي بحاية عادلة تطرد كل خشية.
- (١٧) حرفيا : "رع هو مالك الكائنات"، وهو الاسم الرابع من أسماء الملك خيتي الثالث.

(١٨) لم ترد هذه الكلمات الأخيرة سوى في بردية الرامسيوم (Berlin 10499)

(١٩) جملة ذات سياق شائع في المصرية القديمة : فإذا قابلنا بين واقعتين في خطين متوازيين فالحكم بيقينية الأولى
يعنى أن الأخرى حقيقة واقعة.

(٢٠) تشير كلمة " نحن " هنا إلى عموم البلاط.

(٢١) حرفيا : "عظماؤه"

(٢٢) بمعنى آخر " اطرء الفطرة فتعود على جناح السرعة". لا يكفي العقاب لتغيير طبيعة الإنسان.

(٢٣) حرفيا : " إلى صاحب منصب "

(٢٤) كانت الإلهة "سخمت" (وهي غالبا برأس لبؤة) تعبر مسئولة عن الأوبئة. .. ولكنها كانت تعرف أيضا
كبف تشفى الأمراض وتحمي الأطباء.

(٢٥) ذلك الذي يشتكى باستمرار ولا يستمع إليه أحد لإنصافه. ومن ثم يعرف الجميع هذه القضية.

(٢٦) لاسيما اللسان الذي له القدرة على الخلق من خلال النطق بالكلمة، وفي إمكانه إذن أن يفعل الخير
والشر.

(٢٧) حرفيا : " حتى حدودك".

(٢٨) موازنة مرغوبة بين كلمة "شئوت" التي تشير إلى " الذين يحيطون برئيس الحجاب " أو حاشيته، إذا صح
القول، وكلمة " شئوت " (التي تكتب بمخصص مختلف) وتطلق على " الذي يحيط بالشمس"، مدار
الشمس. انه نهج "أدبي" مصري هدفه التأكيد، من خلال الكلمات، على الصلة القائمة بين الإنسان
الشديد البأس والإله رع.

(٢٩) هذا المقطع بكامله متأثر بغنائية الأناشيد الملكية، وقد ازدهر هذا الجنس الأدبي في ظل الدولة الحديثة.
ونذكر على سبيل المثال "وصايا" - "سحب" - "إيب" - رع " الملكية". التي تتميز بنبرات مماثلة.

(٣٠) نبات كزبه الرائحة يتكاثر بسرعة.

(٣١) يؤكد ليفير LÉFÈVRE (Romans et contes e'gyptien p.58, note 67

"إن الأظعمة والحبز والفطائر كانت تخرج من المتاجر أو الورش - "شنمو" ولا يسمح المدير المعنى للفقير بالانفاج بها بشكل مباشر أي دون مناقشة، إذ لا يعنيه في شئ زبائنه من الفقراء".

(٣٢) حرفيا "على الفور - في الحال"

(٣٣) تسمية تحط جدا من قدر لص "خو-ان-ابو" فهو غدواني على غرار التمساح ويعيش مثله على الفرائس التي يخطفها.

(٣٤) إله كبش يعبد في "هوقليوبوليس" وفي الفيوم.

(٣٥) يترتب على المشكلة التي يتم إهمالها مضاعفات ويتطلب حلها جهدا مضاعفا.

(٣٦) حسب فرضية "جوستاف لوفيفر" (OP . cit. p61, note 83)

(٣٧) "خو - ان - ابو" شخصا.

(٣٨) عندما يكون المرء جوعان لا يهاب بأمر سرقة الطعام إلا في التز القليل.

(٣٩) يستطيع رئيس الحجاب أن يطرد "خو - ان - ابو".

(٤٠) هاتان الجملتان الأخيرتان منقولتان عن تصحيحات جوستاف لوفيفر.

(٤١) حرفيا : "أيوجد شخص لا عمل له قام في الماضي بالتوصل؟".

(٤٢) إشارة إلى "العاب" الساحر "جدي" الذي كان يتقن إعادة الرؤوس المقطوعة إلى مكانها.

(٤٣) كما في السابق يتم التأكيد على شخصية "خو - ان - ابو" المرموقة.

(٤٤) حسب جوستاف ليفيفر.

(٤٥) حامى الفلاح.

(٤٦) نص مبطور على بردية موجودة حاليا في متحف "لیدن" (1,344, recto) وترجع النسخة إلى الأسرة التاسعة عشرة.

لقد تم تقديم هذا النص أحيانا بصفته نبوءة، قد يقرب خطها العام من نبوءة "نفرتي" ولكن نظرا على ما يعتقد إلى أن جانباً من المخطوط قد فقد، فإن حبكة الأحداث أقل وضوحاً، فيقوم "إيسو - ور" بوصف الأحداث أكثر من التنبؤ بها كما يفعل "نفرتي" على ما يبدو.

النص المصري:

A.H GARDINER, The Admonitions of a Prophet , Leipzig , 1909 - pll. 1 a 1,

(٤٧) حرفياً : " من له شخصيته "

(٤٨) "خنوم" الإله الفخاري الذي يشكل الكائنات على عجلته - لا يجد عملاً نظراً لتوقف الإنجاب.

(٤٩) خدم الأثرياء الجدد.

(٥٠) الموتى لا يحنطون في الواقع، ثم يدفنون ولكن يلقى بهم في النهر كما سيذكر ذلك فيما بعد، شأنهم شأن الماشية النافقة.

(٥١) تدل هذه العبارة على مكان التحنيط ولكن من الممكن أن تشير أيضا إلى المقبرة.

(٥٢) أبو منجل الذي يعيش على شواطئ النيل في طين النهر.

(٥٣) إشارة بلا شك إلى الوجه القبلي. حول هذه الصورة التي توجد بين السفينة والدولة وإحدى المناطق.

(٥٤) لأن سيدات بيوت الزمن الماضي صرن خادومات

(٥٥) إشارة إلى البدو، وبدو ارض كنعان على نحو خاص، الذين تسللوا إلى مصر عبر الحدود الشمالية الشرقية

(٥٦) تؤكد وجود علاقات بين مصر وميناء فينقيا العظيم منذ اقدم العصور، وتشهد هذه العلاقات التجارية على ازدهار مصر (استيراد خشب الآرز على نحو خاص) وتخفي هذه العلاقات في عصر الركود الاقتصادي.

(٥٧) كان يستعمل شجر الارز في صناعة التوابيت النفيسة. وصار التحنيط منذ الآن أمراً " موزوكا للصدف":
لعند تحنيط الكهنة بصفة خاصة، استخدمت نفس المواد التي كانت تستخدم في السابق في الشعائر التي تقام للآلهة.

(٥٨) حرفيا : " ماؤنا " . كان تعبير " أن يكون على ماء مصر " تشير إلى البلدان الخاضعة لمصر وكانت موالية لها . وتزخر اللغة المصرية بالاستعارات النهرية .

(٥٩) " عرض " من جراء البؤس المدقع .

(٦٠) تختص المقابر وتلقى المومياوات خارجها .

(٦١) البلاد جرداء وخاوية مثل حقول الكتان بعد اقتلاع النبات ، وبالفعل لا يتبقى شئ فوق التربة .

(٦٢) كان الوجه البحري الشديد الرطوبة يعج بالنبات وأدغال الجردى . ولكن نقص الماء تسبب في ذبول النبات الذي لم يعد يخفي الطرقات . وربما المقصود هنا بهذه الصورة بروز مشهد جديد (؟) ، أكثر تجرداً ، ولكن من المحتمل أن يكون المقصود بذلك " الدروب " التي - سيسلكها من الآن الأجانب القادمون من آسيا .

(٦٣) ديوان الملك .

(٦٤) يستخدم نفس اللوح للنوم ولحمل الأحمال (؟)

(٦٥) أو " أغانيها من اجل آله الموسيقى " . (؟) وسوف تستخدم نفس الكلمة " مريت " فيما بعد ، ولكن مع المخصص الإلهي ، لتدل عندئذ بوضوح على الآلهة .

(٦٦) حرفيا : " ذو الوجه المتوهج " .

(٦٧) إن الفراغ الذي يعيش فيه الإله يجلب إليه الملل .

(٦٨) باختفاء السجلات لم يعد أحد يعرف الحر من غيره .

(٦٩) حرفيا : " قوانين القاعة الخاصة موضوعة من الآن أمامها " .

(٧٠) المجلس المكون من أعظم ثلاثين موظفا في المملكة .

(٧١) حرفيا : " المجلس الخاص العظيم " . فمئذ الآن " اخرج حتى يستطيع الدخول " .

(٧٢) وزارات المملكة .

(٧٣) نفس هذا المقطع موجود في تعاليم أمنمحات الأول

(٧٤) إشارة إلى اختطاف أحد أبناء ييسى الثاني. (؟) اغتصاب المقبرة الملكية

(٧٥) الأسرار التي يعرفها الملك وحده.

(٧٦) الثعبان الحارس لمكان مقدس، والقصر الملكي هو المقصود هنا.

(٧٧) حرفيا: "البلاد" "معقودة" "وموجده" تحت سيطرة عصابات اللصوص ؟

(٧٨) مقبرة قام بسلب مالها الحقيقي.

(٧٩) حرفيا: "التي تفيض وتتساقط".

(٨٠) إن جزار النيز التي نشاهدها في النقوش والرسومات، كثيرا ما تحاط بأكاليل الزهور.

(٨١) حرفيا: "بالنظر إلى النقص".

(٨٢) إشارة محتملة إلى دعاة الصبية (؟) لمواجهة المشاكل الناجمة عن البؤس.

(٨٣) حرفيا: "مقطنا في الخراب"

(٨٤) يعتبر ذلك في مصر من الأمور الخطيرة بمكان، لأن كل شكل منحوت أو مرسوم فمن إذا ما توفرت له

بعض الظروف، أن تدب فيه الحياة، ومن ثم تمكين الموتى من العودة إلى الحياة، ومن هنا يسهم في الحرفيين في عدم عودة الموتى على الأرض

(٨٥) كان الكاهن يمسح النظرون ليظهر فمه.

(٨٦) المتشرد.

(٨٧) حفظت لنا هذا النص مخطوطة واحدة توجد حاليا في متحف برلين. ويرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية

عشر. وتعتبر هذه الوثيقة أيضا صدى للثورة الاجتماعية التي عمت مصر إبان عصر الانتقال الأول. وإلى

جانب العديد من الإشارات إلى التقلبات الاجتماعية، يؤكد هذا النص على الأزمة الأخلاقية التي مر بها

أئذاك الشعب المصري. كان الفرد حتى الآن يعيش في "إطار" مجتمع تراتبي ومتوازن وفجأة يوك لوجه مع

نفسه. بعد أن ضرب بقيمة التقليدية عرض الحائط. حقا لقد كانت أزمة روحية خطيرة، سوف تقود إلى

أن يدرك الإنسان ذاته "كفرد" وليس كعنصر من مجتمع جمعي.

النص المصري :

KURT SETHE ,Aegyptische Lesestucke , Leipzig , 1928 , pp . 34 - 46

H . GOE DICKE : The report about the dispute of a man with his "ba" Baltimore , 1970 , 10 pll .

(٨٨) راجع الهامش ٢٤ من الفصل الثاني في الباب الأول.

(٨٩) يبدو من ناحية، إن الإنسان ميبقى وحيدا تماما، وإن هجو الـ"با" من ناحية أخرى قد يعنى القضاء التام على الإنسان بعد الوفاة.

(٩٠) من الراجع هنا إنها إشارة إلى عودة الـ"با" إلى جسد الإنسان الذي يعتبر من العناصر المكونة له والذي سوف يحتجزه مثلما تحتجز الشبكة صيدها.

(٩١) يأمل الإنسان أن شفاءه سيحمل الآلة على إصدار حكم ينصفه ويمكنه من بلوغ الحياة الأبدية. وربما كان يشير "إمدس" إلى "أبو". (أنوبيس) والقاعة المقدسة هي قاعة المحكمة.

(٩٢) يستطيع الرجل المسور أن يوفر لنفسه كل ما يحتاج إليه من ماديات للبقاء حيا (موميا - مقبرة - خدمة جنائزية). أما الإنسان المحروم من الموارد فعليه الانتفاع من الحياة لأنه لا يضمن ما قد يحدث له بعد الوفاة.

(٩٣) حرفيا : "هذا الأخير" الذي يشير إلى الـ"با".

فالإنسان يتحدث تارة إلى الـ"با" بصيغة الغائب، وتارة أخرى يوجه إليه الحديث بشكل مباشر.

(٩٤) الموت هو المصير الذي ينتظر الجميع ولكنه انتقال إلى حياة جديدة وأحد شروطها هو الإبقاء على ذكرى اسم المتوفى. وبالفعل وبفضل قدرة الكلمة الخلاقة، فإذا نطق اسم شخص ما، يعنى المساهمة في بعثه.

(٩٥) ليحمل "با" على تقبل "الموت" يعنمه الإنسان بتحويلات سعيدة : مماثلة لتحويلات الملوك الراهدين في الهرم - أو تلك التي تضمنها الخدمة الجنائزية التي تكفلها لهم ذريتهم بعد وفاتهم، فتضمن لهم الحياة الأبدية.

(٩٦) أي جسد الإنسان ووعاء "باسه".

(٩٧) أي في انتظار حلول الأجل المضروب للوفاة (?)

(٩٨) سيضطلع الـ"با" بالدور الذي يقع على عاتق الابن في المعتاد. إذ أصبح الإنسان وحيدا على الأرض.

- (٩٩) الجبانة التي تقع في المعتاد على الأرض مرتفعة على حافة الأرض المنزرعة.
- (١٠٠) موضوع ثابت في أناشيد الولايم
- (١٠١) قصة تفتقر إلى الوضوح إذ تضم فجوات على قدر من الخطورة.
- (١٠٢) توحد اللغة المصرية بين النفور المادي (الراجع إلى راحة مقززة) والنفور المعنوي. فالكلمة الدالة على المعنيين واحدة.
- (١٠٣) يقودنا ذلك إلى الاعتماد على صورة مادية أحيانا وروحية أحيانا أخرى، تتجمعان فيما بينهما على حد سواء
- (١٠٤) من الراجع انه زوج الأم.
- (١٠٥) حرفيا: "الذي ينفذ إلى القلب".
- (١٠٦) حرفيا: "هو" الانتقال إلى صيغة الغائب للدلالة على الإنسان ذاته.
- (١٠٧) يتطابق الانعاق الذي يجلبه الموت بالانعاق الذي توفره سعادة المعرفة المكتسبة.
- (١٠٨) "الذي يوجد هنا" يشير إلى "اليأس" ذاته. ويؤكد النشيد حقه في الأبدية، ككيان حي مؤله، يشارك في رحلة قارب الشمس.

[تاسعا]

فن الحياة للوزير " بتاح حوتب " ^(١)

تعاليم عمدة المدينة "بتاح حوتب" وزير ملك الوجهين القبلى والبحرى
"إسيسى" ^(٢) الحى على مر الزمان وإلى الأبد

تمهيد

يقول عمدة المدينة الوزير " بتاح حوتب " ^(٣)

" أيها العاهل، أيا سيدى، لقد حلت الآن السن المتقدمة، وانقضت
الشيخوخة (على). والتدهور دون توقف يتحدد بعد أن فرض نفسه فرضاً ^(٤).
والمرء يغفو طوال اليوم. والعينان مريضتان والأذنان صماءان. والقوة ذهبت لأن
القلب منهك، والفم صامت لا يتكلم ابداً، والقلب لم يعد يفكر، ^(٥) بل إنه لم يعد
يتذكر الأمس. العظام باتت مصدراً للألم بسبب طول مدة الحياة. وما كان مصدر
سعادة بات الآن تعاسة. لقد دلت جميع الأحاسيس، أن ما تسببه الشيخوخة
للإنسان، هو أمر سيئ، من جميع النواحي. الأنف لم تعد تتنفس، والوقوف
والجلوس مؤلمان على السواء. اسمح إذن بأن يصدر الأمر بأن يشكل خادملك ^(٦)
لنفسه عصا الشيخوخة ^(٧) حتى أستطيع أن أقول كلمات الذين أنصتوا في الماضي
ونصائح الأجداد الذين أطاعوا الآلهة. عندئذ سيفعل القوم من أجلك الشيء ذاته،
وتطرد الشرور بعيداً عن شعب مصر وتعمل الضفتان من أجلك ^(٨).

تكلم إذن جلالة هذا الإله (-الملك) قائلاً: (علّمه كلمات الزمن الماضي.
فلتجعل منه نموذجاً لصيبة العظماء، فلينفذ إليه الانشغال بالإصغاء، مثله مثل العدالة

التي في كل قلب، وذلك عندما يخاطبه الناس. ليس هناك طفل صار حكيماً منذ صباه.

كلمات ماثورة:

بداية الحديث المؤلف من كلمات جميلة وطيبة الذي فاه به النبيل، الأمير، الأب الإلهي، المحبوب من الإله، ابن الملك الذي هو من صلبه، عمدة المدينة الوزير "بتاح حوتب" (فاه به) بينما كان يعلم المعرفة لمن لا يعرف، ويعلم قواعد الكلام الصحيح. سوف ينطوي ذلك على أعظم النفع لمن يصغي إليها، ولكنه سيكون وبالأعلى من يخرج عليها.

يقول لأبنه

عن التواضع

* ليت قلبك لا يكون متعجرفاً بسبب ما تعرفه. لا تملأ عقلك بفكرة أنك عالم، شاوَر الجاهل بنفس الأسلوب الذي تشاور به الإنسان صاحب المعارف، فالمرء لا يصل أبداً إلى حدود فن من الفنون، ولا يوجد حرفي بلغ حد التفوق. الكلمة السديدة قد تكون محتفية أكثر من زمردة، ويمكن للمرء أن يعثر عليها بين الخادومات المنحنيات على الرحي - (الحكمة الأولى).

عن المحادثة

* إذا التقيت بمحاور في (أفضل) لحظاته، وكان سامي القلب ماهراً أكثر منك، عندئذ اخفض ساعديك، واحن ظهرك. ولا تحسده،^(١) ولكن عليك ألا تتمكن من أن يستند عليك. وسوف تحط من قدره إذ (قال) كلمة سوء،

ولا يفوتك أن تفنده في الوقت المناسب، بحيث يقال عنه "ياله من جاهل!" إلى أن يقضى قلبك على أساليبه (الحكمة الثانية).

* إذا التقيت بمحاور في (أفضل) لحظاته، وكان مساويا لك، وصاحب منصب، عندئذ تصرف بحيث تظهر مهارتك كأرقي من مهارته لا تلتزم الصمت (لا سيما) عندما يقول قولا سقيما. وسوف يؤيدك المستمعون. وتصبح
ثاني سمعة كرجل صاحب معرفة طيبة وسط العظماء - (الحكمة الثالثة)

* إذا التقيت بمحاور في (أفضل) لحظاته، وكان رجلا متواضعا، ولم يكن بالتأكيد مساويا لك، فلا يثورن قلبك ضده لأنه ضعيف ولا تطرح عليه أسئلة، للترويح عن نفسك، كما لا تهدئ قلب الذي يعارضك على هذا النحو "اطرحه-على -الأرض" حتى يعاقب نفسه بنفسه.^(١٠) إنه لمن المؤسف أن يهان رجل لأنه محدود الفكر- إذ أن كل أمرئ يتصرف حسب مافى قلبه - ولكنك ستضربه عن طريق استهجان العظماء- (الحكمة الرابعة)

العدالة والحقيقة.

* إذا كنت رئيسا، يصدر أوامره إلى جمع غفير من الناس، اغتتم كل فرصة للعمل الخير، بحيث يكون سلوكك لاغبار عليه.

هامة هي "الحقيقة- العدالة" فثروتها تدوم، ومنذ زمن خالقها، فإنها لم تتعرض أبدا للعواصف، ويعاقب كل من يخرج على نواميسها. إنها سراط يمتد أمام الجاهل. أما الخسة فلم يسمح لها أبدا بالرسو في أى من الموانئ قد تستطيع الدناءة أن تحقق الثروات ولكن قوة "الحقيقة- العدالة" هي في دوامها، ويستطيع المرء أن يقول (عنها): إنها الثروة التي كان يمتلكها أبي- (الحكمة الخامسة):

عن الوداعة

* لا تبث الرعب بين الناس وإلا فسيعاقبك الإله بالمثل. إذا فكر إنسان أن يعيش بهذا الأسلوب، فإن فمه سيحرم من الخبز...^(١١) لا تسمح للخوف من الناس أن يظهر، فمشيئة الإله هي التي ينبغي أن تظهر. وسنعمل على أن يعيش الناس في سلام، عندئذ سيحضرون ويعطونك من تلقاء أنفسهم (الحكمة السادسة)

عن آداب المائدة

* إذا كنت واحداً من المدعوين الجالسين إلى مائدة شخصية أرفع منك شأنًا، فتناول ما يعطيك عندما يقدم لك ذلك. لا تنظر إلى ما أمامه، بل إلى ما هو أمامك. لا ترشقه بنظرات كثيرة، لأن "المساس به" على هذا النحو هو أمر يمقته الـ "كا". لا تتحدث إليه، إلى أم يوجه إليك الكلام، لأنه يصعب على المرء أن يعرف ما قد لا يعجب. ابق وجهك منخفضاً، إلى أن تسأل، ولا تتحدث إلا بعد أن يطرح عليك السؤال. اضحك عندما يضحك، فذلك سيثلج قلبه جداً، يجب أن يكون ما تفعله مرضياً له، فلا يعرف المرء أبداً مافى القلب.

إذا جلس شخص عظيم إلى المائدة، فإن سلوكه يتحدد حسب توجهات "كا" له، فيعطى من له حظوة لديه. والحق أن العظيم يعطى لمن يستطيع أن يصل إليه، لكن "كا" هو الذى ييسط ذراعيه (ليعطى)، إن أكل الخبز يعتمد على المقاصد الإلهية، وجاهل من يشكو من ذلك - (الحكمة السابعة)

كيف تكون رسولاً أميناً

* إذا كنت رجلاً موضع ثقة، أوفده عظيمًا من العظماء إلى عظيم آخر، كن شاهداً أميناً على شخصية من أوفدك، وسلم الرسالة كما أمليت عليك، ولا تنس شيئاً. تجنب تحريف الكلمات (التي أؤتمنت عليها) حتى لا تزرع الشقاق بين عظيمين. التزم بالحقيقة، ولا تتجاوزها، فالهدوء لا يعود أبداً. (كذلك) لا تتحدث إلى أى كان، سواء كان الرجل كبيراً أم صغيراً (عن الرسالة) لأن الـ"كا" يمقت ذلك - (الحكمة الثامنة).

عن الكرم

* إذا حرثت فليكن حقلك مزدهراً، وليعطك الإله بوفرة ولا تتباه كثيراً بذلك، ولا تطالب من لا يملك بشيء. حاذر لكلامك لدى جيرانك، فعظيم هو الاحترام الذي يحظى به الرجل الصامت، الإنسان القوي ^(١٢) هو إنسان ثرى، لأنه يتحكم فى القضاة، ^(١٣) مثل التمساح كما لا تطلب شيئاً ممن له أولاد. لا تصدر نقداً أو تعرب عن المباهاة بهذا الصدد. عدد كبير من الأبناء هم أيضاً معوزون. وربما كانت الأم التى انجبت، أقل رضا من (امرأة) أخرى (إن الإله هو الذى يحيى الإنسان الوحيد. فى حين يتضرع رب الأسرة من أجل خلف و... (الحكمة التاسعة).

الاحترام الواجب فى حديث النعمة

* إذا كنت فقيراً وفى معبة رجل مرموق فاعمل على أن يكون سلوكك كله كاملاً لدى هذا الإله. (؟) ^(١٤). تجاهل وضعه البسيط فيما مضى. لا تكن متعجرفاً معه بسبب ما تعرفه عنه من قبل. بل تحلى فى حقه بشيء من الاحترام بسبب ما حدث له، فالثروة لا تهبط من تلقاء نفسها. إن ما يرغبه

(هؤلاء البشر) هو قانونهم، والذي يغزو يثير الخوف. ولكن الإله هو الذى خلقه
ماهرأ وهو الذى يقترب منه أثناء نومه - (الحكمة العاشرة).

فى السعادة

* اتبع رغبتك على امتداد حياتك. لا تفعل أكثر مما هو محدد لك
ولكن لا تختصر زمن "التقيد-بالقلب". (١٥) إن إنبادة لحظة هو أمر عمقته الـ "كا"!
لاتصرف نشاطك إلى الأعباء اليومية، بدافع من الاهتمام المبالغ فيه بشئون دارك.
وعندما تأتى الثروة اتبع رغبتك، لأن الثراء لا يكتمل إذا لم يكن المرء سعيدا -
(الحكمة الحادية عشرة).

السلوك فى حق الأبناء

* إذ كنت رجلا ذا شأن، وإذا انجبت أبناء، بفضل الإله، وإذا كان
هذا الأخير دمشا، وإذا كان قريبا من طبيعتك وينصت إلى تعاليمك، وكانت
نصائحه موفقة فى دارك، وإذا كان يعنى بممتلكاتك كما ينبغى، عندئذ انشد له
الخير. لأنه ابنك المولود من بذرة "كا"ك، ولاتفرق بين قلبك وقلبه.

ولكن بذرة الرجل يمكن أيضا أن تخلق عدوا. وإذا ضل هذا الأخير وخرج على
نصائحك، وإذا لم يتبع تعليماتك، وإذا كانت مقاصده سيئة داخل بيتك، وإذا
تمرد على ما تقول، بينما يتفوه فمه بكلمات شريرة، فاعرض عنه، ولا يؤول شيئا
إلى ملكيته، أطرده لأنه بالتأكيد ليس ابنك ولم يأت إلى الدنيا من أجلك. واجعل
منه خادما بسبب كل كلامه، وضعه فى زمرة الذين يستحقون التوبيخ فلقد كسب
الإله له الشقاء منذ أن كان فى بطن (أمه).

أولئك الذين يقومون لا يستطيعون السير عكس الطريق، (وبالمثل) فالذين لا يملكون قارباً لا يستطيعون العبور - (الحكمة الثانية عشرة).

احترام البروتوكول

* إذا تواجدت في قاعة انتظار، فلتقف أو تجلس طبقاً للتعليمات التي أمليت عليك في اليوم الأول. ولا تتجاوزها، فقد ينصرف القوم عنك. والوجه البشوش يكون في انتظار من يدخل بعد الإعلان عن قدومه، وكبير سيكون "مقعد" ^(١٦) من يُنادى عليه. قاعة الانتظار تخضع لقاعدة، وكل تصرف له قيمته المحددة. ولكن الإله هو الذى خلق التفوق وهو الذى يهب الترقية لصاحب الطبيعة الطيبة والمستقيمة. ولا يربح شيئاً من شق طريقه عنوة - (الحكمة الثالثة عشرة).

عن الإخلاص

* إذا كنت في صحبة (غيرك) من الناس، فلتصنع لنفسك زبائن بفضل إخلاصك، فالرجل المخلص، يكون ذا سمعة طيبة، عندما لا يستجيب لما تمليه عليه بطنه. ^(١٧) أما بالنسبة للرجل الغنى، فماذا يجب أن يكون عليه سلوكه لكي يصبح هو نفسه رئيساً؟ على الناس أن يهابوه ليس إلا، وفقاً لمركزه. (وهكذا) ستكون سمعتك طيبة حتى دون أن تتكلم، وستغذى جسدك جيداً، ووجهك سيلتفت إلى من يحيطون بك. وسيمتدحك الناس حتى دون أن يعرفوك. ولكن الذى يضل قلبه بالاستجابة لبطنه، سيحتقره الناس بدلاً من أن يحبوه، وسيكون قلبه أقرع ^(١٨) وجسده ضعيفاً.

الرجل صاحب القلب الجياش، هبه من الإله ولكن من يستجيب لبطنه ينتمى لعدو
- (الحكمة الرابعة عشرة).

هن الرسول

* انقل توجيهاتك بأمانة، (١٩) عندما تعرض شئونك في مجلس
سيدك. أما فيما يتعلق بالإنسان المشوش فيما يقول، فمن السهل أن يختلط الأمر
على الرسول الذي ينقل (أقواله): "ولكن، ترى من ذا الذي يعرف ذلك؟" أما
السيد الذي ستضطرب أعماله، فإنه إذا أراد أن يعاقبه (= الرسول) على ذلك، فلن
يستطيع هذا الأخير سوى أن يصمت بعد أن يكون قد تكلم - (الحكمة الخامسة
عشرة).

أن يكون المرء رئيساً

* إذا كنت رئيساً فعلى قراراتك أن تسير في طريقها في (٢٠)
حرية، بناء على أوامرك، كما عليك أن تحقق أشياء سامية فكرياً في الأيام التي
ستلي ذلك، حتى لا يأخذ أي فعل (يستوجب الندم) مكانة وسط المذائح. عندما
يحضر التمساح، تفاجئنا الكراهية، ويعود المرء إلى التمرد - (الحكمة السادسة
عشرة).

* إذا كنت رئيساً، فأنت في هدوء إلى كلمات الشاكي، ولا
تصرفه، طالما لم "ينظف" جسده من كل مكان يفكر في أن يقوله. يميل الإنسان
البائس إلى غسل قلبه أكثر من أن يرى أن ما جاء من أجله يتحقق. (٢١) كم هو
مفرح لكل شاك أن (يلمس) الأعراب عن العون والاهتمام.

أما الشخص الذى قد يصد من جاء يرفع إليه التماسا، فسوف يقال عنه: "لماذا ضرده إذن؟" من المؤكد أن كل ما كان يريد أن يطالب به لن يتحقق. ولكن الاستماع باهتمام إلى هذا (البائس) هو بمثابة "ترتيب" على قلبه (٢٢) - الحكمة السابعة عشرة).

عن خطر النساء

* إذا كنت ترجو لصداقة أن تدوم، فى منزل تتردد عليه، كسيد أو كأخ أو كصديق، وفى أى مكان تذهب إليه، فتجنب الاقتراب من النساء. فأيما وجدن. لا يكون الجو طيبا. ليس فطنا من ينكسر بسببهن. ولكن هكذا ينصرف آلاف ينصرف الناس عما يجلب الخير لهم. ويمكن أن يفقد الإنسان رشده من أجل جسد لامع ليصير المرء أشبه بحجر "حرسى".^(٢٣) إنها للحظة قصيرة، كلمح البصر أشبه بحلم، ويحل الموت فى النهاية، لأننا عرفناهن. إنها كلمة يائسة "أطلق ضربة على العدو". ويخرج المرء^(٢٤) للقيام بها، ولكن القلب (= العقل) يرفضها. لا تفعل ذلك إنه أمر يفتته الأولاد. هكذا، كن خاليا من الحزن، كل يوم.

أما الرجل الذى قد يخطئ بسبب ما يكنه من شهوة لهن، فلن يتوج أى مقصد من مقاصده بالنجاح - (الحكمة الثامنة عشرة).

عن الجشع

* إذا أردت أن يكون سلوكك كاملا، أعرض عن الشر أيا كان. وابتعد (بشكل خاص) عن أفعال الطمع، لأنه مرض موجه، لا شفاء منه، يبعد عنك جميع المترددين عليك. إنه يذل الآباء والأمهات والأخوة والأخوات على السواء، وتجعل وداعة الصداقة حادة، وتبعد الصديق عن سيده، وتفرق بين الزوج

وزوجته. إنه "حزمة" مشكلة من كل ما هو سيئ إنه كيس يحوى ما يستحق اللوم.

ولكنه سيعيش طويلا ذلك الرجل الذى تكون الحقيقة- العدالة هى خط سلوكه والذى يسير حسب خطواتهما.

وبفضل ذلك سيتمكن من كتابة وصية. بينما الرجل الجشع لن يكون له فير- (الحكمة التاسعة عشرة).

* لا تكن جشعا عند القسمة، لا تكن شرها إلا فيما يخص نصيبك، لا تكن نهما حيا من يحبطون لك. إن شكوى الرجل الوديع أكثر أهمية من شكوى الرجل القوى. من يحزن محيطه، هو رجل له القليل، وهو محروم من مساندة الكلمة. ^(٢٥) إن هذا القليل الذى حرم منه هو الذى يحول (أحيانا) رجلا وديعا ولطيفا بطبعه إلى عدو- (الحكمة العشرون).

من أجل الفوز بـ زوجة صالحة

* إذا كنت رجلا رفيع المقام، فأفس بيتا وأعز زوجتك فى منزلك كما ينبغي. أملا بطنها وأكس ظهرها. والأدهنة هى أيضا علاج (حقيقى) لأعضائها. ومن ثم أجعلها سعيدة مادمت حيا. إنها حقلا خصب لمن يملكه. لا تحكم عليها، بل ابقها بعيدا عن القيادة، لأنها قد تثير العواصف. " ربت " على قلبها بما يتأتى لك من (سعادة). ومن ثم سوف تبقى فى بيتك. إذا صددتها. عندئذ تنهمر الدموع. والمهبل هو ما تقدمه فى إطار ظروفها، (٢٧) وما تطلب به هو أن يعد المرء لها قناة- (الحكمة الحادية والعشرون).

عن الأصدقاء

* ارض أصدقاءك بفضل ما يتأتى لك (من أمور سعيدة)، إن الإله يشئ على ما يتأتى للمرء. إذا قصرت في إرضاء أصدقائه (على هذا النحو) سيقال (عنك) : هذا إنسان أناني.

مامن إنسان يستطيع أن يعرف ما يمكن أن يحدث، ولو كان يعتقد أنه يستطيع معرفة الغد. الرجل النزيه الذي يرضى (٢٨) هو رجل (حقيقى) لأن من يفكر فى الغد. لا يعرف ما سيأتى به هذا الغد - إذا صادفتك فرص مواتية، فالأصدقاء هم الذين يقولون: " مرحبا!" وإن لم يتمكن المرء من إعادة الهدوء إلى منزله، فيمكن اللجوء إلى الأصدقاء عند وقوع بعض القلاقل - (الحكمة الثانية والعشرون).

عن النميمة

* لا تردد النميمة، بل لا تستمع إليها، لأن مصدرها _رجل_ ذو طبيعة مندفعة، ردد مسألة رأيها وليس التى سمعتها، هذه عليك أن تحتقرها ولا تتحدث عنها قط. عندئذ سيعرف مدى سموك. (وبالمثل)، إذا حرض شخص على سرقة، فسوف يظهر الناس الكراهية لمن سرق. (٢٩) والنميمة أشبه بفعل ينتمى للحلم، (٣٠) يتعين معاقبتها. أما أنت فتحاشاها كلية - (الحكمة الثالثة والعشرون).

عن الكلام

* إذا كنت رجلاً متميزاً يأخذ له مكاناً فى مجلس سيده " استجمع قلبك " طلباً للسمو. كن صامتا، فذلك أكثر نفعاً من الإضراب، لا تتحدث، إلا عندما تدرك أنك تستطيع أن تقدم حلاً. إن "الفنان" هو الذى يتحدث فى

المجلس، لأن الحديث اصعب من أى عمل (آخر). ومن يفهمه يكتسب السلطة-
(الحكمة الرابعة والعشرون).

أن يكون المرء رئيساً

* إذا كنت رجلاً قديراً فاعمل على أن يخشاك الناس بسبب علمك
وكلامك الهادئ. لا تأمر إلا لكى تقود. أن يكون (المرء) عنيفاً، يعنى الإنسياق
للشر، لا تكن متعال، حتى لا تنحط. ولا تكن صموتا، ولكن تجنب الإساءة أو
الرد بكلام حاد. أشح بوجهك، وتمالك نفسك، فلهيب مزاج (شديد) الاندفاع
يمكن أن "يعصف" بالإنسان الطيب الذى سيساء هكذا إليه وتداس دروبه.

الإنسان ذو القلب المغموم طوال اليوم، لا يعرف لحظة سعادة ولكن
الإنسان ذا القلب غير المكترث لن يستطيع تأسيس بيت (٣١) من يرمى السهام
لدية مخزون كبير، مثل من يدير السكان للرسوة، بينما يمسك آخر بحب المرساة،
(ومثل) الذى يطيع قلبه (=عقله) عندما يصدر الأوامر (٣٢) - (الحكمة الخامسة
والعشرون).

عن احترام العظماء

* لا تقاوم سلطة عظيم، ولا تناوئ من كان حمله ثقيلاً. لأنه
سيرتكب خطأ فى حق من يعاديه ولكنه سيحسن (٣٣) إلى من يحبه. من هو مع
الإله (٣٤) له مدد من القوة، وما يرغبه سيتحقق من أجله. هدى إذن وجهك بعد
العاصفة، وسيحل السلام إلى جانب شخصك. (واترك) العدوانية للعدو. إن قوة
الإنسان هى التى تنمى الحب - (الحكمة السادسة والعشرون).

* عَلمَ الرجل العظيم ما يمكن أن يعود عليه بالنفع وهيئة بذلك لأن يلقى ترحيباً سعيداً بين الناس. واعمل على أن تؤدي حكمتك إلى نجاحه. لأن معاشك هو فنى أن تظل إلى جوار شخصه. (وبالمثل) سيصبح جسد صاحب الخطوة راضياً.^(٣٥) و(بالمثل) سيجد ظهرك الكسوة نتيجة لذلك، وستظللك لكى تمنح الحياة لبنيك وستبقى إلى جوار رئيسك الذى تحبه، والذى يحيا من وراء ذلك، (وفى المقابل) سيكون (لك) عوناً حميداً. ومن ثم فإن السكينة والحب لك، سيدومان فى أجساد أولئك الذين تحبهم إنه لرجل^(٣٦) ذلك الذى يجب الإنصات - (الحكمة السابعة والعشرون).

عن العدالة

* إذا كنت ابناً لأحد القضاة ورسولاً ينال إعجاب الجماهير حافظ على حياد العدالة ولا تنحاز إلى طرف. تجنب أن يقول (شخص ما) بصدد قرارك "أيها القضاة، إنه قد أدلى بحديث فيه محاباة". عندئذ قد ينقلب عملك ضيدك^(٣٧) - الحكمة الثامنة والعشرون).

* إذا كنت قد تساحت فى قضية سابقة، فعلت لصالح رجل بسبب استقامته، فدعه وشأنه، وأنساه مادام قد بقى صامتاً بخصوصك فى اليوم الأول (الحكمة التاسعة والعشرون).

* إذا أصبحت عظيماً بعد أن كنت رقيق الحال، وإذا كنت حصلت على ممتلكات، فى مائة تعرفها، بعد أن عرفت الفاقة فيما مضى، تندب حالك بسبب ما كنت عليه فى الماضى، كما لا تضع ثقة (كبيرة) ثروتك. فهذه الثروة التى واثقتك هى منحة من الإله ومن ثم فإنك لن توضع فى خلف رجل آخر مساو لك ممن حدث له نفس الشيء^(٣٨) - (الحكمة الثلاثون).

عن احترام السلم الوظيفي

* احن ظهرك فى حضرة من هو أعلى منك، رئيسك فى القصر الملكى، ومن هنا سيدوم منزلك بثرواتك وسوف تكسب أجرك بشرف. فالذراع الممدود لن يبقى مشلولاً. (٣٩) إنه أمر سيئ أن يقاوم المرء، فالمرء رئيساً يحيا طالما حافظ على مرونته.

لا تستول على منزل الجيران. لا تضع يدك على أملاك قريب. فهذه ليست بالأمر الطيبة، لمن يرتكبها، حتى لا يشكون منك إلى أن ترتد الشكوى إلى مسامعك. إن الاعتراض هو ميل سيئ من جانب القلب، ومن يمارسه (٤٠) سيصبح عدواً، إذ أنه من المستهجن خلق القلاقل فى الجوار - (الحكمة الحادية والثلاثون).

ضد الشذوذ الجنسى

* لا تزوج حدثاً مخنثاً، لأنك تعلم أنك تعارض هذا "الماء الذى على قلبه"،^(٤١) ولن يستطيع أن يهدأ بسبب هذا الذى لا يزال فى جسده لا تسمح له أن يقضى الليل فى ممارسة ما هو محرم. ومن ثم سيهدئ روعه بعد أن يكون قد أراضى شهوته بشكل وهمى - (الحكمة الثامنة والثلاثون).

عن الحصافة

* إذا أردت اختبار طباع صديق، فلا تطرح أسئلة، ولكن تقرب منه، وابق وحدك فى صحبته، بطريقة لا تجعله يعانى من ذلك وتحدث معه بعد فترة من الزمن، واختبر قلبه فى معرض تبادل،^(٤٢) وإذا أقدم على فعله أثارت استياءك فالزم الصمت أو ابق على ودك، ولكن لا تول وجهك عنه. وكن حذراً،

إذا كشف لك عن مشكلة، ولا ترد عليه بعمل عنيف لا تفصل عنه، لا تصرفه،
وتجنب اتهامه. فلم يحن بعد زمنه، ولكن أحداً لا يعلت من قدره - (الحكمة
الثالثة والثلاثون).

عن الكرم

* كن كريماً وديعاً^(٤٣) طوال أيام حياتك. إن ما يخرج من الأهرام
لا يعود إليه، والناس نهمون بشأن نصيبهم في الخبز. من كان خاوي البطن
(سرعان) ما يوجه الاتهامات وتتحول المعارضة إلى كراهية لا تعمل على أن يكون
في بطانتك إنسان مماثل. ^(٤٤) إن الدمثة هي ما يتذكره الناس من المرء عمل مر
السنين بعد (أن يترك) منصبه الرسمي - (الحكمة الرابعة والثلاثون).

عن الطبيعة الطيبة

* اعرف الأقربين جيداً، ^(٤٥) بذلك تبقى ثروتك. لا تكن سيئ
الطبع مع أصدقائك فهذا شاطئ مغمور بالمياه، ^(٤٦) وأهم من الثروات. لأن ما
يملكه أحدهم قد يملكه (فيما بعد) آخر. ولكن طبع ابن رجل كريم الأصل
يجلب له الخير. إننا نتذكر الطبع الحميد - (الحكمة الخامسة والثلاثون).

عن ردع الشر

* عاقب عقاباً شديداً، وقوم تقويماً قاطعاً. وسيكون ردع الجريمة
مثالاً (على قوة) الطبع. ولكن طالما أن الأمر لا يتعلق بفعله سيئة، فدع الشكوى
تأتي من الخصم ^(٤٧) - (الحكمة السادسة والثلاثون).

عن المرح النسائي

* إذا تزوجت امرأة (؟) وكانت مريحة ويعرفها جميع أهل مدينتها، وإذا كانت كل لحظة لها جاذبيتها بالنسبة لها، لا تصدها، وأطعمها جيداً، لأن فرح القلب يسمح بتذوق... (؟) - (الحكمة السابعة الثلاثون).

خاتمة

عن الأب والابن

* إذا أنصت إلى أقوالى ، فسوف ترتفع مكانتك وتسمو. وستلوم حقيقة (هذه الأقوال) فهي ثروتها. ولن تفارق ذكرها أفواه البشر، لأن حكمها جميلة وطيبة. وسوف تتواتر كل هذه الأقوال، ولن تفنى أبداً فى هذه البلاد. وستصبح من أرقى التعبيرات عن (الفكر)، وعنهما سيتحدث العظماء. ذلك يعنى إذن تعليم الإنسان كيف يتحدث إلى الخلف، فمن سينصت إليها فى بداية الأمر سيصير فيما بعد شخصاً ينصت الناس إليه. ومن المستحسن التوجه بالكلام إلى الخلف، لأنهم سينصتون...

لو جاء مثال موفق ممن هو رئيس فسيظل مصدر خير إلى الأبد وستبقى حكمته بالكامل طوال الأبدية.

الإنسان صاحب المعرفة يغذى (بائه) عن طريق ما هو دائم، ومن ثم تسم جميع الأمور على الأرض على ما يرام من أجله، فهو مشهور بفضل

خبرته. (وبالمثل) ينبغي لأن يكون العظيم مشهوراً بأفعاله الصالحة. وسوف يوزن قلبه ولسانه فى نفس الوقت. ومن ثم يتعين أن تكون شفتاه سيدتين عندما يتحدث. وينبغي على عينيه أن تشاهدأ كما ينبغي على أذنيه كليهما، أن تنصتا إلى ما يمكن أن يفيد ابنه- الذى عليه أن يتقيد بالحقيقة والعدالة وأن يكون بعيداً عن الأكاذيب.

* الإنصات مفيد لابن مطيع. ينفذ واقع الإنصات إلى المستمع ومن ثم يصبح المستمع إنساناً مطيعاً. ^(٤٩) حسن أن ينصت المرء وحسن (بالمثل) أن يتحدث. يمتلك المستمع شيئاً مفيداً: من المفيد فى واقع الأمر للمستمع أن ينصت. الإنصات هو أجمل مافى الوجود. وبسبب ذلك يمكن أن تولد مودة هنية.

كما أنه يطيب للابن أن يتلقى أقوال أبيه، فسوف يصل (هو أيضاً) إلى الشيخوخة ومعه هذا الحمل.

من ينصت ويطيع فهو محبوب من الإله. والإنسان الذى يفضيه الإله هو إنسان غير مطيع.

القلب هو الذى يصنع من صاحبه إنساناً ينصت أو إنساناً لا ينصت، فالقلب هو الإنسان "الحياة-والصحة- والقوة".

والمستمع هو ذلك الذى ينصت إلى كل ما يقال، والذى يحب الاستماع يحقق فيما بعد كل ما يقال.

كم هو جميل أن ينصت الابن إلى أبيه، كم هو سعيد من يقال له ذلك: "الابن لطيف لأنه يتحلى بالطاعة" ومن يقال عنه ذلك، سيزدهر بدنياً (٥٠)

وستظل ذاكره على فم الأحياء، سواء أولئك الذين يقيمون الآن على الأرض أم أولئك الذين سيأتون فيما بعد.

* إذا تلقى ابن رجل عزيز المنبت أقوال بصدور رجب، فلن يتدهور عمل من أعماله. علم ابنك الطاعة، حتى يتفوق وسط العظماء. " فيقود فمه " حسب ما قيل له، وحتى ينظر إليه كرجل منضبط. هذا الابن متفوق ومسيرته ستكون مشرقة، في حين سيكون الفشل من نصيب من لا ينصت.

الإنسان صاحب المعرفة يستيقظ مبكراً لتدعيم (وضعه) (٥١) في حين أن الإنسان الفاقد ليس وسعه سوى " الامثال ".

* الأحق الذي لا ينصت، لن يستطيع أن يفعل شيئاً، لأن المعرفة واجهل في نظره متساويان، وما هو مفيد مماثل لما هو ضار. إنه يأتي كل ما يدينه الناس من أفعال، حتى أنه يتعرض للوم يومياً بسبب ذلك. إنه يعيش على ما يميت الناس (في المعتاد)، فغداؤه هو الكلام الآثم " وطبعه يعرفه العظماء الذين يقولون: " حياته (ه) تدمر كل يوم " ويمر الناس مر الكرام على أخطائه، بسبب كثرة المأس التي تنهال عليه يوماً.

* الابن المطيع هو خادم لـ " حورس " (٥٢) فكل شيء بالنسبة له يسير على ما يرام بعد أن يكون قد أنصت.

وعندما يبلغ (بدوره) سن الشيخوخة ويصبح " إيماخو " سوف يتحدث بالمثل خلفه إلى أولاده، مجدداً تعاليم أبيه. وكل شخص يعلم حسب ما تعلم، ويتحدث إلى مثلما سيتحدث هؤلاء، ذات يوم، فيما بعد إلى خلفهم.

اضرب المثل: لا تسمح بأن يسيء إليك أحد. دعم الحقيقة والعدالة، حتى يستطيع أبناؤك أن يحيوا.

ذلك الذى يسير وقد أعيته الملهمات سيقول الناس إذا رأوه: هذا يتفق وطبعه^(٥٣) ومن يسمعون سيقولون الشيء نفسه.

ضع كل الناس فى الاعتبار، وارض عدداً كبيراً من الرجال فالثروة لا يمكن الحصول عليها بدونهم، لا تنتقص من أى قول ولا تزد عليه، ولا تضع شيئاً مكان غيره. تجنب أن تحمل الخبال التى فىك،^(٥٤) تحاشى (كثرة) الكلام. تعلم التعرف على الأشياء، أنصت - إذا رغبت أن تدوم على فم الناس. تكلم بعد أن تكون قد تمكنت من فن (الكلام)^(٥٥) وتحدث عن الشؤون ذات الأهمية الكبرى فحسب. ومن ثم سيحتل كل قصد من مقاصدك مكانه السليم.

* تحكم فى قلبك، راقب فمك. ومن ثم سيكون مقامك وسط العظماء. كن دقيقاً كل الدقة لدى سيدك^(٥٦) اعمل بحيث يقال له: "إنه ابن هذا الرجل" ومن سيستمعون إليه سيقولون: "هنيئاً له من جاء من أجله إلى الدنيا!".

كن صبوراً مادمت تتحدث، وتفوه بأقوال نابهة، عندئذ سيقول العظماء الذين سيستمعون إليها: "كم هو جميل وطيب ما يخرج من فمه!".

* اعمل أيضاً بحيث يقول سيدك بشأنك: "كم هو كامل هذا الذى علمه أبوه، بعد أن خرج من صلبة. لقد قال له ما كان قد اكتسبه، بالكامل - ولكن ما فعله هو أعظم بكثير مما قيل له".

تنبه، الابن الصالح هبة من الإله. وعليه أن يعطى أكثر بكثير مما يطالبه به سيده عليه إقامة العدل. وهكذا يفعل قلبه حسب خطواته.

وهكذا تلقاني، نضر الجسد، في حين أن الملك راض عن كل هذه الأحداث. ليتها تطول سنوات حياتك المديدة! إن ما فعلته الأرض ليس بالأمر الهين: لقد بلغت من العمر ١١٠ سنة، منحني الملك إياها. إن الخطوة التي تمتعت بها تفوق خطوة الأجداد لأنني أقمت العدالة من أجل الملك من خلال منصب "إتماخو".

هوامش

(١) فى حوزتنا أربع نسخ من هذا النص: ثلاث مسطورة على ورق بردى واوحدة على لوحة صغيرة من الخشب.

وأكمل هذه النصوص المدون على بردية بريس PRISSE (وهى موجودة حاليا فى المكتبة الوطنية فى باريس Bibiotheque Nationale de Paris) وترجع نسختها إلى الدولة الوسطى. أما النسختان المسطورتان على البردى والموجدتان فى المتحف البريطانى British Museum (وأرقامها 10509-10371/10345) فإنها ترجع إلى الدولة الوسطى والدولة الحديثة. أما للوحة الصغيرة: كارنافورن رقم واحد Carnavan 1، فهى فى متحف القاهرة. وقد دونت أيضا خلال الدولة الحديثة، ولكنها تعرض بداية النص فقط.

كان "بتاح حوتب" وزير الملك "إسيسى" وهو الملك قبل الأخير من ملوك الأسرة الخامسة (حول ٢٤٠٠ ق.م)

أن النص الذى بين يدينا هو أقدم مبحث فى الأخلاق نعرفه.

النص المصرى:

E. Devaud, Les Maximes de Ptrhotep, Fribourg, 1916

(٢) فى عهد هذا الملك، كان منصب الوزير من الأهمية بمكان، نظرا لأن وظيفة "حاكم الجنوب" (التي أنشأها "إسيسى" لمراقبة حكام أقاليم الوجه القبلى، البعيدين عن بلاط منف) قد أسندت فى عهده إلى الوزير- وكان آنذاك- الشخصية المرموقة التى تلى الملك فى المقام،

(٣) "بتاح- حوتب" حرفيا: "ليت الإله بتاح يكون راضيا"

(٤) حرفيا: "بعد أن يكون قد امتد"

(٥) حرفيا: "لم يعد للقلب وجود"- إذ كان القلب مركز الحياة الإنفعالية والفكر فى المقام الأول.

(٦) أى "بتاح- حوتب" شخصا. وهو أسلوب، شرقى جداً، لإبراز العواضع الذى يتحلى به المرء فى علاقته مع رئيس.

(٧) أنها ترجمة حرفية للتعبير المصرى، ومن ثم فإن استخدام تعبير مماثل فى لغتنا الحديثة يضرب بجأوره فى غياهب الماضى.

(٨) القيد "السحرى" للكلمات: أن منفعة يقابلها أخرى، عملاً بقانون "التبادل الضمنى".

(٩) حرفياً: "لا توجد غربتك هذه".

(١٠) بمعنى: إما "حض براهينه" أو احتقره" بالأحرى. وبتالى يفصى موقفه الخاص إلى عقابه الخاص

(١١) مقطع قصير، غامض المعنى.

(١٢) حرفياً: "عنده شخصية".

(١٣) لا يستطيع أن يقومها أحد.

(١٤) لاشك أن المقصود بها هو السيد شخصياً.

(١٥) أيام العمر أو الحياة.

(١٦) المقصود هنا قاعة الانتظار الملحقة بقاعة الاجتماعات. أن احترام الرب توكول يؤدى إلى "اعتدال

مزاج" السيد حيال من يلتزم به. ومن ثم يكون المنصب الذى يسند إليه من الأهمية بمكان.

(١٧) أى غريزته وجشعه. ومن يتعين أن يقوده القلب = العقل.

(١٨) دون فكر أو رد فعل.

(١٩) حرفياً: "دون أن تبطل قلبك".

(٢٠) حرفياً: "على قراراتك أن تسير بخطى واسعة بناءً على أوامرك".

(٢١) راجع الشكوى السابعة من شكوى الفلاح الفصيح. إذ نجد تعبيراً مماثلاً فى نص قصة "الفلاح" التى

تعرض للسطو".

(٢٢) تعبير إيجابى جداً للدلالة على السكينة أو الفرح الذى يمكن أن تسببها لشخص ما

(٢٣) العميق الأحمر. وبسبب لونه الأحمر (وهو لون الصحراء الجرداء والعدائية) ارتبط بالفكر الفواحش

والجنون. فى حين أن الفيروز، الأخضر اللون، هو حجر جالب للحير، لأن لونه يشير إلى عالم السات

الدائم التجديد، رمز الحياة.

(٢٤) فى داره.

(٢٥) لا تسمح له خيانه بالاعتماد على الكلمة للدفاع عن نفسه.

(٢٦) حرفيا: ط ناضر- الجسد".

(٢٧) ونعها كزوجة وكأم.

(٢٨) يستعمل النص كلمة "كا" التي تدل هنا، على ما اعتقد، على شخص الإنسان ذاته.

(٢٩) وليس ضد من أمر بالسرقة. وبالمثل قد يظهر الإمتجهاض ضد من يعمل على نشر النميمة، وليس ضد من هو مصدر هذه الأكذوبة.

(٣٠) إنه إذن فعل لا عقلاني بحت، وخيالي في الغالب.

(٣١) يوصى "بتاح حوتب" بتوازن عادل، في موقف الإنسان في مواجهة الحياة.

(٣٢) من الراجح أن هذا المقطع وهو على قدر من الغموض، يعنى أن كل شخص سينال ما يستحقه.

(٣٣) حرفيا: "سيحل" "كا" "ه"

(٣٤) العظيم، وهو الشخص صاحب السلطة والنفوذ.

(٣٥) سوف يطعم صاحب الخطوة طعاما جيدا.

(٣٦) حرفيا: "إن ال" "كا" شخصية قوية.

(٣٧) حرفيا: "سينقلب فعلك إلى حكم"

(٣٨) سوف يكون رأى الناس فيك طيبا- وأحسن من الرأى الذى خصوا به آخرين مثل منصبك.

(٣٩) لن يمتد هباء، ولكنه سينال.

(٤٠) هناك ترجمة أخرى يقرحها "زابا" ZABA

(Les Maximes de Ptahhotep, Prague, 1956,p56)

"لا ينبغي أن تضاجع امرأة (ما زالت) صبية". ولكن من الواضح أن المقصود به هنا هو "اللواط".
لإشارة إلى الشخص المعنى، كما وردت بعد ذلك، تعتمد على ضمير المذكر فالتعبير المصرى "حست
خرد" لا يشير إذن إلى "امرأة" بالغة بل إلى صبي مراهق أو حدث مخنث.

" الماء الذى على قلبه" هو النطفة التى كان القلب مصدر تدفقها حسب الفكر المصرى.

(٤٢) إذا أفشى سرا- إذا لم يكتم السر.

- (٤٣) حرفيا: ط لتكون وجهك مضيئاً " – "متألقا"
- (٤٤) حرفيا: " لا تخلقه حتى يقترب منك".
- (٤٥) حرفيا: " " ين ينتمون إلى ظلك".
- (٤٦) حرفيا: "غارقا".
- (٤٧) يتعين معاقبة الجريمة. ولكن في حالة الجرائم الأقل خطورة يفي إعطاء الفرصة للإجراءات القانونية العادية أن تأخذ مجراها.
- (٤٨) تعذر تحديد المعنى الدقيق للعديد من الكلمات الواردة في هذا المقطع.
- (٤٩) تقدم هذه الجمل تلاعباً (برسم العلامات وأفكار) بالكلمة "محم" التي تعنى في اللغة المصرية: " ينصت" و"يطيع". أنه أسلوب كان المصريون مولعين به جداً، كما أنها تقدم في نفس الوقت عرضاً أخلاقياً حول فضائل الانضباط والطاعة.
- (٥٠) حرفيا: ط مضوقاً في جسده".
- (٥١) أى "إثراء ممتلكاته، وتعاضمها".
- (٥٢) استعارة دينية.
- (٥٣) حرفيا: " ذلك ينفق مت تلك".
- (٥٤) "الحبال" التي تحافظ على السلوك القويم للفرد، تشبه حبال السفينة، التي تحافظ على الشراع، فتضمن مسارا سليما للقارب.
- (٥٥) حرفيا: " بعد أن تكون قد أدركت صنعه الخرفى"
- (٥٦) لا شك، أن الملك هو المقصود بذلك.

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية:

- ١- ابن صاعد : طبقات الأمم، نشر لويس شيخو - بيروت ١٩١٢م
- ٢- ابن النديم : الفهرست، تحقيق فلوجل، مطبعة الخياط، بيروت ١٩٦٤م
- ٣- أحمد عثمان : أثينا السرداء- وأصل الحضارة اليونانية، الحياة، لندن، العدد ١٢١٦، ٧ يونيو ١٩٩٦م / ٢١ محرم ١٤١٧هـ.
- ٤- الدكتور أحمد فخري : مصر الفرعونية (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق.م، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، أكتوبر ١٩٦٠م.
- ٥- أفلاطون : الجمهورية، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، دار الكاتب العربى، ١٩٨٦م.
- ٦- أفلاطون : فايدروس، ترجمة الدكتور أميرة حلمي مطر، دار المعارف، ١٩٦٨م.
- ٧- الألوسى (الدكتور حسام محيى الدين) : بواكير العلم الإغريقى، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثانى، العدد الثانى، ١٩٧١م.
- ٨- الألوسى (الدكتور حسام محيى الدين) : بواكير الفلسفة قبل طاليس، أو من الميثولوجيا إلى الفلسفة عند اليونان، بغداد، العراق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.
- ٩- آمنه صبرى مراد (الدكتور) : لمحات من تاريخ الطب القديم، القاهرة، ١٩٦٦م.

- ١٠- الأهواني (الدكتور أحمد فؤاد): فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط،
القاهرة، ١٩٤٥ م.
- ١١- أورسيل (بول ماسون) : الفلسفة في الشرق، ترجمة محمد يوسف
موسى، القاهرة، ١٩٤٥ م.
- ١٢- باقر (طه) : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٥٦ م (جزءان كبيران).
- ١٣- باقر (طه) : ملحمة جلجامش، ط ٢، بغداد، ١٩٧٢ م.
- ١٤- بدوى (الدكتور عبد الرحمن) : ربيع الفكر اليوناني، القاهرة، ١٩٥٨ م.
- ١٥- بدوى (الدكتور عبد الرحمن) : أفلوطين عند العرب، ط ٢، دار النهضة
العربية، ١٩٦٦ م.
- ١٦- برستيد (جيمس هنرى): تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة
زكى موسى، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦١ م.
- ١٧- جورج: تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة زكى موسى، مراجعة
الدكتور يحيى الخشاب، ودكتور صفير خفاجة، دار الكرنك، ١٩٦٥ م.
- ١٨- بول غليونجى: ابن النفيس، الكويت، بدون تاريخ.
- ١٩- بول غليونجى: الحضارة الطبية في مصر القديمة، دار المعارف، ١٩٦٥ م.
- ٢٠- البيرونى: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل، أو مرذولة، حيد
لآباد، ١٩٥٨ م.
- ٢١- تاجور (رابندانات) : سادهاانا أو تحقيق الحياة، ترجمة محمد ظاهر
الجبلاوى، الأناجولو المصرية، بدون تاريخ.
- ٢٢- توفيق الطويل (الدكتور) : أسس الفلسفة، ضبعة حامية، ١٩٦٧ م
القاهرة.

- ٢٣- **هبطين** : (فلاسفة الشرق)، ترجمة عبد الحميد سليم، مراجعة على أدهم، دار المعارف، ١٩٧٧م.
- ٢٤- **الجابري (على حسين)** : الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان بغداد، العراق، ١٩٨٥م.
- ٢٥- **جارودي (روجيه)** : النظرية المادية في المعرفة، تعريب إبراهيم قريط، دار دمشق، بدون تاريخ.
- ٢٦- **محاطوم نور الدين (وآخرون)** : موجز تاريخ الحضارة. مصبعة الكمال، القاهرة، ١٩٩٦م.
- ٢٧- **حسن حنفي (الدكتور)** : أثينا السوداء- أثينا المصرية، مجلة القاهرة، العددان ١٥٦، ١٥٧، ١٩٩٥م.
- ٢٨- **حسن كمال (الدكتور)** : الطب المصري القديم، الطبعة الثانية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٤م.
- ٢٩- **الحسيني (السيد أبو النصر أحمد)** : الفلسفة الهندية، الطبعة الأولى، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٣٠- **زكريا إبراهيم (الدكتور)** : مشكلة الفلسفة، طبعة منقحة، القاهرة، ١٩٧١م.
- ٣١- **سارتون** : تاريخ العلم، العلم القديم في العصر الذهبي لليونان، ترجمة إلى العربية لفيف من المعنيين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.
- ٣٢- **سارتون** : العلم القديم والمدنية الحديثة، ترجمة عبد الحميد صيره، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ٣٣- **شبل (الدكتور فؤاد محمد)** : البوذية، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧م.

- ٣٤- شمار (جورج بويه) : المسؤولية الجزائية في الآداب الآشورية والبابلية، ترجمة سليم الصويص، بغداد، ١٩٨١م.
- ٣٥- الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، القاهرة، ١٩٦٨م.
- ٣٦- صبحي رشيد (الدكتور) : تاريخ الآلات الموسيقية، بيروت، ١٩٧٠م.
- ٣٧- عامر سليمان (الدكتور) : القانون في العراق القديم، ج١، الموصل، ١٩٧٧م.
- ٣٨- عبد اللطيف البدرى (الدكتور): الطب الآشورى، بغداد، ١٩٧٦م.
- ٣٩- على عبد الواحد وافي (الدكتور): الأدب اليوناني القديم، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ٤٠- على فهمي خشيم: آلهة مصر العربية، المجلد الأول، الطبعة الأولى، الدار الجماهيرية النشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ليبيا، ١٩٩٠م.
- ٤١- فوزى رشيد (الدكتور) : قواعد اللغة السومرية، بغداد، ١٩٧٣م.
- ٤٢- كريم متى: الفلسفة اليونانية قبل سقراط، بغداد، ١٩٦٧م.
- ٤٣- كلير لالويت: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، الترجمة العربية، ماهر جويجاتي، مراجعة الدكتور طاهر عبد الحكيم، دار الفكر، القاهرة- باريس، المجلدان الأول والثاني، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٦م.
- ٤٤- كولر (جون) : الفكر الشرقي القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٥، العدد ١٩٩.

- ٤٥- ليفى مارتن: الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية فى وادى الرافدين، ترجمة وتعليق د/ فياض المياحي وآخرون، بغداد، ١٨٩٠م.
- ٤٦- محمد جمال الدين مختار (الدكتور) : أحمد كمال- العالم الأثرى الأول فى مصر، المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٢، ١٩٦٤م-١٩٦٥م.
- ٤٧- محمد كاظم العطار (الدكتور) : حمورابى ذلك العظيم، بغداد، ١٩٨٣م.
- ٤٨- مسكويه (أبو على أحمد بن محمد) : الحكمة الخالدة، جاويدان خرد، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوى، النهضة المصرية، ١٩٥٢م.
- ٤٩- مطر (الدكتورة أميرة حلمي) : الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ٥٠- المقدسى: البدء والتاريخ، تحقيق كليمنت هوارد، باريس، ١٩٨٩م. (فى عدة أجزاء).
- ٥١- نجيب ميخائيل إبراهيم (الدكتور) : مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر الإسكندرية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٠م.
- ٥٢- هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ٥٣- هيجل: محاضرات فى فلسفة التاريخ، ترجمة الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٧٤م.
- ٥٤- ويد جبرى (ألبا ن.ج) : المذاهب الكبرى فى التاريخ، من كونفوشيوس إلى توينتى، ترجمة ذوقان قرقوط، الطبعة الثانية، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.
- ٥٥- ياسين خليل (الدكتور): منطق البحث العلمى، بيروت، ١٩٧٤م.

- ٥٦ - ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة، ترجمة الدكتور أحمد قدرى،
مراجعة الدكتور محمود ماهر طه، مطبعة هيئة الآثار المصرية، ١٩٨٧م.
- ٥٧ - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، طبعة ثالثة، ١٩٥٣م.

ثانياً المراجع الأجنبية:

- 1- Alexander (A..B.D.) : " A Short History of Philosophy, 3rd Ed. Glasgow, 1934.
- 2- Aurodirdo, Bases of Yoga, Calcuta, Arya Publishing House, 1936.
3. Bernal (Martin): Black Athenam, the Afroasiatic roots of classical civilization; Rutgers University Press., New Brunswick, New Jerset, U.S.A. Vol. 1, 1785-1985, 1987, Vol.2. 1991, Vol. 3. In print.
4. Burnet: "Early Greek Philosophy, London, 1963.
5. Carus (P.) "Chineese Thought, Chicago; Open Court, 1907.
6. Chartles Leveque, Platon Foundateurde l'Esthetique, 1857.
7. Conteneau, (G.), Manuel d'archeologie orientale, Paris, Picard, 1930.
8. Copleston, (F.) : A History of Philosophy, 1950, Vol. 2.
9. Cornford, F. M. : " From Religion to Philoshophy" Honsper, Tockbook, 1957.
10. Crowther, (G.G.) " The Social Relation of Sciences, London , 1967.
11. Deaseu (p.) SechzigUpanishads des Veda, Zene edi., Paris, 1912.
12. Delitzsch (F.), Assurbanipal und die Assyrische Kultur Seiner Zeit, Leipzig, 1909.

13. Dhorme, Edouard, *Les Religions de Babylonie et d'Assyrie*. Paris, 1945.
14. Drikwat (J.): "The outline of Literature. London, Vol. 1.
15. Duyreendak (J.L.L.) *Etudes de Philosophie Chinoise*, Revphilos. 1930.
16. Erman (Ed.), *Religion Egyptienne*, Trad. Fraus., Paris, 1907.
17. Farrington: *Science in Intiquity*, 1936.
18. Festugiere, A.J. *Platon et L'Orient*, Reuve de Philogie, 1947.
19. Frankfort (H.), *Before Philoshopy*, London, 1959.
- Genouillac (H.de), *Tablettes Sumeriennes Archaiques*, 20. Paris, 1908.
21. George (G.M. James): " *Stolen Legacy*; San Francisco, 1976.
22. Giles (H.A.), *Confuciacnism and its Rivals*, London, 1915.
23. Gilson: *History of Cristian Philosophy in the Middle Ages*. Newyork, 1955.
24. Grousset (R.), *Historie de L'Extreme - Orient*, Paris, 1929 (2 Vol.).
25. Grousset (R.), *Les Philosophies Indiennes*, Paris, 1931.
26. Hegel (G.W.F.): *The Philosophy of History*, tran. by J. Sibree.
27. Hobhouse: "Mind in Evolution", London 1951.
28. Hurry (J.B.), *Imohotep, The Vizier and Physician of King Zoser*, Oxford, 1926.
29. Jaeger (W.): *Aristotle Seconded*. Oxford, 1988.
30. Jeager (W.): "Paiedeia, The Ideals of Greek Culture, Oxford, 1939, Vol. 1.
31. Jeager (W.): *The Theology of the Early Greek Philosophers*, Oxford, 1988.
32. La Vallee-Poussin (L.de), *Buddhisme*, Paris, 1909.
33. La Vallee-Poussin (L.de), *The Way to Nirvana*, Cambridge, 1917.
34. Lioyd (G.E.R.): *Early Greek Science*. London. 1970.

35. Meillet (A.), Introduction a L'Etude Comparative des Langue Indo-Europeenes., Paris.
36. Moret (A.), Du Caractere Religieux de la Royaute Pharonique, 1903.
37. Moret (A.), Le Nil et La Civilisation Egyptienne, Paris, 1926.
38. Oldenberg (H.), Die Lehre Der Upanishaden Und Die Anfange des Buddhismus, Berlin, 1915.
39. Olenberg (H.), Die Religion Des Veda, Berlin, 1894.
40. Richmond, W.R., "Socrates and the Western World, London, 1954.
41. Russel (B.): History of Western Philosophy, 1961.
42. Scheil (V.), Trad. du Code de Hammurabi (Mem. Pub. par La Deleg. Fr. enperse, t.IV), Paris, 1902.
43. Sinclair (T.A.), A History of Greek Political Thought, London, 1959.
44. Smith, Prof. G. Elliot, The History of Mummification in Egypt, proceedings of the Royal Philosophical Society of Glasgow, 1910.
45. Strauss (O.), Indische Philosophie; Munchen, 1925.
46. Taylor, A.E.: Plato, The Man and his work, 1952.
47. White, A.A., " Ikhnaton; the Great Man and the Culture Process, in Jaos, LXVIII (1948).
48. Wieger (L.) Les Peres D' Systeme Taoiste, 1913.
49. Winspear, A.D.: The Genesis of Plato's Thought, 1940.
50. Xenophone: Memorabilia.
51. Zeller (Eduard): Outline of the History of Greek Philosophy, London, 1963.

الفهرس

ص	الإهداء
٣	مقدمة
٥	الفصل الأول
١٣	الأصالة الشرقية بين الإنكار والتأييد.
١٥	أولاً: تمهيد
٢١	ثانياً: منكرُوا "الأصالة"
٣٢	ثالثاً: "مؤيدُوا" الأصالة
٥٨	رابعاً: تعقيب
	الفصل الثاني
	العقيدة المصرية القديمة - القوة والقدسية وعظيمة
٦٧	المصادر
٦٩	أولاً: تمهيد
	ثانياً: "صفات الآلهة" ونشأة العالم عند المصري
٧٥	القديم
	ثالثاً: قدر الإنسان ومصيره "بين البشر والآلهة"
٧٩	بين البشر والآلهة "عند المصري القديم.
٨٧	الفصل الثالث
	"إنخسأتون" أول "ثورى" فى العالم يسعى لصياغة
	"توحيد" عالمى

٨٩ (أ) تمهيد

٩٠ (ب) "إخناتون" ثائراً على التقاليد اللاهوتية

٩١ (ج) "نزعة التوحيد" عند إخناتون

٩٦ (د) تعقيب

١٠٣ "الحس الخلقى" وقيام "أقدم تحديد اجتماعي" في
مصر القديمة

١٠٥ (أ) تمهيد

(ب) ديالوج كاره البشر مع روحه، وهل

تكفي "فلسفة لساكل ونشرب ونفرح، لأننا،

١٢١ غداً، نموت؟"

١٢٦ (ج) "الوعي الأخلاقي" عند المصري القديم من

"الفرد" إلى "المجتمع"

١٣٥ (د) "حكمة بتاح حوتب" ونزعة التفاؤل عند

المصري القديم.

١٣٨ (هـ) "تعقيب"

١٤١ الفصل الخامس الحس السياسي عند المصري القديم

١٤٣ أولاً: "تمهيد"

ثانياً: تعاليم تحتمس الثالث لوزيره (رخ-مسي-

رع)، والصلة التي يجب أن تكون بين الحاكم

١٤٤ والمحكوم.

ثالثاً: تعاليم الملك خيخي الثالث (أو أختوي) لابنه

(مري - كا - رع)، وسعادة الإنسان في آخرته

١٤٩ تتوقف على عمله في الدنيا.

رابعاً: بردية "القروي الفصيح" وضرورة أن ١٥٣
يكون الحاكم "سياجاً" يحمي الضعيف من
عسف القوي.

الفصل السادس

١٦١ "الأفكار الفلسفية في حضارة مصر القديمة

- ١٦٣ (أ) تمهيد
١٦٤ (ب) العلوم [الهندسة-الحساب-الفلك-الطب]
١٦٨ (ج) الفن
١٦٩ (د) الدين والفلسفة
١٧٩ (هـ) تعقيب

الفصل السابع

حضارة وادي الرافدين وبدايات الفلسفة الكونية
والخلقية

- ١٨٣ أولاً: تمهيد
١٨٥ ثانياً: "الفلسفة الكونية" وحيوية المادة
١٩٠ ثالثاً: الفلسفة الخلقية "بين" ملحمة جلجامش
و"تشريعات حمورابي"

الفصل الثامن

٢٠٩ الفلسفة الهندية

- ٢١١ (أ) تمهيد
٢١٢ (ب) السمات السائدة في الفلسفة الهندية
٢١٧ (ج) الفيدا والأوبانيشاد وبدايات الفلسفة الهندية
وأعماقها

الفصل التاسع

٢٢٩ البوذية منهج لتجاوز المعاناة وتحقيق الاستنارة.

٢٣١	(أ) تمهيد	
٢٣٣	(ب) البوذية والمعاناة	
٢٣٨	(ج) تعقيب	
٢٤١	[بدايات الفلسفة الصينية بين كونفوشيوس ولاوتسو]	الفصل العاشر
٢٤٣	(أ) تمهيد	
	(ب) كونج - فو - تزي (كونفوشيوس) مؤسس	
٢٤٤	الكونفوشية	
٢٤٦	(ج) لاو - تزي (لاوتو) مؤسس الطاوية	
٢٤٨	(د) الكونفوشية فلسفة إنسانية اجتماعية	
	(هـ) الطاوية والتأكيد على الأسس الميتافيزيقية	
٢٥٣	للطبيعة	
٢٥٧		الملاحق
٣٩٣		المراجع
٤٠١		الفهرس

هذا الكتاب

إن البحث الموضوعي الهادئ ، يؤدي إلى الإعتراف بوجود «قفزة» أو «تبدل كيفي» في مسار الحضارة البشرية حصل مع مجيئ الحضارة اليونانية ، إلا أنه تبدل حدث من تجمع كمي هو حصيلة ما كسبته البشرية من تقدم قبل اليونان ، قدمته حضارات الشرق القديمه.

وهذا الكتاب - الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي - إثبات تفضيل لحالة «التفكير النظري، في أهم الحضارات المحيطة بالأفق الإغريقي وهي حضارات الشرق القديمة، وهو محاولة نؤكد بها علي أن مدارس الفكر الأوروبي العنصرية التي زعمت تفوق الجنس الأري الأبيض، لا تستند إلي حقيقة من التاريخ ، وإنما تقيم دعواها علي فلسفة عنصرية عدائية دعائية.

فالعقل الشرقي لا يقل عمقا وأصاله عن العقل الغربي ، وجميع ما يحوبه التفكير الإغريقي ، يبدو أمامنا علي حقيقتة إذا عرض تحت ضوء العلاقات بين الشرق والغرب، وبالتالي فالذين ينكرون إمكان قيام فكر نظري في الشرق وتأثر اليونانين به ، يعوزهم التقدير الكافي للحضارات الشرقية القديمة . وتعوزهم الخبرة بأحوال الإنس وجهي هذا القصور كان يمكن الإغضاء عنه منذ قرن مضى أما اليوم فلا عذر لأد

